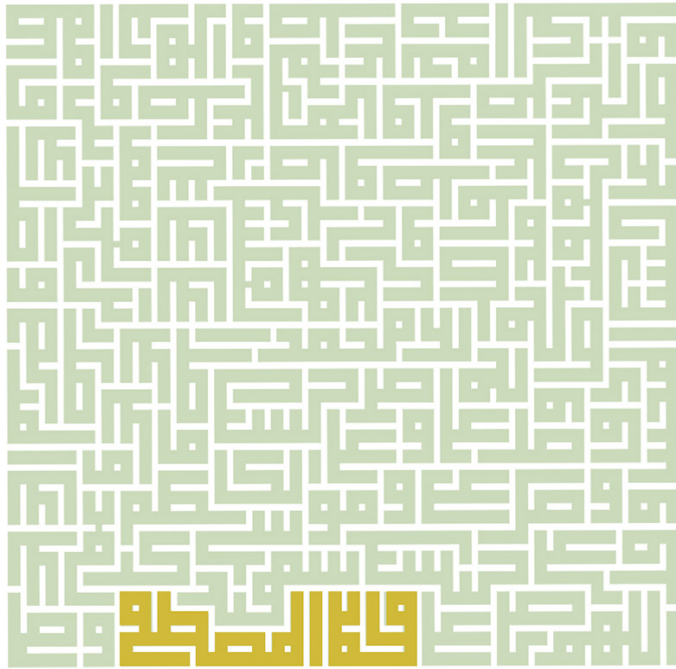




محمد رسول الله ﷺ

دراسة في سيرته ومعارفه



محمد رضا الخاقاني



محمد رسول الله ﷺ

دراسة في سيرته ومعارفه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

محمّد رسول الله ﷺ

دراسة في سيرته ومعارفه

محمّد رضا الخاقاني



الخاقاني، محمد رضا، 1989- مؤلف.

محمد رسول الله صلى الله عليه واله : دراسة في سيرته ومعارفه / محمد رضا الخاقاني.- الطبعة الأولى.- النجف، العراق : العتبة العباسية المقدسة، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، 1448 هـ. = 2026.

461 صفحة : صور فوتوغرافية : 24 سم

يتضمن ارجاعات بليوجرافية : صفحة 419-449.

ISBN : 9789922262338

1. محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، نبي الاسلام، 53 قبل الهجرة-11 هجري. 2. السيرة النبوية

(شعبة) 3. الصحابة والتابعون (شعبة) أ. العنوان.

LCC: BP75.2 .K47 2026

مركز الفهرسة ونظم المعلومات التابع لمكتبة ودار مخطوطات العتبة العباسية المقدسة
الفهرسة أثناء النشر



رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٣٣٩٢) لسنة ٢٠٢٦م

محمد رسول الله ﷺ؛ دراسة في سيرته ومعارفه

تأليف: محمد رضا الخاقاني

الناشر: العتبة العباسية المقدسة، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية

الطبعة: الأولى، ٢٠٢٦م-١٤٤٨هـ

www.iicss.iq

Islamic.css@gmail.com

* تصميم الغلاف مستوحى من نقش كتابي يعود للعصر الإيلخاني في «بقعة بير بكران»، يتضمن ذكر أسماء الصلوات على المعصومين الأربعة عشر ﷺ.

(المصدر: shiaarts.ir)

الفهرس

القسم الأول: سيرة رسول الله ﷺ	١٩
القسم الثاني: المقالات	٢٢٣
١. مصادر السيرة النبوية	٢٢٥
٢. روايات في أوصاف النبي ﷺ وأحواله وسُنَّته	٢٥٧
العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ره)	
٣. أدوار علم الكلام عند الإمامية: الدور النبوي (١٣ ق هـ - ١١ هـ)	٢٧٥
السيد هاشم الميلاني	
٤. صحابة رسول الله ﷺ وعدالتهم	٣٢٥
٥. إطلالة على تاريخ المسجد النبوي الشريف	٣٦٣
القسم الثالث: مختارات من الأحاديث النبوية	٣٨٩
الفهرس التفصيلي	٤٥١

كلمة المركز

عَنِ الرَّضَا عليه السلام، قَالَ: «رَجِمَ اللَّهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمَرَنَا»،
قُلْتُ: كَيْفَ يُحْيِي أَمْرَكُمْ،
قَالَ: «يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا».
(الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ١: ٣٠٧)

يُعَدُّ هذا الكتاب الحلقة الأولى من سلسلة الأعمال التي يجري إعدادها وتحريرها في قسم الدراسات الشيعية، هادفةً إلى تعريف الجيل الشاب والنخبة المثقفة بتاريخ ومعارف المعصومين عليهم السلام بشكل أعمق. ونظرًا للمكانة السامية للمعصومين عليهم السلام، وما تفرضه المتطلبات والحاجات البحثية المتزايدة، فقد استدعى الأمر اهتمامًا مستمرًا بتدوين مؤلفات حول المعصومين عليهم السلام على مختلف المستويات^١. وعلى هذا الأساس، سعينا في إعداد هذه المجموعة -قدر المستطاع- لتقديم سرد موجز وماتع، يتناغم مع

١. أعدت النسخة الإنجليزية لهذه المجموعة ونُشرت من قِبَل المركز نفسه وفق البيانات التالية:

Al-Khaghani, Mohammadreza, ed. *Muhammad: Rereading Historical Sources*. Najaf: ICSS Press, 2022.

ذهنية ولغة المخاطب المعاصر، مستندين في ذلك إلى مصادر معتبرة ومنهجية علمية رصينة.

جدير بنا أن نتوجّه بجزيل الشكر والامتنان لكافة الزملاء على جهودهم القيّمة في هذا المشروع، ونخصّ بالذكر الأستاذ محمد رضا الخاقاني الذي كان له النصيب الأوفر في إعداد وتأليف هذا الأثر. كما نعرب عن تقديرنا لسماحة حجة الإسلام والمسلمين السيّد علي الطباطبائي اليزدي، والأستاذ محمد باقر ملكيان، والأستاذ محمد رضا فرهمند، الذين ساهموا بشكل ملحوظ في صياغة الخطّة، والبرمجة، والمراحل الأولى للكتابة. والشكر موصول لسماحة الشيخ الدكتور حامد فياضي، مدير مجموعة الدراسات الشيعية، الذي تولّى الإشراف العلمي، وللجناب الأستاذ السيّد محمد رضا الطباطبائي مسؤول وحدة النشر، وكذلك نتقدّم بخالص الشكر لرئيس المركز المحترم، سماحة حجة الإسلام والمسلمين السيّد هاشم الميلاني، الذي لولا دعمه المؤثّر لما وصل هذا البحث إلى خواتيمه.

نأمل، بتوفيق من الله تعالى وعناية إمام العصر ﷺ، أن نتمكّن من مواصلة هذا السبيل للخدمة في عتبة معارف أهل البيت ﷺ بخطوات أكثر ثباتاً.

السيّد محسن الموسوي

المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية - مكتب قم

المقدمة

إطلالة على تاريخ تدوين السيرة النبوية

انطلق المسار التاريخي للدين الإسلامي ببعثة محمد بن عبد الله ﷺ في السابع والعشرين من رجب عام ٦١٠م، ليتحوّل بعدها إلى حراكٍ ذي تأثير عميق في التاريخ اللاحق. وقد بدأ الإسلام انتشاره انطلاقاً من مدينتي مكة والمدينة، ليمتد نفوذه ويشمل الشطر الأعظم من أهمّ حواضر وأقاليم ذلك العصر. وتتجلى مركزية رسول الله ﷺ في كافة مظاهر الدين الإسلامي؛ فالقرآن، كتاب الإسلام المقدس، أُوحي إليه من عند الله، وكُلّف هو بتبليغه وتعليمه وتبينه. كما غدت سلوكياته وسيرته، وأوامره ونواهيه، والأحكام الفردية والاجتماعية التي بلّغها لأتباعه، الأساس المتين للمنهج الأخلاقي والعمل للمسلمين على مرّ التاريخ.

ولقد انعكست هذه المركزية للرسول الأكرم ﷺ في التدوين التاريخي الإسلامي أيضاً؛ فالمجتمع العربي في الجاهلية، الذي انحصر تدوينه للتاريخ في رواية مآثر انتصاراته وأيامه السعيدة، بات يمتلك قائداً يشكّل مبعث فخر واعتزاز له. ومن هذا المنطلق، تحوّلت حياة رسول الله ﷺ إلى مادة للرصد والتوثيق، وعُرفت اصطلاحاً بـ«السيرة النبوية». ويرجّح أن تكون البواكير الأولى للمصنّفات التي تناولت حياة

النبي الأكرم ﷺ عائدة إلى منتصف القرن الأول الهجري^١. وتلا ذلك قيام محمد بن إسحاق (ت. ١٥١هـ) بتأليف كتاب *السيرة والمغازي* حول تاريخ حياة رسول الله ﷺ، والذي يُعدّ أقدم سيرة متاحة بين أيدينا اليوم^٢.

لقد دُوّنت سيرة رسول الله ﷺ بأساليب وبواعث شتّى على مدار خمسة عشر قرناً منذ انطلاق الدعوة الإسلامية^٣. وبالنظر إلى الدور المحوري للنبي ﷺ في الإسلام، فإنّ الاهتمام بتاريخ حياته يبدو أمراً طبيعياً وبديهياً. بيد أن ما يطالعنا في المصنّفات التاريخية للسيرة النبوية هو تقديم صورة «سياسية» لحياة رسول الله ﷺ، وهو جانب لا يعرض سوى جزء يسير من الرسالة النبوية.

لقد اختزلت هذه النظرة رسول الله ﷺ في هيئة قائد سياسي، مغفلة الجوانب الإلهية، والأخلاقية، والمعرفية لشخصيته الكريمة. وفضلاً عن ذلك، يُلاحظ أنّ التوجّهات السياسية والكلامية كان لها أثر بالغ في الحذف، والإضافة، والتلخيص، والبسط في رواية السيرة النبوية، ممّا ترك بصماته على صورة التاريخ المحكي لحياة النبي ﷺ. ونظراً لأنّ هذه الآثار كُتبت في الغالب بأقلام أهل السنّة، فإنّ التأثير بنزعاتهم في مسألة

١. بالاطّلاع على الأثر القيم لفؤاد سزكين (Fuat Sezgin)، يتبيّن أنّ ثلّة من الأعلام، أمثال سعيد بن سعد بن عبادة (ت. ٩) وسهل بن أبي حثمة (خيثمة، خثمة) (ت. في عهد معاوية ٤١-٦٠هـ)، كانوا من أوائل من جمعوا موادّ حول تاريخ حياة النبي ﷺ. انظر:

Sezgin, *Geschichte Des Arabischen Schrifttums*, 1: 275-76.

٢. انظر: الذهبي، *تاريخ الإسلام*، ٩: ١٣. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ هذا النص لم يعدّ كتاب ابن إسحاق الكتاب الأول مطلقاً، بل قدّمه بوصفه أثراً مستقلاً ومبوّباً. إذ يشير التقرير ذاته إلى أنّ المواد العلمية سابقاً - سواء الفقهية أو الحديثية أو التاريخية - كانت على هيئة صحف غير مدوّنة وتفتقر إلى الترتيب (غير مرتبة).

٣. للمزيد من المعلومات حول مصادر السيرة النبوية، انظر مقالة «مصادر السيرة النبوية» في القسم الثاني من هذا الكتاب.

الخلافة وما يتّصل بها يبدو جلياً في المصنّفات التاريخية. وقد أشار المسعودي (ت. ٣٤٦هـ) إلى هذا النمط من العصبية المذهبية التي أفضت إلى كتمان الحقائق التاريخية وتحريفها^١.

ومن شواهد الكتمان أو الإعراض عن الحقائق التاريخية من هذا القبيل، يمكن الإشارة إلى بضعة نماذج؛ فقد قدّم أبان بن عثمان بن عفان (ت. ١٠٥هـ) سيرةً كان قد جمعها إلى سليمان بن عبد الملك (ت. ٩٩هـ) إبان ولاية عهده. فأمر سليمان -بعد استشارة أبيه عبد الملك (حكم ٦٥-٨٦هـ) - بإحراق نسخ الكتاب، بذريعة إسهابه في ذكر فضائل الأنصار^٢.

وفي العصور اللاحقة، استمر تيار الطمس على أجزاء من السيرة النبوية على مستويات مختلفة. إذ صرح ابن هشام (ت. ٢١٤هـ) في مقدّمة كتابه بأنّه حذف من التاريخ ما «يُشنع الحديث به» أو «يسوء بعض الناس ذكره»^٣. وفي مواضع أخرى، تولّى النساخ هذه المهمة بأنفسهم؛ فقد ذكر مارسدن جونز، محقق كتاب المغازي للواقدي (ت. ٢٠٧هـ)، في مقدّمة الكتاب أنّ أسماء الفارّين يوم معركة أُحُد قد طُمست في بعض المخطوطات واستُبدلت بلفظة «فلان»، في حين وردت أسماءهم نقلاً عن الكتاب ذاته في مصادر أخرى مثل أنساب الأشراف وشرح نهج البلاغة^٤. ويستنتج المحقق من ذلك أنّ تلك الأسماء كانت مثبتة في النسخة الأصلية، غير أنّ

١. انظر: المسعودي، التنبيه والإشراف، ١٩٨.

٢. الزبير بن بكار، الأخبار الموقّعات، ٣٣١-٣٣٣.

٣. ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٤.

4. Marsden Jones

٥. البلاذري، أنساب الأشراف، ١: ٣٢٦؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٥: ٢٤.

النساخ حذفوها واستعاضوا عنها بلفظة «فلان»^١. ويمكن العثور على نموذج آخر عند الطبري (ت. ٣١٠هـ)؛ حيث أغفل في كتابه تاريخ الأمم والملوك ذكر واقعة الغدير، رغم ورودها في العديد من المصادر الحديثية والتاريخية المعتبرة^٢.

وقد انسحب هذا المنهج ذاته على الأعمال المعاصرة في مجال «السيرة النبوية» التي أُلِّفت وفقاً للفكر السائد لدى أهل السنة. فعلى سبيل المثال، يخلو أحد أهم الآثار العربية المعاصرة حول السيرة، وهو كتاب حياة محمد لمحمد حسين هيكل (ت. ١٩٥٦م)، من أي إشارة لواقعة الغدير^٣.

وفي المقابل، دأب علماء الشيعة على وضع مؤلفات منزّهة عن التوجّهات السياسيّة والكلامية آنفة الذكر التي هيمنت على تدوين السيرة. ومن النماذج المتقدّمة في هذا الصدد، يمكن الإشارة إلى كتاب إعلام الوري بأعلام الهدى للفضل بن الحسن الطبرسي (ت. ٥٤٨هـ)، وكتاب كشف الغمة في معرفة الأئمة لعلي بن عيسى الإريلي (ت. ٦٩٢هـ)^٤.

أمّا في العصر الحديث، فقد صدرت مؤلفات عديدة بأقلام علماء وباحثين شيعة باللغتين العربية والفارسية، سعت إلى تقديم صورة لتاريخ النبي ﷺ تتضمّن تلك الجوانب التي طالها الإهمال أو الحذف الكلّي جراء النزعات المذهبية والسياسيّة. ورغم

١. الواقدي، كتاب المغازي، المقدمة: ١٨.

٢. ذكرت حادثة الغدير في المصادر التاريخية السابقة للطبري (البلاذري، أنساب الأشراف، ١٠٨-١١٢؛ يعقوبي، تاريخ يعقوبي، ١١٢: ٢). كما قام العلامة الأميني (ت. ١٩٧٠م) بجمع رواة حديث الغدير من الصحابة والتابعين وعلماء أهل السنة في مختلف العصور، علاوة على دراسته للمؤلفات التي صُنِّفت في موضوع الغدير (الأميني، الغدير، ٤١: ١-٣٢٥).

٣. انظر: هيكل، حياة محمد، ٤٨٣-٤٩٣.

٤. للاطلاع على التعريف بهذين الكتابين، راجع مقالة «مصادر السيرة النبوية» في القسم الثاني من هذا الكتاب.

نجاح هذه الآثار في تقديم تلك الصورة، إلا أنها تعاني من أوجه قصور من عدّة جوانب؛ فبعض هذه الأعمال يعترّيها الضعف في المنهجية البحثية، كغياب الإحالات المناسبة إلى المصادر الأولية، أو أنها -بسبب الإطناب والإفراط في سرد الروايات التاريخية- لا تعدّ مناسبةً لتحصيل إلمام عام وشامل بحياة النبي ﷺ.

وفي مؤلّفات أخرى، جرى الإيغال في التحليلات التاريخية إلى حدّ طغت فيه تلك التحليلات على متن السيرة النبوية ذاتها وهمّشتها. وهناك فريق آخر سعى إلى إسقاط القضايا المعاصرة على السيرة النبوية، فقاموا -طوعاً أو كرهاً- بفرض رؤاهم الخاصة على تاريخ حياة رسول الله ﷺ.

لعلّ الجهد الأوسع نطاقاً لاستعادة الملامح التاريخية لرسول الله ﷺ بما ينسجم مع المنظومة الفكرية والعقدية للشريعة، يتمثّل في كتاب *الصحيح من سيرة النبي الأعظم* للعلامة المحقّق السيّد جعفر مرتضى العاملي (ت. ٢٠١٩م). فقد سعى هذا السّفَر القِيَم، عبر جهد منقطع النظر، إلى تقديم أدقّ رصد لحياة النبي ﷺ من خلال استقصاء المصادر التاريخية والحديثية لدى الفريقين. بيد أنّ هذا العمل، نظراً لضخامة حجمه (ما يربو على ثلاثين مجلداً) وطغيان الجانب التحليلي على متن السيرة السردية، لا يُعدّ مدخلاً مناسباً للتعرّف الأولي والمبسّط على سيرة رسول الله ﷺ.

وعلى الضفّة الأخرى، لا يبدو وضع الدراسات الغربية حول السيرة النبوية بأفضل حالاً من الأعمال آنفة الذكر. فقد مرّ الغربيون في تعاطيهم مع السيرة النبوية بمراحل متعدّدة من حيث الرؤية، والمصادر، ونمط التدوين. ففي البدء، كانوا ينظرون إلى المسلمين بوصفهم تهديداً لنفوذهم وعقيدتهم، فقدّموا صورة منقّرة عن النبي ﷺ وصموه فيها بالبُعد عن الرّب. وقد بلغت هذه النزعة ذروتها إبان الحروب الصليبية، وظلّت النهج السائد في الكتابات الغربية حتّى مشارف القرن التاسع عشر الميلادي.

وشياً فشيئاً، ومع تعمق معرفة المستشرقين وتنامي التبادل التجاري بين الشرق والغرب، أخذت هذه النظرة في الاعتدال بشكل مطّرد. ومع ذلك، لا يزال بالإمكان تلمّس آثار النظرة المتحاملة تجاه رسول الله ﷺ، وسيرته، وأساس الدين الإسلامي في المؤلّفات المعاصرة المكتوبة بالإنجليزية^١. وبالجملة، احتلّت السيرة النبوية حيزاً هاماً في الدراسات الإسلامية الغربية، بل ويذهب البعض إلى أن انكباب المستشرقين على دراسة الحديث والفقهاء الإسلامي كان يهدف في جوهره إلى فهم أعمق للسيرة النبوية^٢.

عقب الهجمات الإرهابية في الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م، دُشن فصلٌ جديد في الكتابات الغربية - لا سيما باللغة الإنجليزية - حول حياة النبي محمد ﷺ. حيث بادر طيف واسع من الكتاب، ضمّ أكاديميين وصحفيين ومفكرين، إلى تأليف أعمال تتناول الإسلام عموماً وشخصية النبي ﷺ على وجه الخصوص. وباستثناء نزر يسير، فقد اتّسمت غالبية مؤلّفات هذه الحقبة بنظرة إيجابية تجاه حياة النبي ﷺ^٣.

ولئن نجحت هذه الأعمال إلى حدّ ما في تقديم صورة متوازنة عن الإسلام وشخصية رسول الله ﷺ، إلّا أنّها لم تخلُ من النقائص؛ فضعف الإحالات المرجعية، وافتقار المعايير البحثية الرصينة، وعدم التخصص التاريخي لبعض المؤلفين، وطغيان السمة القصصية على الأصالة التاريخية، وأخيراً عدم الرجوع إلى المصادر الأصلية، تُعدّ من أبرز أوجه القصور التي شابت النتاجات المؤلّفة في هذه الفترة.

١. للمزيد من المعلومات حول تطور دراسات السيرة في الغرب، انظر:

Buhl et al., "Muḥammad," *EP* 7: 377-88؛ Rubin, *The life of Muhammad*, xiii-xlvi؛ Hoyland, "Writing the Biography of the Prophet Muhammad: Problems and Solutions," 581-602.

وكذلك، انظر: كريمي نيا، *سيره پژوهی در غرب*، ١١ - ٢٠.

2. Motzki, *Hadith*, xviii-xxxiii.

3. Ali, *The Lives of Muhammad*, 222.

خصائص هذا الأثر

يسعى هذا الكتاب ليكون خطوةً نحو جبر النواقص المذكورة آنفاً، وليقدّم للمهتمين بتاريخ حياة وسيرة النبي ﷺ نصّاً يتّسم بالسّمات التالية:

مقاربة السيرة النبوية من منظور شيعي: لا تعني كتابة السيرة من منظور شيعي ابتعاد هذا العمل عن قواعد البحث التاريخي؛ ذلك أنّه بُذل جهدٌ في هذا الأثر لاعتماد الروايات المعتبرة الواردة في المصادر التاريخية والحديثية للشيعَة أيضاً. كما تمّ التحرّز عند انتقاء الروايات التاريخية عن نقل الأخبار غير المعتبرة، أو الضعيفة، أو المتعارضة. فضلاً عن ذلك، تمّ التركيز على ما قوبل بقلّة الاهتمام أو التغافل التامّ في المصادر التاريخية لدوافع سياسيّة أو مذهبية، بغية تقديم صورة أكثر شمولاً ودقّة عن حياة وشخصية رسول الله ﷺ.

نص ذو حجم متناسب للتعرفّ على حياة النبي ﷺ: نشهد أحياناً في الآثار المدوّنة حول السيرة النبوية عرض روايات متباينة للواقعة الواحدة، ممّا قد يصرف القارئ عن الغاية الأساسية المتمثلة في تكوين صورة كلّية عن حياة وشخصية رسول الله ﷺ. أما الأثر الماثل بين أيديكم، فقد عمد -مع الجمع بين الروايات التاريخية المختلفة وتقديم نصّ متّسق- إلى تناول أهمّ منعطفات حياة النبي ﷺ، محترّزاً بذلك عن الخوض في تفاصيل غير ضرورية لا تتناسب الهدف من هذا الكتاب. ويمكن عدّ هيكلية نصّ السيرة وحجمه في هذا العمل متناسبين مع المساقات الأكاديمية للتعرفّ الأوّلي والمقدّماتي على حياة رسول الله ﷺ بالاستناد إلى المصادر الأولية.

المصادر الأولية والإحالات المرجعية المناسبة: نشهد في كثير من المؤلّفات حول حياة النبي ﷺ نمطين من الضعف في التوثيق: أحدهما عدم الاستناد إلى المصادر في المواضع التي تقتضي ذلك، والآخر الإحالة إلى مصادر متأخرة أو ثانوية. أمّا في النصّ الحالي، فإنّ كافّة المنقولات التاريخية مستندة إلى مصادر معتبرة، وأولية قدر الإمكان.

وتجدر الإشارة إلى أنه تمت مراجعة الأبحاث المتميزة والمصادر المرجعية، كالموسوعات ذات الصلة، في الموضوعات المفصلة والهامة.

تجنب السرد والتحليل التفصيلي للروايات التاريخية: يلاحظ في بعض المصادر المتعلقة بحياة رسول الله ﷺ كثرة التحليلات وغلبة طابعها أحياناً على متن السيرة. وقد سعينا في هذا الأثر للاكتفاء بسرد الروايات التاريخية المعتمدة، والاقتصار على الإشارة إلى تحليل موجز للوقائع في الحالات الهامة فحسب. وربما وردت بعض التحليلات المقتضبة في الهوامش، مع إحالة القارئ إلى الآثار ذات الصلة عبر التوثيق المرجعي. وفيما يخص تأريخ الحوادث، فقد سعينا لاعتماد التواريخ المشهورة والمعتمدة، وتجنبنا الخوض في ذكر الاختلافات حول تعيين تواريخ الوقائع المختلفة. يخاطب هذا الأثر شريحة المثقفين والنخب، سواء من الشيعة أو السنة أو غير المسلمين، ممن لديهم شغف بالتعرف على حياة نبي الإسلام ﷺ. وعليه، فقد دُون متن الكتاب بأسلوب مبسط متحاشياً المصطلحات التخصصية المغلقة، لتهيئة الأرضية لاستفادة غير المتخصصين في مبحث تاريخ الإسلام والسيرة النبوية بأكبر قدر ممكن.

ينتظم هذا الكتاب في ثلاثة أقسام: «سيرة رسول الله ﷺ»، و«المقالات»، و«مختارات من الأحاديث النبوية». وقد اختص القسم الأول بتاريخ حياة رسول الله ﷺ، بينما وُضعت في القسم الثاني موادّ بين يدي القراء لتعميق الفهم حول بعض أبعاد تاريخ حياة الرسول الأكرم ﷺ.

ويُستهل قسم «المقالات» بمقالة تحت عنوان «مصادر السيرة النبوية»، بُذل فيها الجهد لتصنيف أهمّ مصادر سيرة الرسول الأكرم ﷺ موضوعياً والتعريف بها بإيجاز. وقد استعرضت هذه المقالة أكثر من ٨٠ مصدرًا من أهمّ المصادر التاريخية والحديثية والأدبية النافعة في البحث حول السيرة النبوية.

وتلا ذلك مقتطفات من كتاب سنن النبي ﷺ للعلامة السيّد محمد حسين الطباطبائي ﷺ، حيث يتناول هذا الجزء السيرة الشخصية والاجتماعية لرسول الله ﷺ بناءً على ما ورد في المصادر الحديثية الشيعية.

ثم جاءت مقالة «أدوار علم الكلام عند الإمامية، الدور النبوي» لتناقش دور رسول الله ﷺ في تبين المعارف الكلامية والعقدية ضمن أصول الدين الخمسة: التوحيد، العدل، المعاد، النبوة، الإمامة.

وبعدها، تسعى مقالة «صحابة رسول الله ﷺ وعدالتهم» إلى رسم معالم الجوّ الاجتماعي في العهد النبوي، وذلك ضمن دراسة جذور نظرية «عدالة الصحابة» ونقدها.

وفي مقالة «إطلالة على تاريخ المسجد النبوي الشريف»، عُرض تاريخ أحد أهمّ الأماكن في التاريخ الإسلامي، أي مسجد النبي ﷺ، من البداية حتى الآن. كما تطرّقت المقالة لدراسة الأقسام والأجزاء المختلفة للمسجد النبوي التي شهدت وقائع تاريخية متنوّعة. إنّ مجمل المواد المدرجة في هذا القسم يرمي إلى مساعدة القراء على فهم أفضل لزمن رسول الله ﷺ.

وحُصّص القسم الثالث لـ«مختارات من الأحاديث النبوية»، حيث انتُخبت فيه أحاديث نبوية من المصادر الشيعية.

طُبِعَ هذا الكتاب في عام ٢٠٢٢م باللغة الإنجليزية، وكنتُ دائماً أتمنّى أن أجعله باللغة العربية كي يفيد من يحبّ الإطلاع عليه. والله الحمد، سُنحت لي الفرصة كي أراجع الكتاب مجدّداً وأضيف بعض ما فاتني في الإصدار الأول، كما حاولتُ أن تكون لغة الكتاب بين الأكاديمي والأدب الروائي المناسب لجيل الشباب، فأتمنّى أن يكون ذلك قريباً ممّا كنتُ أهدفه.

وفي الختام، أتقدم بجزيل الشكر والامتنان إلى كافة الزملاء والأصدقاء الذين ساهموا في إنجاز وإثمار هذا العمل. وأخص بالذكر سماحة حجة الإسلام والمسلمين الدكتور السيّد محسن الموسوي، وسماحة الشيخ الدكتور حامد الفياضي، لما أبدوه من دقة نظر وملاحظات وتوصيات سديدة. كما أشكر صميم الشكر سماحة حجة الإسلام والمسلمين الدكتور السيّد هاشم الميلاني، رئيس المركز المحترم، على دعمه المستمر لهذا المشروع.

آمل أن يقع هذا القليل موقع القبول عند الله سبحانه وتعالى، وأن ينال رضا خاتم النبيين محمد المصطفى ﷺ، إن شاء الله.

وصلّى الله على سيّدنا محمد وعلى أهل بيته الطيّبين الطاهرين.

محمد رضا الخاقاني

١٤٤٨هـ - ٢٠٢٦م

التسلسل الزمني لحياة النبي الأكرم ﷺ

وفاة عبد الله ﷺ، والد رسول الله ﷺ	٥٦٩-٥٧٠ م
هجوم أبرهة على مكة	٥٧٠ م
ولادة النبي الأكرم ﷺ (يوم الجمعة ١٧ ربيع الأول)	٥٧٠ م
وفاة السيِّدة آمنه ؓ، أمّ النبي ﷺ	٥٧٦ م
وفاة عبد المطلب ﷺ	٥٧٨ م
لقاء النبي ﷺ بالراهب «بحيرا»	٥٨٣ م
حلف الفضول	٥٩٠ م
زواج النبي ﷺ من السيِّدة خديجة ؓ	٥٩٥ م
تجديد بنيان الكعبة	٦٠٥ م
المبعث النبوي الشريف (٢٧ رجب)	٦١٠ م
إنذار العشيرة والدعوة الإسلامية العامة	٦١٣ م/ ٣ للبعثة
هجرة المسلمين إلى الحبشة	٦١٥ م/ ٥ للبعثة
معراج رسول الله ﷺ	٦١٥ م/ ٥ للبعثة
ولادة السيِّدة الزهراء ؓ	٦١٥ م/ ٥ للبعثة

إسلام حمزة ؓ	٦١٦ م/٦ للبعثة
مقاطعة المسلمين في شعب أبي طالب	٦١٧ م/٧ للبعثة
نقض الصحيفة وفك الحصار عن المسلمين	٦٢٠ م/١٠ للبعثة
شعب أبي طالب	
وفاة أبي طالب ؓ	٦٢٠ م/١٠ للبعثة
وفاة السيِّدة خديجة ؓ	٦٢٠ م/١٠ للبعثة
الرحلة إلى الطائف (شوال)	٦٢٠ م/١٠ للبعثة
بيعة العقبة الأولى	٦٢١ م/١٢ للبعثة
بيعة العقبة الثانية	٦٢٢ م/١٣ للبعثة
هجرة النبي ﷺ والمسلمين إلى المدينة	٦٢٢ م/١٣ للبعثة
بناء مسجد قباء	١هـ
بناء المسجد النبوي	١هـ
تحويل القبلة (شعبان)	٢هـ
غزوة بدر الكبرى (رمضان)	٢هـ
زواج الإمام علي ؓ وفاطمة الزهراء ؓ (رمضان)	٢هـ
غزوة بني قينقاع (رمضان)	٢هـ
ولادة الإمام الحسن ؓ (رمضان)	٣هـ
غزوة أُحُد (شوال)	٣هـ
غزوة حمراء الأسد (شوال)	٣هـ
غزوة بني النضير (ربيع الأول)	٤هـ
ولادة الإمام الحسين ؓ (شعبان)	٤هـ

غزوة الخندق/ الأحزاب (شوال)	٥هـ
غزوة بني قريظة (ذو القعدة)	٥هـ
صلح الحديبية (ذو القعدة)	٦هـ
مكاتبة الملوك والأمراء ودعوتهم إلى الإسلام	٦ أو ٧هـ
غزوة خيبر (محرم)	٧هـ
عودة المهاجرين من الحبشة (ذو القعدة)	٧هـ
معركة مؤتة	٨هـ
فتح مكة	٨هـ
غزوة حُنين (شوال)	٨هـ
غزوة الطائف (شوال)	٨هـ
واقعة سدّ الأبواب	٩هـ
واقعة المباهلة	٩هـ
غزوة تبوك (رجب وشعبان)	٩هـ
محاولة اغتيال رسول الله ﷺ	٩هـ
واقعة مسجد ضرار	٩هـ
إسلام أهل الطائف (رمضان)	٩هـ
إبلاغ سورة البراءة (ذو الحجة)	٩هـ
إسلام القبائل اليمنية	١٠هـ
حجة الوداع (ذو الحجة)	١٠هـ
واقعة الغدير (يوم الخميس ١٨ ذو الحجة)	١٠هـ
سريّة أسامة بن زيد (محرم)	١١هـ

١١هـ	رزية الخميس
١١هـ	وفاة رسول الله ﷺ (يوم الاثنين ٢٨ صفر)
١١هـ	اجتماع سقيفة بني ساعدة (يوم الاثنين ٢٨ صفر)
١١هـ	تدفين رسول الله ﷺ (٣٠ صفر)

القسم الأول: سيرة رسول الله ﷺ

الجزيرة العربية قبل الإسلام

الجغرافيا التاريخية للجزيرة العربية

اكتسبت «شبه الجزيرة العربية»، الواقعة في الحيّز الجغرافي الفاصل بين قارتي آسيا وأفريقيا، تسميتها هذه نظرًا لإحاطة المياه بها من ثلاث جهات عبر بحار تتصل بالمياه المفتوحة. وإن كان اتساع رقعتها الجغرافية يسوّغ إطلاق تسمية «شبه القارة» عليها أيضًا^١. يحدّ هذه المنطقة من الشرق الخليج، ومن الغرب البحر الأحمر، وينتهي حدّها الجنوبي عند خليج عدن. أمّا حدودها الشمالية، فيرسمها خطّ افتراضي يمتدّ من خليج العقبة غربًا، وصولًا إلى مصب شطّ العرب في الشمال الشرقي لخليج الكويت^٢.

تشتمل هذه المنطقة على أقاليم جغرافية، منها: الحجاز، واليمن، والبحرين، وعمّان، كما تضمّ في جنباتها صحراوين كبيرين هما: صحراء النفود في الشمال الشرقي، والرّبع الخالي في الجنوب الشرقي^٣. وتغطّي الجزيرة العربية بمفهومها التاريخي

1. Rentz, "Djazīrat al-ʿArab," *EP* 1: 534.

٢. علي، المفضل، ١: ١٤٠-١٤٤.

3. Slugglett and Currie, *Atlas of Islamic History*, 13; Ruthven and Nanji, *Historical Atlas of the Islamic World*, 25.

مساحات الدول الحالية التالية: الكويت، والبحرين، وقطر، والإمارات العربية المتحدة، وعمّان، واليمن، وجزء من جنوب الأردن، وجنوب العراق. إضافة إلى التضاريس والبيئة الطبيعية كالصحراوين المشار إليهما آنفاً، تحتوي الجزيرة العربية على سلسلة جبلية تمتدّ من الشمال إلى الجنوب بمحاذاة البحر الأحمر؛ إذ تتواصل هذه الجبال من خليج العقبة وصولاً إلى جنوب اليمن ومضيق باب المندب^١. ارتكزت التسميات التاريخية لأقاليم الجزيرة العربية المختلفة على الخصائص الجغرافية لكل منها:

١. تهامة: تشمل منطقة تهامة الأشرطة الساحلية المحاذية للبحر الأحمر، وقد اكتسبت هذا الاسم لأنّ العرب يُطلقون على المناطق المنخفضة والساحلية اسم «التهائم من الأرض»^٢. وتمتدّ تهائم الجزيرة العربية من الشمال إلى الجنوب لتشمل: تهامة الحجاز، وتهامة عسير، وتهامة اليمن^٣. وتجدر الإشارة إلى أنّ اسم «تهامة» قد أُطلق تاريخياً على مدينة مكة أيضاً^٤.

٢. الحجاز: يُطلق اسم الحجاز على المنطقة التي تضمّ السلاسل الجبلية في غرب الجزيرة العربية. وقد تعدّدت الآراء حول سبب هذه التسمية؛ إذ يرى البعض أنّها سُمّيت بذلك لأنّ جبالها «تحتجز»، أي تفصل بين التهامة والمناطق الوسطى من الجزيرة العربية، بينما ذهب آخرون إلى أنّها سُمّيت حجازاً لأنّها تحتجز بين الشام واليمن^٥.

1. Rentz, "Djazīrat al-'Arab," *EF* 1: 535.

٢. إسماعيل بن عباد، *المحيط في اللغة*، ٣: ٤٦١؛ البكري، *معجم ما استعجم*، ١: ٣٢٢.

٣. علي، *المفصل*، ١: ١٧٠؛ شرّاب، *المعالم الأثرية*، ٧٣؛ جبران و آل ثاني، *دراسات في تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام*، ٢٦؛ وانظر أيضاً: الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٩٤ - ٩٩ و ٢٣١ - ٢٣٢.

٤. الفراهيدي، *كتاب العين*، ٤: ٣٦.

٥. الحموي، *معجم البلدان*، ٥: ٢١٨-٢١٩؛ جبران و آل ثاني، *دراسات في تاريخ الجزيرة العربية قبل*

٣. نجد: يلي ذلك إقليم نجد، ولفظ «النجد» في اللغة العربية دالٌّ على الأرض المرتفعة والصلبة^١. يُشكّل هذا الإقليم المناطق الهضبية والمرتفعات الواقعة شرقي جبال الحجاز، وتحيط به صحاري النفود والربع الخالي من الجهات الشمالية، والشرقية، والجنوبية^٢.

٤. العَرُوض: تشتمل منطقة العَرُوض على الصحاري الفاصلة بين نجد والبحرين، وكثيرًا ما تُعرف هذه المنطقة باسم «اليمامة»^٣.

تخلو الجزيرة العربية من الأنهار الدائمة غير الموسمية، كنهر النيل ودجلة والفرات؛ ويُعزى السبب في ذلك إلى شحّ هطول الأمطار في هذه المنطقة^٤. وعادةً ما تتسم الأمطار النادرة التي تهطل هناك بطبيعة طوفانية، ممّا يؤدي إلى تشكّل السيول وجريان الجداول الموسمية. وتتجمّع كميات من هذه الأمطار في بركٍ داخل الصحراء، إلّا أنّها لا تكون صالحة للاستخدام نظرًا للملوحة الأراضي الصحراوية، فضلًا عن تبخّرها المتسارع بفعل الحرارة الشديدة.

بينما يساهم جزء آخر من هذه المياه في تغذية طبقات المياه الجوفية، التي يُستفاد منها عبر حفر الآبار في تلك الأصقاع. وفي بعض أرجاء الجزيرة ذات الطبيعة الصخرية، تمكث المياه فتراتٍ أطول مما يجعلها متاحة للارتفاع. أمّا الأمطار التي تهطل على

الإسلام، ٢٦-٢٧.

١. الفراهيدي، كتاب العين، ٦: ٨٣-٨٤.

٢. الحموي، معجم البلدان، ٥: ٢٦٢؛ جبران وآل ثاني، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام، ٢٧-٢٨.

٣. جبران وآل ثاني، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام، ٢٨.

٤. علي، المفضل، ١: ١٥٧.

٥. جبران وآل ثاني، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام، ٣٠.

المرتفعات، فإنَّها تُصَرَّف غالبًا عبر الوديان والمجاري المائية نحو الشطر الجنوبي من شبه الجزيرة، أي اليمن. ومن هذا المنطلق، حظي هذا القسم -الذي احتضن سدودًا كسد مأرب- بوضع مائي أفضل بكثير من حيث الموارد.

وبوجه عام، اعتمد قاطنو الأجزاء الوسطى والشرقية من الجزيرة العربية على مصادر المياه الجوفية؛ وخير شاهدٍ على ذلك وجود آلاف الآبار في مختلف تلك النواحي، حتَّى في النطاقات الصحراوية منها. والحق أنَّ هذه الآبار مثَّلت المصدر المائي الأوحد الذي كفل إمكانية الحياة في صحاري الجزيرة. وبطبيعة الحال، تتمتع المناطق الجبلية في غرب وجنوب شبه الجزيرة العربية بظروف مناخية ومائية أكثر مواءمة^١.

يخضع الغطاء النباتي في أيَّة منطقة للظروف المناخية السائدة فيها؛ وفي شبه الجزيرة العربية على وجه الخصوص، يُرصد تباينٌ صارخ يتمثَّل في نمطين متناقضين تمامًا: الصحاري القاحلة والمناطق ناضرة الخضرة. إذ يزدهر الغطاء النباتي بكثافة أكبر في المناطق التي تحظى بظروف مناخية أكثر ملاءمة.

ويأتي النخيل في طليعة هذه النباتات، مستحوذًا على النصيب الأكبر من الغطاء الشجري في المنطقة؛ نظرًا لقدرته الفائقة على التكيف مع طقس شبه الجزيرة الحار. لم تكن هذه الشجرة مصدرًا لقوت السكان فحسب، بل شكَّلت ركيزة أساسية في مواد البناء والتشييد لديهم. أمَّا عن الغلال الرئيسة التي زُرعت في شبه الجزيرة، فقد شملت القمح والشعير والدُّخن. وعلاوة على ذلك، كان البرسيم من المحاصيل التي دأب المزارعون على زراعتها مستظِّلين بسعف النخيل^٢.

1. Rentz, "Djazīrat al-‘Arab," *EF* 1: 537-39.

2. *Ibid.*, 539.

على الرغم من غلبة الطابع الصحراوي على معظم أرجاء شبه الجزيرة العربية، إلا أنّ المنطقة جادت بأشجارٍ مثمرة أخرى -إلى جانب النخيل- تركز وجودها غالباً في المرتفعات. فقد اشتهرت منطقة «الطائف»، المتربّعة على الجبال الواقعة شرقي مكة، بمحاصيل مثل الورد والرمّان؛ في حين عُرفت منطقة «الحرج» الواقعة في نجد بزراعة البطيخ^١.

ومن الحاصلات النباتية الأخرى التي شاع استخدامها في تلك الربوع مثل اللّبان وغيره من المواد العطرية، التي اضطلعت بدورٍ حيوي في التبادل التجاري بين أهل شبه الجزيرة والأقطار المجاورة. كما تجدر الإشارة إلى انتشار شجر العُنّاب في المنطقة، حيث شكّل ثمره مصدرًا غذائيًا متاحًا للسكان^٢.

أمّا فيما يخصّ الثروة الحيوانية في المنطقة، فتأتي الإبل في الطليعة بوصفها أكثر الكائنات تكيّفًا مع قيظ الصحراء وندرة المياه. وقد مثّل هذا الحيوان أصولاً نفيسة وموردًا يُعوّل عليه لدى قاطني البوادي في شبه الجزيرة. وتزداد قيمة الإبل ويتعاظم دورها الحيوي في حياة البدو كلّما قست الظروف المناخية؛ إذ لم تقتصر الاستفادة منها على اتخاذها ركائب للارتحال فحسب، بل عدّ حليبها نعمةً كبرى ومنقذًا في ظلّ شحّ الموارد المائية، ناهيك عن الانتفاع بلحومها وجلودها وأوبارها.

وفي المقابل، شهدت المناطق التي حظيت بمناخ ألطف ومراعٍ أوفر -لا سيما في الأطراف الشمالية والجنوبية من شبه الجزيرة- ازدهارًا في تربية الأغنام والماعز. وثمة حيوان آخر حظي بالرعاية في هذه المنطقة واحتلّ مكانة سامية في الموروث الثقافي العربي، ألا وهو الخيل العربية. أما الحياة البرية في جزيرة العرب، فقد ضمّت قطعان

١. النويري، نهاية الأرب، ١١: ٣٠-٣١.

2. Rentz, "Djazīrat al-'Arab," *EF* 1: 540.

الوعول في المناطق الجبلية، إلى جانب أصناف متنوّعة من الظباء والذئاب الصحراوية^١.

جغرافية الحجاز

لا يمكن الجزم بحدود الحجاز على وجه اليقين؛ ففي حين أنّ الحدود الجنوبية والغربية للحجاز محلّ اتفاق لدى جلّ المصادر الجغرافية الإسلامية، فإنّ الخلاف قائمٌ حول الحدود الشرقية والشمالية لهذا الإقليم من شبه الجزيرة. يحدّ الحجاز من الجنوب مرتفعات «عسير» الواقعة شمال مدينة «أبها» الحالية، أمّا غرباً فيمثل البحر الأحمر حدّه النهائي. وتجدر الإشارة إلى أنّ البعض فصل «تهامة» عن الحجاز، في حين عدّها آخرون جزءاً منه، استناداً إلى أنّ مكّة تُدعى «تهامة» وهي محسوبة ضمن الحجاز.

أمّا شرقاً، فيعتبر فريقٌ من الجغرافيين أنّ إقليم «نجد» هو الحدود الفاصلة للحجاز، بينما يدرج فريق آخر «نجد» ضمن الحجاز جاعلاً من «اليامة» حداً شرقياً لهذه الأرض. وتتّسع شقّة الخلاف فيما يخصّ الحدود الشمالية؛ إذ ذهب البعض إلى مدّها حتّى فلسطين، وهو رأي لا يُعوّل عليه كثيراً. بيد أنّ أغلب المصادر أجمعت على أنّ أقصى حدّ للحجاز هو منطقة «شُغْب» الواقعة إلى الشمال من «تيماء» في الأطراف الشمالية للحجاز^٢.

ويتمّسّ مناخ الحجاز بالتنوع؛ ففي المناطق المرتفعة كالطائف، شاعت زراعة

1. Ibid., 541-42.

٢. للتفصيل عن الخلافات حول الحدود الشرقية والشمالية للحجاز، انظر: ابن سعد، *الطبقات الكبرى*، ٥: ٣٥٦؛ الحربي، *كتاب الناسك*، ٥٣٣-٥٣٤؛ الحموي، *معجم البلدان*، ٢: ٢١٩-٢٢٠ و ٣: ٣٥٢؛ السمهودي، *وفاء الوفا*، ٤: ١١٨٢-١١٨٣؛ جبران وآل ثاني، *دراسات في تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام*، ١٤٧-١٤٨. وانظر أيضاً:

Rentz, "al-Hidjāz," *EF* 3: 362.

الأشجار المثمرة. أمّا في المناطق الشمالية من الحجاز، مثل يثرب وخيبر ووادي القرى، فعلى الرغم من أنّ مناخها لا يضاهي جودة مناخ المرتفعات، إلّا أنّ وفرة الآبار فيها أدّت إلى ازدهار زراعة النخيل. وفي المقابل، نجد أنّ مناطق مثل مكّة، ونظرًا لقسوة الظروف الجوية، وشدّة القَيْظ، وشحّ المياه، فضلًا عن عدم صلاحية التربة، لم يكن للزراعة فيها موطئ قدم، واقتصرت النشاط الاقتصادي فيها غالبًا على الرعي^١.

مُدُن الحجاز

أفضى التباين المناخي في مختلف أرجاء الحجاز إلى ارتفاع الكثافة السكانية في المناطق ذات المناخ المعتدل، الأمر الذي تمخض عنه نشوء الحواضر في تلك الأصقاع. وقد أشار المقدسي (ت. ٣٨٠هـ) في مُصنّفه إلى ثلاث عشرة مدينة من مدن الحجاز^٢. ويأتي في طليعة هذه المدن من حيث الأهمية: مكّة، ويثرب (المدينة)، والطائف، وخيبر.

مكّة

وفقًا لما ورد في بعض الأخبار، فقد ذكر بطليموس هذه المدينة في كتابه *الجغرافيا* تحت اسم «ماكورابا»^٣. ويُشير هذا الأمر إلى أنّ منطقة مكّة كانت حاضرةً ومعروفة لدى القبائل العربية منذ القرن الثاني للميلاد على أقلّ تقدير^٤.

سُيّدت مدينة مكّة بين جبال شاهقة، متّخذةً من الكعبة المشرفة -التي حُطيت بقداسة خاصّة عند العرب- مركزًا لها. أمّا مناخها، فيتّسم بالقَيْظ صيفًا، بيد أنّ لياليها

١. جبران وآل ثاني، *دراسات في تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام*، ١٤٨.

Rentz, "al-Hidjāz," *EF* 3: 363.

٢. المقدسي، *أحسن التقاسيم*، ٦٩.

3. Macoraba.

4. Watt et al., "Makka," *EF* 6: 144.

تتمتاز بالاعتدال^١. وتفتقر هذه المنطقة إلى المياه الجارية، حيث كان يتم تأمين مياه الشرب عبر تخزين مياه الأمطار أو من خلال الآبار. وتُعدّ «بئر زمزم» أهمّ وأقدم بئر مائية وُجدت في تلك البقعة؛ وتقع هذه البئر الشهيرة داخل المسجد الحرام على بعد ٢١ مترًا إلى الشرق من الكعبة المشرفة.

ووفقًا للروايات، كانت هذه البئر في الأصل عينًا تفجّرت بفضل الله تبارك وتعالى للنبيّ إسماعيل عليه السلام. فقد ورد في رواية معتبرة عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه لما قدم إبراهيم عليه السلام بزوجه هاجر وابنه إسماعيل إلى مكّة بأمر من الله، نفذ ما كان بحوزة هاجر من ماء بعد فترة وجيزة. فراحت هاجر تسعى لطلب الماء، وقطعت المسافة بين جبلي الصفا والمروة سبع مرات مهرولةً. وعندما عادت إلى وليدها، تمثّل لها جبريل فضرب الأرض، لتفجّر منها المياه بقدره الله عزّ وجلّ من ذلك الموضع. فقالت هاجر للماء: «زَمْ زَمْ»؛ أي اثبت، ولا تجرّ، وتجمّع. كما أحاطته بشيء من الرمل والتراب، خشية أن يغيب الماء في الأرض قبل أن تفرغه في سقائها^٢.

خلت هذه المنطقة من الأشجار المثمرة^٣، واستنادًا إلى الروايات التاريخية بشأن كثرة السيول في تلك النواحي، فقد كانت المنطقة عرضةً لأمطار فجائية طوفانية^٤. وقد استوطن أهل مكّة في محلات تُعرف بـ«الرّباع» (مفردها «رَبْع»)، وهي عبارة عن أحياء سكنية كانت تقطنها في الغالب أسرة أو عشيرة واحدة^٥.

١. علي، المفصل، ٤: ١٠.

٢. القمي، تفسير القمي، ١: ٦٠-٦١. وثمة روايات أخرى في هذا الصدد مع اختلافات طفيفة (للمزيد من التفاصيل، انظر: الأزرق، أخبار مكّة، ٢: ٣٩-٤١؛ المجلسي، بحار الأنوار، ١٢: ٩٨ و ٩٦-٣٦-٣٧؛ البحراني، البرهان، ١: ٣٣١ وما بعدها).

٣. الحموي، معجم البلدان، ٥: ١٨٧.

٤. انظر: الأزرق، أخبار مكّة، ٢: ١٦٦-١٧١.

٥. الأزرق، أخبار مكّة، ٢: ٢٣٣-٢٦٥.

تخلو المصادر التاريخية للمدينة من أية إشارات إلى وجود منشآت تحصينية كالقلاع والحصون؛ ولعلّ مردّ ذلك إلى طبيعتها الجغرافية وما تحويه من موانع طبيعية كالجبال الشاهقة، جعلتها في غنى عن التحصينات الدفاعية المشيئة^١.

وبطبيعة الحال، يُمكن عزو عدم تعرّض مكّة للتهديدات الخارجية إلى ما تتمتع به من قداسة وحُرمة أيضًا؛ إذ احتلّت المدينة موقعًا استراتيجيًا على طريق القوافل التجارية الرابط بين اليمن والشام، ممّا جعلها إحدى الحواضر التجارية الكبرى^٢. فضلًا عن ذلك، دأبت بعض القبائل العربية -سواءً من الجنوب أو الشمال- على قصد هذا المكان لأداء مناسك الحجّ منذ أمد بعيد^٣.

وقد اكتسبت المنطقة مناعة أمنية خاصّة عقب حادثة أبرهة، الذي رام هدم الكعبة في عام ٥٧٠م^٤. ويبدو أنّ مدينة مكّة كانت قد اكتسبت ثقلًا تجاريًا مميّزًا قبل ذلك التاريخ، وتحديدًا في منتصف القرن السادس الميلادي؛ ويُعزى ذلك غالبًا إلى الحروب المستعرة بين الفرس والروم، ممّا دفع التجّار إلى استئثار الطريق التجاري «اليمن - الحجاز - الشام» واعتباره خيارًا أفضل وأكثر أمنًا مقارنةً بطريق «اليمن - الخليج - الشام»^٥.

على الرغم من شحّ الأراضي الزراعية، زحرت شبه الجزيرة العربية بوفرة في مناجم الذهب والفضة^٦؛ وقد وفّرت هذه المعادن رأس المال الرئيس للتجارة لدى

١. علي، المفضل، ٤: ٨.

٢. م. ن.، ٤: ٦.

٣. الحموي، معجم البلدان، ٥: ١٨٣.

4. Beeston, "Abraha," *EF* 1: 102-3.

5. Watt et al., "Makka," *EF* 6: 145.

6. Heck, "Gold Mining in Arabia and the Rise of the Islamic State."

التجّار العرب، ولا سيما تجّار مكّة. وقد تضافرت عوامل الأمن المنبثقة عن قداسة المنطقة، مع «حلف الفضول»^١ الذي عُقد فيها لنصرة المظلوم، لتجعل من مكّة المكان الأمثل للتجارة من كافّة الأوجه. وتعدّ الأسواق التجارية -الثابتة منها والموسمية- المنتشرة في أكناف المدينة خير دليل على الازدهار التجاري الذي نعمت به مكّة^٢.

ولطالما شكّلت الكعبة المشرفة المعلم الأبرز والقلب النابض لمدينة مكّة؛ فقد شُيّدت على يد نبي الله إبراهيم عليه السلام امتثالاً للأمر الإلهي، حيث أزره في بنائها ولده إسماعيل عليه السلام^٣. وثمة روايات أخرى تذكر أنّ الكعبة قد شُيّدت أوّل مرّة على يد آدم عليه السلام، وأنّ موقعها ظلّ خفيّاً عقب طوفان نوح حتّى زمن إبراهيم عليه السلام^٤.

وكان لهذا البناء مكانة مقدّسة ومحترمة لدى شطر من العرب القاطنين في الحجاز وغيره من الأقطار كالشام واليمن^٥؛ بل تشير بعض الأخبار التاريخية إلى أنّ الفرس كانوا يقدّرون ذلك إلى هذا المكان لتقديم فروض التعظيم والاحترام^٦. إلّا أنّ هذا الموقع ما لبث أن غدا مستقرّاً للأصنام؛ وكان «هبل» أوّل صنم نصبه عمرو بن لُحَيّ بجوار الكعبة^٧.

١. تعاهدت خمس عشائر من قريش -بمن فيهم بنو هاشم- على ألا يجدوا بمكّة مظلوماً، بغضّ النظر عن قومه أو قبيلته أو عرقه، إلّا هبّوا لنصرته وكانوا يدّوا واحدة على الظالم حتّى يُردّ إليه حقّه (انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ١٣٣-١٣٤؛ المسعودي، مروج الذهب، ٢: ٢٧٠-٢٧١).

٢. انظر: خضري وفلاح زاده، «نظام حاكم بر بازارهاى شبه جزيره در دو زمانه جاهلى و عصر نبوى».

٣. انظر: ابن قتيبة، المعارف، ٥٩-٦٢.

٤. الأزرقى، أخبار مكّة، ١: ١١٧.

٥. انظر: الحموي، معجم البلدان، ٥: ١٨٣.

٦. المقدسي، البدء والتاريخ، ٤: ٨٢-٨٣؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ١: ٤٣٧.

٧. الأزرقى، أخبار مكّة، ١: ١١٧.

ومن أخطر الوقائع المرتبطة بتاريخ الكعبة، زحف «أبرهة» عازماً على هدمها. وفي تلك الحادثة، وبمعجزة إلهية، لحقت الهزيمة بجيش أبرهة الذي قدم مدججاً بأعداد كبيرة من الفيئة لهدم الكعبة^١. وقد أدّى هذا الحدث الجلل إلى تعاظم هيبة الكعبة في نفوس الناس وإجلالها أكثر من ذي قبل، وتكريس مكة بوصفها حرماً آمناً؛ وهي الحادثة التي خلّد القرآن الكريم ذكرها^٢. وقد بلغ هذا الحدث من الأهمية مبلغاً جعل العرب يتخذونه مبدءاً لتأريخهم^٣.

ومن الأحداث الهامة الأخرى التي شهدتها هذا البيت العتيق، ولادة علي بن أبي طالب عليه السلام في جوف الكعبة. حيث وُلد عليه السلام في هذا البيت يوم الجمعة، الثالث عشر من شهر رجب في السنة الثلاثين من عام الفيل، الموافق ٦٠٠م تقريباً. وتجدر الإشارة إلى أنّ بعضاً من علماء أهل السنة قد عدّوا خبر هذه الولادة من الأخبار المتواترة^٤.

يثرب

على النقيض من مكة، شكّلت أراضي يثرب الزراعية الخصبة عاملاً رئيساً للجذب السكاني والاستيطان. بيد أنّ هذه المنطقة لم تكن تمثل حاضرة متماسكة البنين أو موحدة النسق كما هو الحال في مكة، وإنّما كانت عبارة عن مستوطنات متناثرة بجوار الأراضي الزراعية. وقد شُيّدت في هذه المنطقة حصون منيعة للذود عن ساكنيها ضد الهجمات والغارات، وكانت تُعرف باسم «الأطم» (جمعها «آطام»)^٥.

١. ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٤٥-٥٤.

٢. الفيل: الآيات ١-٥.

٣. ابن قتيبة، المعارف، ١٥٠.

٤. الحاكم النيسابوري، المستدرک، ٣: ٥٥٠.

وقد استوطن اليهود هذه المنطقة منذ أمد بعيد^١. كما تواجدت فيها قبيلتا الأوس والخزرج، اللتان تنحدران من قبيلة الأزد اليمانية^٢. وتجدر الإشارة إلى أن يثرب قد خضعت في حقبة ما لنفوذ الإمبراطورية الساسانية^٣، مما يؤثّر بوضوح على الثقل الاقتصادي الذي تميّزت به هذه الناحية.

لقد باين النظام الاقتصادي في يثرب نظيره في مكّة تبايناً تامّاً؛ فبينما ازدهرت التجارة وتبادل البضائع في مكّة نظراً لشحّ الأراضي، انتعشت الزراعة في يثرب بفضل وفرة الأراضي الخصبة وغازرة مياه الآبار. مع ذلك، إنّ اقتصاد يثرب لم يكن مقتصرًا على الحاصلات الزراعية فحسب؛ فعلى سبيل المثال، كان لبني قَيْنُقَاع سوقهم الخاص في يثرب، وقد عُرفوا باختصاصهم في صياغة الذهب^٤. فضلاً عن ذلك، احتضنت يثرب أربع أسواق رئيسة في الحقبة السابقة للإسلام^٥.

الطائف

تقع هذه المدينة إلى الشرق من مكّة المكرمة في منطقة جبلية؛ وتميّزت -على النقيض من مكّة- بمناخ لطيف، ووفرة في المياه الجارية والأشجار المثمرة^٦. وتشير النقوش المكتشفة في المنطقة باللغتين النبطية والتمودية إلى أن الطائف كانت مأهولة بالسكان منذ أمد بعيد^٧.

١. ستم الإشارة إلى زمن استيطانهم في قسم «الأديان في الحجاز».

٢. انظر: ابن حزم، *جمهرة أنساب العرب*، ٣٣٢.

3. Lecker, "The Levying of Taxes for the Sassanians in Pre-Islamic Medina."

4. Winder, "al-Madina," *EP* 5: 994-95.

5. Lecker, "On the Markets of Medina (Yathrib) In Pre-Islamic and Early Islamic Times."

٦. المقدسي، *أحسن التقاسيم*، ٧٩؛ الحموي، *معجم البلدان*، ٩: ٤.

٧. علي، *المفصل*، ٤: ١٤٣.

وقبل أن تُعرف باسم «الطائف»، كان يُطلق عليها اسم «وَجَّ»؛ وقد اشتقَّ هذا الاسم من «وَجَّ بن عبد الحَيِّ» الذي كان من العماليق^١. ويُعدُّ كون غالبية سكَّان المنطقة من العماليق دليلاً آخر على قِدَم هذه المدينة وعراقتها. كما ضُمَّت المدينة معبداً كان موضع تعظيم وإجلال لدى العرب^٢.

وقد اكتسبت الطائف شهرتها واسمها -الذي يعني «المحاطة» أو «التي طاف عليها سور»- نظراً للسور الشاهق الذي ضُرب حول المدينة^٣؛ وقد ورد ذكر هذا السور في وقائع حصار المسلمين للمدينة^٤. ومن الجدير بالذكر أنَّ إحاطة المدن بالأسوار الكاملة كان أمراً غير مألوف في الحجاز؛ إذ نجد يثرب -على سبيل المثال- قد اعتمدت في حمايتها على حصون صغيرة متفرقة بدلاً من الأسوار.

خيبر

تقع هذه المنطقة على الشمال من يثرب، وكانت تضمَّ سبعة حصونٍ منيعة، فضلاً عن زخورها بالمزارع وبساتين النخيل الفيحاء^٥. وتتمثَّل أقدم وثيقة تاريخية ورد فيها ذكر «خيبر» في النقوش الحجرية المكتشفة في منطقة «لَجَّ»، والتي يعود تاريخها إلى عام ٥٦٨ للميلاد^٦.

وتذهب بعض الروايات إلى أنَّ الرعيل الأول من سكنة خيبر كانوا من سلالة

١. الحموي، معجم البلدان، ٩: ٤. «العماليق/ عمالقة»، بنو عملاق بن لاوذ بن إرم، كانوا ببابل فغلبتهم عليها الفُرس، ثمَّ انتقلوا منها إلى تهامة بالحجاز. كانوا عرباً لسانهم عربي، زكان منهم ملوك العراق والجزيرة وجابرة الشام الكنعانيون وفراعنة مصر (الزركلي، الأعلام، ٥: ٨٨).

٢. علي، المفصل، ٤: ١٤٥.

٣. الحموي، معجم البلدان، ٩: ٤.

٤. ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٤٨٣.

٥. الحموي، معجم البلدان، ٢: ٤٠٩.

6. Vaglieri, "Khaybar," *EF* 4: 1138.

نوح عليه السلام^١. كما يترجّح احتمال أنّ استيطان اليهود في هذه البقعة قد جاء عقب هجرتهم إثر دمار بيت المقدس في عام ٧٠ للميلاد^٢.

وإلى جانب اشتغالهم بالزراعة، ذاع صيت يهود خيبر في مجالات الرعي، والغزل، وصناعة الملابس، كما أقاموا علاقات تجارية وطيدة مع العراق والشام. وفضلاً عن ذلك، برعوا في صناعة الأسلحة والأدوات والحلّيّ والمجوهرات؛ حيث تركّزت جلّ مبادلاتهم التجارية مع عرب الحجاز حول هذه المصنوعات الدقيقة^٣. وقد أسفرت بعض التنقيبات الأثرية في المنطقة عن اكتشاف كمّيات معتبرة من الأقمشة والملابس، ممّا يشي بالازدهار التجاري الذي نعمت به تلك الأنحاء^٤.

النظام الاجتماعي والثقافي في الحجاز

بغية تكوين معرفة أحسن بالظروف الاجتماعية والثقافية التي كانت سائدة في الحجاز، يتحتمّ علينا الإمام بنمط حياة قاطني تلك الديار. وفي هذا السياق، سنعكف على دراسة جملة من المحاور الجوهرية، وهي:

النظام القبلي: دراسة النزعة القبلية وانعكاساتها المباشرة على حياة الفرد الحجازي.
الاقتصاد: استعراض الأوضاع والموارد الاقتصادية في مختلف أنحاء الحجاز.
الحياة الفكرية: تسليط الضوء على العلوم والمعارف التي كانت محطّ اهتمام أهل المنطقة.

الحياة الدينية: تتبّع الأديان والمعتقدات التي وجدت لها أتباعاً في تلك الربوع.
وختاماً، سنعرّج بالبحث والتحليل على المكانة الاجتماعية لأسرة النبي ﷺ في مكّة.

١. الحموي، معجم البلدان، ٢: ٤١٠.

2. Vaglieri, "Khaybar," *EF* 4: 1138.

3. Braslavi (Braslavski) and Bornstein-Makovetsky, "KHAYBAR," 12: 107.

4. Vaglieri, "Khaybar," *EF* 4: 1138.

القبيلة وتقاليدها

تُعرَّف القبيلة بأنها جماعة من الناس ينتسبون إلى جدٍّ واحد^١. وتؤدّي هذه العلاقة بين أفراد القبيلة إلى توحيد مصالحهم، فيقفون صفًّا واحدًا في السلم والحرب^٢. وكان الرابط الذي يجمع شتات القبيلة ويوحّد كلمتها هو روح «العصبية»؛ ويُقصد بها النصر المطلق والولاء الأعمى من قِبَل الأفراد لبعضهم البعض، وتُعدّ هذه السمة من أبرز الخصائص التي ميّزت القبائل العربية^٣.

ونظرًا لأهمية النسب في الثقافة العربية، وما يتبعه من تعاضد شأن القبيلة، فقد دأب العرب على حفظ أنسابهم ومعرفة آبائهم وأجدادهم لعدّة أجيال. وكان العلم بالأنساب دومًا مادةً للمفاخرة بين العرب وغيرهم من الأمم^٤.

وتحمل الجماعات المشتركة في النسب مسمّيات متعدّدة، تتفاوت بتفاوت حجم تلك الجماعات وسعتها. وقد أحصى النويري (ت. ٧٣٣هـ) عشرة مصطلحات لترتيب طبقات هذه الجماعات، وهي: الجذم، والجمهور، والشَّعب، والقبيلة، والعِمارة، والبطن، والفخذ، والعشيرة، والفصيلة، والرَّهْط^٥. بيد أن المصادر التاريخية لم تلتزم دائمًا بهذا الترتيب الدقيق، فكثيرًا ما استُخدم مصطلح «القبيلة» مرادفًا لـ «العشيرة»^٦. ولكلّ قبيلة رئيس يتولّى أمرها، ويُشترط أن يتحلّى بصفات حميدة تؤهّله لنيل

1. Chelhod, "Kabīla," *EF* 4: 334.

٢. جبران وآل ثاني، *دراسات في تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام*، ٢٥٥.

٣. زرياب خويي، *بزم آورد*، ٢٣٤.

٤. النويري، *نهاية الأرب*، ٢: ٢٧٦.

٥. انظر: النويري، *نهاية الأرب*، ٢: ٢٧٧-٢٨٦؛ جبران وآل ثاني، *دراسات في تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام*، ٢٥٧؛ زرياب خويي، *بزم آورد*، ٢٣٤.

6. Chelhod, "Kabīla," *EF* 4: 334.

احترام أفراد القبيلة وتقديرهم^١. وقد حصر البعض هذه الصفات في: الكرم، والحلم، والتواضع، والفصاحة^٢. وكان الوصول إلى منصب السيادة يتم غالباً عن طريق الوراثة، ونادراً ما كان الرئيس يُعيّن عبر انتخاب أفراد القبيلة له^٣.

يضطلع رئيس القبيلة -الذي يُلقب بالشيخ أو السيّد- بمهامّ جسيمة؛ يأتي في مقدّمتها الحفاظ على وحدة القبيلة وتماسكها. إذ كان يحدث أحياناً أن تشعر بعض العائلات داخل القبيلة بالقوّة والاستقلال، فتعلن انشقاقها تحت قيادة أحد أفرادها وتنفصل عن القبيلة الأم؛ ممّا يؤدي إلى تناقص أعداد القبيلة الأصلية وزيادة احتمال مواجهتها للهجوم من القبائل الأخرى أو قلّة إيراداتها^٤. ومن مهامّ شيخ القبيلة أيضاً إبرام المعاهدات مع القبائل الأخرى بما يخدم مصلحة قومه، فضلاً عن إقامة العدل وفصّ النزاعات بين الأفراد، بما في ذلك تحصيل الديات من القتلة^٥. ولمّا كان النسب هو أساس الانتماء القبلي، فإنّ انضمام شخص غريب في النسب إلى القبيلة لم يكن ممكناً إلاّ بموافقة رئيسها عبر نظام «الولاء»^٦.

كانت طاعة رئيس القبيلة في سائر الشؤون قانوناً مسلماً به في العُرف القبلي؛ فكان الأفراد يتبعون زعيمهم بلا تردّد، سواء قرّر الحرب أو السلم أو التحالف مع الآخرين. ولم تكن مشيخة القبيلة مجلبةً للعزّ والاحترام فحسب، بل كانت تدرّ منافع مالية جمّة

١. علي، المفضل، ٤: ٣٤٤-٣٤٥.

٢. انظر: الآلوسي، بلوغ الأرب، ٢: ١٨٧؛ جبران وآل ثاني، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام، ٢٥٥.

٣. جبران وآل ثاني، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام، ٢٥٥-٢٥٦.

٤. علي، المفضل، ٤: ٣٤٥-٣٤٦.

٥. زرياب خويي، بزم آورد، ٢٣٤.

٦. علي، المفضل، ٤: ٣٥٧-٣٥٨.

لصاحبها؛ ففي الحروب، كان الربع من الغنائم يؤول لرئيس القبيلة، وله الحق في أن يصطفي لنفسه ما شاء قبل القسمة، وما يفضل من الغنائم بعد القسمة يكون له أيضًا^١. لم تكن القبائل العربية في شبه الجزيرة على سوية واحدة من القوة؛ بل تفاوتت تبعًا لتعداد أفرادها، وحجم ثرواتها، وبأس مقاتليها^٢. وقد دفع هذا التفاوت في موازين القوى -وما يتبعه من علاقات سياسية وتجارية- القبائل الأضعف إلى الدخول في معاهدات وتحالفات مع غيرها؛ بغية الدفاع عن نفسها أو تأمين ظروف معيشية أفضل. وعُرفت هذه المعاهدات عند العرب باسم «الحلف»^٣.

وبما أنّ هذه التحالفات كانت قائمة على أساس المصالح، فإنّ ديمومتها كانت مرهونة ببقاء تلك المصالح. وكثيرًا ما كانت هذه الأحلاف تُنقض نتيجة عدم وفاء أحد الطرفين أو التراخي في تنفيذ بنودها. وكانت الغاية من هذه المعاهدات عادةً هي التكتل لشنّ حرب على قبيلة أخرى أو للدفاع المشترك ضد الهجمات المحتملة^٤.

الثقافة والعلوم

لا تتوفّر بين أيدينا معلومات وافرة حول نظرة العرب إلى العلم والمعرفة في العصر الجاهلي، بيد أنّ استقراء بعض الروايات التاريخية يتيح لنا استشفاف مدى إلمامهم بالعلوم.

ومّا لا ريب فيه، إنّ سكّان البوادي لم يكن لهم حظٌّ وافر من العلم ولم يستشعروا حاجةً ملحّةً لتحصيله. أمّا الحياة الحضرية، فلا يمكن تصوّر استقامتها دون الحاجة إلى مهارة الكتابة والتدوين، لا سيما أنّ التجارة كانت عصب حياتهم وحرفتهم الرئيسة.

١. جبران وآل ثاني، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام، ٢٥٦؛ زرياب خويي، بزيم/أورد، ٢٣٥.

٢. علي، المصطل، ٤: ٣٣١.

٣. م. ن. ٤، ٣٧٠.

٤. م. ن. ٤، ٣٧٤.

وفي هذا الصدد، أورد جواد علي (ت. ١٩٨٧م) روايات تاريخية عدّة تدلّ على شيوع الكتابة بين العرب قبل الإسلام^١. كما قدّم الجهشيارى (ت. ٣٣١هـ) قائمة بأسماء كتّاب رسول الله ﷺ^٢. وتكمن أهمية تقرير الجهشيارى في احتمالية أن هؤلاء الكتّاب قد اكتسبوا مهارتي القراءة والكتابة في السنوات السابقة للبعثة النبوية.

ومع ذلك، لا يمكن عدّ القراءة والكتابة ظاهرة عامّة بين العرب؛ فقد أورد البلاذري (ت. ٢٧٩هـ) خبراً مفاده أن قبيلة «شَمِيلَة» كانت تتقن الكتابة، بخلاف قبيلة «مُجَاشِع»^٣. وفي سياق الحديث عن تاريخ نشأة الكتابة في الحجاز، يذكر ابن قتيبة (ت. ٢٧٦هـ) أن قريشاً أخذت الكتابة عن أهل الحيرة^٤. وبناءً على ذلك، فقد راجت الكتابة بينهم قُبيل مطلع القرن السادس الميلادي^٥.

ويُمكن تتبّع مسألة التعليم عند عرب الحجاز عبر المجتمع اليهودي؛ إذ تشير بعض الروايات إلى أن نفرًا من وجهاء العرب تعلّموا القراءة والكتابة على يد اليهود. كما ورد أن البعض كان يرحل إلى الحواضر اليهودية مثل «وادي القرى» و«تيماء» لتعلّم الكتابة^٦. ومن العلوم التي حُظيت باهتمام العرب، هو علم الطب. فقد احتلّ هذا العلم مكانة خاصّة لديهم، كما نال الطبيب منزلة رفيعة في أوساطهم^٧. ويُستفاد من بعض الأخبار وجود أطباء يارسون الطبّ في ذلك العصر^٨.

١. م. ن.، ٨: ١٠٧-١٠٨.

٢. الجهشيارى، الوزراء والكتّاب، ١٥-١٦.

٣. البلاذري، فتوح البلدان، ٤٥٧؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٤: ١٥٧.

٤. ابن قتيبة، المعارف، ٥٥٢.

5. Beeston and Shahid, "al-Hīra," *EP* 3: 462-63.

٦. انظر: علي، المفصل، ٨: ٢٩١-٢٩٣.

٧. انظر: الشريف المرتضى، أمالي المرتضى، ١: ٢٣٨؛ ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ٦: ٣٦.

٨. راجع: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٤: ١٨٢؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢: ٢٩٧؛ النويري، نهاية

وثمة مهارة أخرى يبدو أنّ العرب امتلكوا خبرة فيها قبل الإسلام، ألا وهي حفر الآبار. وتدلّ آثار هذه الآبار ذات الأعماق الكبيرة على ما بلغوه من علم وتجربة معتبرة في هذا الشأن^١. ولا شك أنّ الإقبال على هذا التخصص نابع من الحاجة الماسّة للمياه في منطقة صحراوية كالحجاز.

تمتّع الشعراء بمكانة مرموقة في المجتمع العربي، وكانوا موضع احترام زعماء القبائل، فكان «سوق عُكاظ»^٢ محفلاً يتبارى فيه الشعراء عادةً بإلقاء قصائدهم^٣. ويقول اليعقوبي (ت. ٢٩٢هـ) في هذا الصدد:

وكانت العرب تقيم الشعر مقام الحكمة وكثير العلم، فإذا كان في القبيلة الشاعر الماهر، المصيب المعاني، المخير الكلام، أحضروه في أسواقهم التي كانت تقوم لهم في السنة ومواسمهم عند حجّهم البيت، حتّى تقف وتجتمع القبائل والعشائر، فتسمع شعره، ويجعلون ذلك فخراً من فخرهم، وشرفاً من شرفهم. ولم يكن لهم شيء يرجعون إليه من أحكامهم وأفعالهم إلا الشعر، فيه كانوا يختصمون، وبه يتمثلون، وبه يتفاضلون، وبه يتقاسمون، وبه يتناضلون، وبه يمدحون ويعابون^٤.

وقد بلغ الاهتمام بالشعر مبلغاً جعلهم يكتبون روائعه بماء الذهب على قباطي الكتان، ويعلّقونها على أستار الكعبة^٥. كما اتخذ العرب الشعر وسيلة للتفاخر بالأنساب^٦.

الأرب، ١٨: ٧-٨؛ وراجع أيضاً: ابن جليل، طبقات الأطباء، ٥٤.

١. انظر: علي، المفصل، ٨: ٤٢١-٤٢٢.

٢. عُكاظ: من الأسواق التي كانت تُقام بين مكّة والطائف قبيل موسم الحج (الحموي، معجم البلدان، ٢: ١٤٢).

٣. الألويسي، بلوغ الأرب، ١: ٢٦٧.

٤. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١: ٢٦٢.

٥. السيوطي، المزهر، ٢: ٤٠٦.

٦. الألويسي، بلوغ الأرب، ٣: ١٥١.

سبق القول إنّ النظام القبلي كان قائماً على رابطة الدم؛ لذا اكتسبت معرفة الأنساب أهمية استثنائية. ومن هنا، كان «علم الأنساب» من العلوم الرائجة التي عني بها المجتمع العربي قبل الإسلام، وحظي علماءؤه المعروفون بـ«النسّابين» بمكانة سامية بين الناس^١. ومن المعارف التي اهتمّ بها عرب الحجاز هو «أيام العرب». وهي تمثّل في جوهرها تاريخ العصر الجاهلي، بما يضمّه من وقائع وحروب وما تخلّلها من أخبار البطولات^٢. بيد أنّ هذا الفن لم يكن يُصنّف لديهم ضمن «علم التاريخ» بالمفهوم الدقيق، بل كانوا يعرفون التاريخ بمعرفة سير الملوك والدّول^٣. وقد استمرّ الاهتمام بذلك في العصر الإسلامي؛ حيث عُرف عن عبد الله بن عباس (ت. ٦٨هـ) تضلّعه فيه^٤. كما صنّفت فيها مؤلّفات في القرون اللاحقة، مثل الكتاب الذي وضعه معمر بن المُثنّى (ت. ٢٠٩هـ) في هذا الشأن^٥.

اقتصاد الحجاز

سبقت الإشارة عند استعراض الظروف الجغرافية والطبيعية لشبه الجزيرة العربية والحجاز، إلى أنّ الزراعة كانت مزدهرة في مناطق محدّدة كخبر ويثرب والطائف؛ نظراً لوفرة المياه وخصوبة التربة، في حين لجأ سكّان المناطق التي تعدّرت فيها الزراعة إلى التجارة لتأمين احتياجاتهم المعيشية. وتأسيساً على ذلك، فإنّ للتجارة في شبه الجزيرة والحجاز جذوراً تاريخية ضاربة في القِدَم^٦.

١. انظر: ضيف، العصر الجاهلي، ٥٧.

٢. الآلوسي، بلوغ الأرب، ٢: ٦٨.

3. Rosenthal, *A History of Muslim Historiography*, 18-24.

٤. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢: ٢٨١.

٥. راجع: المسعودي، مروج الذهب، ٣: ٤٤٩؛ الزركلي، الأعلام، ٧: ٢٧٢.

٦. انظر: علي، المفصل، ٧: ٢٣٢.

لم يكن النشاط التجاري في الحجاز بوجه خاص، وشبه الجزيرة العربية بوجه عام، مقتصرًا على المبادلات الداخلية فحسب؛ بل اتسعت رقعته لتشمل المتاجرة مع أقاليم خارجية، لا سيما اليمن، والشام، والحبشة، والعراق، وبلاد فارس^١. ومن أهم السلع التجارية التي كانت تُصدَّر من شبه الجزيرة إلى تلك الأقطار: الذهب، والفضة، والأحجار الكريمة، والعطور، والمواد العطرية. أمَّا قائمة الواردات التي كانت تفلد إلى شبه الجزيرة من الخارج، فكانت تشمل: التوابل، وبعض أصناف الطيب، والأسلحة^٢.

وفي الحجاز، ذاع صيت أهل مكَّة -وقريش على وجه التحديد- في ميدان التجارة؛ إذ يمكن القول إنَّ التجارة المكِّيَّة كانت حكرًا على القريشيين الذين امتلكوا أضخم القوافل التجارية في الحجاز. وكما يُستشف من الآية الثانية في سورة «قريش»، فقد دأبوا على تسيير رحلتين تجاريتين كبيرين تخرجان من مكَّة في فصلي الشتاء والصيف. وقد تركزت تجارة أهل مكَّة مع اليمن والشام، كما كانت الحبشة وبلاد فارس من الوجهات التجارية المقصودة لديهم. وكان الزبيب، والصمغ، والعطور، والذهب، والأقمشة اليمانية، والثياب العدنانية، والسلاح، والمصنوعات المعدنية من أبرز البضائع التي تداولها الحجازيون^٣.

وجدير بالذكر أنَّ التجارة في الحجاز لم تكن محصورة في مكَّة وحدها، بل راجت أيضًا في المناطق التي توفرت فيها مقومات الزراعة، ومنها يثرب. فعلى الرغم من غلبة الطابع الزراعي على شهرة أهل يثرب، إلَّا أنَّ الإمعان في الروايات التاريخية والحديثية والفقهية يكشف بوضوح عن رواج التجارة في أوساطهم أيضًا^٤.

١. الآلوسي، بلوغ الأرب، ٣: ٣٨٥.

٢. انظر: م. ن. ٣: ٣٨٧-٣٨٨؛ علي، المفضل، ٧: ٢٣٢-٢٤٠.

٣. انظر: علي، المفضل، ٧: ٣٨٨-٣٨٥.

٤. م. ن. ٧: ٣١١-٣١٣.

الأديان في الحجاز

الحنيفية

تقتصر معلوماتنا عن «الحنيفية» بشكل أساسي على الإشارات القرآنية وما تلاها من المصادر الإسلامية^١. وقد وردت هذه المفردة في القرآن الكريم عشر مرات، وجاءت بصيغة الجمع «حنفاء» في موضعين. وقد استُخدم وصف «حنيف» في حق النبي إبراهيم ﷺ، للتأكيد على كونه حنيفاً مسلماً، وليس يهودياً ولا نصرانياً^٢. كما استُخدم هذا اللفظ للدلالة على أن إبراهيم ﷺ كان أنموذجاً فريداً في إخلاص العبودية لله تعالى^٣. وفي بعض الآيات، أمر الله تعالى أهل الكتاب^٤ والنبي ﷺ وأصحابه أن يعبدوا الله مخلصين له الدين كالحنفاء، لا كالمشركين^٥.

وقد زحرت المصادر التفسيرية الإسلامية بشروحات وتأويلات شتى لمفردات «حنيف» و«حنيفية» و«حنفاء». ومن هذه التفسيرات: المتمسكون بسُنن إبراهيم ﷺ، أو الصابئة الإبراهيميون الذين قطنوا بلاد الروم ونسبوا أنفسهم لإبراهيم ﷺ ونسبوا إليه صُحفاً، أو أنها صفة لإبراهيم ﷺ واسم لِدِينه، أو اسم لأتباع إبراهيم ﷺ الذين انحرفوا لاحقاً نحو الوثنية ولم يبقَ لهم من الإبراهيمية سوى الاسم. وثمة تفسيرات أخرى تشير إلى معاني: اعتناق الإسلام والتحول إليه من أديان أخرى، والتطهر من المعاصي والذنوب، والإيمان بالأنبياء ﷺ، والبراءة من الشرك والعودة إلى التوحيد. وغالباً ما

١. م. ن. ٦، ٤٥٠-٤٥١.

٢. البقرة: ١٣٥؛ آل عمران: ٦٧.

٣. البقرة: ١٣٥؛ آل عمران: ٦٧ و ٩٥؛ النساء: ١٢٥؛ الأنعام: ٧٩ و ١٦١؛ النحل: ١٢٠ و ١٣٢؛ الحج: ٣١.

٤. سورة البينة: ٥.

٥. يونس: ١٠٥؛ الروم: ٣٠. راميار، تاريخ قرآن، ٣٨.

تشير هذه التفسيرات إلى صفات عامة أو مفاهيم نظرية لدى المفسرين، ولا تعكس بالضرورة واقعاً تاريخياً محدداً^١.

ويستنتج آرتور جفري، مستنداً إلى ورود لفظة «حنيف» في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام، ومعتمداً على أبحاث هورفيتس^٢ ومارجليوث^٣، أنّ المعنى المقصود بالحنيفية هو «المسلم» بمعنى الخاضع لله، وأنّ استخدامها بمعنى «المشرك» كان نادراً جداً^٤. وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا اللفظ استُخدم في الأدب المسيحي للإشارة إلى المسلمين^٥، وهو ما نجد له صدقاً في بعض الروايات الإسلامية أيضاً^٦.

وعلى الرغم من وجود فرضيات حول الأصول العبرية والسريانية والحبشية لمفردة «حنيف»^٧، إلّا أنّ ورودها في القرآن بلسان عربي ووضوح دلالتها للعرب آنذاك، يغني عن التكلف في تتبع جذورها في اللغات السريانية والعبرية^٨. فقد ذهب البعض إلى أنّ أصل الكلمة عبري واستُخدمت بمعنى الكافر، النجس، والمُلحد، بينما أرجعها

١. باراني، «حنيف».

2. Horovitz.

3. Margoliouth.

4. Jeffery, *The Foreign Vocabulary of the Qur'ān*, 114.

ويشير مونغمري وات صراحة إلى أنّ استخدام لفظتي «حنيف» و«حنيفية» في المصادر المستقلة عن القرآن، كالاستعمالات الجاهلية والمصادر المسيحية، كان يعني «المشرك/ الوثني»

Watt, "Ḥanīf," *EP* 3: 166.

5. Ibid., 165-66.

٦. الكليني، *الكافي*، ٢: ١٦١. ينقل الحديث حواراً جرى في زمن الإمام الصادق (١١٤-١٤٨هـ) بين مسلم كان نصرانياً سابقاً وآخر نصراني، حيث أشار النصراني إلى الإسلام باسم «الحنيفية».

7. Rubin, "Ḥanīf," *EQ* 2: 403; Jeffery, *The Foreign Vocabulary of the Qur'ān*, 115.

٨. زرياب خويي، *سيره رسول الله*، ٨٠.

فريق آخر إلى أصل سرياني^١ بمعنى المشرك أو الوثني؛ وقد يكون هذا المصطلح شاع في المجتمع العربي قبل الإسلام وصفاً لمن لم يعتنق اليهودية ولا المسيحية. وهذا المعنى للجذر السرياني، يتسق مع استخدام اللفظ في العصر الجاهلي^٢.

ومع ذلك، فإنَّ استقراء الاستعمالات القرآنية للمفردة يؤكد أنَّ «حنيف» تعني الموحد^٣. وكما ورد في بعض المصادر، فإنَّ الحنيف هو الذي انصرف عن سائر الأديان -بما فيها اليهودية والمسيحية- باحثاً عن الدين القويم^٤. وفي بعض الروايات، وُصفت الحنيفية بأنها الفطرة الإلهية التي فطر الله الناس عليها، وهي جوهر التوحيد^٥. وقد عرّف رسول الله ﷺ أحبَّ الأديان إلى الله بـ«الحنيفية السميحة»^٦. ويمكن تلمّس وجه الساحة في الحنيفية من خلال بعض الأحاديث التي تضعها في مقابل الرهبانية المسيحية وتشدّد^٧.

وتشير المصادر التاريخية الإسلامية إلى نفرٍ من العرب كانوا يلتمسون الحنيفية ويبحثون عنها إبان مبعث النبي ﷺ، أمثال: زيد بن عمرو بن نُفيل، وورقة بن نوفل، وعثمان بن الحويرث، وعبد الله بن جَحْش. ويُفهم من أخبار اعتزالهم عن الشرك، أنَّ

١. المسعودي أيضاً أرجع اللفظة إلى السريانية، وذكر أنَّ أصلها «حنيفا/ حنيوا» (المسعودي، التنبيه والإشراف، ٧٩).

2. Rubin, "Hanīf," EQ 2: 403; Jeffery, *The Foreign Vocabulary of the Qur'ān*, 115.

٣. حاج منوچهری، «حنيف».

٤. الزمخشري، مقامات الزمخشري، ٢٢؛ وانظر أيضاً: محمودپور، «حنيف».

٥. البرقي، المحاسن، ١: ٢٤١؛ الكليني، الكافي، ٢: ١٢.

٦. نموذجاً لذلك، انظر: معمر بن راشد، جامع معمر بن راشد، ١١: ١٩٤ و ٢٩٢؛ أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ٤: ١٦؛ البخاري، الصحيح، ١: ١٦.

٧. نموذجاً لذلك، انظر: الشيباني، الكسب، ١٢١؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣: ٣٠٢؛ أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ٣٦: ٦٢٣. ويظهر هذا المعنى في بعض الروايات الشيعية أيضاً: البرقي، المحاسن، ١: ٢٨٧؛ الكليني، الكافي، ٢: ١٧.

المجتمع المكي آنذاك كان يعي أن إبراهيم عليه السلام كان على الحنيفية، وأن ممارسات قريش من عبادة الأصنام وتقديم القرابين لها كانت تتعارض مع تعاليم إبراهيم عليه السلام.^١

وقد سعى هؤلاء الباحثون عن الحنيفية إلى استجلاء حقيقتها عبر سؤال اليهود والنصارى وغيرهم. فمنهم من اعتنق النصرانية، ومنهم من اكتفى باعتزال الأصنام والامتناع عن أكل ذبائحها. وقد تعرض هؤلاء للأذى من قبل المشركين في مكة، وعانوا من العزلة الاجتماعية^٢. كما تذكر المصادر شخصاً يدعى أبو عامر ادعى اتباع الحنيفية، فدحض النبي صلى الله عليه وسلم مزاعمه في حوار جرى بينهما، مؤكداً أن الإسلام هو الحنيفية الحقّة، وأن معتقدات أبي عامر لا تمت للحنيفية بصلة^٣.

لا تقدّم المصادر التاريخية تفصيلات وافية عن شعائر الحنيفية وتعاليمها. بيد أن النذر اليسير من الإشارات يفيد بأن الحنفاء كانوا يتبعون ملّة إبراهيم عليه السلام ويلتزمون بأحكامها؛ فكانوا يحجّون البيت، ويكفّنون موتاهم ويغسلونهم. كما كان حنفاء مكة يحرمون نكاح المحارم كالبنات والأخت وبنات الأخت، ويقرون الطلاق كطريقة لإنهاء العلاقة الزوجية^٤.

ويرى بعض الباحثين أن اقتران لفظتي «حنيف» و«مسلم» في الآية ٦٧ من سورة آل عمران^٥، يدلّ على أن الحنيفية لم تكن اسماً لفرقة دينية محدّدة؛ ويستدلّون أيضاً بعبارة ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ الواردة في الآية ٣١ من سورة الحج لدعم هذا الرأي^٦.

١. ابن إسحاق، كتاب السير والمغازي، ١١٥-١١٦. في بعض الروايات عدّد سلمان الفارسي ممن بحثوا عن الحنيفية أيضاً (م. ن، ٩٢). وقدّر البعض عدد الحنفاء بأكثر من عشرين شخصاً (علي، الفصل، ٦: ٤٦٣).

٢. ابن إسحاق، كتاب السير والمغازي، ١١٦-١٢٠.

٣. ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٥٨٥-٥٨٦.

٤. الحموي، معجم البلدان، ٥: ١٨٤؛ وانظر أيضاً: الصنعاني، تفسير عبد الرزاق، ١: ٢٩٤.

٥. ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾.

٦. رامبار، تاريخ قرآن، ٣٨.

أما عن الامتداد الجغرافي للحنيفية في الحجاز، ونظرًا لوجود باحثين عنها ومعتقدين بها في مكة، يُمكن القول إنّ مكة كانت أحد معاقل هذا الفكر. وتشير بعض الأخبار إلى أنّ أهل الحجاز كانوا في الأصل على دين إبراهيم عليه السلام، ورغم استئراء الوثنية، بقيت ثلّة منهم متمسكة بهذا الدين وتعمل وفق تعاليمه^١. فيما ذهب آخرون إلى عدّ الحنيفية الدين الشائع بين قبائل العرب في شمال الحجاز وجنوبه^٢.

عبادة الأصنام (الشرك)

يُعدّ التوحيد أحد أهمّ التعاليم الجوهرية في الإسلام؛ ولذا نجد أنّ المفردات المشتقة من الجذر «شرك» كثيرة الدوران في الآيات القرآنية^٣. وإضافةً إلى ما سلف، فقد وردت في القرآن تعابير عديدة من قبيل: «آلهة»، و«أصنام»، و«أوثان»، و«نُصُب»، وهي تشير بمُجملها إلى مظاهر الشرك وعبادة الأصنام التي كانت سائدة في المجتمع العربي قبل الإسلام^٤.

وعند تناوله لأديان العرب في الجاهلية، يشير المسعودي (ت. ٣٤٦هـ) إلى طائفة من العرب كانوا يقرّون بالخالق لكنّهم ينكرون الرُّسل، ويعكفون على عبادة الأصنام، وهم المعنيّون بقوله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (الزمر: ٣).

وكانت هذه الفئة تقصد الأصنام بالزيارة والحجّ، وتقدّم لها الهدايا والقرابين. وثمة طائفة أخرى كانت تعبد الملائكة، زاعمة أنّهم «بنات الله». وقد عمّد هؤلاء

١. راجع: ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٧٧؛ ابن الكلبي، الأصنام، ٦؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢: ١٨٨.

٢. انظر: الألوسي، بلوغ الأرب، ٢: ١٩٤؛ علي، الفصل، ٦: ٣٤.

٣. لمعرفة تكرار مادة «شرك» في القرآن، انظر: عبد الباقي، المعجم المفهرس، ٣٧٩-٣٨١.

٤. خراساني، «شرك»؛ وانظر: زارع شيرين كندی، «شرك»، ١٦-١٧.

إلى اتّخاذ أصنام على هيئة إناث ليعبدوها، ومن أشهرها: اللات، والعزّى، ومناة. وقد أشار القرآن الكريم^١ إلى هذه الفئة^٢.

كما يذكر القرآن فريقاً آخر اعتنق الإلحاد والدّهريّة^٣؛ وهؤلاء زعموا أنّ «الدهر» أو ناموس الطبيعة هو الحاكم المطلق على الكون، وأنّ الطبيعة هي الموجدة والمفنية لهم^٤.

وبوجه عام، واستناداً إلى الآيات القرآنية، يمكن تصنيف مظاهر الشرك إلى أقسام:

١. عبادة الأوثان: وتشمل عبادة الملائكة^٥، والأجرام السماوية^٦، وعبادة الصالحين^٧. ويجب الأخذ بعين الاعتبار أنّ عبادة الملائكة - كما مرّ ذكره - وكذلك عبادة الأجرام السماوية والصالحين، قد أفضت في نهاية المطاف إلى اتّخاذ أصنام وتماثيل رمزاً لها^٨. وتشير بعض الحكايات إلى أنّ ودّ، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر، كانوا رجالاً صالحين في أقوامهم؛ فلما ماتوا في زمن متقارب، حزن عليهم قومهم حزناً شديداً، فعمدوا إلى نحت تماثيل لهم تعظيماً لذكراهم، ثمّ ما لبثوا أن تحوّلوا تدريجياً إلى عبادتهم مع مرور الزمن^٩.

٢. تعدّد الآلهة: وقد أشارت الآيات القرآنية إلى هذه الفئة؛ فتارة ذمّتهم لجعلهم

١. النحل: ٧٦-٧٨؛ النجم: ٤٩.

٢. المسعودي، مروج الذهب، ٢: ١٠٢-١٠٣.

٣. الجاثية: ٢٤.

٤. للمزيد، راجع: الألوسي، بلوغ الأرب، ٢: ٢٢٠-٢٢٣.

٥. الزخرف: ١٩؛ النجم: ١٩-٢٣.

٦. الأنعام: ٧٦-٧٨؛ النجم: ٤٩.

٧. نوح: ٢٣. خراساني، «شرك».

٨. الألوسي، بلوغ الأرب، ٢: ٢١٥-٢١٦.

٩. ابن الكلبي، الأصنام، ٥١-٥٢.

شركاء لله من الجن^١، وتارة لتوهمهم وجود نسب بين الله والجن^٢. كما نهى القرآن في موضع آخر عن اتّخاذ إلهين اثنين^٣. وكان معتنقو «الثنوية» يعتقدون بأنّ العالم من خَلْقِ صانعين: خالق الخير وهو «النور»، وخالق الشرّ وهو «الظلمة». وهذان الإلهان -وفق معتقدهم- قديمان وأزليّان، ومختلفان نفساً وصورة، ومتضادّان فعلاً وتدبيراً^٤.

وعلى الرغم من أنّ عبادة الأصنام تُعدّ من أبرز السمات المميّزة لشبه الجزيرة العربية في العصر الجاهلي، إلّا أنّ الأخبار التاريخية بهذا الشأن لا تتّسم بالوضوح التام. فمما لا شكّ فيه أنّ الوثنية كانت ديانة شائعة ولها أتباع كُثُر في شبه الجزيرة، بما في ذلك الحجاز. غير أنّ الروايات التاريخية ركّزت بشكل أساسي على بعض الطقوس العبادية في حواضر محدّدة مثل مكّة والمدينة والطائف. ومن خلال هذه الروايات، يمكننا معرفة مواضع أصنامهم وكيفية تعبدّهم لها^٥.

تشير بعض الروايات إلى شيوع عبادة الأصنام منذ ما بعد وفاة آدم ﷺ. أمّا عن توقيت وكيفية دخول هذه الديانة إلى الحجاز، فلا توجد رواية تاريخية متقنة وموثّقة بالكامل؛ إذ غالباً ما تكون هذه الأخبار مشوبة بالأساطير والقصص المختلفة. فعلى سبيل المثال، تذكر بعض الروايات أنّ أوّل من انحرف نحو عبادة الأصنام كانوا من نسل إسماعيل عليه السلام؛ إذ اضطرّوا بسبب ضيق العيش والبحث عن مراعى أفضل إلى مغادرة مكّة، ونظراً لتعظيمهم للكعبة، كانوا يحملون معهم حجارة من حجارة الحرم. ومع

١. الأنعام: ١٠٠.

٢. الصافات: ١٥٨.

٣. النحل: ٥١. خراساني، «شرك».

٤. الألوسي، بلوغ الأرب، ٢: ٢٢٩-٢٣٠.

٥. للمزيد، راجع:

مرور الوقت، صاروا يطوفون حول تلك الحجارة ويعبدونها، ولم يتبقّ لديهم من شعائر الحنيفية سوى بعض المناسك كالحجّ والعُمرة والوقوف بعرفة^١. وهكذا، اتخذت كلّ قبيلة عربية صنماً لها تعبد، بل إنّ بعضهم بنى «بيوتاً» لأصنامهم يذبحون عندها^٢. وكان لقريش أصنام منصوبة في جوف الكعبة وحولها^٣. وقد أورد ابن الكلبي (ت. ٢٠٤هـ) قائمة مفصلة بأصنام القبائل المختلفة في جزيرة العرب^٤. ومن خلال النظر في التوزيع الجغرافي لهذه الأصنام والقبائل التي دانت لها، يتّضح لنا أنّ عبادة الأصنام كانت الديانة الأكثر انتشاراً وقبولاً في الحجاز.

اليهودية

من بين الديانات الإبراهيمية التي عرفها الحجاز، حظيت اليهودية بالنصيب الأوفر من الأتباع في هذه المنطقة. ومن التواريخ التي ذُكرت لهجرة اليهود من الشام، حقبة حكم «بُختنصر» (حكم ٦٠٥-٥٦٢ ق.م)؛ فقد فرّ اليهود من الشام ويمّموا وجوههم شطر الحجاز، وذلك عقب حادثة تدمير هيكل سليمان (بيت المقدس) وما صبه عليهم بُختنصر من صنوف الأذى والتضييق^٥. بيد أنّ الاكتشافات الحديثة تشير إلى أنّ أقدم

١. ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٧٧-٧٨؛ الآلوسي، بلوغ الأرب، ٢: ١٩٧؛ وانظر أيضاً: زرياب خويي، نزم آورد، ٢٤٣.

٢. ابن الكلبي، الأصنام، ١٠.

٣. م. ن. ٢٧-٢٨؛ المسعودي، مروج الذهب، ٢: ٢٢٧؛ الحموي، معجم البلدان، ٥: ٣٩١. للاطلاع على روايات أخرى حول أسباب جنوح عرب الحجاز إلى الوثنية، انظر: الآلوسي، بلوغ الأرب، ٢: ٢٠٠-٢١٥.

٤. راجع: ابن الكلبي، الأصنام، ٩-٦٣.

٥. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ١: ٥٣٩؛ المقرئ، إمتاع الأسماع، ٣: ٣٤٩؛ السمعوني، وفاء الوفا، ١: ١٦٠.

المستوطنات اليهودية في الحجاز تعود إلى عهد حكم «نابوبونيد» (٥٥٦-٥٣٩ ق.م) -خَلَفَ بُخْتَنْصَر- في بابل^١. وعزا آخرون سبب هجرة اليهود إلى الحجاز إلى فرارهم عقب اغتيالهم لحاكم الشام^٢. وثمة احتمال آخر طُرِحَ لتحديد زمان وسبب الهجرة، يتمثل في نزوحهم إثر الثورات التي أثاروها ضد الحُكم الروماني في فلسطين؛ وقد وقعت هذه الثورات -ومن بينها ثورة «بار كوخبا»- في الفترة ما بين عامي ٧٠ و١٣٥ للميلاد^٣.

في عام ٣٨٤م، أُفِرَّت اليهودية ديناً رسمياً لليَمَن، وظلَّ هذا الوضع قائماً حتى حدود الأعوام ٥٢٥-٥٣٠م، حين استولى الحبشيين على اليمن واعتمدوا المسيحية ديناً رسمياً للبلاد^٤. كما أنَّ اعتناق مملكة حِمير في اليمن لليهودية، وكثافة الوجود اليهودي في تلك الأصقاع، قد يُعدّ سبباً مفسراً للوجود اليهودي في الحجاز. لقد توزَّعت المجتمعات اليهودية في أنحاء متفرقة من الحجاز، مع كثافة أكبر في نقاط محدَّدة؛ إذ استوطنت غالبية يهود الحجاز في مناطق: وادي القرى، وتيماء، ويثرب، وخيبر. كما شكَّلت مناطق زراعية أخرى في الحجاز، كفَدَك وتبوك وأيلة، مواطن لسُكنى القبائل اليهودية. وكانت القبائل اليهودية المنحدرة من أصول شامية تمثِّل القوَّة الاقتصادية المهيمنة في هذه المناطق، بينما اشتغلت القبائل العربية -التي تهوّد غالبها- في أراضيهم الزراعية.

وعلى الرغم من أنَّ لسان القبائل اليهودية في الحجاز كان عربياً، إلَّا أنَّهم عُدُّوا دوماً

1. Tobî, "Hejaz," 8: 775.

٢. الحموي، معجم البلدان، ٥: ٨٤؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ٢: ٣٤٣؛ السمعوني، وفاء الوفا، ١: ١٦٠.

3. Stillman, "Yahūd," *EF* 11: 239؛ Winder, "Al-Madina," *EF* 5: 994.

4. Spector, "Yemen," 21: 302.

فئةً متميزة عن المجتمع العربي الحجازي؛ وهو ما يتّضح جلياً في الشعر الجاهلي الذي أفرد ذكرًا خاصًا للعادات والتقاليد اليهودية^١.

المسيحية

لوجود المسيحي في أطراف شبه الجزيرة العربية جذور قديمة، ففي المناطق الشمالية الغربية لشبه الجزيرة -والتي تضمّ بلاد الشام- يُمكن العثور على آثار مسيحية. ورغم أنّ منشأ المسيحية في تلك الربوع لا يزال غير محدّد بدقّة، إلّا أنّه يُمكن الإشارة إلى بعض حكام العرب المسيحيين، مثل الحارث بن جبلة (٥٢٨-٥٦٩م) الذي كان من الغساسنة المتّبعين للمسيحية الشرقية.

كما تواجد المسيحيون في النواحي الشمالية الشرقية والعراق الحالي. وقد دان اللّخميّون (المناذرة) والغساسنة بالمسيحية النسطورية الشرقية، وتمتّعوا بنفوذ سياسي في تلك المنطقة. وكان النعمان بن المنذر (ت. ٦٠٢م) آخر سلالة حكام الحيرة ممّن اعتنقوا المسيحية. وثمة مجتمعات مسيحية وُجدت أيضًا في شرق شبه الجزيرة وفي عُمان الحالية.

أمّا في جنوب شبه الجزيرة، اليمن، فقد أمسك الملوك الوثنيون بزمام الحكم حتّى أواخر القرن الرابع الميلادي. ورغم كون هذه المنطقة ساحة نزاع بين الإمبراطوريتين العظيمين آنذاك -الروم الشرقية (البيزنطية) والساسانيين- إلّا أنّ المسيحية امتدّت إليها مباشرة من الروم، وتحديدًا من الإسكندرية. وفي عهد الإمبراطور «أناستاسيوس» (٤٩١-٥١٨م)، ومع إيفاد الأساقفة وتشييد الكنائس، غدت المسيحية الشرقية الدين الرسمي؛ حيث شُيِّدت الكنائس في حواضر يمنية مثل ظَفَّار، وعَدَن، ونَجْران.

1. Stillman, "Yahūd," *EF* 11: 239.

وفي أعقاب تلك الحقبة، وتحديدًا عام ٥٢٣م، تحوّلت الديانة الرسمية من المسيحية إلى اليهودية. إذ تمكّن «ذو نُواس» -الذي كان يعتنق اليهودية- من دحر الحبشيين المسيحيين، الذين مثّلوا القوة العسكرية للروم الشرقية في اليمن، وفرض اليهودية دينًا رسميًا. وشهدت هذه الفترة إقدامه على مذبحه راح ضحيّتها ٣٠٠ من مسيحيي نجران لامتناعهم عن اعتناق اليهودية. وقد خلّد القرآن الكريم ذكر هؤلاء القتلى بوصفهم «أصحاب الأُخدود»^١.

وعقب عودة الحبشيين إلى اليمن مجددًا -بقيادة أبرهة هذه المرّة- استعادت المسيحية صفتها الرسمية. وفي غضون ذلك، أي عام ٥٧٠م، شنّ أبرهة هجومه على مكّة بدافع المنافسة التي نشبت بين كنيسة صنعاء (القليس) والكعبة المشرفة^٢.

ويُستشفّ من المصادر المتناثرة أنّ اتحاد قبائل كِنْدَة -الذي انحدر رؤساؤه من جنوب الجزيرة (اليمن)- كان له حضور سياسي بارز في أواسط وشمال شبه الجزيرة خلال القرن الخامس الميلادي. وقد نجحوا في نسج علاقات مع الروم والفرس، وحلفائهم العرب كاللخميين والغساسنة. ويُرجّح أنّ المسيحية تسرّبت إلى شمال ووسط الحجاز عن طريقهم، وتحديدًا من خلال تنصّر زعيم قبيلة كِنْدَة، الحارث بن عمرو، في مطلع القرن السادس الميلادي^٣.

وخلافًا لليهود، لم يتركز أتباع الديانة المسيحية في الحجاز في مناطق جغرافية محدّدة. فقد كان للمسيحية أتباع في شمال الحجاز، كما في دومة الجندل وتيّماء^٤. وتشير بعض

١. البروج: ٤.

٢. حول توزع المسيحيين في شبه الجزيرة وما حولها، انظر:

Fiey, "Naṣārā," *EP* 7: 971; Brice et al., "al-Yaman," *EP* 11: 271; Kritzeck et al., "ARABIA," 1: 619-20.

3. Griffith, "Christians and Christianity," *EQ* 1: 309.

٤. زرياب خويي، بزم آورد، ٢٤٨.

الروايات إلى وجود مسيحيين في مكّة ممّن تحوّلوا إليها عن الوثنية^١. فيما عزا البعض المعرفة الأولية لأهل مكّة بالمسيحية إلى رحلاتهم التجارية صوب الشام^٢. ولئن ورد في العهد الجديد أنّ بولس الرسول قد سافر إلى العربية^٣، وأنّ العرب كان لهم خمسة ممثّلين في مجمع نيقية المسيحي في الإمبراطورية الرومانية الشرقية خلال القرن الرابع الميلادي^٤، إلّا أنّ خارطة توزّع المسيحيين في الحجاز لا تزال تكتنفها الضبابية.

وقد أطلق القرآن الكريم على المسيحيين تسمية «النصارى»^٥. كما أوردت مصادر السيرة النبوية وقائع جمعت النبي ﷺ ببعض الشخصيات المسيحية مثل الراهب «بحيرا» في بُصرى الشام، و«ورقة بن نوفل» في مكّة، اللذين بشرّا بنوّة محمد ﷺ^٦. أمّا في العهد المدني واتّساع رقعة الدولة الإسلامية، فلم يرد ذكر للمسيحيين إلّا في سياق وفد نصارى نجران إلى المدينة ومحاجتهم النبي ﷺ في شأن عيسى عليه السلام، وهو ما أفضى في النهاية إلى واقعة المباهلة^٧.

وقد كان لمسيحيي نجران وكنيستهم اليعقوبية حضور لافت بين عرب شبه الجزيرة في القرن السادس الميلادي^٨. وبطبيعة الحال، فإنّ الكمّ المعتر من الآيات

١. انظر: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ١: ٢٥١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ١: ٣٧٨؛ ابن الأثير، الكامل، ١: ٨١-٨٢.

٢. جبران وآل ثاني، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام، ٢٩٨.

٣. رسالة غلاطية ١: ١٧.

4. Griffith, "Christians and Christianity," *EQ* 1: 307-8.

٥. البقرة: ٦٢، ١١١، ١١٣، ١٢٠، ١٣٥، ١٤٠؛ آل عمران: ٥٢؛ المائدة: ١٤، ١٨، ٥١.

٦. ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ١٨٠ و ٢٣٨.

٧. انظر: قسم السيرة، واقعة المباهلة.

8. Griffith, "Christians and Christianity," *EQ* 1: 309.

القرآنية التي تعرّضت للمسيحيين وعقائدهم، يؤثّر بوضوح على انتشار الوجود والفكر المسيحي في شبه الجزيرة العربية، والحجاز بصفة خاصّة.

المكانة الاجتماعية لأسرة النبي ﷺ في مكّة

سبق الذكر أنّ مكّة تُعدّ من حواضر الحجاز الرئيسة، وقد اكتسبت أهميّة استثنائية بفضل موقعها الجغرافي وازدهار الحركة التجارية فيها. وقد رزحت هذه المدينة بدايةً تحت سيطرة قبيلة خُزاعة، إلى أن تمكّن قُصيّ بن كِلاب -الجد الخامس للنبي ﷺ- من تولّي سدانة الكعبة وإدارة شؤونها^١. وفي رواية أقرب ما تكون إلى الأسطورة، يُذكر أنّ الإسكندر المقدوني قد عهد بولاية مكّة إلى النّضر بن كِنانة، الجد الثالث عشر لرسول الله ﷺ^٢.

كان هاشم بن عبد مناف -الجد الثالث للنبي ﷺ- شخصية ذات نفوذ واسع في مكّة، وقد تولّى مسؤولية وفادة حجاج بيت الله الحرام. وترجع شهرته ونفوذه إلى عام المجاعة الذي ضرب الحجاز؛ إذ جلب كمّيات وفيرة من الخبز من الشام إلى مكّة، ونحر إبله، وأطعم الحجاج الخبز واللحم. ومن هنا لُقّب بـ«هاشم»؛ لأنّه كان يهشم الثريد والخبز لإطعام الحجاج^٣. ولم يكن ذلك سبب شهرته الوحيد؛ فقد تقلّد منصبين رفيعين هما سقاية الحجاج وإطعامهم، وبذل في سبيلهما جزءاً كبيراً من ماله^٤.

ومن مآثر هاشم الأخرى، إبرامه للمعاهدات التجارية التي أفضت إلى ازدهار تجارة مكّة. ويرى المؤرّخون أنّه كان أوّل من سنّ رحلة الشتاء التجارية إلى اليمن والحبشة،

١. انظر: الحموي، معجم البلدان، ٥: ١٨٤-١٨٧.

٢. الدينوري، الأخبار الطوال، ٣٣-٣٤.

٣. انظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١: ٧٥؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ١: ٥٩.

٤. ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ١٣٥-١٣٦.

ورحلة الصيف إلى الشام^١. وبحكم خبرته التجارية السابقة مع الشام واليمن، عَزَم هاشم على تنظيم تجارة قريش وحضهم على تسيير رحلتين سنوياً^٢. كما كاتب النجاشي، حاكم الحبشة، طالباً منه السماح لتجار قريش بدخول أراضيه لممارسة التجارة^٣.

وسعيًا منه لتأمين القوافل التجارية، أبرم هاشم معاهدات مع رؤساء وزعماء القبائل القاطنة على طول الطريق الممتد من مكة إلى الشام. وبموجب هذه المعاهدات، تكفلت قوافل قريش بنقل بضائع تلك القبائل إلى الشام دون مقابل، نظير تعهد القبائل بحماية القوافل وتأمين طريقها^٤.

وقبل ذلك، كان قُصَيّ بن كِلاب -جدّ هاشم- شخصية محورية ذات ثقل في مكة؛ فقد قام بتقسيم مكة إلى أربعة خطط (أرباع) لتيسير إدارتها. كما أسّس «دار الندوة» لتكون مقرّاً للبتّ في جلائل الأمور كعقود الزواج وإبرام المواثيق. وعمد كذلك إلى توزيع المهام المتعلقة بالكعبة على أبنائه^٥.

ومع ذلك، يُعزى الفضل الأكبر في عظمة قريش وشوكتها في الحجاز إلى هاشم؛ فقد بلغت هيئته مبلغاً جعل قريشاً تأمن غوائل العدوان ما دام حياً بين أظهرهم^٦. وخلاصة القول، إنّ أسرة النبي ﷺ لم تحظْ بمكانة مرموقة وشهرة واسعة في مكة فحسب، بل امتدّ صيتها وتأثيرها ليشمل سائر أرجاء الحجاز.

١. م. ن.، ١: ١٣٦.

٢. انظر: الفخر الرازي، التفسير الكبير، ٣٢: ١٠٠؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٥: ٢٠٢.

٣. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١: ٧٨.

٤. م. ن.، ١: ٧٨؛ يعقوبي، تاريخ يعقوبي، ١: ٢٤٣.

٥. الحموي، معجم البلدان، ٥: ١٨٦-١٨٧.

٦. يعقوبي، تاريخ يعقوبي، ١: ٢٤٤.

من المولد إلى المبعث

ولادة النبي ﷺ ونشأته

كانت مولد النبي محمد ﷺ في «شعب أبي طالب» بمكة المكرمة^١. وكانت ولادته الميمونة يوم الجمعة، السابع عشر من شهر ربيع الأول^٢، في العام المعروف بـ«عام الفيل»، الموافق لسنة ٥٧٠ للميلاد. أبوه عبد الله بن عبد المطلب ﷺ، وأمه السيدة آمنه ؓ.

تُوِّفِّي والده ﷺ وهو لم يولد بعد. وقد أرضعته أمه فترة وجيزة، ثم -جرياً على عادة أشراف مكة- سَعَتْ لالتماس مرضعة له من أهل البادية؛ إذ دأب المكِّيون آنذاك على استرضاع أطفالهم في بوادي مكة طلباً لسلامة النشأة وفصاحة اللسان. وقد قدمت حليلة السعدية -وهي من نساء بني سعد- مع صواحب لها إلى مكة بحثاً عن رضيع تكفله. وفي بادئ الأمر، ترددت في قبول وليد آمنه ليُتممه، إذ كان قبول الطفل اليتيم

١. تحوّل مكان ولادته ﷺ في عهد هارون الرشيد العباسي إلى مسجد، وظلّ مزاراً للمسلمين لقرون عديدة، إلى أن قام الوهابيون بهدمه في العصر الحديث.

٢. الكليني، الكافي، ١: ٤٣٩؛ المسعودي، إثبات الوصية، ١١٤؛ المفيد، المقنعة، ٤٥٦؛ الطوسي، تهذيب الأحكام، ٦: ٢؛ الطبرسي، إعلام الوري، ١: ٤٢.

أمرًا تشوبه المشقة لقلة العائد المادي المتوقع، بيد أن حليمة لم تجد رضيعًا غيره، فآل بها الأمر إلى قبول إرضاع النبي ﷺ. وقد مكث في حضانتها ورعايتها زهاء خمس سنوات^١. لم يمض وقت طويل على عودته إلى مكة حتى وافت المنية أمه ﷺ، فكفله جده عبد المطلب ﷺ. كان عبد المطلب سيّد قريش في مكة وصاحب المكانة المرموقة فيها. وقد أولى حفيده حبًّا جمًّا واختصّه بمودة عميقة؛ حتى نُقل أنّه لم يكن يمسّ الطعام إلّا بحضوره، وكان يحرص دومًا على إجلاله وتقريبه منه. وحين زجر أحد أهل مكة النبي ﷺ بفظاظة طالبًا منه التنحي عن مجلس جده، انتهره عبد المطلب ﷺ قائلاً: «دع ابني فإنّ الملك قد آتاه»^٢.

فقد محمد ﷺ رعاته واحدًا تلو الآخر؛ فما لبث أن حان حين وداع جده عبد المطلب ﷺ، الذي عهد بكفالته قبيل وفاته إلى ولده أبي طالب ﷺ. وكان أبو طالب -بعد وفاة أخيه عبد الله- أقرب الأبناء إلى أبيه، وأعظمهم قدرًا عند قريش. وقد جدّ أبو طالب ﷺ، امتثالاً لوصية أبيه وبمؤازرة من زوجته، في إكرام محمد ﷺ ورعايته حتى اشتدّ عوده وبلغ مبلغ الرجال^٣. وقد أحبّت فاطمة بنت أسد ﷺ، زوجة أبي طالب، رسول الله ﷺ حبًّا لفلذة كبدها، وتفانت في رعايته وخدمته؛ حتى أنّ النبي ﷺ كان ينادي تلك السيّدة الجلييلة بـ«أمّي»^٤.

وظلّ رسول الله ﷺ بارًّا بها يتردّد على زيارتها في منزلها حتى بعد انقضاء عهد الطفولة^٥. وقد بلغ من حبّ النبي ﷺ لتلك السيّدة العظيمة أنّه لما نعاها إليه ولدها

١. البكري، الأنوار، ١٩٣-٢٠٤.

٢. الكليني، الكافي، ١: ٣٧٢.

٣. البكري، الأنوار، ١٧٦.

٤. المسعودي، إثبات الوصية، ١٣٦-١٣٧.

٥. سبط ابن الجوزي، تذكرة الخواص، ٢٠.

عليه السلام، بكى وقال: «رحم الله أمك يا علي، أما إنها إن كانت لك أمًّا فقد كانت لي أمًّا»^١. ثم تولى النبي ﷺ الصلاة عليها فكبر أربعين تكبيرة، واضطجع في لحدها وتلا شيئاً من القرآن ثم خرج ولقنها. فقال له عمار بن ياسر: «فداك أبي وأمي يا رسول الله، لقد صليت عليها صلاة لم تصل على أحد قبلها مثل تلك الصلاة»، فأجاب ﷺ:

وأهل ذلك هي مني، ولقد كان لها من أبي طالب ولد كثير ولقد كان خيرهم كثيراً وكان خيرنا قليلاً، فكانت تشبيني وتحبهم، وتكسوني وتعريهم، وتدهنني وتشعثهم... يا عمار، النفث عن يميني فنظرتُ إلى أربعين صفًّا من الملائكة، فكبرتُ لكل صف تكبيرة... إنَّ الناس يحشرون يوم القيامة عراة، فلم أزل أطلب إلى ربِّي عزَّ وجلَّ أن يبعثها ستيرة. والذي نفس محمد بيده، ما خرجتُ من قبرها حتى رأيتُ مصباحين من نور عند رأسها، ومصباحين من نور عند يديها، ومصباحين من نور عند رجلها، وملكاها الموكلان بقبرها يستغفران لها إلى أن تقوم الساعة^٢.

واقعة أصحاب الفيل

حينما أدرك أبرهة، حاكم اليمن الذي كان يدين بالمسيحية، ما تتمتع به مكة من قداسة ومركزية، ورأى تقاطر الناس لزيارة الكعبة من كل حذب وصوب وما يدره ذلك من نماء اقتصادي على المدينة، عمَد إلى تشييد كنيسة في صنعاء أطلق عليها اسم «القليس». وكتب إلى ملك الحبشة -الذي كان يشاركه المعتقد- رسالة جاء فيها: «إني قد بنيتُ لك كنيسة، لم يبن مثلها أحد قط. ولستُ تاركاً العرب حتى أصرف حجَّهم عن بيتهم الذي يحجُّونه إليه»^٣.

١. الصدوق، الأُمالي، ٣١٤؛ وانظر أيضاً: الكليني، الكافي، ١: ٤٥٣.

٢. الصدوق، الأُمالي، ٣١٤-٣١٥.

٣. ابن الكلبي، الأصنام، ٤٦-٤٧.

إن كنيسة أبرهة لم تلقَ القبول المأمول لدى الناس، بل بلغ الأمر ببعض من أهل الحجاز حدّ الازدراء وتدنيس الكنيسة، تعبيراً عن سخطهم^١. واتَّخذ أبرهة -الذي كان يتحَيَّن الفرصة لهدم الكعبة- من هذا التصرف المُهين ذريعةً له؛ فجهَّز في عام ٥٧٠م جيشاً جرّاراً تتقدّمه الفيلة، ويمّم وجهه شطر مكّة عازماً على إزالة الكعبة من الوجود، ليصرف وجوه الناس وأنظارهم إلى اليمن^٢. وقد تصدّى له سيدان من سادات اليمن، هما ذو نَفر ونُفيل بن حبيب الحُثَعمي، إلّا أنّ الغلبة كانت لأبرهة، ووقعاً في الأسر^٣.

لما دنا الجيش من مشارف مكّة، بعث أبرهة رسولاً ليفاوض سيّد مكّة. وأرسل معه رسالة إلى عبد المطلب ﷺ، زعيم قريش، مفادها: «إني لم آتٍ لحربكم، إنّما جئتُ لهدم هذا البيت»^٤، فأجاب عبد المطلب ﷺ مبعوث أبرهة قائلاً: «والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة. هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم ﷺ... فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمة، وإنْ يُخلّ بينه وبينه، فوالله ما عندنا دفع عنه»^٥.

وكان جيش أبرهة قد أغار على أموال قريش ونهب إبلاً لعبد المطلب ﷺ. فانطلق عبد المطلب لمقابلة أبرهة وطلب منه ردّ الإبل إليه، فتعجّب أبرهة وقال: «قد كنتُ فيك راغباً، فزهدت. تسألني إبلك وتترك بيتك الذي هو دينك؟»، فأجابه عبد المطلب ﷺ بعبارته الخالدة: «أنا ربّ هذه الإبل وللبيت ربّ إن شاء منعه»^٦. فاغترّ

١. ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٤٥.

٢. الدينوري، الأخبار الطوال، ٩٢.

٣. المقرئ، إمتاع الأسماع، ٤: ٧٤.

٤. ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٤٨.

٥. م. ن.

٦. المقدسي، البدء والتاريخ، ٣: ١٨٧.

أبرهة وقال: «ما كان ليمنتع مني»، ثم أمر بردّ الإبل إليه وعاد عبد المطلب ﷺ إلى قريش، فأمرهم بالخروج من مكّة والتحصّن في شعاب الجبال، خشيةً عليهم من معرة الجيش^١. وحين خلّت مكّة من أهلها، أتى عبد المطلب ﷺ باب الكعبة، وأمسك بحلقة الباب، وراح يبتهل إلى الله ويتضرّع إليه أن يصون بيته المحرّم من كيد المعتدين^٢.

ما إن تحرّك جيش أبرهة صوب الكعبة، حتى أظلت السماء أسراباً عظيمة من الطيور، «طير أبابيل»، حجبت بكافتها ضوء الشمس، يحمل كلّ طير منها حجارة في منقاره، فراحت تمطر الغزاة بها. فكان الحجر يقع على الجندي فيهرس جسده ويهلكه في الحين. وهكذا حلّت الهزيمة الساحقة بجيش أبرهة، ولم ينج منهم إلا القليل الذين فروا هاربين صوب اليمن^٣.

وقد خلّد القرآن الكريم هذه الحادثة في سورة «الفيل». وتيمّناً بهذه الواقعة العظيمة، سُمّي ذلك العام بـ«عام الفيل»، وازدادت مكانة قريش تعظيماً وتشريعاً في عيون العرب كافة.

١. ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٥٠.

٢. المقدسي، البدء والتاريخ، ٣: ١٨٧.

٣. ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٥٣.

مرحلة الشباب

رافق محمد ﷺ عمّه أبا طالب ﷺ في رحلات تجارية عدّة؛ كانت أولها رحلته إلى الشام. وفي أثناء المسير، التقيا براهب مسيحي يدعى «بُحيرا». وقد بشر بُحيرا أبا طالب ﷺ بأنّ ابن أخيه سيكون نبيّ هذه الأمة، وألحّ عليه في ردّه إلى مكّة؛ معلّلاً ذلك بأنّ دلائل نبوّته مسطورة في كُتب اليهود، ويخشى عليه أن يناله منهم كيد أو أذى. فعمل أبو طالب ﷺ بوصيّته، وقفل راجعاً به من دير الراهب إلى مكّة^١.

وفي الخامسة والعشرين من عمره الشريف، شدّ النبي ﷺ الرحال إلى الشام للمرّة الثانية^٢. وقد تزامن ذلك مع فترة عصيبة مرّ بها أهل مكّة، حيث عانى السكّان من ضائقة معيشية خانقة. وكانت السيّدة خديجة ﷺ -وهي من أثرى نساء مكّة- تدفع مالها إلى من تثق بهم للتّجار به في الشام وجني الأرباح. ومن هذا المنطلق، حتّ أبو طالب ﷺ ابن أخيه على خوض غمار التجارة وفق هذا الأسلوب؛ بيد أنّ محمّداً ﷺ لم يستجب لهذا المقترح عَفّةً وترفعاً عن الطلب. ولمّا بلغ خديجة ﷺ ذلك، بادرت هي بالعرض على محمّد ﷺ، ومنحته من البضاعة أضعاف ما كانت تمنحه لغيره؛ لما عهدته فيه من صدق الحديث، وعظيم الأمانة، وكريم الأخلاق^٣.

الزواج من السيّدة خديجة ﷺ

كانت خديجة ﷺ في طليعة نساء قريش فضلاً ومكانة؛ سيّدةً جمعت بين الثراء والعفّة والطهارة، حتّى لُقبت بـ«سيّدة قريش» وعُرفت بـ«الطاهرة»^٤. وقد حدث هذه

١. م. ن. ١، ١٨٠-١٨٣.

٢. الإربلي، كشف الغمّة، ٢: ١٣٥.

٣. ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ١٨٧-١٨٨.

٤. راجع: العسقلاني، الإصابة، ٤: ٢٨١-٢٨٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢: ٢٩٤؛ الذهبي، تاريخ

الخصال الرفيعة بكبار رجالات قريش إلى تمّني الاقتران بها^١؛ فكان من جملة خاطبيها: عُقبة بن أبي مُعَيْط، والصَّلْت بن أبي يَهَاب، وأبو جهل، وأبو سفيان^٢. بيد أن تلك السيّد الجليّة ردّت حُطّابها من ذوي الجاه، واصطفت رسول الله ﷺ؛ إذ كانت خبيرةً بما يتحلّى به من مكارم الأخلاق وسموّ السجايا، فدفعتها رغبتها الصادقة إلى الإفصاح عن مكنون خاطرها في الزواج منه ﷺ.

كان عُمر النبي ﷺ خمسًا وعشرين سنة حين خطب له عمه أبو طالب ﷺ السيّد خديجة ﷺ، التي كانت آنذاك في الثامنة والعشرين من عمرها^٣. ولما كانت السيّد خديجة ﷺ قد فقدت أباهما قبل سنوات، فقد توجّه أبو طالب ﷺ بصحبة رهطه لخطبتها من عمّها، عمرو بن أسد^٤.

وفي مجلس الخطبة، استهلّ عمّ النبي ﷺ حديثه بالثناء على الله، ثمّ شرع في التعريف بابن أخيه، واصفًا إياه بأنّه رجل لا يُوزن به رجل من قريش إلّا رجع عليه، وأنّ الرجال تتصاغر أمام عظمتة^٥. وقد حُدّد مهرها بخمسمائة درهم^٦، تكفّل بها

الإسلام، ١٥٢: ١ و ٢٣٧؛ النووي، تهذيب الأسماء، ٢: ٣٤٢.

١. راجع: ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ١٨٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢: ٢٩٤؛ الديار بكرى، تاريخ الخميس، ١: ٢٦٣.

٢. البكري، الأنوار، ٢٤٤.

٣. ابن العماد، شذرات الذهب، ١: ١٤؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢: ١١١؛ ابن منظور، مختصر تاريخ مدينة دمشق، ٢: ٢٥٧؛ المجلسي، بحار الأنوار، ١٦: ١٢. تجدر الإشارة إلى وجود اختلافات في المصادر التاريخية حول سن السيّد خديجة ﷺ حين الزواج، حيث ذكر البعض أنّها كانت في الأربعين (انظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٨: ١٧٤).

٤. الإربلي، كشف الغمّة، ٢: ١٣٩؛ المجلسي، بحار الأنوار، ١٦: ١٢ و ١٩.

٥. الكليني، الكافي، ٥: ٣٧٤-٣٧٥؛ المجلسي، بحار الأنوار، ١٦: ١٤ و ١٦.

٦. الحلبي، السيرة الحلبية، ١: ١٣٨-١٣٩.

أبو طالب ﷺ، غير أنّ خديجة ﷺ بادرت بأداء المهر من خالص مالها. وقد ثقل هذا الأمر على كثيرين، فقالوا متهمكين: «يا عجباً! المهر على النساء للرجال؟!». فأجابهم أبو طالب ﷺ: «إذا كانوا مثل ابن أخي هذا، طلبت الرجال بأعلى الأثمان، وأعظم المهر»^١.

لقد شكّلت ثروة خديجة ﷺ الرافد المالي الأساسي لتغطية نفقات الدعوة الإسلامية في مهدها. وفي هذا الصدد قال رسول الله ﷺ: «ما نفعتي مألٌ قطّ، ما نفعتي مألٌ خديجة»^٢. فكان ﷺ ينفق من هذا المال في مكّة لفكّ الغارمين، وعتق الرقاب، وإغاثة الضعفاء والمحتاجين، وإطعام فقراء الصحابة، وتجهيز مَنْ عَزَمَ منهم على الهجرة^٣.

حلف الفضول

كان لعبد المطلب ﷺ ابنٌ يُدعى الزُّبيرُ، بادر عقب حرب الفجار إلى تأسيس حركة إنسانية نبيلة تمثلت في «حلف الفضول». وكان الباعث وراء عقد هذا الحلف هو التصدي للظلم والجور الذي مارسه بعض قريش بحقّ المستضعفين ومَنْ لا ناصر لهم في مكّة^٤.

تعود تفاصيل الحادثة إلى حدود السنة العشرين من عام الفيل، الموافق ٥٩٠م، حين قدم رجل من مدينة زَبِيد اليمانية ببضاعة له إلى مكّة؛ فاشترى بضاعته منه العاص بن وائل السَّهْمِي، والد عمرو بن العاص، غير أنّه ماطله في دفع ثمنها. فاستدعى

١. الكليني، الكافي، ٥: ٣٧٥.

٢. الطوسي، الأمالي، ٤٦٨؛ المجلسي، بحار الأنوار، ١٩: ٦٣.

٣. المجلسي، بحار الأنوار، ١٩: ٦٣.

٤. هو غير الزبير بن العوام الذي حارب أمير المؤمنين ﷺ وقتل في معركة الجمل.

٥. يعقوبي، تاريخ يعقوبي، ٢: ١٧.

الرجل اليميني قريشاً عليه واستنجد بهم لاسترداد حقّه، فلم يُعْثَ أحد. ومن هنا، وسعيًا لإحقاق حقّه وإشهار ظلامته، اعتلى جبل أبي قُبَيْس المشرف على المسجد الحرام، ووقف منادياً بأعلى صوته بأبيات شعرية يستصرخ فيها القوم لرفع الظلم عنه^١.

كان الزُبَيْر بن عبد المطلب -عم الرسول الأكرم ﷺ وأحد سادات قريش وأشرافها- أوّل مَنْ دعا إلى حلف الفضول وحثّ الناس عليه^٢. وإثر ذلك، تداعت بعض بطون قريش^٣ للاجتماع في دار النَّدْوَة، التي كانت مقرّاً لحلّ العقد وإبرام الأمور^٤. وهناك، غمسوا أيديهم في إناء يحوي ماء زمزم، وتعاهدوا فيما بينهم على أن لا يجدوا بمكّة مظلوماً إلّا نصره، وكانوا يدًا واحدة على الظالم حتّى يأخذوا الحقّ منه، وأن يتصدّوا للظلم والفواحش، ويجذبوا على الفقراء والمظلومين^٥. ولقد بلغ هذا الحلف من الأهميّة وشرف المنزلة في الجاهلية مبلغًا جعلهم يتخذونه مبدأً لتأريخ الأحداث^٦. كما عدّ البعض حلف الفضول أشرف حلف عُقد بين العرب حتّى ذلك الحين^٧.

١. البلاذري، أنساب الأشراف، ٢: ٢٣؛ المسعودي، مروج الذهب، ٣: ٩.

٢. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١: ١٠٣؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٤: ١٣٠.

٣. بطون قريش التي شاركت في هذا الحلف هي: بنو هاشم، وبنو المطلب (أبناء عبد مناف)، وبنو زهرة بن كلاب، وبنو تيم بن مرة، وبنو أسد بن عبد العزّى بن قُصَي (ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ١٤١؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ٢: ٢٣؛ ابن حبيب، المحبّر، ١٦٧).

٤. المسعودي، مروج الذهب، ٣: ٩.

٥. ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ١٣٣-١٣٤؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١: ١٠٣؛ ابن حبيب، المنقّى، ٥٣.

٦. المسعودي، التنبيه والإشراف، ٢٠٩.

٧. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٥: ٢٠٣.

إعادة بناء الكعبة

في عام ٦٠٥ للميلاد، أي قبل البعثة النبوية بخمس سنوات^١، اجتاح مكة سيلٌ جارف أدى إلى تصدّع جدران الكعبة وتخريبها. ويبدو أنّ حريقًا سابقًا كان قد نال من أستار الكعبة بسبب شرارة تطايرت من مجمرة إحدى النساء، ممّا أدى إلى وهن الأحجار وإضعاف تماسك البنيان^٢؛ الأمر الذي جعل الكعبة عاجزة عن مقاومة ذلك السيل العَرم.

وإزاء ذلك، عازمت قريش على تجديد بناء بيت الله. ونظرًا للمكانة المقدسة التي يحتلّها هذا البيت في نفوسهم، فقد تحرّوا أن تكون نفقات البناء من مالٍ طيّب حلال، متجنّين إدخال أيّ مال مكتسب من مهر بغي، أو ربا، أو القمار، أو مَظْلَمَة أحد^٣. قد هبّت بطون قريش والقبائل الأخرى للعمل بجَدٍّ وتفانٍ، وقسّم سادة قريش العمل بحيث اختصّت كلّ قبيلة ببناء جانب محدّد. وكان من الطبيعي في حدث جليل كهذا أن تحتدم المنافسة بين القبائل، سعيًا من كلّ طرف لنيل قصب السبق والفخر. ولما اكتمل البنيان وحان وقت وضع «الحجر الأسود» في موضعه الخاصّ، دبّ خلافٌ حادّ بين القبائل حول من ينال هذا الشرف العظيم. واشتدّ النزاع حتّى كاد يفضي إلى اقتتال دام؛ إذ عمدت بعض القبائل إلى غمس أيديهم في جفنة مملوءة بالدم، وتحالفوا على أن يظفروا بهذا الشرف أو يموتوا دونه^٤.

١. ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ١٩٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢: ٣٠٠.

٢. الصنعاني، المصنف، ٥: ١٠٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢: ٣٠٠.

٣. ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ١٩٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢: ٣٠١؛ الحلبي، السيرة الحلبية، ١: ١٤١.

٤. ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ١٩٦-١٩٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢: ٣٠٣. يُعرف هذا الحلف تاريخيًا بـ«لَعَنَة الدم».

وفي خضمّ هذه الأزمة، لآحَ في الأفق اقتراح تقدّم به أحد شيوخ قريش، وهو أبو أميّة بن المغيرة -والد أمّ سلمة التي تزوّجها النبي ﷺ لاحقاً- وكان سبباً في تغيير مسار الأحداث. قضى الاقتراح بأن يُحكّموا في أمرهم أوّل داخل عليهم من «باب السلام». وشاءت الأقدار أن يكون محمّد ﷺ أوّل القادمين. فلمّا أبصره القوم هتفوا مستبشرين: «هذا الأمين، رضينا، هذا محمّد».

وبعد أن استمع النبي ﷺ إلى تفاصيل الخلاف، أمر بإحضار ثوب. ثمّ وضع الحجر الأسود في وسطه، وطلب من رؤساء القبائل أن يمسك كلّ واحد منهم بطرف من أطراف الثوب، ليرفعوا الحجر جميعاً، وبذلك يكون الجميع قد نال شرف المشاركة. فلمّا رفعوا الحجر وحاذوا به موضعه، تناوله النبي ﷺ بيده الشريفة ووضعوه في مكانه^١. وهكذا، وبفضل الحكمة البالغة التي تجلّت في تدبيره ﷺ، دُرأت فتنة عمياء كادت تشعل نار الحروب والعداوات القبلية وتسفك الدماء.

١. ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ١٩٧.

من المبعث إلى الهجرة

المبعث النبوي

بلغ محمد ﷺ الأربعين من عُمره الشريف حين اصطفاه الله تعالى للنبوّة. وقد وافق مبعثه المبارك اليوم السابع والعشرين من شهر رجب في العام ٦١٠ للميلاد^١.
ولسنوات طوال، دأب ﷺ على الخلوة في «غار حراء»؛ متحنّثاً ومتأملاً، صوناً لصفاء سريرته، ونأياً بنفسه عن أجواء الشرك التي كانت تحيّم على مكّة. وهناك في معبده، تنزل عليه الوحي لأوّل مرة، وكان ﷺ قد تنهى إلى سمعه صوتُ ملك الوحي قبيل بعثته أيضاً^٢. ومع ذلك كلّه، استشعر النبي ﷺ عبئاً ثقيلاً ومسؤولية عظيمة أُلقيت على كاهله مع نزول الآيات الأولى من سورة «العلق»^٣.

وفي هذا الصدد، يصف الإمام علي عليه السلام تلك اللحظات في «الخطبة القاصعة» قائلاً:
«ولقد كان يجاور في كلّ سنة بحراء فيراه ولا يراه غيري... ولقد سمعتُ رنة الشيطان

١. الكليني، الكافي، ٤: ١٤٩؛ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ٢: ٩٠؛ الطوسي، تهذيب الأحكام، ٣: ١٨٥؛

الطوسي، مصباح المتعبد، ٢: ٨١٣.

٢. انظر: اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢: ٢٢.

٣. ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٢٣٦-٢٣٧.

حين نزل الوحي عليه ﷺ، فقلت: يا رسول الله ما هذه الرنة؟ فقال: هذا الشيطان، قد أيس من عبادته. إنك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى، إلا أنك لست بنبي، ولكنك لوزير وإنك لعل خير^١.

وكان علي ﷺ أول من بادر إلى الإسلام واتباع النبي ﷺ^٢، وقد نوّه النبي ﷺ بهذه الحقيقة مراراً في حديثه؛ فخاطب علي بن أبي طالب ﷺ في أحد المواضع قائلاً: «أنت أول من آمن بي، وأنت أول من يصافحني يوم القيامة، وأنت الصديق الأكبر...»^٣. أما ثاني المسلمين، فكانت السيدة خديجة ﷺ، الزوجة الكريمة للرسول الأكرم ﷺ، وهي بذلك أول امرأة اعتنقت الإسلام^٤.

١. الشريف الرضي، نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢.

٢. انظر: الأميني، الغدير، ٣: ٩٥-٩٦ و ٩٩ و ٢٢٤-٢٣٦، و ٩: ١١٥ و ١٢٢، و ١٠: ١٥٦ و ١٥٨ و ١٦٤ و ١٦٨ و ٢٩٠ و ٣٢٢. تجدر الإشارة إلى أنه في بعض المصادر التاريخية والحديثية، عُدَّ زيد بن حارثة أو أبو بكر أول المسلمين، وغالبًا ما يستند هذا الرأي إلى ابن شهاب الزهري (ت. ١٢٤هـ) أو إبراهيم النخعي (ت. ٩٦هـ) (انظر على سبيل المثال: الصنعاني، المصنف، ٥: ٣٢١؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣: ٣٢؛ ابن أبي شيبة، المصنف، ٦: ٣٧١ و ٧: ١٢ و ٢٤٩ و ٢٦٣ و ٣٦٣). ومع ذلك، وبالنظر إلى تواتر القول بأنَّ عليًّا هو أول المسلمين، فلا يمكن الركون إلى صحّة الرأي الآخر. ولهذا السبب، لم يحظَ القول بتقدّم إسلام أبي بكر أو زيد بن حارثة بقبول غالبية المؤرخين والمحدثين من أهل السنّة.

٣. ابن أبي خيثمة، أخبار المكيين، ١٧٩؛ ابن أبي خيثمة، التاريخ الكبير، ١: ١٦٥؛ البزار، البحر الزخار، ٩: ٣٤٢؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ٤٦: ٣٩١؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٣: ٧٩؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، ٤: ١٧٤٤؛ ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ٤٢: ٤١-٤٣؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ٥: ٢٧٠؛ العسقلاني، الإصابة، ٧: ٢٩٤؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٣: ٢٢٨.

٤. ابن إسحاق، كتاب السير والمغازي، ١٣٩؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٢٤٠؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣: ١٥ و ٨: ١٣-١٤؛ أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة، ١: ٥٨٩؛ أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ٥: ٤٧٥؛ ابن حبيب، المحبر، ١٠ و ٤٠٨.

الدعوة الخاصة (إنذار العشيرة)

في عام ٦١٣ للميلاد، وبعد انقضاء ثلاث سنوات على البعثة النبوية، دخلت الرسالة مرحلة جديدة ومفصلية، تمثلت في الدعوة الصريحة إلى الإسلام. فقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٤)¹.

وعند نزول هذه الآية، أمر النبي ﷺ علياً ﷺ بأن يُعِدَّ طعاماً ويدعو بني عبد المطلب. فهيئاً علياً ﷺ طعاماً يسيراً من الخبز واللبن، ودعا الأقرباء الذين ناهز عددهم يومئذٍ أربعين رجلاً. وبمعجزة من النبي ﷺ، أكل القوم جميعاً وشبعوا من ذلك الطعام اليسير. وحينما هم رسول الله ﷺ بمخاطبتهم، بادره أبو لهب قائلاً: «يا قوم! لقد سَحَرَكُم صاحبكم»؛ فنفَّرَقَ الجمع قبل أن يتمكن النبي ﷺ من الحديث إليهم.

وفي اليوم التالي، كرَّر النبي ﷺ الدعوة، وطلب من علي ﷺ إعداد الوليمة ذاتها. وفي هذه المرة، خطب فيهم قائلاً: «يا بني عبد المطلب! إنِّي والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل ممَّا جئتكم به؛ إنِّي قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه. فأيتكم يؤازرنِي على هذا الأمر، على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟»².

فأحجم القوم جميعاً، إلَّا علياً ﷺ -وكان أصغرهم سنًا- إذ نهض وقال: «أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه». فوضع النبي ﷺ يده على رقبته وقال: «إنَّ هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا». فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب ﷺ: «متهمِّمين»: «قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع!»³.

١. الشعراء: ٢١٤. انظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١: ١٥٦؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ١: ١١٨-

١٢٠؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢: ٣١٩ و ٣٢٢.

٢. لتفصيل خبر هذا المجلس المعروف بـ«حديث الدار» أو «يوم الإنذار»، راجع: أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ٢: ٢٢٥؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢: ٣٢١؛ المسعودي، إثبات الوصية، ١١٤-١١٥؛ الحسكاني،

لم تبد قريش في بادئ الأمر ردّ فعل عنيف تجاه الدعوة العلنية؛ ولكن حينما شرع النبي ﷺ في تسفيه أصنامهم وذمّ عباداتهم، لم يطيقوا صبراً، وتألّبوا عليه مع سائر مشركي مكة، معلّنين الحرب على دعوته. وفي خضمّ هذه الأحداث، كان عمّه أبو طالب ﷺ حصنه المنيع وظهيره النصير. لذا، لجأت قريش إلى أسلوب التفاوض مع أبي طالب ﷺ، وقد مرّت هذه المفاوضات بثلاث مراحل، باءت جميعها بالفشل.

في المرحلة الأولى، انطلق وفد من رجالات قريش إلى أبي طالب ﷺ وقالوا: «يا أبا طالب، إنّ ابن أخيك قد سبّ آهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا، وضلّل آباءنا؛ فإمّا أن تكفّه عنّا، وإمّا أن تُخلّي بيننا وبينه». فردّهم أبو طالب ﷺ ردّاً جيلاً، وانصرفوا عنه برفق. في المرحلة الثانية، حينما رأوا إصرار النبي ﷺ على مبدئه ومُضيّه في دعوته، عادوا إلى أبي طالب ﷺ بلغة التهديد والوعيد، منذرين إيّاه بالحرب والمنازلة إن لم يمنع ابن أخيه. وعقب انصرافهم، استدعى أبو طالب ﷺ النبي ﷺ وعرض عليه الأمر، مشفقاً عليه وراجياً منه أن يُبقي على نفسه ولا يحمله ما لا يطيق. فأجابه النبي ﷺ بكلمته الخالدة: «يا عمّ! والله لو وُضعت الشمس في يميني والقمر في شمالي، ما تركتُ هذا القول حتّى أنفذه أو أُقتل دونه». فلمّا رأى أبو طالب ﷺ عزمته، أعلن له نصرته المطلقة في كلّ الأحوال.

في المرحلة الثالثة وعند المحاولة الأخيرة، عرض المشركون على أبي طالب ﷺ مقايضة غريبة؛ إذ اقترحوا أن يسلموه عُماره بن الوليد - وكان فتىً نسيباً في قريش - ليتّخذَه ولداً، مقابل أن يسلمهم محمّداً ﷺ ليقتلوه. فانتفض أبو طالب ﷺ قائلاً: «والله لبئس ما تسومونني! أعطوني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكُم ابني تقتلونه؟ هذا والله ما لا يكون أبداً»^١.

شواهد التنزيل، ١: ٢٢٤ و ٣٧٢؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٣: ٢٤٤.

١. الطبرسي، إعلام الوري، ٣٩-٤٠.

وعقب فشل المفاوضات، أيقن أبو طالب ﷺ أن الأمور تنحدر نحو منزلق خطير، وأنّ المواجهة مع قريش باتت وشيكة. فجمع بني هاشم وبني المطلب، ودعاهم إلى حماية النبي ﷺ والذود عنه؛ فاستجابوا لدعوته جميعاً، إلّا أبا لهب الذي شدّ عنهم^١.

الإسراء والمعراج

وقعت حادثة المعراج في السنوات الأخيرة من إقامة النبي ﷺ في مكة^٢. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الواقعة في سورتي «الإسراء» و«النجم»^٣. ففي ليلة المعراج، نزل الأمين جبريل على النبي ﷺ وأحضر له دابة تُدعى «البُرّاق»، فركبها رسول الله ﷺ وانطلق شطر بيت المقدس^٤. وفي أثناء الطريق، توقّف النبي ﷺ في المدينة المنورة، ومسجد الكوفة، وطور سيناء، وبيت لحم، فصلى في هذه المواضع. ثم دخل المسجد الأقصى وصلى فيه^٥.

ومن المسجد الأقصى، عرج النبي ﷺ إلى السماء الدنيا، فالتقى فيها بآدم عليه السلام. وحيثنذ استقبلته الملائكة وسلّموا عليه. كما رأى النبي ﷺ في السماء الدنيا ملك الموت وتحدّث معه^٦. ثم صعد إلى السماء الثانية فالتقى بـيحيى وعيسى عليهما السلام. وتلا ذلك لقاءه بيوسف عليه السلام في السماء الثالثة، وإدريس عليه السلام في الرابعة، وهارون بن عمران عليه السلام في الخامسة، وبموسى بن عمران عليه السلام في السادسة^٧.

١. ابن شهر آشوب، مناقب، ١: ٥٩.

٢. الطباطبائي، الميزان، ١٣: ٢٣ و ٣٠.

٣. الإسراء: ١؛ النجم: ٨-١٨.

٤. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١: ١٩٩-٢٠٠؛ القمي، تفسير القمي، ٢: ٥؛ العياشي، التفسير، ٢: ٢٧٦-٢٧٧.

٥. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١: ١٩٩-٢٠٠؛ الطباطبائي، الميزان، ١٣: ٨.

٦. الطباطبائي، الميزان، ١٣: ٩-١٠.

٧. م. ن. ١٣: ١٢-١٣.

وفي السماء السابعة، بلغ النبي ﷺ مقامًا خاطبه فيه جبريل قائلاً: «يا محمد! تقرب إلى ربك، فقد وطئت اليوم مكانًا بكرامتك على الله عز وجل، ما وطئته قط. ولولا كرامتك، لأحرقني هذا النور الذي بين يدي»^١. لقد رويت رواية عن المحاورات التي جرت بين النبي ﷺ وبين الله تعالى في ذلك الموعد، واشتهرت باسم «حديث المعراج». وفي طريق العودة، وعقب دخوله بيت المقدس مرة أخرى، عاد النبي ﷺ إلى مكة قبل بزوغ الفجر^٢. لم تستغرق رحلة المعراج أكثر من ليلة واحدة^٣؛ فقد صلى رسول الله ﷺ العشاء في مكة قبل انطلاقه، وصلى الصبح فيها بعد عودته^٤. في صبيحة تلك الليلة، قصّ النبي ﷺ ما جرى على أهل مكة. كان قبول واقعة المعراج أمرًا عسيرًا على قريش؛ فطالبوه بوصف بناء بيت المقدس. فبيّن النبي ﷺ معالم البناء وخصائصه، فصدّقه من كان قد رأى بيت المقدس منهم. بيد أنهم لم يقتنعوا تمامًا، وطلبوا من رسول الله ﷺ دليلًا آخر على صدق قوله، وهو أن يخبرهم عن قافلة قريش. فأخبر النبي ﷺ المنكرين بأنّه رآهم في منطقة «التنعيم»، يتقدّمهم حمل رمادي اللون عليه هودج، كما أنبأهم بأن القافلة ستدخل مكة قريبًا. ولم يمض وقت طويل حتّى دخلوا المدينة، وصدّق أبو سفيان والمسافرون ما أخبر به النبي ﷺ^٥.

١. المجلسي، بحار الأنوار، ١٨: ٣٩٢؛ الطباطبائي، الميزان، ١٣: ١٨.

٢. المسعودي، إثبات الوصية، ٢١٧.

٣. الطبرسي، مجمع البيان، ٦: ٦١٢؛ المجلسي، بحار الأنوار، ١٨: ٢٨٩.

٤. العياشي، التفسير، ٢: ٢٧٩.

٥. القمي، تفسير القمي، ٢: ١٣؛ الطباطبائي، الميزان، ١٣: ١٧؛ سبحاني، فروغ ابدیت، ٣٦٩.

ولادة السيِّدة فاطمة عليها السلام

وُلدت السيِّدة الزهراء عليها السلام، ابنة الرسول الأكرم عليه السلام، بعد مرور خمس سنوات على البعثة النبوية، الموافق ٦١٥ م^١. كان النبي عليه السلام يُكنّ لابنته محبةً عميقة، وقال في معرض رده على زوجته عائشة، التي كانت تلومه على فرط هذه المحبة: «نعم يا عائشة، إنِّي لما أُسري بي إلى السماء، أدخلني جبريل الجنّة فناولني منها تفاحة فأكلتها، فصارت نطفة في صلبِي، ففاطمة من تلك النطفة، وهي حوراء أنسية، كلِّما اشتقتُ إلى الجنّة قبلتها»^٢.

الدعوة العامّة للإسلام واضطهاد المسلمين في مكّة

انطلقت مرحلة الدعوة من السرية والخاصة إلى العلنية والعامّة بنزول قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الحجر: ٩٤)^٣. وقد جهر النبي عليه السلام بدعوته للمرّة الأولى في «سوق عُكاظ»، الذي كان مُلتقى تجاريّاً وأدبياً للناس^٤. رغم تعرّض النبي عليه السلام للأذى من قبل أبي لهب وتابعيه، إلّا أنّ أبا طالب عليه السلام جدّد تأكيده على حماية النبي عليه السلام ووبّخ المعتدين. لم يؤمن في تلك الواقعة إلّا نفر قليل^٥.

حينما عجزت قريش عن ثني النبي عليه السلام عن نهج الحقّ الذي يسلكه، عمدت إلى استراتيجية مغايرة؛ إذ صبّ مشركو قريش جام غضبهم على المستضعفين من المسلمين

١. المسعودي، مروج الذهب، ٢: ٢٨٩؛ الدياربكري، تاريخ الخميس، ١: ٢٧٨؛ الطبري، ذخائر العقبى، ٥٢؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٤٣: ١٠١.

٢. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٥: ٨٧؛ الحاكم النيسابوري، المستدرک، ٣: ١٦٩؛ الصدوق، علل الشرائع، ٧٢.

٣. انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٢٦٢-٢٦٣؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢: ٣١٨؛ المقدسي، البدء والتاريخ، ٤: ١٤٦-١٤٨.

٤. انظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١: ١٦٩؛ يعقوبي، تاريخ يعقوبي، ٢: ٢٤.

٥. يعقوبي، تاريخ يعقوبي، ٢: ١٧-١٨.

والعبيد. وتواطأت القبائل على تعذيب مَنْ أسلم من أبنائها، مستخدمين شتى أساليب التنكيل غير الإنسانية، من حبس، وجلد، وتجويع، وتعطيش، وغيرها من الممارسات الوحشية.

كان أبو جهل، مع زمرة من قريش، يترصدون المسلمين؛ فإن ظفروا برجل ذي شرف ومنعة عشائرية - ولم يقدروا على إيدائه جسدياً - انهالوا عليه بالتقريع واللوم، قائلين: «تركّ دين أبيك وهو خير منك! لنسفهنّ حلمك، ولنقيلنّ رأيك، ولنضعنّ شرفك». وإن كان تاجرًا، سعوا في كساد تجارته وإفلاسه. أمّا إن كان المسلم من الفقراء والمستضعفين، أوجعوه ضربًا ونكّلوا به. وبلغ بهم الأمر أحيانًا أن يمنعوا عنهم الطعام والشراب حتّى لا يقوى أحدهم على الإستواء قائمًا، فيضطرّ -تحت وطأة التعذيب- لموافقاتهم لفظيًا والشهادة للآلات والعزى^١.

ومع ذلك، صمد ثلّة من المسلمين في وجه صنوف العذاب ورفضوا الرضوخ للمشركين. كان من هؤلاء بلال الحبشي. يُعدّ بلال من السابقين الأولين الذين أظهروا إسلامهم، فلقني جراء ذلك عذابًا شديدًا^٢. ففي إحدى الحوادث، منعوا عنه الماء يومًا وليلة، ثمّ أخرجوه إلى الرمضاء يكوونه بحرّها^٣. كان أميّة بن خلف يضع الحبل في عنقه ويسلّمه لغلّمان مكّة يطوفون به في شعابها^٤. وحين ينتصف النهار وتشدّ الهاجرة، كان أميّة يخرج به إلى بطحاء مكّة، ويأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثمّ يقول له: «لا تزال هكذا حتّى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد الآلات والعزى». فكان بلال يجيب وهو في تلك الحال: «أنا كافر بالآلات والعزى». وقد تكرر

١. ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٣٢٠.

٢. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣: ١٧٦؛ أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ١: ٦٦٧؛ ابن ماجة، السنن، ١: ٥٣.

٣. البلاذري، أنساب الأشراف، ١: ٢١١.

٤. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣: ١٧٦؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ١: ١٨٤.

إغماؤه مرارًا من شدة التعذيب^١. كما كان أبو جهل يطرحه على وجهه في حرّ الشمس ويضع الرحي عليه قائلاً: «اكفر برّب محمد»، فيجيبه بكلمة التوحيد: «أحدٌ.. أحدٌ»^٢. كذلك شارك عمر بن الخطاب -قبل إسلامه- في تعذيب المستضعفين. فقد دأب على ضرب لبيبة جارية بني مؤمل بالسوط، فإذا فتر ومّل من ضربها، قال لها مستهزئاً: «إني أعتذر إليك، إني لم أتركك إلّا ملالة»^٣.

وقد ارتقى بعض المسلمين شهداء تحت وطأة هذا التعذيب الوحشي. وكان أوّل شهداء الإسلام والدّي عمار بن ياسر؛ إذ قضت أمّه سُميّة نحبها تحت تعذيب أبي جهل، ولحق بها زوجها ياسر شهيداً جراء التنكيل^٤.

الهجرة إلى الحبشة

لم يعد بوسع المسلمين تحمّل تلك الظروف القاسية التي أحاطت بهم؛ إذ كان استمرار الوضع على ما هو عليه ينذر بتهديد وجودي للإسلام، ويصدّ الناس عن اعتناقه لما يرونه من اقترانه بالرعب والعذاب والمصائب. ولهذا السبب، أصدر النبي ﷺ أمره في السنة الخامسة للبعثة/ ٦١٥ م لثلة من المسلمين بالهجرة إلى الحبشة^٥.

وقد اختار النبي ﷺ الحبشة من بين سائر البلدان لتكون ملاذاً لأصحابه. ويكمن سرّ هذا الاختيار في قوله ﷺ واصفاً إياها:

إنّ بأرض الحبشة ملكاً لا يُظلم أحدٌ عنده، فالحقوا ببلاده حتّى يجعل الله لكم فرجاً

١. ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٣١٨؛ المقدسي، البدء والتاريخ، ٥: ١٠١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٣: ٧٤.

٢. ابن الأثير، أسد الغابة، ١: ٢٤٣.

٣. أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة، ١: ١٢٠.

٤. ابن عبد البر، الاستيعاب، ٤: ١٥٨٨-١٥٨٩ و ١٨٦٣-١٨٦٥.

٥. ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٣٢١-٣٢٣.

ومخرجًا ممّا أنتم فيه. ارحلوا مهاجرين إلى أرض الحبشة إلى النجاشي، فإنه يحسن الجوار^١.

وامتثالاً لهذا التوجيه، غادر نفر من المسلمين أوطانهم متسلّلين فرادى وجماعات صوب الحبشة^٢. وكان الفوج الأول، يتألّف من عشرة رجال وأربع نسوة بقيادة عثمان بن مظعون^٣. ثم أخذت أعداد المهاجرين تتنامى تدريجيًّا حتّى ناهزت المائة^٤. كان جعفر بن أبي طالب ﷺ في طليعة المهاجرين. لم تكن هجرة جعفر فرارًا من خطر شخصي يتهدّده في مكّة؛ إذ كانت قريش تدرك جيّدًا مكانة أبيه أبي طالب ﷺ ومنعته، فكانت تتوخّى الحذر في التعامل مع بني هاشم، ولا سيما آل أبي طالب ﷺ. وإنّما انتدبه النبي ﷺ ليكون زعيمًا للمهاجرين، يدبّر شؤونهم، ويذود عن عقائدهم ومبادئهم في الغربة.

موقف المشركين وملاحقة المهاجرين

حينما رأى مشركو مكّة أنّ المسلمين المهاجرين قد أمّنوا من أذاهم في الحبشة، وأنّهم قد وجدوا دار قرارٍ واستقرار، عزّ عليهم ذلك؛ ورأوا في استعادتهم حفظًا لهيبتهم وسبيلًا لإعادة بسط سطوتهم عليهم. فانتدبوا لهذه المهمّة رجلين من دهاة قريش، هما: عمرو بن العاص، وعُمارة بن الوليد، وحملوهما بالهدايا النفيسة إلى النجاشي، ملك الحبشة.

١. م. ن. ١، ٣٢١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٣: ٧٣؛ الحلبي، السيرة الحلبية، ١: ٣٦٠.

٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ٣: ٧٢؛ الدياربكري، تاريخ الخميس، ١: ٢٩٠.

٣. ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٣٢٣.

٤. م. ن. ١، ٣٧٥.

فلما دخلا على النجاشي، قال له:

أيها الملك، إنّه قد ضوى^١ إلى بلدك منّا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائهم لتردّهم إليهم، فهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

أراد النجاشي التثبت من صحّة تلك الدعاوى، فأمر بإحضار المسلمين. ولما مثلوا بين يديه، انبرى جعفر بن أبي طالب عليه السلام للحديث، قائلاً خطبته الشهيرة:

أيها الملك! كنّا قومًا أهل جاهلية؛ نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منّا الضعيف. فكنا على ذلك حتّى بعث الله إلينا رسولاً منّا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفاه. فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده، ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان. وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرّحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء. ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات. وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام....

ثمّ تلا جعفر عليه السلام على مسامع النجاشي آيات من سورة «مريم» فخشع النجاشي لما سمع، وفاضت عيناه بالدمع حتّى اخضلت لحيته، وبكى أساقفته معه. ثمّ قال النجاشي: «إنّ هذا والذي جاء به عيسى، ليخرج من مشكاة واحدة». ثمّ التفت إلى مبعوثي قريش وقال: «انطلقا، فلا والله لا أسلّمهم إليكما أبداً».

لم ييأس عمرو بن العاص، وأراد أن يوقع بالمسلمين داهيةً عبر استغلال الاختلاف

١. أي: لجأ.

العقائدي حول طبيعة المسيح ﷺ. فغدا على النجاشي في اليوم التالي وقال: «أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً». فاستدعاهم النجاشي وسألهم عما يقولون في المسيح. فأجابه جعفر بن أبي طالب ﷺ: «نقول فيه ما جاء به نبينا: هو عبد الله ورسوله، وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول». فقال النجاشي: «ما عدا عيسى ابن مريم مما قلت هذا العود»^١. ثم خاطب المهاجرين بحزم ثلاثاً: «اذهبوا فأنتم شُيُومٌ^٢ بأرضي. مَنْ سَبَّكُمْ عُرِّمَ»، كما رَدَّ هدايا قريش قائلاً: «ما أحبَّ أن لي دِبراً^٣ من ذهب، وأني أذيت رجلاً منهم».

إنَّ حماية النجاشي للمسلمين جرَّت عليه متاعب جمَّة؛ إذ اتَّهمه أهل مملكته بالخروج عن دين آبائهم، وثاروا عليه ثورة كادت تطيح بعرشه. وتحسباً لأيِّ طارئ، أمر النجاشي بتجهيز سفينة لجعفر ﷺ وأصحابه، وقال لهم: «اركبوا فيها وكونوا كما أنتم؛ فإن هُزِمْتُ فامضوا حتَّى تلحقوا بحيث شئتم، وإن ظفرتُ فأقيموا». ثم خرج النجاشي لمحاورة الثَّوار، وتمكَّن من إقناعهم وإخماد الفتنة^٤.

وفي غضون ذلك، وعقب هجرة المسلمين بفترة وجيزة، شاع خبر عن هدوء نسبي في مكَّة. فلمَّا بلغ ذلك المهاجرين، ونظراً لما شهدوه من اضطرابات في الحبشة وثورة الناس على النجاشي، قرَّر نحو ثلاثين منهم العودة إلى مكَّة، وذلك بعد شهرين أو ثلاثة من هجرتهم^٥.

١. أي: لم يجاوز قولك الحقيقة قيد أنملة.

٢. أي: آمنون.

٣. الدَّبر: المال الكثير.

٤. للتفصيل، انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٣٣٤-٣٣٨؛ ابن الأثير، الكامل، ٢: ٧٩-٨٣؛ الطبرسي، إعلام الوری، ٤٣-٤٥.

٥. ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٣٦٤-٣٧٠.

إسلام حمزة عليه السلام

في أحد أيام السنة السادسة للبعثة/٦١٦م، وقع حدث مفصلي قلب موازين القوى وغير أحوال المسلمين في مكة. كان حمزة بن عبد المطلب عليه السلام -عم النبي عليه السلام - أعزّ فتى في قريش وأشدّهم شكيمة^١. وكان من عادته أنّه إذا عاد من الصيد في الصحراء، لم يرجع إلى بيته حتّى يطوف بالكعبة.

وفي ذلك اليوم، وبينما هو يطوف كعادته، اعترضته امرأة وأخبرته بما نال ابن أخيه عليه السلام من السبّ المقذع والمعاملة السيئة على يد أبي جهل. فاستشاط حمزة عليه السلام غضباً، ويّسم وجهه شطر المسجد الحرام، فوجد أبا جهل جالساً بين نفر من قومه. فأقبل نحوه حتّى قام على رأسه، ورفع قوسه فضربه بها ضربة شجّه فيها شجّة منكّرة وقال له متحدّياً: «أتشتم ابن أخي؟! فأنا على دينه، أقول ما يقول. فاردد عليّ إن استطعت!». فثارت رجال من بني مخزوم^٢ لينصروا صاحبهم، إلّا أنّ أبا جهل نهاهم قائلاً: «دعوا أبا عمارة؛ فإنّي والله قد سببتُ ابن أخيه سبّاً قبيحاً».

شكّلت هذه الحادثة منعطفاً حاسماً أذهل مشركي قريش، وكان إسلام حمزة عليه السلام سبباً لعزّة المسلمين ومنعتهم في مكة^٣. وقد سرّ رسول الله عليه السلام بإسلام عمّه سروراً عظيماً؛ إذ كسر بإسلامه شوكة قريش وغطرستها، وألقى المهابة في قلوبهم، فكفّوا عن كثير من أذاهم للمسلمين.

١. راجع: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٧٢: ٢.

٢. عشيرة أبي جهل.

٣. ابن هشام، السيرة النبوية، ٢٩٢: ١.

مقاطعة المسلمين في شعب أبي طالب

في السنة السابعة للبعثة/٦١٧م، وحينما أدرك سادة مكة عُقم محاولاتهم للنيل من الإسلام، ورأوا أنه رغم كل ما أبدوه من عدااء وتضييق، فإن مكانة النبي ﷺ تزداد رسوخاً بين الناس والإسلام آخذٌ في الانتشار بين القبائل؛ لجأوا إلى استراتيجية جديدة تمثلت في فرض حصار اقتصادي واجتماعي شامل على بني هاشم وأبي طالب ﷺ. وعليه، كُتبت صحيفة تعاهدوا فيها على ألا ينكحوا إليهم ولا يُنكحوهم، ولا يبايعوهم ولا يبتاعوا منهم، ولا يخالطوهم بأي نوع من التعامل، حتى يُسلموا إليهم محمدًا ﷺ للقتل. وقد علّقت هذه الصحيفة في جوف الكعبة بعد أن ختمها أربعون من صناديد قريش بتوقيعاتهم^١.

وإزاء ذلك، اضطرّ بنو هاشم -بأمر من أبي طالب ﷺ- إلى الانحياز مع النبي ﷺ إلى الموضع المعروف بـ«شعب أبي طالب». وكان هذا المكان مسكنًا لبعض الهاشميين، وموضعًا لولادة النبي الأكرم ﷺ^٢. ولم يتخلف من آل عبد المطلب عن دخول الشعب إلا أبو لهب.

كان أبو طالب ﷺ في غاية القلق على حياة النبي ﷺ داخل الشعب؛ فكان إذا أخذ الناس مضاجعهم للنوم، أمر النبي ﷺ أن يضطجع إلى جنبه، فإذا نام الناس، أيقظه وأمره أن ينتقل إلى موضع آخر، وأمر عليًا ﷺ أن ينام مكانه ليفديه بنفسه إذا ما دُبّر اغتيال بالليل^٣.

عانى المسلمون في شعب أبي طالب ظروفًا عصيبة للغاية؛ فقد أقامت قريش

١. م. ن، ١: ٣٥٠.

٢. انظر: الأزرق، أخبار مكة، ٢: ١٩٨.

٣. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٣: ٢٥٦ و ١٤: ٦٤؛ الأميني، الغدير، ٧: ٣٥٧.

الحراس لئلا تصل المؤن إلى المسلمين أو يتواصل معهم أحد. ولم يكن يُسمح لبني هاشم بالخروج إلا في المواسم الحُرْم: في رجب للعمرة، وفي ذي الحجة للحج. وكانت هذه الأوقات تمثل فرصاً ضيقة للتسوق وشراء الحاجات، إلا أن المحاصرين لم ينتفعوا منها بسبب دسائس المشركين^١؛ إذ كانوا يستقبلون القوافل القادمة للتجارة ويزيدون في الأسعار لرفعها، مشترطين عليهم ألا يبيعوا للمسلمين شيئاً^٢.

كما عمد المشركون إلى وسيلة أخرى؛ وهي تهديد كل من تسوّل له نفسه البيع للمسلمين بنهب أمواله ومصادرتها^٣. وهذا أحكمت قريش طوق الحصار على المسلمين، سعيًا منها لفشل دعوة رسول الله ﷺ أو إراقة دمه. وكان عليّ رضي الله عنه الوحيد القادر على تأمين القوات للمحاصرين في تلك الظروف؛ فكان يخاطر بنفسه، ويسعى سرًا وبكلّ وسيلة ممكنة للقيام بهذه المهمة الشاقة^٤.

وقد استنزفت ثروة السيدة خديجة رضي الله عنها وأموال أبي طالب رضي الله عنه بالكامل في الإنفاق على المحاصرين. وعقب نفاد تلك الأموال، تفاقم الوضع حتّى انعدم الطعام؛ فكان الأطفال يتضورون جوعًا، حتّى سُمع صراخهم وبكاؤهم من وراء الشعب إلى مسامع المشركين قساة القلوب. وكان جلّ المشركين يشمتون بما آل إليه حال المسلمين، باستثناء قلة منهم حرّكتهم حمية القرابة، فأبدوا تعاطفًا وامتعاضًا ممّا يجري^٥.

١. الطبرسي، إعلام الوري، ٥٠.

٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ٣: ٨٤.

٣. الطبرسي، إعلام الوري، ٥٠.

٤. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٣: ٢٥٦.

٥. ابن إسحاق، كتاب السير والمغازي، ١: ١٥٩-١٦٠.

نقض الصحيفة

لبث المسلمون في شعب أبي طالب زهاء ثلاث سنوات، يكابدون أفسى الظروف المعيشية، حتى جاء يوم أخبر فيه النبي ﷺ عمه أبا طالب ﷺ بأن صحيفة المشركين ووثيقة المقاطعة قد تلاشت؛ إذ سلط الله عليها «الأرضة»^١ فأكلت جميع ما فيها من كتابة وجور، ولم تبق إلا اسم «الله».

فخرج أبو طالب ﷺ في نفر من بني هاشم من الشعب قاصداً قريشاً. فلما رآهم المشركون، قالوا شامتين: «الجوع أخرجهم!»، وقالوا لأبي طالب: «يا أبا طالب! قد آن لك أن تصالح قومك». فأجابهم أبو طالب ﷺ: «قد جئكم مخبراً. ابعثوا إلى صحيفتكم، لعله أن يكون بيننا وبينكم صلح فيها». فلما أحضرت الصحيفة، قال لهم أبو طالب ﷺ: «إن ابن أخي حدثني - ولم يكذبني قط - أن الله قد بعث على هذه الصحيفة الأرضة فأكلت كل قطعة وإثم، وتركت كل اسم هو لله. فإن كان صادقاً، أقلعتكم عن ظلمنا وإن يكن كاذباً، ندفعه إليكم فقتلتموه». فقال المشركون: «انصفتنا يا أبا طالب». ثم عمدوا إلى الصحيفة ففتحوها، فإذا هي كما أخبر النبي ﷺ تماماً. فكبر المسلمون وبنو هاشم لما رأوا هذه الآية، وهبت المشركون واغتموا غمماً شديداً. وقد أسلم في ذلك اليوم جمع غفير من الناس.

وعلى الرغم من الاتفاق الذي أبرموه مع أبي طالب ﷺ، إلا أن المشركين ظلوا متشبثين ببنود الصحيفة ومصرين على نهجهم الظالم. إلى أن قام نفر منهم - ممن تربطهم أواصر قرى بني هاشم وبني عبد المطلب - وعزموا على نقض الصحيفة. وقد حاول أبو جهل التصدي لهم، لكنهم لم يلتفتوا إليه؛ وبذلك بطلت الصحيفة فعلياً، وأُتيح

١. دوية بيضاء تشبه النمل تأكل الخشب.

للمسلمين الخروج من الشعب واستئناف التعامل والبيع والشراء مع غير المسلمين^١.

عام الحزن

في السنة العاشرة للبعثة/ ٦٢٠م، فُجع النبي ﷺ بوفاة عمّه أبي طالب ﷺ^٢. وبفقدته، خسر النبي ﷺ ناصره الكبير، الذي كان درعًا حصينًا للدين ومدافعًا دؤوبًا عن الرسالة. ولم يمضِ وقت طويل حتّى ودّعت الدنيا السيّدة خديجة ﷺ؛ تلك السيّدة المصطفاة التي كانت نعم العون والسند والظهير لمحمّد ﷺ في أيام العسرة. وقد أطلق النبي الأكرم ﷺ على هذا العام اسم «عام الحزن»^٣، وقال معبرًا عن عمق ألمه: «اجتمعت على هذه الأمة في هذه الأيام مصيبتان، لا أدري بأيّهما أنا أشدّ جزعاً»^٤.

الرحلة إلى الطائف

في شهر شوال من السنة العاشرة للبعثة/ مايو ٦٢٠م، خرج النبي ﷺ قاصدًا مدينة الطائف، يصحبه عليّ ﷺ وزيد بن حارثة^٥. وكانت الغاية من هذه الرحلة دعوة أهل تلك الديار إلى الإسلام. وقد أقام النبي ﷺ في الطائف بضعة أيام، قصد خلالها أشرف المدينة وساداتها يدعوهم إلى الدين الإلهي؛ بيد أنّ أحدًا منهم لم يستجب لدعوته، بل قابلوه بالجفاء وطالبوه بمغادرة مدينتهم. ولم يكتفوا بذلك، بل أغروا به سفهاءهم

١. الراوندي، الخرائج والجرائح، ١: ٨٥-٨٦؛ وانظر أيضًا: ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٣٧٧؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢: ٣١؛ البيهقي، دلائل النبوة، ٢: ٣١٢.

٢. المسعودي، التنبيه والإشراف، ٢٠٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٣: ١٢٧؛ الحلبي، السيرة الحلبية، ١: ٣٤٦.

٣. القسطلاني، المواهب اللدنية، ١: ٥٦؛ الديار بكري، تاريخ الخميس، ١: ٣٠١.

٤. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢: ٣٥.

٥. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٤: ١٢٧ و ١٤: ٩٧.

وعبيدهم ليتصدوا له في طريقه ويرموه بالحجارة. وفي خضمّ هذا الهجوم الوحشي من مشركي الطائف، هبّ مرافقا النبي ﷺ للدفاع عنه والذود عن حياضه، فأصيبا بجراح^١.

١. ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٤١٩-٤٢٠؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ١: ٢٣٧-٢٣٨؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢: ٣٦.

من الهجرة إلى فتح مكّة

مقدمات الهجرة إلى المدينة

بيعة العقبة الأولى

في السنة الحادية عشرة للبعثة/ ٦٢١م، رأى النبي ﷺ في موسم الحج فرصة سانحة لتبليغ رسالة الإسلام. فخرج من مكّة قاصداً دعوة القبائل الوافدة لزيارة بيت الله الحرام. وفي منطقة العقبة^١، التقى بنفر من أهل يثرب ينتمون إلى قبيلة الخزرج. فما إن استمعت هذه الثلة الصغيرة -وعددهم تسعة أفراد- إلى حديث النبي ﷺ، حتّى قبلوا دعوته واعتنقوا الإسلام. ولدى عودتهم إلى المدينة، انطلق كلّ واحد منهم إلى قومه يحدثهم عن رسول الله ﷺ وعن الدين الجديد ويدعوهم إليه. وقد آتى جهد هذه الجماعة القليلة أكله في وقت وجيز؛ فلم تبق دار في يثرب إلّا وفيها ذكرٌ لرسول الله ﷺ. وبعد انقضاء عام على لقاء الخزرجيين بالنبي ﷺ، وتحديدًا في موسم حجّ السنة الثانية عشرة للبعثة/ ٦٢٢م، شدّ اثنا عشر رجلاً من أهل يثرب الرحال إلى مكّة للقاء

١. منطقة تقع خارج مكّة، وهي إحدى المنازل التي كان الحجاج يتوقفون فيها قبل دخولهم مكّة (الحموي، معجم البلدان، ٤: ١٣٤).

رسول الله ﷺ، فاجتمعوا به عند العقبة. وفي هذا اللقاء، بايعوا رسول الله ﷺ؛ وهي البيعة التي عُرفت بـ«بيعة العقبة الأولى». وقد عاهدوه في هذه البيعة على ألا يشركوا بالله شيئاً، ولا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا ببهتان يفترونه، ولا يعصوه في معروف. فبشّرهم النبي ﷺ بأنّ لهم الجنة إن وفّوا بعهدهم ذلك.

وحين همّ المبايعون بالعودة إلى يثرب، بعث رسول الله ﷺ معهم مُصعب بن عمير ليُقرئ أهلها القرآن ويفقّهم في الإسلام. وكان لوجود مصعب دور حاسم في تثبيت دعائم الإسلام ونشره في يثرب، حتّى تمكّن من إقامة صلاة الجمعة فيها.

وكان من ثمرات وجود مصعب إسلام سعد بن مُعاذ. كان سعد من قبيلة الأوس وسيد بني عبد الأشهل؛ فما إن أسلم حتّى انطلق إلى قومه مخاطباً: «يا بني عبد الأشهل! كيف تعلمون أمري فيكم؟»، قالوا: «سيدنا، وأفضلنا رأياً، وأيمننا نقيية». فعقب هذا الإقرار، قال لهم سعد: «فإنّ كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتّى تؤمنوا بالله ورسوله». فما أمسى فيهم رجل ولا امرأة إلّا مسلماً ومسلمة^٢.

بيعة العقبة الثانية

عاد مصعب بن عمير من المدينة إلى مكّة، ورفع إلى النبي ﷺ تقريراً مفصّلاً عن نشاطه الدعوي ومسار انتشار الإسلام في تلك الديار. وقد سُرّ النبي ﷺ بما سمع سروراً بالغاً؛ فبرغم ما كان يكابده من عنت وصعاب في مكّة، إلّا أنّه وجد الدين الإلهي يزدهر وينمو يوماً بعد يوم في بقعة أخرى.

وفي السنة الثالثة عشرة للبعثة/ ٦٢٢م، وقد إلى مكّة جمع غفير من أهل المدينة يربو

١. بنو عبد الأشهل: بطن من قبيلة الأوس (ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ٤٧١).

٢. ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٤٣٥-٤٣٧.

٣. المجلسي، بحار الأنوار، ١٩: ١٢.

عدددهم على خمسمائة شخص لأداء مناسك الحج. وكان في جملة هذا الوفد مسلمون يُسرّون إسلامهم ولا يجهرّون به خوفاً من المشركين. وقد تواصل بعض هؤلاء المسلمين مع النبي ﷺ، وحرصاً منه على سلامتهم وتأمينهم من ملاحقة المشركين، ضرب لهم موعداً سرّياً للقاءه ليلاً عند العقبة خلال أيام التشريق، بين ١١-١٣ من ذي الحجة. وهناك، تحت جناح الظلام، بايعوا رسول الله ﷺ ثم عادوا إلى رحالهم^١.

المؤاخاة الأولى

قبل الهجرة إلى المدينة، عقد النبي ﷺ ميثاقاً للمؤاخاة بين مسلمي مكة. فأخى بين أبي بكر وعمر، وبين حمزة وزيد بن حارثة، وبين عثمان بن عفّان وعبد الرحمن بن عوف، وبين الزبير وابن مسعود، وبين عبيدة بن الحارث وبلال، وبين مُصعب بن عمير وسعد بن أبي وقاص، وبين أبي عبيدة الجراح وسالم مولى أبي حذيفة، وبين طلحة وسعيد بن زيد. كما أخى ﷺ بين نفسه وبين عليّ عليه السلام، وقال له: «يا علي، أنت أخي في الدنيا والآخرة»^٢.

هجرة المسلمين إلى المدينة

عقب بيعة العقبة الثانية، اشتدّت وطأة أذى المشركين على المسلمين في مكة، وتفاقم التنكيل بهم حتّى ضاقت عليهم الأرض، ولم يعد بوسعهم احتمال المزيد. ونظراً للأوضاع المستجدة والمواتية في المدينة، وانتشار الإسلام المتزايد في ربوعها؛ أذن النبي ﷺ للمسلمين بالهجرة إليها. فشرع المسلمون يغادرون مكة جماعات متفرقة ومتسلّلين، بينما مكث النبي ﷺ في مكة يترقّب الإذن الإلهي له بالهجرة^٣.

١. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١: ١٧١-١٧٣.

٢. البلاذري، أنساب الأشراف، ١: ٢٧٠؛ وانظر أيضاً: الحاكم النيسابوري، المستدرک، ٣: ١٥ و ١٦؛

الديار بكری، تاریخ الخميس، ١: ٣٥٣؛ الحلبي، السيرة الحلبية، ٢: ٢٠.

٣. ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٤٦٨.

دار الندوة

اجتمع ملاً قريش وأشرفها في «دار الندوة» للتشاور والبت في أمر النبي ﷺ وكيفية التخلص منه نهائياً. وقد طُرحت في هذا المجلس آراء شتى، أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿لِيُثَبِّتُوكَ أَوْ يُقْتَلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ (الأنفال: ٣٠)؛ فدار النقاش بين خيارات ثلاثة: نفيه من مكة، أو حبسه، أو قتله. وقد استبعدوا خيار الحبس؛ خشية أن يثور أصحابه ويخلصوه من أسرهم. كما رفضوا خيار النفي والإخراج من البلد؛ لعلمهم بقدرته على استمالة الناس ونشر دعوته وعقيدته في أي أرض يحل بها. عندئذ، تقدّم أبو جهل برأي لاقى قبولاً واستحساناً من الجميع؛ إذ اقترح أن يختاروا من كلّ قبيلة فتى جلدًا شجاعاً، ويعطوا كلّ فتى منهم سيفاً صارماً. فيعمد هؤلاء الفتيان إلى النبي ﷺ ليلاً، ويضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه. وبذلك، يتفرّق دمه بين القبائل جميعاً، فلا يقوى بنو عبد مناف^١ على حرب العرب قاطبة للمطالبة بدمه، فيضطّرون إلى الرضا بالدية، وينتهي الأمر^٢.

ليلة المبيت وبداية الهجرة

احتشد فتیان قريش المنتخبون حول دار رسول الله ﷺ، يرقبون حركاته وسكناته، منتظرين أن يأوي إلى فراشه ليُنْفَذوا مخطّطهم المشؤوم^٣. وفي تلك الأثناء، أوحى الله تعالى إلى نبيه ﷺ بمكيدة المشركين. فأطلع النبي ﷺ عليّاً عليه السلام على الأمر، وطلب منه أن يبيت تلك الليلة في فراشه للتمويه على المشركين. فسأل علي عليه السلام مستفسراً: «أوتسَلِّمُ

١. يُطلق على بني هاشم «بنو عبد مناف» أيضاً؛ لأنّ هاشماً هو ابن عبد مناف.

٢. ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٤٨٠-٤٨٢؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢: ٣٩؛ المقرئ، إمتاع الأسماع، ٥٦: ٥٧.

٣. الراوندي، الخرائج والجرائح، ١: ١٤٣-١٤٤.

بميتي هناك يا نبي الله؟»، فأجابه النبي ﷺ بالإيجاب، فتهلل وجهه علي ﷺ واستبشر، وخرَّ ساجدًا لله شكرًا^١.

توسّد علي ﷺ فراش النبي ﷺ والتحف ببرده الحضرمي. وبعد مضي هزيع من الليل، خرج النبي ﷺ من داره وللنجاة من شرّ المتربّصين المحيطين بالبيت، لاذ بالله تعالى وتلا قوله عزّ وجل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (يس: ٩). ثم أخذ حفنة من التراب وذرّها على رؤوس المشركين، ومرّ من بينهم وهم لا يشعرون، قاصدًا «غار ثور»^٢.

ظنّ المشركون أنّ النائم في الدار هو النبي ﷺ، فانتظروا حتّى دنا الفجر، ثم اقتحموا الدار شاهرين سيوفهم. فلمّا رأى أمير المؤمنين ﷺ السيوف مصلتة نحوه، وثب من الفراش بمهارة وجراءة، وقبض على يد خالد بن الوليد -الذي كان يتقدّم المهاجمين- ولواها، فانتزع السيف منه وشدّ به على قريش. هنا فقط، أدرك المشركون أنّهم يواجهون عليًا ﷺ، فراجعوا مذهولين وسألوه: «إنّك لعلي! فإنّا لم نردك، فما فعل صاحبك؟!»، فأجابهم علي ﷺ: «لا علم لي به». وإذ رأى المهاجمون أنّ خطّتهم قد باءت بالفشل الذريع، كفّوا عن علي ﷺ، وسارعوا بالعودة إلى قومهم لينذروهم بما حدث^٣.

قريش في طلب النبي ﷺ

فور ذبوع نبأ خروج النبي ﷺ، امتطى نفر من مشركي قريش ظهور رواحلهم هلعين، وانطلقوا في طلبه حيثًا. وفي أثناء الطريق، نما إلى علمهم أنّ أبا بكر قد صحب النبي ﷺ

١. الطوسي، الأمالي، ٤٦٥.

٢. ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٤٨٢-٤٨٣؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١: ١٧٦-١٧٧؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢: ٣٩.

٣. الطوسي، الأمالي، ٤٦٧؛ الإربلي، كشف الغمة، ١: ٤٠٥.

أيضاً. واصل المشركون تقفّي الأثر حتّى بلغوا فم الغار، حيث كان النبي ﷺ وأبو بكر مكثين في جوفه، وكادوا أن يقعوا في قبضة المشركين. ولكن بمشيئة الله، نسجت العنكبوت خيوطها على باب الغار، كما باضت حمامة وحشية عند عتبته ورقدت على بيضها. فلمّا رأى المشركون ذلك الحال، أيقنوا بخلوّ الغار؛ إذ لو ولجه أحد لتمزّق نسج العنكبوت^١. وهكذا صان الله حياة نبيه ﷺ وكفّ عنه شرّ المشركين.

تريث عليّ ﷺ في مكة حتّى جنّ الليل، ثمّ انطلق بصحبة هند بن أبي هالة تحت جنح الظلام قاصداً الغار، حتّى وصل إلى النبي ﷺ. فأمر النبي ﷺ هنداً بأن يبتاع له ولرفيقه راحلتين، فقال أبو بكر: «قد كنتُ أعددْتُ لي ولك، يا نبيّ الله، راحلتين نرتحلهما إلى يثرب»، فردّ النبي ﷺ: «إني لا آخذهما ولا أحدهما إلّا بالثمن». ثمّ أمر عليّاً ﷺ بأن يدفع ثمن الراحلة لأبي بكر^٢.

وأوصى النبي ﷺ عليّاً ﷺ قائلاً: «إنّهم لن يصلوا من الآن إليك يا عليّ بأمر تكرهه حتّى تقدم عليّ، فأدّ أمانتي على أعين الناس ظاهراً، ثمّ إنّي مستخلفك على فاطمة ابنتي ومستخلفُ ربّي عليكما ومستحفظة فيكما». كما أمره أن يبتاع رواحل ليحمل عليها «الفواطم» -فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وفاطمة بنت أسد ﷺ، وفاطمة بنت الزبير- ومنّ عزم على الهجرة من بني هاشم، ويلحق بهم إلى المدينة. وبعد مكوث دام ثلاثة أيام في غار ثور، يمّم النبي ﷺ وجهه شطر المدينة^٣.

وكانت الودائع التي أوصى النبي ﷺ عليّاً ﷺ بردها، عبارة عن أموال وبضائع أودعها الحجاج عند النبي ﷺ لحفظها. فكان عليّ ﷺ، امثالاً لأمر النبي ﷺ، يقف عند

١. ابن كثير، البداية والنهاية، ٣: ١٨١-١٨٢؛ الدياربكري، تاريخ الخميس، ١: ٣٢٨؛ الحلبي، السيرة الحلبية، ٢: ٣٧.

٢. الطوسي، الأموال، ٤٦٧.

٣. م. ن.، ٤٦٨.

سَفَحَ الْجَبَلَ بِالْأَبْطَحِ وَيَنَادِي صَبَاحَ مَسَاءٍ: «أَلَا مَنْ كَانَ لَهُ قَبْلَ مُحَمَّدٍ أَمَانَةٌ أَوْ وَدِيعَةٌ، فَلْيَأْتِ فَلْتَوَدَّ إِلَيْهِ أَمَانَتُهُ»^١.

هجرة أمير المؤمنين (عليه السلام)

واصل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مسيره حتى بلغ مشارف المدينة، وحطَّ رحاله في منطقة قُباء^٢، حيث استقبله المسلمون بحفاوة بالغة. وقد نزل (صلى الله عليه وآله وسلم) ضيفًا في منزل كلثوم بن هذم من بني عمرو بن عوف^٣. وكان أبو بكر -الذي رافق النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في هجرته- يلحّ عليه في دخول المدينة، غير أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أبى ذلك قائلاً: «ما أنا بداخلها حتى يقدم أخي وابنتي»، يعني عليًا وفاطمة (عليهما السلام)^٤. فانطلق أبو بكر حزينًا تحت جناح الليل نحو المدينة، بينما مكث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في قباء ينتظر قدومهم. وفي منتصف شهر ربيع الأول^٥، وصل علي (عليه السلام) ترافقه «الفواطم» وأمّ أيمن^٦، فانضمّوا إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ونزلوا في ضيافة كلثوم بن هذم^٧.

مسجد قباء: أول مسجد في الإسلام

كان أول إنجاز حضاري شهدته تلك المنطقة هو تشييد المسجد. فخلال إقامته في قباء، وبناءً على مقترح من عمار بن ياسر، أسّس النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مسجدًا عُرف بـ«مسجد قباء». وهو

١. م. ن.، ٤٦٨؛ الإربلي، كشف الغمة، ١: ٤٠٥.

٢. قُباء: قرية تقع جنوب يثرب (المدينة)، وكانت منازل لبني عمرو بن عوف (الحموي، معجم البلدان، ٤: ٣٠١).

٣. ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٤٩٢-٤٩٣.

٤. الطوسي، الأُمالي، ٤٦٩؛ الطبرسي، إعلام الوري، ٦٦؛ المجلسي، بحار الأنوار، ١٩: ٦٤ و ١٠٦ و ١١٥ و ١١٦، ٢٢: ٣٦٦.

٥. الطبرسي، إعلام الوري، ٦٦؛ المجلسي، بحار الأنوار، ١٩: ١٠٦.

٦. الطوسي، الأُمالي، ٦٦؛ الطبرسي، إعلام الوري، ٤٦٩؛ المجلسي، بحار الأنوار، ١٩: ١٠٦ و ١١٦-١١٧.

٧. ابن كثير، البداية والنهاية، ٣: ١٩٧؛ المجلسي، بحار الأنوار، ١٩: ١٢٢.

المسجد الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ (التوبة: ١٠٨).

ويُعدّ مسجد قباء أوّل مسجد شُيّد في الإسلام. وممّا يُذكر في بنائه، مشاركة بعض النساء المسلمات في عملية التشييد والبناء^١.

بناء المسجد النبوي الشريف

بعد إقامة دامت خمسة عشر يوماً في قُباء، تحرّك النبي ﷺ يوم الجمعة شطر المدينة. وكان ﷺ يمتطي ناقته، وعليه ﷺ يلازمه سيراً إلى جنبه. فكان كلّما مرّ بحجٍّ من أحياء الأنصار، اعترضه بنو ذلك الحيّ يسألونه النزول عندهم وإكرامهم بضيافته. فكان يجيبهم قائلاً: «خَلُّوا سَبِيلَهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ». ومضت الناقة حتّى بلغت موضعاً قرب دار أبي أيوب الأنصاري - وكان من أفقر أهل يثرب حالاً^٢ - فوقفت وبركت هناك. بادر أبو أيوب إلى رحل النبي ﷺ فأدخله منزله، وأقام النبي ﷺ وعليه ﷺ في ذلك الموضع زهاء شهر، ريثما يكتمل بناء المسجد وحجرات سكنه^٣. أمّا سائر المهاجرين، فقد تسابق الأنصار بشوق غامر لاستضافتهم في دورهم، حتّى اشتدّت المنافسة بينهم واضطروا إلى الاقتراع لتقاسم الضيوف^٤.

اشترى النبي ﷺ أرض المسجد - التي كانت لغلامين يتيمين من الخزرج - بعشرة دنانير، وانطلقت أعمال البناء بمشاركة فعلية منه ﷺ؛ فكان هو وأصحابه ينقلون الحجارة

١. البزار، البحر الزخار، ٨: ٢٩١؛ المقرئ، إمتاع الأسماع، ١٠: ٩١؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٢: ١٠.

٢. المجلسي، بحار الأنوار، ١٩: ١٢١.

٣. ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٤٩٤-٤٩٦.

٤. الحلبي، السيرة الحلبية، ٢: ٨٨.

من الحرّة^١، حتّى اكتمل البنيان شيئاً فشيئاً. وقد أذكت مشاركة النبي ﷺ جذوة الحماس في نفوس المسلمين، فانكبّوا على العمل بهمة ونشاط منقطعي النظير^٢.

لقد أضفى حضور النبي ﷺ وجهده الشخصي في البناء قيمة مضاعفة لهذا العمل في عيون المسلمين. وكان سلوكه هذا تجسّيداً لتواضعه وقُربه من الناس، ودرساً عملياً لأصحابه وللحكّام والخلفاء من بعده، ليتأسّسوا بسيرته وينبذوا التكبر والترفع على رعيّتهم.

المؤاخاة الثانية

في المدينة المنورة، عقد النبي ﷺ المؤاخاة بين كلّ اثنين من أصحابه، مراعيّاً في ذلك التشاكل بين شخصيّاتهم. فأخى بين أبي بكر وعمر، وبين طلحة والزبير، وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف^٣.

وهكذا شملت المؤاخاة جميع المسلمين، ولم يبقَ سوى علي بن أبي طالب ﷺ. فقال للنبي ﷺ: «يا رسول الله! آخيتَ بين الناس وتركتني؟»، فأجابه النبي ﷺ: «ولمَ تراني تركتُك؟ إنّما تركتُك لنفسِي، أنت أخي، وأنا أخوك، فإن ذاكرك أحد فقل: أنا عبد الله وأخو رسوله، لا يدّعيها بعدُ إلّا كذاب. فأنت منّي بمنزلة هارون من موسى، إلّا أنّه لا نبيّ بعدي، وأنت أخي ووارثي»^٤.

١. الحرّة (جمعه: حرار): هي الأرض ذات الحجارة السوداء النخرة (البركانية) كأنّها أحرقت بالنار (الحموي، معجم البلدان، ٢: ٢٤٥). وتؤكد الدراسات الجيولوجية المعاصرة أنّ هذه المناطق عبارة عن حقول لافا (حم) تشكّلت نتيجة تبريد المواد المنصهرة من الثورات البركانية التاريخية (جيولوجية المملكة العربية السعودية، «النشاط البركاني التاريخي»).

٢. ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٤٩٦.

٣. الحاكم النيسابوري، المستدرک، ٣: ١٤؛ الحلبي، السيرة الحلبية، ٢: ٢٠.

٤. انظر: أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة، ٢: ٦١٧ و ٦٣٨ و ٦٦٦؛ ابن حبان، الثقات، ١: ١٤٢.

تحويل القبلة إلى الكعبة

كانت قبلة المسلمين في صدر الإسلام هي بيت المقدس. وعقب قدوم النبي ﷺ إلى المدينة، اتخذ اليهود من هذا الأمر ذريعةً للطعن واللمز، زاعمين أنّ النبي ﷺ يتبعهم ويستقبل قبلتهم في صلاته. وقد غمّت هذه الأقاويل رسول الله ﷺ وأحزنه. ولما كان الله تعالى قد وعده بتحويل القبلة، فقد ظلّ ﷺ يترقب إنجاز الوعد الإلهي، ويقلب وجهه في آفاق السماء في جوف الليل انتظاراً للوحي.

كان ذلك إلى أن حان يوم من أيام شهر شعبان في السنة الثانية للهجرة؛ فبينما كان ﷺ يؤدّي صلاة الظهر^١، وقد أتمّ منها ركعتين، هبط عليه الأمين جبريل، فأخذ بيده وحول وجهه شطر الكعبة المشرفة. فاستدارت صفوف الجماعة تبعاً له، وأتمّ المصلّون الركعتين الآخرين متوجّهين نحو الكعبة.

وفي شأن هذه الواقعة، أنزل الله تعالى قوله: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ١٤٤). وقد سُمّي المسجد الذي شهد هذه الحادثة التاريخية بـ«مسجد القبلتين»^٢.

١. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ٣: ٢٢٠.

٢. المسعودي، التنبيه والإشراف، ٢٠٣.

بدر: أول الغزوات

في السنة الثانية للهجرة، سَيرت قريش قافلة تجارية عظيمة بقيادة أبي سفيان نحو الشام. كانت القافلة محروسة بما يتراوح بين ٣٠ إلى ٧٠ فارسًا، وتحمل ثروات طائلة لقريش قُدّرت قيمتها بخمسين ألف دينار. وبإذن من الله، وسعيًا لجبر الخسائر التي تكبّدها المسلمون جراء مصادرة المشركين لأموالهم في مكة، قرّر النبي ﷺ الخروج من المدينة لاعتراض هذه القافلة^١.

استنفر النبي ﷺ المسلمين للخروج، وكانت الخطة تقضي بالسيطرة على القافلة في منطقة ذي العُشيرة. بيد أن قريشًا فطنت للأمر، فغيّرت مسار القافلة وقرّرت مسرعةً تجاه الشام. وعلى الجانب الآخر، حين بلغ أهل مكة خبر تعرّض المسلمين لقافلتهم، جيّشوا جيشًا لقتال المسلمين وسحقهم. وقد ساهم صناديد قريش بأموالهم لتجهيز هذا الجيش، وأعلنوا النفير العام مهذّدين بهدم دار من يتخلف عن الخروج. فخرج

١. تشير المصادر التاريخية، في معرض بيان سبب الهجوم على تلك القافلة، إلى الآية ٣٩ من سورة الحج باعتبارها الإذن الإلهي لقتال المشركين (انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٤٦٧-٤٦٨؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ١: ٢٨٦؛ يعقوبي، تاريخ يعقوبي، ٢: ٤٤؛ المقدسي، البدء والتاريخ، ٤: ١٨٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٣: ١٦٩ و ٢٤٢؛ المقرئ، إمتاع الأسماع، ١: ٧٠-٧١). وقد جاء في هذه الآية: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾. ويُستفاد من مضمون الآية أنّ الصدام العسكري بين المسلمين والمشركين كان ردًا وتلافياً للظلم الذي مارسه مشركو مكة بحقهم، وهو ما تؤيده المصادر التفسيرية كذلك (انظر: مقاتل، تفسير مقاتل، ٣: ١٢٩؛ الطبري، جامع البيان، ١٧: ١٢٢-١٢٤؛ الفخر الرازي، التفسير الكبير، ٢٣: ٢٢٨-٢٢٩). كما أنّ هناك أخبار تاريخية حول مصادرة أموال بعض المهاجرين، مثل صُهَيْب الرومي (ت. ٣٨هـ)، تعضد ما سلف ذكره (راجع: ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٤٧٧؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣: ١٧١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٣: ١٧٣). ومما يؤكّد هذا الأمر أيضًا ما ورد في الآية ٨ من سورة الحشر في وصف المهاجرين: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ...﴾؛ إذ يمكن عدّ ذلك إشارة صريحة إلى استيلاء المشركين على أموال المسلمين وضبطها.

أهل مكة إما بأنفسهم أو ببديل عنهم^١. وكان ممن تخلف أبو لهب، الذي أرسل مكانه العاص بن هشام مجهّزاً إليّاه بأربعة آلاف درهم كان قد كسبها من القمار^٢.

المجلس الاستشاري الحاسم

كان النبي ﷺ يترقّب عودة القافلة من الشام. وحين تحرّك المسلمون لاعتراضها قرب منطقة بدر، فوجئوا بأنباء زحف جيش قريش الجرّار. وقد أوقع هذا الخبر الرعب في قلوب بعض المسلمين.

لما رأى النبي ﷺ هذا القلق، عقد مجلساً للشورى. فقام أبو بكر وقال: «يا رسول الله! إنّها والله قريش وعزّها، والله ما ذلّت منذ عزّت، والله ما أمنت منذ كفرت، والله لا تسلم عزّها أبداً، ولتقاتلنك...». فأمره النبي ﷺ بالجلوس، فجلس. ثم قام عمر بن الخطاب، فردّد مثل مقالة صاحبه، فأمره النبي ﷺ بالجلوس أيضاً.

عندئذ، نهض المقداد وقال مخاطباً النبي ﷺ: «يا رسول الله! امض لأمر الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيّها: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾» (المائدة: ٢٤)، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنّنا معكما مقاتلون. والذي بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى برك الغماد^٣، لسرنا معك». فأشرق وجه النبي ﷺ وسرّ بما سمع، ودعا للمقداد بخير.

ثم التفت النبي ﷺ إلى الأنصار -وهم السواد الأعظم في الجيش- يريد سماع رأيهم. فقام سعد بن معاذ، زعيم الأوس، وقال:

إنّك عسى أن تكون خرجت عن أمر قد أوحى إليك في غيره، وإنّا قد آمنا بك

١. مقاتل، تفسير مقاتل، ٣: ١٢٩؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٢٦١؛ الطبري، جامع البيان، ١٧: ١٢٢-١٢٤.

٢. البلاذري، أنساب الأشراف، ١: ٢٩٢؛ الحلبي، السيرة الحلبية، ٢: ١٤٥؛ الواقي، المغازي، ١: ٣٣.

٣. أقصى معمر الأرض.

وصدّقناك، وشهدنا أنّ كلّ ما جئت به حقّ، وأعطيناك موثيقنا وعهودنا على السّمع والطاعة، فامض يا نبيّ الله. فوالذي بعثك بالحقّ، لو استعرضتَ هذا البحر فخصّته، لخصناه معك، ما بقي منّا رجل. وصل من شئت، واقطع من شئت، وخُذ من أموالنا ما شئت، وما أخذتَ من أموالنا أحبّ إلينا ممّا تركت. والذي نفسي بيده، ما سلكتُ هذا الطريق قطّ، وما لي بها من علم، وما نكره أن يلقانا عدونا غداً. إنّنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، لعلّ الله يريك منّا ما تقرّ به عينك.

فبُشر النبي ﷺ وقال: «سيروا وأبشروا، فإنّ الله قد وعدني إحدى الطائفتين^١، والله لكأنّي الآن أنظر إلى مصارع القوم»^٢.

موازين القوى والجغرافيا

تحرّك النبي ﷺ بالمسلمين حتّى نزلوا بدرًا. ورغم رغبة جُلّ الصحابة في الاكتفاء بالغنيمة والقافلة وتجنّب القتال^٣، إلّا أنّ الإرادة الإلهية اقتضت المواجهة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ... وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ...﴾ (الأنفال: ٧).

إنّ المسلمين كان عددهم قليلاً، إذ بلغوا ٣١٣ رجلاً منهم حوالي ٢٧٠ من الأنصار والبقية من المهاجرين^٤. وكان عتادهم شحيحاً للغاية^٥؛ فلم يكن معهم سوى

١. القافلة أو الجيش.

٢. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٤٨-٤٩.

٣. ابن كثير، البداية والنهاية، ٣: ٢٦٣؛ السيوطي، الدر المنثور، ٣: ١٦٣ و ١٦٩.

٤. الحلبي، السيرة الحلبية، ٢: ١٤٩.

٥. لتفاصيل العتاد، انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، ١: ٢٩٠؛ الطبرسي، مجمع البيان، ٢: ٢١٤؛ ابن شهر آشوب، مناقب، ١: ١٨٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٣: ٢٦٩؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٦: ٩٣؛ المجلسي، بحار الأنوار، ١٩: ٣٢٣.

٧٠ بعيراً يتعاقبون على ركوبها كل اثنين أو ثلاثة على بعير، ولم يكن في الجيش إلا فرس واحد للمقداد^١.

والمشركون، تجاوز عددهم ١٠٠٠ مقاتل، فيهم ٦٠٠ دارع، و٤٠٠ فارس، و٧٠٠ بعير^٢. وقد خرجوا بطراً ورتاء الناس، تصحبهم القيان والمغنيات يضربن بالدفوف ويشربن الخمر^٣. وكان سادة قريش، مثل عتبة وشيبة وأبي جهل، ينحرون لإطعام الجيش ١٠ نوق يومياً^٤.

سبق المشركون إلى بدر، فاحتلوا «العدوة القصوى» الجانب الأبعد من المدينة، وهي منطقة مرتفعة، أرضها صلبة متماسكة، وبها مصادر المياه. بينما نزل المسلمون في «العدوة الدنيا» الجانب الأقرب للمدينة، وهي منطقة خالية من الماء، وأرضها رملية رخوة تصعب الحركة فيها، مما جعل موقعهم عسكرياً في غاية السوء^٥.

وفي الليلة التي سبقت المعركة، أنزل الله مطراً غزيراً. كان هذا المطر رحمة وتثبيتاً للمسلمين؛ إذ لبّد الأرض الرملية تحت أقدامهم فصارت صلبة، ووفر لهم الماء فجمعوه في حياض. وفي المقابل، كان المطر وبالاً على المشركين، إذ حوّل أرضهم الطينية إلى وحل زلقت فيه أقدامهم ودوابهم^٦.

١. الواقدي، المغازي، ٢٧: ١؛ ابن شهر آشوب، مناقب، ١٨٧: ١؛ العياشي، التفسير، ٢: ٢٥ و ٥٤.

٢. المسعودي، التنبيه والإشراف، ٢٠٤؛ القمي، تفسير القمي، ١: ٢٤٢.

٣. ابن كثير، البداية والنهاية، ٣: ٢٦٠.

٤. الواقدي، كتاب المغازي، ١: ١٢٨.

٥. الأنفال: ٤٢.

٦. ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٦٦٧؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢: ١٤٤؛ البيهقي، دلائل النبوة، ٣:

المواجهة بين الجيشين

في صبيحة يوم المعركة، عبَّ النبي ﷺ جيشه وسوّى صفوفهم. وقد عُقد لواء الجيش لعليّ عليه السلام، وظلّ هذا الشرف ملازمًا له في سائر الغزوات من بعد^١.

وفي مستهلّ القتال، برز ثلاثة من صناديد مكة يطلبون المبارزة، وهم: عتبة، وشيبة، والوليد. فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار، إلّا أنّ القرشيين رفضوهم قائلين: «ارجعوا، فإنّا لسنا إياكم نريد، إنّما نريد الأكفاء من قريش». فأمر النبي ﷺ الأنصار بالرجوع، وانتدب للمبارزة عمّه حمزة رضي الله عنه، وأخاه ووصيه عليًّا رضي الله عنه، ومعهما عبيدة بن الحارث.

في ساحة المعركة، بادر علي رضي الله عنه الوليد فأرداه قتيلاً. أمّا حمزة رضي الله عنه فقد اشتبك مع شيبة، واختلفا ضربتين حتّى تثلّمت سيوفهما من شدّة القراع. وفجأة، حمل علي رضي الله عنه على شيبة، فطأ حمزة رضي الله عنه رأسه - بإشارة من علي رضي الله عنه - فهوى علي رضي الله عنه بالسيف على رأس شيبة فقتله. وفي جانب آخر من الميدان، كان عتبة قد قطع ساق عبيدة، بينما شجّ عبيدة رأس عتبة. فكرّ علي رضي الله عنه على عتبة وأجهز عليه^٢.

ثمّ احتمل علي وحمزة رضي الله عنهما عبيدة بن الحارث - وكان يجود بنفسه - فأتيا به رسول الله ﷺ. ففاضت عينا عبيدة بالدمع وقال: «يا رسول الله! أبّي أنت وأمي، ألسْتُ شهيداً؟»، قال ﷺ: «بلى، أنت أوّل شهيد من أهل بيتي». قال عبيدة: «أما لو كان عمّك حيّاً، لعلم أنّي أولى بما قال منه»، فسأله النبي ﷺ: «وأيّ أعمامي تعني؟»، قال: «أبا طالب حيث يقول:

ولمّا نطاعن دونه ونناضل
ونذهل عن أبنائنا والحلائل

كذبتم وبيّت الله نبراً محمّداً
وننصره حتّى نصرع حوله

١. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣: ١٦.

٢. القمي، تفسير القمي، ١: ٢٦٤-٢٦٥.

فقال النبي ﷺ: «أما ترى ابنه [عليًا] كالليث العادي بين يدي الله ورسوله، وابنه الآخر [جعفرًا] في جهاد الله بأرض الحبشة؟»^١.

نزول الملائكة في بدر

من أبرز مظاهر الإمداد الإلهي في معركة بدر، نزول الملائكة لنصرة جيش المسلمين. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الحدث في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (الأنفال: ١٢). ففي هذه المعركة التي كان عدد المسلمين فيها قليلًا مقارنة بجيش المشركين، كان لحضور الملائكة أثر بالغ في تكثير سواد المسلمين في أعين أعدائهم وإلقاء الرعب في قلوبهم.

وفي خضم ذلك اليوم العصيب، كان علي عليه السلام دائم القلق على سلامة النبي ﷺ؛ فكان يكرّر في حومة الوغى ثم يعود ليتفقد أحوال رسول الله ﷺ. وقد تكرر هذا الأمر ثلاث مرات، حتّى من الله بالنصر على المسلمين في هذه المعركة غير المتكافئة^٢.

خسائر الطرفين وأصغان قريش

أسفرت المعركة عن مقتل سبعين من مشركي قريش، وأسر سبعين آخرين. في حين لم يتجاوز عدد شهداء المسلمين أربعة عشر شهيدًا؛ ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار^٣.

١. الزبير، كتاب نسب قريش، ٩٤؛ القمي، تفسير القمي، ١: ٢٦٥؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٨٠: ١٤.

٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ٣: ٢٧٥-٢٧٦.

٣. الواقدي، كتاب المغازي، ١: ١٠٢-١٠٣؛ ابن الأثير، الكامل، ٢: ١١٨؛ الحلبي، السيرة الحلبية، ٢: ١٨٣.

وقد كان للمهاجرين القدر المعلن في الإيقاع بجيش العدو وقتلهم مقارنة بالأنصار. وكان لعلي عليه السلام وعمة حمزة عليه السلام الحظ الأوفر والسهم الأكبر في حصد رؤوس المشركين من بين سائر المهاجرين. وقد أورث هذا الأمر أحقاداً دفينه في صدور القرشيين تجاه علي عليه السلام، ظلّت تعتمل في نفوسهم حتى بعد إسلامهم؛ فقابلوه وعترته بالجفاء والعداء، متجاهلين وصايا القرآن وتأكيدات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حقهم^١.

قسمة الغنائم

بلغت الغنائم التي ظفر بها المسلمون في هذه المعركة: ١٥٠ بعيراً، و٣٠ فرساً، وكميات وفيرة من الأمتعة والثياب والسلاح والجلود والأديم^٢.

وقد أثارت هذه الغنائم الوفيرة خلافاً بين المسلمين؛ وكان مردّ هذا الخلاف إلى التساؤل: هل تختصّ الغنائم بالمقاتلين الذين باسروا القتال في قلب المعركة، أم يشمل السهم أولئك الذين كانوا في مؤخرة الجيش والساقة، يقومون بمهامّ الدعم والحراسة؟ ولحسم هذا الإشكال، أرجأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قسمة الغنائم، ووكل عبد الله بن كعب من بني النجار، بحفظها ورعايتها. وفي هذا الشأن، أنزل الله تعالى قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال: ١).

ففي أثناء طريق العودة، قام النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقسمة الغنائم بين المسلمين، دون أن يستأثر لنفسه بشيء منها، ساعياً بذلك لرأب الصدع وتخفيف حدة الخلاف التي نشبت بينهم^٣.

١. انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، ٢: ١٨٨؛ ابن شهر آشوب، مناقب علي عليه السلام، ٢: ٦٨ و ٣: ١٢١؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ٤: ٢٠-٢١.

٢. الواقدي، كتاب المغازي، ١: ١٠٢-١٠٣؛ ابن الأثير، الكامل، ٢: ١١٨؛ الحلبي، السيرة الحلبية، ٢: ١٨٣.

٣. الصالحى الشامى، سبل الهدى، ٤: ٦٢-٦٥.

التعامل مع أسرى الحرب

بعد أن ذاق المسلمون أمرَ أنواع الأذى وشهدوا أقسى الممارسات غير الإنسانية من مشركي مكة، وبعد أن صبروا طويلاً على تعذيبهم الوحشي، تمكّنوا أخيراً من أسر جلاذيتهم السابقين. ورغم أنّه كان من الطبيعي جداً أن تتوقّ نفوس المسلمين للانتقام رداً على تلك الممارسات، إلّا أنّ النبي ﷺ أصدر أمره بالإحسان إلى الأسرى وعدم الإساءة إليهم. وامثالاً لوصيته، بالغ المسلمون في الرفق بأسرى الحرب ومداراتهم، حتّى أنّهم كانوا يؤثرونهم على أنفسهم في الطعام ويقاسمونهم أموالهم وزادهم^١. وبأمر من النبي ﷺ، جعل فداء كلّ أسير يُحسن الكتابة أن يُعلّم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة مقابل نيل حريته^٢.

زواج علي وفاطمة رضي الله عنهما

كانت مصاهرة النبي ﷺ شرفاً عظيماً طمح إليه كثير من الصحابة وسعوا لنيله. وكان ممّن تقدّم لخطبة السيّدّة فاطمة رضي الله عنها: أبو بكر، وعمر^٣، وعبد الرحمن بن عوف^٤. لكنّ النبي ﷺ ردّ سائر الخطّاب، إلى أن تقدّم علي رضي الله عنه لخطبتها. فوافق رسول الله ﷺ على طلبه وقبله صهراً له. وبذلك، عُقد قران علي رضي الله عنه على فاطمة رضي الله عنها في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، ثم

١. انظر: الواقدي، كتاب المغازي، ١: ١١٩؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٢٩٩-٣٠٠؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢: ١٥٩.

٢. انظر: الكتاني، نظام الحكومة النبوية، ١: ١٠٨-١٠٩.

٣. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٨: ١١؛ النسائي، السنن الكبرى، ٦: ٦٢؛ الحاكم النيسابوري، المستدرک، ٢: ١٦٧؛ الخوارزمي، المناقب، ٢٤٧؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ٥: ٥٠٢؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٣: ٢٢٨؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٩: ٢٠٤؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٤٣: ١٠٧-١٠٨.

٤. الإربلي، كشف الغمّة، ١: ٣٦٨؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٤٣: ١٠٨ و ١٤٠.

رُفَّت إليه في شهر ذي الحجة من العام نفسه^١. وقد وجد الخطابون الذين رُدُّوا في أنفسهم شيئاً من ترويع النبي ﷺ ابنته علياً، وعاتبوه على قراره هذا. فأجابهم النبي ﷺ قائلاً: «والله ما أنا منعكم وزوجته، بل الله منعكم وزوجه»^٢. وفي موضع آخر، بين ﷺ مكانة هذا الاقتران بقوله: «لو لم يُخلق عليٌّ، ما كان لفاطمة كفو من الآدميين»^٣.

المواجهة مع يهود بني قينقاع

عقب هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، أبرم عهداً مع اليهود، أقرهم بموجبه على البقاء في المدينة، شريطة ألا يظاهروا أحداً ضد المسلمين^٤. وكانت قبيلة بني قينقاع أول من نقض هذا العهد من اليهود، إذ عمدوا إلى تحريض المشركين ضد النبي ﷺ^٥.

وإثر نكث اليهود لعهدهم، سار إليهم النبي ﷺ بجيشه في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، بعد أن استخلف على المدينة أبا لُبابة بن عبد المنذر العَمري^٦. فرض المسلمون حصاراً على بني قينقاع الذين كان عددهم أربعمئة مقاتل^٧، فنزلوا على حُكم النبي ﷺ بعد خمسة عشر يوماً. وقد أمهلوا ثلاثة أيام للخروج من المدينة، وأوكلت مهمة إجلائهم إلى عبادة بن الصامت^٨. وقد آلت أموال اليهود إلى المسلمين كفيء؛ بيد أنهم حملوا معهم ما احتاجوا إليه من الإبل لنقل نسائهم وذرائعهم^٩.

١. الدياربكري، تاريخ الخميس، ١: ٤١١.

٢. المجلسي، بحار الأنوار، ٤٣: ٩٢.

٣. م. ن.، ٤٠: ٧٧.

٤. انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٥٠١-٥٠٤.

5. Lecker, "Qaynuqā', Banū," 16: 760.

٦. الواقدي، كتاب المغازي، ١: ١٧٧ و ٢: ٣٣ و ٣: ١٣٠.

٧. المسعودي، التنبيه والإشراف، ٢٠٦.

٨. الواقدي، كتاب المغازي، ١: ١٧٩.

٩. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢: ٢٢؛ كذلك، انظر: الواقدي، كتاب المغازي، ١: ١٨٠.

ومن الجدير بالاهتمام هنا النظر في موقف حلفاء بني قينقاع من العرب؛ فقد كان عبادة بن الصامت وعبد الله بن أبي من كبار زعماء الخزرج وحلفاء اليهود قديماً. فأما عبادة -وكان مسلماً صادقاً- فبمجرد نقض بني قينقاع للعهد، تبرأ من حلفهم، وأتى النبي ﷺ معلناً براءته من موالاتهم^١. وأما عبد الله بن أبي -رأس النفاق- فكان له دور مزدوج؛ فمن ناحية حرّض اليهود على التمرد والتحصن في آطامهم، ومن ناحية أخرى تقاعس عن نصرتهم فعلياً^٢. وعقب وقوعهم في الأسر، ألحّ على النبي ﷺ في العفو عن حلفائه، وبالع في الإلحاح حتّى لعنه النبي ﷺ ولعنهم، وحكّم بنفيهم^٣.

قسّم النبي ﷺ الغنائم بين أصحابه، وأخذ «الخمس» منها لأول مرة^٤. كما اصطفى لنفسه ثلاثة أقواس، ودرعين، وثلاثة أسياف، وثلاثة أرماع^٥، ووهب درعين لمحمد بن مسلمة وسعد بن معاذ^٦.

غزوة أُحُد

بعد الهزيمة النكراء التي تجرّع مرارتها المشركون في بدر، سعوا جاهدين لاستعادة هيبتهم المهدورة والثأر لقتلاهم. في بادئ الأمر، عدّ المشركون النياحة والبكاء على القتلى عاراً ومنقصة، فمنعوا الناس منها. بيد أنّهم سرعان ما عدلوا عن قرارهم هذا

١. ابن هشام، السيرة النبوية، ٤٩: ٢.

٢. الواقدي، كتاب المغازي، ١: ١٢٩.

٣. م. ن. ١: ١٧٧.

٤. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢: ٤٨١؛ المقرئ، إمتاع الأسماع، ٨: ٣٤٧.

٥. يُطلق مصطلح «صَفَى الغنم»، «صفوة الغنائم» أو «الصفى» على ما يختاره النبي ﷺ لنفسه من خيار الغنيمة قبل القسمة.

٦. الواقدي، كتاب المغازي، ١: ١٧٨؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢: ٢٢؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ١:

بغية تأجيج المشاعر العامة وإثارة الحماس؛ فأذنوا بإقامة المآتم، فانبرت النساء يندبن قتلاهن ويعدّدن مصارعهم. وقد رمى أشراف قريش من وراء ذلك إلى استنهاض حمية الرجال وإيغار صدورهم، وتعبّتهم لمواجهة المسلمين وغسل عار الهزيمة^١. وعلى هذا النحو، عقدت قريش العزم في السنة الثالثة للهجرة على الحرب، وشرعت في حشد القوّات وتجهيز العتاد العسكري. وبالموازاة مع ذلك، دأبوا على تحريض يهود المدينة على نكث عهودهم مع رسول الله ﷺ، تارة بالترغيب وتارة بلغة التهديد، دافعين إياهم نحو الدخول في مواجهة مع النبي ﷺ^٢.

زحف قريش نحو أُحُد

كانت القافلة التجارية للمشرّكين -التي كانت سبباً في معركة بدر- تضمّ ألف بعير، وقد حُفِظت حمولتها وأموالها كاملةً في دار النَّدوة دون أن تُمس. وقد توصّلت قريش إلى اتفاق مع أرباب البضائع؛ يقضي بأن يستردّ الملاك رؤوس أموالهم -التي ناهزت خمسين ألف دينار- بينما يُخصّص الربح العائد منها لتغطية نفقات الحرب ضدّ المسلمين. وكان الربح المتحقّق يعادل رأس المال تمامًا، ممّا وفّر ميزانية ضخمة ساهمت بشكل فعّال في تجهيز قريش وتسليحها. كما أرسل مشركو مكة وفوداً إلى القبائل المجاورة، ونجحوا في استنهاض قبيلتي كِنانة وتهامة وكسب تأييدهما. وبعد أن استكمل زعماء قريش حشد القوّات وتوفير العتاد، توجّهوا صوب المدينة^٣. وفي هذا الهجوم الشامل، احتشد خمسة آلاف مقاتل. وقد اصطحب القرشيون

١. راجع: الواقدي، كتاب المغازي، ١: ١٩٧ و ١٩٩؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ١: ٣١١؛ البيهقي، دلائل النبوة، ٣: ٢٠١.

٢. انظر: الصنعاني، المصنف، ٥: ٣٥٨-٣٦١.

٣. الواقدي، كتاب المغازي، ١: ١٩٩-٢٠٠؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢: ٢٨.

معهم خمس عشرة امرأة، تتقدّمهن هند بنت عتبة، زوجة أبي سفيان. وكان الغرض من وجود النسوة رفع معنويات الرجال وإثارة حميتهم عبر الغناء والعزف، وتذكيرهم بشار قتلى بدر لتحريضهم على القتال المستميت، ومنعهم من الفرار أمام المسلمين. وقد حملت الإماماء معهنّ الدفوف والمعازف، بينما حُمِّل الغلمان بجرار الخُمور^١.

وصول الخبر إلى المدينة

بعث العباس بن عبد المطلب -عمّ النبي ﷺ- بكتابٍ إلى ابن أخيه، يُطلعه فيه على تحركات قريش وعدد جيشها وعتادها. وقد حمل هذا الكتاب رجلٌ من بني غِفَار، قطع المسافة إلى المدينة في ثلاثة أيام فقط. كان النبي ﷺ في مسجد قباء حين وافاه الكتاب؛ فدفعه إلى أبيّ بن كعب فقرأه عليه، فأمره النبي ﷺ بكتمان الأمر وطَيّ الخبر^٢.

المشركون على مشارف المدينة

عندما وصل جيش قريش إلى منطقة الأبواء^٣، اقترحت هند بنت عتبة -زوجة أبي سفيان- نبش قبر السيّدة آمنه ؓ والدّة النبي ﷺ، واستخراج رفاتها وحمله معهم. وعُلّلت ذلك بخشيتها من أن يأسر المسلمون النساء المرافقات للجيش؛ ففي تلك الحال، يمكنهم مساومة النبي ﷺ وإجباره على افتدائهنّ برفات أمّه، أو الحصول على فدية مالية ضخمة مقابل تلك العظام إن لم يقع أحد في الأسر. استشار أبو سفيان زعماء قريش في هذا المقترح، فرفضوه قائلين: «لا تذكر من هذا شيئاً، فلو فعلنا نبشت بنو بكر وخزاعة موتانا»^٤.

١. الواقدي، كتاب المغازي، ١: ٢٠٠-٢٠٤ و ٢٠٦؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٦١-٦٢؛ البلاذري،

أنساب الأشراف، ١: ٣١٢-٣١٣.

٢. الواقدي، كتاب المغازي، ١: ٢٠٤؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ١: ٣١٤.

٣. قرية كبيرة تقع بين مكّة والمدينة وفيها قبر السيّدة آمنه بنت وهب ؓ.

٤. الواقدي، كتاب المغازي، ١: ٢٠٦. بنو بكر وخزاعة: قبيلتان كانتا تربطهما أحلاف مع بني هاشم منذ عهد

وتابع جيش قريش زحفه حتى نزلوا بمنطقة ذي الحليفة على قرب من المدينة، فضربوا خيامهم، وأرسلوا إبلهم وخيلهم لترعى في مزارعها وتفسد زرعها. غير أنّ المسلمين كانوا قد استبقوا وصول قريش بنقل أدواتهم الزراعية وما خفّ حمله إلى داخل المدينة. في هذه الأثناء وبأمر من النبي ﷺ، خرج الحُباب بن المنذر متخفياً لاستطلاع القوم وتقدير عددهم وعدّتهم. ولما عاد، رفع تقريره إلى النبي ﷺ سرّاً في خلوة -كما أمره-، فأوصاه النبي ﷺ بالكتمان ولا يذيع ما رأى في الناس^١.

مشورة الأصحاب

ما إن دنا المشركون من أطراف المدينة، حتّى بادر المسلمون بتعيين الحراس لحماية المدينة، ولا سيّما مسجد النبي ﷺ. ثمّ جمع النبي ﷺ أصحابه ليشاورهم في خطة المواجهة وكيفية التصدي لجيش العدو.

واستهلّ النبي ﷺ المجلس بإخبار المسلمين برؤيا كان قد رآها في منامه؛ فقد رأى بقرًا يُذبح، ورأى ثلثة حدثت في سيفه وهو يرتدي درعاً حصينة. وقد أوّل النبي ﷺ رؤياه قائلاً: «فأما البقر، فهي ناس من أصحابي يُقتلون، وأما الثلثم الذي رأيتُ في ذباب سيفي، فهو رجل من أهل بيتي يُقتل»^٢. وعقب سرد الرؤيا، فتح باب المشورة.

كان رأي النبي ﷺ هو البقاء داخل المدينة والتحصّن بها، غير أنّ فريقاً من فاتهم شهود بدر ومعهم الشباب المتحمّسون الذين ذاقوا حلاوة النصر فيها، جنحوا إلى خيار الخروج من المدينة لملاقاة العدو. وقد احتجّ هذا الفريق أنّ بقائهم داخل المدينة

عبد المطلب ﷺ، جدّ النبي ﷺ (انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، ١: ٧٠-٧٢).

١. م. ن. ١، ٢٠٦-٢٠٧.

٢. ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٦٣.

سَيُوهِمُ الْعَدُوَّ بِأَنَّهُمْ قَدْ جَبَنُوا عَنْ لِقَائِهِمْ، فَيَزِدَادُوا جَرَأَةً عَلَيْهِمْ. هَذَا وَقَدْ سَرَّحُوا خَيْلَهُمْ وَإِبِلَهُمْ فِي زُرُوعِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، فَعَاثُوا فِي مَصَادِرِ رِزْقِهِمْ وَأَرْضِهِمْ فُسَادًا؛ فَإِنْ لَمْ يَدَافِعُوا عَنْ كِرَامَتِهِمْ وَأَرْضِهِمْ الْآنَ وَيَطْرُدُوهُمْ، لَنْ تَقُومَ لَهُمْ زِرَاعَةٌ بَعْدَ الْيَوْمِ^١.
وَلَمَّا رَأَتْ الْأَغْلَبِيَّةُ ضَرُورَةَ الْخُرُوجِ، نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ رَأْيِهِمْ، فَدَخَلَ بَيْتَهُ وَلَبَسَ لِأَمْتِهِ لِلْحَرْبِ. ثُمَّ وَعَظَ أَصْحَابَهُ وَحَثَّهُمْ عَلَى الصَّبْرِ، وَأَمَرَ الْجَيْشَ بِالتَّحَرُّكِ لِمَنَاجِزَةِ قَرِيشٍ وَحُلَفَائِهَا. وَقَدْ اسْتَخْلَفَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْمَدِينَةِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ لِيُؤَمِّمَ مَنْ بَقِيَ مِنَ النَّاسِ، وَعَقَدَ لِهَوَاءِ الْجَيْشِ وَسَلَّمَهُ إِلَى عَلِيٍّ ؓ. ثُمَّ انْطَلَقَ قَاصِدًا جَبَلَ أَحُدَ وَمَعَهُ أَلْفُ مُقَاتِلٍ^٢.

انخدال المنافقين

فِي مُنْتَصَفِ الطَّرِيقِ، انْخَذَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَفَلُوا رَاجِعِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَكَانَ عِدْدُهُمْ ثَلَاثًا مِائَةً رَجُلًا. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ -الَّذِي كَانَ رَأْيُهُ الْقِتَالُ دَاخِلَ الْمَدِينَةِ- لِأَصْحَابِهِ مَبْرَرًا فَعَلْتُهُ: «مُحَمَّدٌ عَصَانِي وَأَطَاعَ الْوُلْدَانِ، مَا نَدْرِي عِلَامَ نَقْتُلُ أَنْفُسَنَا هَاهُنَا؟ أَيُّهَا النَّاسُ، ارْجِعُوا». تَبِعَهُمْ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيُّ وَنَاشَدَهُمُ اللَّهُ وَالرَّسُولُ ﷺ أَلَّا يَخْذِلُوا قَوْمَهُمْ وَنَبِيَّهُمْ، فَرَدَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ قَائِلًا: «لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكُمْ تَقَاتِلُونَ، لَمَا أَسْلَمْنَاكُمْ. وَلَكِنَّا لَا نَرَى أَنْ يَكُونَ قِتَالٌ». وَهَكَذَا تَقَلَّصَ عِدَدُ جَيْشِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ مُقَاتِلٍ. وَكَادَتْ قَبِيلَتَا بَنُو حَارِثَةَ وَبَنُو سَلَمَةَ أَنْ تَفْشَلَا تَضَعْفًا وَتَرَدَّدًا بَعْدَ انْصِرَافِ ابْنِ أُبَيٍّ، لَوْلَا أَنْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ وَأَزَالَ الشَّكَّ مِنْ قُلُوبِهِمْ، كَمَا جَاءَ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (آل عمران: ١٢٢).

١. انظر: الواقدي، كتاب المغازي، ١: ٢١٢.

٢. م. ن. ١، ٢١٥؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٦٣-٦٤.

لما وصل رسول الله ﷺ إلى ساحة المعركة، نزل بجيشه عند سفح جبل أحد، جاعلاً الجبل خلف ظهره. وقام ﷺ بتعبئة الجيش وتسوية صفوف المسلمين، وأصدر أمراً مشدداً بالآلا يبدأ أحد القتال حتى يأمره بذلك. وكان عن يسار جيش المسلمين جبل يُعرف بـ«جبل عَيْنَيْن»^١، فأمر النبي ﷺ عبد الله بن جُبَيْر على خمسين من الرماة، وأقامهم في ثغرة بذلك الجبل، ليردوا خيل المشركين بالنبل، ويمنعوهم من الالتفاف خلف جيش المسلمين وتطويقهم. وقد أوصاهم النبي ﷺ بعبارات حاسمة قائلاً: «إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنّا القوم وأوطأناهم^٢ فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم»^٣.

اندلاع المعركة

كان أول من رمى المسلمين بنبل وأشعل فتيل الحرب هو أبو عامر الراهب^٤، الذي تقدّم على رأس خمسين من أتباعه محاولاً استمالة قبيلة الأوس، إلا أن محاولته باءت بالفشل. تبادل الطرفان الرشق بالنبال لفترة وجيزة دون أن يحسم أحدهما الموقف، فترجعوا.

١. وعُرف هذا الجبل فيما بعد بـ«جبل الرماة».

٢. أي: قهرناهم.

٣. الديار بكرى، تاريخ الخميس، ١: ٤٢٣؛ وانظر أيضًا: الواقدي، كتاب المغازي، ١: ٣٢٥؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٦٤.

٤. هو عبد عمرو بن صيفي من قبيلة الأوس، وقد تخلّى عن عبادة الأصنام واعتنق المسيحية. غادر أبو عامر المدينة المنورة قبيل وقعة أحد بصحبة مجموعة من شباب الأوس متوجّهاً إلى مشركي مكة؛ وذلك لتجنّب التأثير بدعوة رسول الله ﷺ. وقد شارك في معركة أحد ضمن صفوف جيش المشركين، حيث نادى في المقاتلين مُعَرِّفًا بنفسه بـ«أبي عامر الراهب»، ومُحَرِّضًا الأوس على مناوأة النبي ﷺ. وفي هذا السياق، أطلق عليه المسلمون لقب «أبو عامر الفاسق». ومات أبو عامر في بلاد الشام سنة ١٠ هـ وهو على الديانة المسيحية (راجع: البلاذري، أنساب الأشراف، ١: ٢٨١؛ المسعودي، مروج الذهب، ١: ٨٨-٨٩؛ ابن الأثير، الكامل، ٢: ١٥٠-١٥١؛ كحالة، معجم قبائل العرب، ١: ٥١).

عندها، حرّض أبو سفيان بني عبد الدار -حملة أُلوية المشركين- على القتال، وأمرّ النساء بقرع الدفوف والغناء لإثارة حماسة الجنود. فبرز طلحة بن أبي طلحة -حامل لواء المشركين- يطلب المبارزة. فانبرى له عليّ ﷺ وعاجله بضربة سيف قاصمة فلقت هامته، فخرّ صريعاً، لكنّ عليّاً ﷺ انصرف عنه دون أن يجهز عليه. فسُئِلَ عن سبب ذلك، فقال: «لأنّني ناشدني الله والرَّحِم، فاستحييتُ منه، وعلمتُ أنّ الله تبارك وتعالى سيقتله»^١.

احتدم الوطيس بين الفريقين، وشنّ أصحاب رسول الله ﷺ هجمات ضارية مرّقت صفوف المشركين^٢. وكلّما سقط لواء المشركين، تناوله آخر من بني عبد الدار حتّى قُتلوا جميعاً، فسقط اللواء وتمزّق شَمْلُ المشركين وولّوا الأدبار. وفي خضمّ هذه المعركة، كان حمزة ﷺ وعليّ ﷺ وأبو دُجانة يجولون في صفوف العدو ويفتكون بهم فتكاً ذريعاً.

في تلك الأثناء، أوعزت هند بنت عتبة -زوجة أبي سفيان- إلى غلامها الحبشي «وحشي» بقتل حمزة ﷺ. فتربّص وحشي خلف صخرة، ولما مرّ به حمزة ﷺ، سدّد إليه حربته فأصابته. حاول حمزة ﷺ الهجوم عليه، لكن خارت قواه وسقط شهيداً^٣. رغم استشهاد حمزة ﷺ، لاحت بشائر النصر للمسلمين، وأخذت فلول المشركين بالفرار، فيما طاردهم المسلمون وأعملوا فيهم السيف، حتّى استولوا على معسكرهم وغنائمهم^٤.

١. الواقدي، كتاب المغازي، ١: ٢٢٦؛ ابن الأثير، الكامل، ٢: ١٥٣؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٤: ٢٣٦.

٢. الواقدي، كتاب المغازي، ١: ٢٢٦.

٣. المقدسي، البدء والتاريخ، ٤: ٢٠١.

٤. الواقدي، كتاب المغازي، ١: ٢٢٩؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٤: ٢٣٩؛ الطبرسي، مجمع البيان،

عند هذا المشهد، دبّ الخلاف والتردد في صفوف الرماة المتمركزين في جبل عنين. خشي الرماة أن تفوتهم الغنائم إن بقوا في مواقعهم، فخالف معظمهم أوامر النبي ﷺ الصارمة، وغادروا مواقعهم لجمع الغنائم. فطن قائد المشركين، خالد بن الوليد، لهذه الثغرة القتالية، فكرّر بخيله -ومعه عكرمة بن أبي جهل- على من تبقى من الرماة فأبادوهم، ثمّ التقّوا حول جيش المسلمين من الخلف. وفي الوقت ذاته، رفعت عمرة بنت علقمة -إحدى نساء قريش- لواء المشركين الساقط، وعاد الفارّون من المشركين إلى ساحة المعركة حين رأوا الراية مرفوعة^١.

فوجئ المسلمون، الذين كانوا منشغلين بجمع الغنائم مشتبّي الصفوف، بالهجوم المباغت من الخلف والأمام. عمّت الفوضى، واختلط الحابل بالنابل، وتفرقت كلمة الجيش. وفي غمرة هذا الاضطراب، قتل أحد المشركين مصعب بن عمير -حامل لواء المسلمين- ظناً منه أنّه النبي ﷺ، فصاح بأعلى صوته: «قُتل محمد!». فتت هذه الشائعة في عضد المسلمين، وانهارت معنوياتهم، فلاذوا بالفرار لا يلوون على شيء^٢. في خضمّ هذه الهزيمة، ثبت عليّ عليه السلام وحده يذبّ عن رسول الله ﷺ. كان النبي ﷺ ينادي أصحابه الفارّين: «إلّٰي عباد الله!»، لكن الرعب كان قد استولى عليهم فلم يستجيبوا لندائه، وفرّوا صاعدين الجبل^٣. وكان من بين الفارّين كبار الصحابة كأبي بكر وعمر وطلحة وسعد^٤. نظر النبي ﷺ حوله فلم يجد إلّا عليّاً عليه السلام، فسأله: «ما

١. الواقدي، كتاب المغازي، ١: ٢٤٧؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٥: ٣٣؛ دياربكرى، تاريخ الخميس، ١: ٤٣١.
٢. ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٧٧-٧٨.
٣. انظر: الواقدي، كتاب المغازي، ١: ٢٣٧.
٤. راجع: مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ٧: ١٧٣-١٨٧.

لَكَ لم تذهب مع القوم؟»، فأجاب عليّ: «يا رسول الله، أكرّ بعد إيمان؟! إنّ لي بك أسوة»^١.

تكالّب المشركون على النبي ﷺ يريدون قتله، فكان عليّ ﷺ يصدّ هجماتهم المتتالية ببطولة؛ فكلّما حملت كتيبة على النبي ﷺ، قال له: «اكفني هؤلاء»، فيهمجم عليهم عليّ ﷺ ويفرّق جمعهم ويقتل كبشهم. وفي إحدى تلك الجولات، هبط جبريل ﷺ وقال للنبي ﷺ: «يا محمد! إنّ هذه المواساة. لقد عجبت الملائكة من مواساة هذا الفتى»، فقال النبي ﷺ: «وما يمنعه وهو منّي وأنا منه»، فقال جبريل ﷺ: «وأنا منكما»^٢. وبينما كان عليّ ﷺ يخوض غمار الحرب ويقارع المشركين، دوى في الأفق نداءً يقول: «لا فتى إلّا عليّ، ولا سيف إلّا ذو الفقار»^٣.

قد أصيب عليّ ﷺ في ذلك اليوم بأكثر من ستين جراحة، حتّى صار جسده كالقنفذ، فكان النبي ﷺ يمسح على جراحه فتبرأ بإذن الله^٤. تدريجيّاً، بدأ بعض المسلمين بالعودة والالتفاف حول النبي ﷺ، ودافعوا عنه ببسالة رغم جراحهم وكثرة العدو. انتهت المعركة باستشهاد سبعين من المسلمين، جلّهم من الأنصار، وإصابة سبعين آخرين بجروح^٥. بينما قُتل من المشركين ما بين ١٨ إلى ٢٨ رجلاً^٦.

-
١. الكليني، الكافي، ٨: ١١٠؛ الطبرسي، إعلام الوری، ٨٢؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٢٠: ٩٥ و ١٠٧.
 ٢. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢: ١٩٧؛ الكليني، الكافي، ٨: ١١٠؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٣: ٢٩٣ و ١٤: ٢٥٠-٢٥١.
 ٣. ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ١٠١؛ القمي، تفسير القمي، ١: ١١٦؛ أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ١٥: ١٢٨؛ الصدوق، الأمالي، ٢٠٠؛ المفيد، الإرشاد، ١: ٨٤ و ٨٧؛ الطوسي، الأمالي، ١٤٣.
 ٤. ابن شهر آشوب، مناقب، ٢: ١٢٠-١١٩؛ الطبرسي، مجمع البيان، ٢: ٥٠٩؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٢٣: ٢٠.
 ٥. الواقدي، كتاب المغازي، ١: ٣٠٠؛ الديار بكري، تاريخ الخميس، ١: ٤٤٦؛ الحلبي، السيرة الحلبية، ٢: ٢٥٥.
 ٦. انظر: الواقدي، كتاب المغازي، ١: ٣١٣-٣١٤؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٥: ٤٠ و ٥٤.

غزوة حمراء الأسد

بعد مرور يومين فحسب على معركة أُحُد، تحرَّك رسول الله ﷺ ممثلاً لأمر الله تعالى لتعقب جيش قريش ومطاردته. فأصدر أمره لأصحابه بالنهوض إلى منطقة حمراء الأسد، التي تبعد عن المدينة مسافة لا تتجاوز العشرين كيلومتراً. ولم يكن الامتثال لهذا الأمر هيناً على نفوس المسلمين الذين أنهكتهم جراحات أُحُد وأعيامهم القتال، ففي ذلك نزل قوله تعالى مشدداً من أزرهم: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٩)¹.

قد نزل الأمين جبريل ﷺ بخبر من السماء يقضي بالألا يخرج مع النبي ﷺ إلا مَنْ كان به جراحة من المعركة. فأمر النبي ﷺ باستنهاض الجرحى خاصة لمطاردة المشركين²، واستخلف على المدينة عبد الله بن أمّ مكتوم، وانطلق بصحبة أصحابه المتخنين بالجراح، وقد عقد اللواء لعليّ ﷺ³.

حطَّت قريش رحالها في منطقة الرِّوْحَاء -على بُعد ثمانين كيلومتراً من المدينة- وهناك بدأوا يتلاومون، مبدین ندمهم على عدم قتل النبي ﷺ واستئصال شأفته. وقد انقسم القوم فريقين: فريق يرى ضرورة العودة إلى المدينة للقضاء على الإسلام نهائياً. وفريق آخر يعارض ذلك قائلاً: «يا قوم لا ترجعوا، فإنَّ محمداً وأصحابه الآن في حَنْقٍ شديد ممَّا أصابهم. فوالله ما أمنتُ إن رجعتم أن يجتمع جميع مَنْ كان تخلف عن أحد من الأوس والخزرج، ويطؤوكم ويغلبوا عليكم، والآن لكم الغلبة فلا يكون إلا أن ينعكس الأمر».

١. انظر: الطبرسي، مجمع البيان، ٥٠٩: ٢ و ٥٣٩؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٢٠: ٢٢ و ٣٩.

٢. القمي، تفسير القمي، ١: ١٢٥؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٦٤: ٢٠.

٣. انظر: الواقدي، كتاب المغازي، ١: ٣٣٤-٣٤٠؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢: ٣٧-٣٨؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ١: ٣٣٨-٣٣٩.

٤. شدّة الغيظ والغضب.

وفي تلك الأثناء، مرّ بهم معبد الخُزاعي - وكان مشرّكاً إلاّ أنّه ناصح للمسلمين - فالتقى بأبي سفيان وأصحابه، وبادرهم قائلاً: «قد والله تركتُ محمّداً وأصحابه وهم يحرقون عليكم. وهذا علي بن أبي طالب، قد أقبل على مقدّمته في الناس وقد اجتمع عليه من كان تخلّف عنه». فدبّ الرعب في قلوب المشركين لما سمعوا هذا الخبر، وأسرعوا بالرحيل يَمّموا وجوههم شطر مكّة هارين. ولما بلغ النبي ﷺ نبأ فرارهم، مكث في حمراء الأسد ثلاثة أيام لإظهار القوة والسيطرة، ثمّ عاد إلى المدينة^١.

غزوة بني النضير

عقب هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، أبرم بنو النضير - كسائر اليهود - عهد موادعة وصلاح مع المسلمين^٢. ولكن في السنة الرابعة للهجرة، نقض بنو النضير عهدهم^٣. كان بنو النضير قد تعرّضوا لتحريض وتهديد من قريش لنقض ميثاقهم مع النبي ﷺ؛ فدبروا مؤامرة لاغتيال رسول الله ﷺ، وانتدبوا لهذه المهمة عمرو بن جحاش^٤.

أطلع الوحي النبي الأكرم ﷺ على مكيدتهم، فأمرهم عشرة أيام للجلاء عن المدينة بأموالهم - باستثناء السلاح -، على أن يؤذن لهم بالعودة سنوياً لجذّ النخل وحصاد التمر. بيد أنّ بني النضير رفضوا عرض النبي ﷺ بتحريض من عبد الله بن أبي، الذي وعدهم بنصرته لهم ومعه بنو قُريظة^٥.

فحاصر جيش المسلمين بقيادة علي عليه السلام حصون بني النضير. وخلال الحصار الذي

١. الواقدي، كتاب المغازي، ١: ٣٣٩؛ الطبرسي، إعلام الوري، ٨٦؛ الدياربكري، تاريخ الخميس، ١: ٤٤٧.

٢. انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٥٠١-٥٠٤.

٣. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢: ٥٧.

٤. الصنعاني، المصنف، ٥: ٣٥٨-٣٥٩.

٥. ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ١٩٠.

٦. الواقدي، كتاب المغازي، ١: ٣٦٨-٣٦٩؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢: ٥٥٣.

استمر ستة أيام، حاول عزّوك اليهودي الفتك بالنبي ﷺ، فتصدّى له عليّ رضي الله عنه وقتله^١. وفي نهاية المطاف، نزل اليهود على حكم النبي ﷺ واستسلموا، ورضوا بالجلء عن المدينة على أن يحمل كلّ بيت ما أفلّت الإبل في حمل بعير واحد من أمتعتهم، دون السلاح والذهب والفضة^٢. فسار فريق من كبارهم إلى خيبر، بينما هاجر آخرون إلى الشام^٣.

غزوة الأحزاب (الخنق)

في السنة الخامسة للهجرة، انطلق وفد من يهود بني النضير إلى مكة، وأخذوا يحرّضون المشركين ويؤلّبونهم على حرب النبي ﷺ^٤. فذهبوا إلى أبي سفيان، وشرحو له ما نالهم من المسلمين، وطلبوا نصرته، فقال لهم أبو سفيان: «أنا لكم حيث تحبّون، فاخرجوا إلى قريش فادعوهم إلى حربه واضمنوا النصر لهم والثبوت معهم حتّى تستأصلوه». فمضى اليهود إلى سادة قريش ودعوهم إلى استئصال شأفة النبي ﷺ. ولم يكتفوا بقريش، بل طافوا على سائر قبائل العرب، واستجاشوهم واستنفروهم للقتال مستخدمين إغراء المال والوعود بالغنائم^٥.

وهكذا، زحفت قريش والقبائل المتحالفة معها -التي شكّلت بتدبير من اليهود جيشاً بلغ قوامه أربعة آلاف وسبعمئة مقاتل - تحت قيادة أبي سفيان لحرب المسلمين^٦.

١. الواقدي، كتاب المغازي، ١: ٣٧١؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ١٩١ و ١٩٩-٢٠٠.

٢. الواقدي، كتاب المغازي، ١: ٣٧٢؛ يعقوبي، تاريخ يعقوبي، ٢: ٤٩؛ الحلبي، السيرة الحلبية، ٢: ٢٦٦.

٣. ابن كثير، البداية والنهاية، ٤: ٧٥-٧٦ و ١٩٦-١٩٨؛ ابن الأثير، الكامل، ٢: ١٢٢.

٤. ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٢١٥؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢: ٥٦٤.

٥. المفيد، الإرشاد، ١: ٩٤-٩٥؛ وانظر أيضاً: الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٤٤١-٤٤٣؛ البلاذري، أنساب

الأشراف، ١: ٤٠٩.

٦. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٤٤٣.

الشورى العسكري في المدينة

أقبل ركب من خُزاعة^١ مسرعين إلى المدينة، يحملون نبأ زحف المشركين وتحركهم. فخرج النبي ﷺ إلى المسلمين وأطلعهم على الخبر. وكعاداته ﷺ في المشورة في المهمات، عقد مجلساً للتشاور مع أصحابه حول كيفية مواجهة هذا الخطر الداهم.

قد اختلفت آراء المسلمين في خطة الدفاع؛ فرأى فريق منهم الخروج من المدينة لملاقاة العدو، وفريق آخر كان يرى البقاء في المدينة. وفي خضم هذا النقاش، تكلم سلمان الفارسي وقال: «يا رسول الله، إنّنا إذ كنّا بأرض فارس وتحوّنا الخيل، خندقنا علينا. فهل لك يا رسول الله أن نخندق؟». لقي مقترح سلمان قبولا واستحساناً لدى المسلمين؛ لا سيّما وأنهم كانوا يعلمون أنّ رأي النبي ﷺ يوم أُحد كان البقاء في المدينة وعدم الخروج منها.

بعد اتّخاذ القرار، انطلق رسول الله ﷺ مع نفر من أصحابه لتفقد طبيعة الأرض وتحديد مسار الخندق. فأمر ﷺ بأن يبدأ الحفر من ناحية المذاد^٢ وصولاً إلى نواحي دُباب^٣ ورائج^٤؛ جاعلين جبل سلْع^٥ خلف ظهورهم لتأمين مؤخرة الجيش^٦. لم يكتفِ النبي ﷺ بإصدار الأوامر، بل شارك بنفسه مشاركة فعّالة في أعمال الحفر^٧.

١. خُزاعة: قبيلة عربية كانت تلي أمر البيت في مكّة قبل قريش وتقطن بها. وقد عقدت حلف نصره مع بني

هاشم في عهد عبد المطلب ﷺ، جدّ النبي ﷺ (انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، ١: ٧٠-٧٢).

٢. المذاد: سهل يقع بين جبل سلْع (شمال غرب المسجد النبوي) وبين الخندق الذي حفره النبي ﷺ.

٣. دُباب: جبل يقع بجوار جبل سلْع شمال المسجد النبوي.

٤. رائج: أطم (حصن) يقع شمال المسجد النبوي.

٥. سلْع: جبل يقع شمال غرب المسجد النبوي يقع إلى جانب سوق المدينة.

٦. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٤٤٤؛ المقرئ، إمتاع الأسماع، ١: ٢١٩ و ٢٢١؛ الحلبي، السيرة الحلبية، ٢: ٣١١.

٧. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٤٤٥؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٣: ٢٢٦.

وكان لحضوره الميداني، وما كابده من عناء ومشقة جنباً إلى جنب مع سائر المسلمين، أبلغ الأثر في شحذ همهم وتشجيعهم على إنجاز المهمة. فكان تارةً يضرب بالمعول، وتارةً يغرف التراب بالمسحاة والمجرفة، وتارةً يحمل التراب على كاهله^١. كان أصحابه يشفقون عليه ويقولون: «يا رسول الله! نحن نكفيك»، فيجيبهم ﷺ: «إني أريد مشاركتكم في الأجر»^٢.

وينقل أحد الصحابة مشهداً مؤثراً من تلك الأيام، فيقول: «رأيت رسول الله ﷺ يوماً قد قعد من شدة التعب، وأسند ظهره إلى حجر عند سفير الخندق، فأغفت عيناه. ورأيت أبا بكر وعمر يقومان عند رأسه، يذودان الناس عنه لئلا يوقظوه. فلما دنوت منه انتبه، فقام وقال: «ألا أيقظتموني؟». ثم تناول المعول، وجعل يضرب وهو يرتجز:

اللهم إن العيش عيشُ الآخرة
فاغفر للأنصار والمهاجرة

وفي نهاية المطاف، وبعد جهود مضنية وشاقة، تمكن النبي ﷺ والمسلمون من إتمام حفر الخندق قبل وصول جيوش مكة والأحزاب^٣.

التعبئة العامة وتنظيم الدفاعات

في شهر ذي القعدة من السنة الخامسة للهجرة، استنفر النبي ﷺ المسلمين لملاقاة المشركين، وخرج بنفسه ليختار موضعاً استراتيجياً لمعسكر المسلمين^٤، فقبل خروجه،

١. انظر: الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٤٤٩؛ المقرئ، إمتاع الأسماع، ١: ٢٢١؛ الصالح الشامي، سبل الهدى، ٤: ٥١٦.

٢. السمهودي، وفاء الوفا، ٤: ١٢٠٧.

٣. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢: ٥٠.

٤. البلاذري، أنساب الأشراف، ١: ٣٤٣.

استخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم^١. ضُربت للنبي ﷺ خيمة من الجلد الأحمر في أعلى جبل سلع، حيث الموضع الذي بُني فيه «مسجد الفتح» لاحقاً^٢.

وإحكاماً لخطة الدفاع، جعل النبي ﷺ للخندق عشرة منافذ للعبور، وأقام على حراسة كلّ منفذ رجلاً من القبائل، وأمر عليهم الزبير بن العوام، وأمره بقتال مَنْ يحاول اقتحامها^٣. وتحسباً لأيّ غدر محتمل من يهود بني قُرَيْظَة الذين كانوا يقطنون جنوب المدينة، رتب النبي ﷺ حراسة داخلية في المدينة لحماية الذراري والنساء^٤. وكدأبه في سائر الغزوات، كان لواء الجيش الأعظم بيد علي بن أبي طالب عليه السلام^٥.

زحف المشركون بجيش عرمرم تجاوز قوامه عشرة آلاف مقاتل، وقد ضمّ هذا الجيش ثلاثمائة فرس وألفاً وأربعمائة بعير^٦. عقدت قوى الشرك رايتها في دار الندوة بمكة، وحملها عثمان بن أبي طلحة، بينما آلت القيادة العامة للجيش إلى أبي سفيان^٧. وما إن بلغ المشركون مشارف المدينة، حتّى أصابتهم الدهشة لرؤية الخندق -وهي مكيدة لم تكن العرب تعرفها- فحال بينهم وبين التقدّم واقتحام المدينة^٨. لذلك اضطروا

١. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٤٤١؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٢٢٠.

٢. الدياربكري، تاريخ الخميس، ١: ٤٨١.

٣. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٤٥٠-٤٥٢؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢: ٥٠.

٤. ابن سيّد الناس، عيون الأثر، ٢: ٨٨؛ المقرئ، إمتاع الأسع، ١: ٢٢٥؛ الدياربكري، تاريخ الخميس، ١: ٤٨٣.

٥. الطبرسي، إعلام الوری، ١٩٠.

٦. المسعودي، التنبيه والإشراف، ٢١٦.

٧. ابن سيّد الناس، عيون الأثر، ٢: ٥٦؛ المقرئ، إمتاع الأسع، ١: ٢١٨؛ الدياربكري، تاريخ الخميس، ١: ٤٨٠؛ الحلبي، السيرة الحلبية، ٢: ٣١١.

٨. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٤٧٠؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢: ٥٠؛ المفيد، الإرشاد، ١: ٩٨؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٢: ٢٢٤.

لضرب طوق من الحصار حول المدينة. تباينت الروايات في مدة هذا الحصار، فقدّرتها ما بين خمسة عشر يوماً إلى شهر كامل^١.

المناوشات العسكرية وتبادل الرشق

نظراً لاستحالة الاقتحام الجماعي، لجأ المشركون إلى استراتيجية القيادة الدورية؛ حيث تناوب ستة من قادتهم على قيادة الهجمات الاستنزافية والمناوشات ضدّ المسلمين، يختصّ كلّ منهم بיום معلوم. وهؤلاء القادة هم: أبو سفيان، وخالد بن الوليد، وعمر بن العاص، وهُمَيْرَةُ بن أبي وهب، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الحطّاب. فكانوا يُجِيلون خيلهم، تارةً متفرّقين وتارةً مجتمعين، يدنون من حافة الخندق لرمي المسلمين بالنبال^٢. لقد شكّل الخندق حائلاً منيعاً أمام فرسان المشركين، وسلبهم القدرة على الالتحام المباشر وجهًا لوجه مع المسلمين. فانهضت العمليات العسكرية - في أغلب أيام الحصار - في التراشق بالحجارة والنبال بين المعسكرين^٣.

كان المشركون يقدّمون رماتهم المَهْرَةَ في الطليعة، ومن أبرزهم: جَبَّان بن العَرِقة وأبو أسامة الجُشَمي. وفي أحد الأيام، كثّف الرماة رميهم باتجاه خيمة النبي ﷺ لاستهدافه، وكان ﷺ حينها واقفاً خارج الخيمة ممتطياً جواده وعليه لأتمته ودرعه. فأصاب سهمٌ من كنانة جَبَّان بن العَرِقة يدَ سعد بن معاذ في ذراعه، فصاح جَبَّان متبجّحاً: «خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ العَرِقة!»، فردّ عليه النبي ﷺ داعياً: «عَرَقَ اللهُ وَجْهَكَ فِي النَّارِ»^٤.

١. للاطلاع على الأقوال المختلفة في هذا الشأن، راجع: الوائلي، ١: ٤١٩ و ٢: ٤٤٠ و ٤٦٨ و ٤٩١؛ القمي، تفسير القمي، ٢: ١٨٥؛ المسعودي، التنبيه والإشراف، ٢١٦؛ ابن الأثير، الكامل، ٢: ١٨٠؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٢٠: ٢٢٨ و ٢٥٢.

٢. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٤٦٨؛ المفيد، الإرشاد، ١: ٩٧.

٣. الدياربكري، تاريخ الخميس، ١: ٤٨٤.

٤. أي: جعل الله وجهك يصبّ عرقاً من شدة حرارة نار الجحيم. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٤٦٨-٤٦٩؛

اقتحام الخندق

في صبيحة اليوم التالي، عقد زعماء المشركين العزم على شنّ هجوم جماعي كاسح. فطفقوا يبحثون عن ثغرة ضيقة في الخندق ليقحموا منها خيولهم، ويحملوا على النبي ﷺ وأصحابه. وتمكّن فارس العرب، عمرو بن عبد ودّ العامري من إيجاد ثغرة غفل عنها المسلمون، فأقحم جواده فقفز به إلى الضفة الأخرى، ووقف متبخرًا في المساحة الفاصلة بين الخندق وجبل سلّع وأصبح داخل خطوط دفاع المسلمين^١. ولحق به وتجاوز الخندق كلّ من: عكرمة بن أبي جهل، ونوفل بن عبد الله المخزومي، وضرار بن الخطّاب الفهري، وهبيرة بن أبي وهب؛ بينما بقي سائر الجيش مرابطًا خلف الخندق يترقبون^٢.

تحدّي عمرو وبرز عليّ ﷺ

كان عمرو بن عبد ودّ، فارس قريش الأوحّد، من مشاهير العرب وشجعانهم^٣، وكان يُضرب به المثل فيقال: «إنّه يعدل ألف فارس»^٤. قد لُقّب بـ«فارس ليّيل»؛ لأنّه كان قد واجه -مع نفر من قريش- جمعًا من قبيلة بني بكر في وادي ليّيل، قرب بدر، فتمكّن من هزيمتهم وحده دون مساعدة أصحابه^٥.

ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٢٢٧.

١. ابن شهر آشوب، مناقب، ١: ١٩٨.

٢. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٤٧٠؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٢٢٤؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٢٠: ٢٥٣ و ٢٠٢.

٣. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٤: ٢٣٧؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٢٠: ٢٠٢.

٤. الدياربكري، تاريخ الخميس، ١: ٤٨٦؛ الطبرسي، مجمع البيان، ٨: ٣٤٢؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٢٠: ٢٠٢.

٥. ابن شهر آشوب، مناقب، ٣: ١٣٥؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٢٠: ٢٠٢ و ٨٨: ٤١.

أخذ عمرو وأصحابه يُجِيلُونَ خيولهم في الميدان. وكان المسلمون يرقبون جولاتهم بَوَجَلٍ، ولم يجرؤ أحد على التصدي لهم. كان عمرو يحمل الراية بيده ويطلب المبارزة بأعلى صوته. أمّا المسلمون، الذين كانوا مصطفين أمام رسول الله ﷺ قبل اقتحام الفرسان، فقد تراجعوا الآن واحتموا خلفه ﷺ^١.

راح عمرو يرتجز مفاخراً ويطلب البراز، فلم ينهض لمبارزته سوى علي ﷺ. فأمره النبي ﷺ بالجلوس، ليرى هل يوجد في القوم غيره مَنْ يجرؤ على منازلة عمرو؟ واصل عمرو ندائه طالباً «هل من مبارز؟»، والقوم سكوت وكأن على رؤوسهم الطير. فقال عمرو متهكِّماً: «أيها الناس، إنكم تزعمون أن قتلاكم في الجنة وقتلانا في النار. أفما يحب أحدكم أن يقدم على الجنة أو يقدم عدواً له إلى النار؟». ومع ذلك، لم يتحرك ساكن. فقام علي ﷺ للمرة الثانية وقال: «يا رسول الله! أنا له». فأمره النبي بالجلوس مجدداً.

أخذ عمرو يصول ويجول بفرسه، يروح ويحيى متبختراً، بينما وقف قادة الأحزاب وزعماءهم خلف الخندق يرقبون المشهد. ولما طال انتظار عمرو ولم يجبه أحد، أنشد متبجحاً:

ولقد بَحَثُ من النداء	بجمعكم هل من مبارز
ووقفتُ إذ جبن المشجع	وقفة الرجل المناجز
وكذاك أَنِّي لم أزل	متسرّعاً قبل الهزاهز
إنَّ الشجاعة في الفتى	والجود من خير الغرائز

فالتفت رسول الله ﷺ إلى أصحابه وقال: «أيكم برز إلى عمرو، أضمن له على الله الجنة»، فلم يجبه أحد هيباً لعمرو وخوفاً من سطوته.

١. القمي، تفسير القمي، ٢: ١٨٢-١٨٣.

هنا، نهض علي ﷺ للمرة الثالثة. فدناهُ النبي ﷺ منه، وقبَّله، وعمَّمه بعمامته، وقلَّده سيفه «ذا الفقار». ثم مشى معه خطوات مودِّعًا، ووقف ينتظر نتيجة النزال. وما إن برز علي ﷺ إلى الميدان، حتَّى رفع النبي ﷺ يديه واستقبل القبلة داعيًا: «اللهم أعنه عليه»^١.

مواجهة الإسلام كُلِّه للشرك كُلِّه

حين برز علي ﷺ لمنازلة عمرو بن عبد ودّ، أطلق رسول الله ﷺ مقولته الخالدة: «بَرَزَ الإسلام كُلُّه إلى الشرك كُلِّه»^٢. تقدَّم علي ﷺ راجلاً، بينما كان عمرو ممتطيًا جواده، فأخذ عمرو يسخر منه. واقترب علي ﷺ مِنْه بخطى ثابتة، وقد تبعه جابر بن عبد الله الأنصاري ليرى ما سيصنع علي ﷺ وعمرو^٣. أسرع علي ﷺ نحو خصمه، وأجابه عن رجزه قائلاً:

لا تعجلنَّ فقد أتاك	مجيب صوتك غير عاجز
ذو نيّة وبصيرة	والصدق منجي كلّ فائر
إنّي لأرجو أن أقيم	عليك نائحة الجنائز
من ضربة نجلاء يبقى	ذكرها عند الهزاهز

تعجّب عمرو، الذي لم يكن يتخيّل أن يجرؤ أحد على مبارزته، وسأل: «مَنْ أنت؟

١. انظر: الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٤٧٠-٤٧١؛ القمي، تفسير القمي، ٢: ١٨١-١٨٥؛ المفيد، الإرشاد، ١: ١٠٠-١٠١؛ الكراجكي، كنز الفوائد، ١: ٢٩٧؛ الطبرسي، إعلام الوري، ١٩٤-١٩٥؛ ابن شهر آشوب، مناقب، ٣: ١٣٥؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٩: ٦٣-٦٤؛ ابن سيّد الناس، عيون الأثر، ٢: ٦١.

٢. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٣: ٢٦١ و ٢٨٥ و ١٩: ٦١؛ الطبرسي، إعلام الوري، ١٩٤؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٢٠: ٢٠٥ و ٢٧٣.

٣. الطبرسي، إعلام الوري، ١٩٤؛ الإربلي، كشف الغمة، ١: ٢٠٤؛ المقرئ، إمتاع الأسباع، ١: ٢٣٢.

ابن عبد مناف؟»، قال: «أنا علي بن أبي طالب». فقال عمرو مستصغراً له: «يا ابن أخي! من أعمامك من هو أسنّ منك، فإنّي أكره أن أهرق دمك!»، فأجابه علي عليه السلام بصرامة: «ولكنّي والله لا أكره أن أهرق دمك»^١.

استشاط عمرو غضباً، وهمّ بالهجوم. فقال له علي عليه السلام: «إنّك كنت تقول في الجاهلية: لا يدعوني أحد إلى واحدة من ثلاث إلّا قبلتها»، قال عمرو: «أجل»، فقال علي عليه السلام: «فإنّي أدعوك أن تشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمداً رسول الله، وتسلم لله رب العالمين». قال عمرو: «يا ابن أخي، آخر هذا عني». قال علي عليه السلام: «فأخرى، ترجع إلى بلادك، فإن يكن محمداً صادقاً، كنت أسعد الناس به، وإن غير ذلك، كان الذي تريد». قال عمرو: «هذا ما لا تتحدّث به نساء قریش أبداً، وقد نذرت ما نذرت وحرّمت الدّهن. فالثالثة؟»، قال علي عليه السلام: «البراز». ضحك عمرو وقال: «إنّ هذه الخصلة ما كنت أظنّ أنّ أحداً من العرب يرومني عليها!».

ثم نزل عن فرسه وعقره وضرب قوائمه بالسيف^٢ واندفع نحو علي عليه السلام كالإعصار. ضرب عمرو علياً عليه السلام بسيفه ضربة عنيفة، تلقاها علي عليه السلام بثّرسه، فقدّ السيف الثّرس وأصاب مقدّم رأس الإمام عليه السلام إصابةً جرحته. ولكنّ علياً عليه السلام لم يمهل، بل عاجله بضربة هاشمة على عنقه، أردته قتيلاً، ثم كبر علي عليه السلام^٣.

١. انظر: البيهقي، دلائل النبوة، ٣: ٤٣٨-٤٣٩؛ ابن شهر آشوب، مناقب، ٣: ١٣٥-١٣٦؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٣: ٢٦١.

٢. دلالة على الاستماتة.

٣. لتفاصيل مشهد المبارزة، راجع: الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٤٧٠-٤٧١؛ القمي، تفسير القمي، ٢: ١٨١-١٨٥؛ المفيد، الإرشاد، ١: ١٠٠-١٠٢؛ الطبرسي، إعلام الوري، ١٩٤-١٩٥؛ ابن شهر آشوب، مناقب، ٣: ١٣٩؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٩: ٤٦ و ٦٣؛ الإربلي، كشف الغمة، ١: ٢٠٣-٢٠٤؛ الحلبي، السيرة الحلبية، ٢: ٣١٩.

دعاء النبي ﷺ وابتهاله

طوال فترة الحصار، دأب رسول الله ﷺ على التردد على مسجد الفتح في أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء ليدعو الله. وفي اليوم الأخير من أيام الحصار، وعند الظهر، قام ﷺ في الناس خطيباً وقال: «أيها الناس! لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»^١. ثم رفع يديه مبتهلاً بالدعاء: «اللهم مُنزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب. اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم وزلزلهم»^٢. يقول جابر بن عبد الله الأنصاري واصفاً تلك اللحظة: «دعا رسول الله في مسجد الأحزاب يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء، فاستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين الظهر والعصر، فعرفنا البشر في وجهه»^٣.

نهاية المعركة

أدّى تطاول أمد الحصار إلى دبّ الخلاف والفرقة في صفوف قريش، وتفاقم الوضع مع نفاد الزاد وشحّ العلف للدواب^٤. وفي تلك الليلة الحاسمة، أرسل الله عليهم ريحاً صرصراً عاتية، اقتلعت خيام المشركين، وكفأت قدورهم، وأطفأت نيرانهم، فذبّ الرعب في قلوبهم، وولّوا الأدبار لا يلوي أحد على أحد^٥.

-
١. الصالحى الشامى، سبل الهدى، ٤: ٥٤٠؛ الحلبى، السيرة الحلبية، ٢: ٣٢٣.
 ٢. البخارى، صحيح البخارى، ٣: ٢٢؛ مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، ٥: ١٤٣؛ ابن شهر آشوب، مناقب، ١: ١٩٨.
 ٣. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٤٨٧؛ الكليني، الكافي، ٨: ٢٣٣؛ الطبرسي، إعلام الورى، ١٠٠.
 ٤. راجع: الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٤٨٠-٤٨٢؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٢٣٠-٢٣١.
 ٥. راجع: الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٤٤٤.
 ٦. الصالحى الشامى، سبل الهدى، ٤: ٥٤٥؛ الحلبى، السيرة الحلبية، ٢: ٣٢٦؛ وانظر: الطبرسي، مجمع البيان، ٨: ٣٣٩؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٢٠: ١٩٢.

قبيل رحيله، بعث أبو سفيان بكتاب إلى رسول الله ﷺ حمله أبو سلمة الجشمي، جاء فيه:

باسمك اللهم؛

فإني أحلف باللات والعزى، لقد سرتُ إليك في جمعنا، وإنا نريد ألا نعود إليك أبداً حتى نستأصلك، فرأيتك قد كرهت لقاءنا وجعلت مضايق وخنادق، فليت شعري من علمك هذا؟ فإن نرجع عنكم فلكم منا يوم كيوم أحد، تبقر فيه النساء.

فلما قرئ الكتاب على النبي ﷺ -تلاه أبي بن كعب- أملى النبي ﷺ رده الآتي:

من محمد رسول الله إلى أبي سفيان بن حرب...

أما بعد؛ فقد يئس غرك بالله الغرور، أما ما ذكرت أنك سرت إلينا في جمعكم، وأنت لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا، فذلك أمر الله يحول بينك وبينه، ويجعل لنا العاقبة حتى لا تذكر اللات والعزى. وأما قولك: «مَنْ علمك الذي صنعنا من الخندق»، فإن الله تعالى ألهمني ذلك لما أراد من غيظك به وغيظ أصحابك، وليأتين عليك يوم تدافعني بالراح، وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى وإساف ونائلة وهبل، حتى أذكرك ذلك^١.

انسحب جيش المشركين يجرّ أذيال الخيبة والهوان. ومن شدة الاضطراب والعجلة، وثب أبو سفيان على جملة وهو مربوط الساق، فضربه لينهض، حتى نبّهه عكرمة بن أبي جهل قائلاً: «إِنَّكَ رَأْسُ الْقَوْمِ وَقَائِدُهُمْ، تَقْشَعُ^٢ وَتَتْرِكُ النَّاسَ؟». فنزل أبو سفيان خجلاً، وأمر الجيش بالرحيل وظلّ واقفاً حتى انصرف معظم الجيش. ثم

١. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٤٩٢-٤٩٣؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ١: ٣٤٤؛ المقرئ، إمتاع

الأسماع، ١: ٢٤٠.

٢. أي: تذهب.

قال لعمر بن العاص: «لا بدّ لي ولك أن نقيم في جريدة من خيل بإزاء محمد وأصحابه، فإنّا لا نأمن أن نطلب حتّى ينفذ العسكر». فبقي خالد بن الوليد وعمر بن العاص في مائتي فارس كمؤخّرة للجيش، وغادروا عند الفجر ولحقوا بالجيش ظهرًا في منطقة مَلَك^١. ولمّا انفصلت قبيلة غَطَفَان عائدة إلى ديارها، ظلّ بقية الجيش متماسكًا خوفًا من المطاردة حتّى وصلوا منطقة مِراض، على بُعد ٣٠ كم من المدينة، وهناك تفرّقت القبائل وعاد كلّ قوم إلى بلاده^٢. رغم ضخامة الحشود العسكرية، كانت الخسائر البشرية في هذه الغزوة محدودة للغاية. فقد استشهد من المسلمين ما بين ٤ إلى ٦ رجال^٣، وجميعهم من الأنصار. في حين قُتل من المشركين ما بين ٣ إلى ٨ أفراد^٤.

العودة إلى المدينة

لمّا أصبح المسلمون، لم يجدوا بالمكان داعيًا ولا مجيبًا من جيش العدو؛ فقد ولّوا جميعًا مدبرين تحت جنح الظلام. صلّى رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالناس، وأمر ألاّ يبرح أحد مكانه حتّى تطلع الشمس. ولكن ما إن بزغت الشمس، حتّى انصرف معظم الناس، ولم يبق إلّا القليل. فقفّل رسول الله ﷺ راجعًا بمن بقي معه من أصحابه^٥. وقد أذن النبي ﷺ للمسلمين بالانصراف إلى منازلهم. فما إن سمعوا الإذن، حتّى بادر السواد الأعظم منهم بمغادرة المعسكر فرحين مستبشرين، يهرعون إلى بيوتهم طلبًا للراحة. لم يكن النبي ﷺ يرغب في أن يرى يهود بني قُرَيْظَة فرحة المسلمين بالعودة

١. موضع في طريق مكّة من المدينة (الحموي، معجم البلدان، ٥: ١٩٤).

٢. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٤٩٠؛ ابن سيّد الناس، عيون الأثر، ٢: ٦٦؛ المقرئ، إمتاع الأسماع، ١: ٢٣٩.

٣. السمهودي، وفاء الوفا، ١: ٣٠٤؛ الدياربكري، تاريخ الخميس، ١: ٤٩٢.

٤. يعقوبي، تاريخ يعقوبي، ٢: ٥٠.

٥. الراوندي، الخرائج والجرائح، ١: ١٥٨؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٢٠: ٢٤٨.

والدعة، لئلا يطمعوا فيهم أو يظنّوا بهم الضعف. ولهذا السبب، بعث في أثرهم مَنْ يدعوهم للرجوع، فلم يرجع منهم رجل واحد^١. كان دخول رسول الله ﷺ المدينة عائداً من الخندق في الثالث والعشرين من شهر ذي القعدة^٢.

بنو قريظة: المواجهة الثانية مع اليهود

كانت بنو قريظة إحدى قبائل اليهود الكبرى في المدينة، وقد ارتبطت مع المسلمين بعهود ومواثيق. غير أنّهم نقضوا عهدهم في السنة الخامسة للهجرة، في أحلك الظروف حين كان المسلمون يواجهون حصار الأحزاب. وكما أشرنا سابقاً، فقد سعى زعماء بني النضير لتحريض قريش على الحرب. وفي ذلك السياق، تعهّد حُيَيّ بن أخطب -رأس بني النضير- لأبي سفيان بأن يضمن له تعاون بني قريظة، مؤكّداً له أنّهم يملكون قوّة بشرية وعسكرية لا يُستهان بها^٣.

وقبيل اندلاع معركة الخندق، توجه حُيَيّ بن أخطب إلى كعب بن أسد -سيد بني قريظة- يراوده عن العهد. فامتنع كعب في بادئ الأمر، إلّا أنّ حُيَيّ لم يزل يفتله في الذروة والغارب، ويخادعه ويغريه حتّى انصاع له، ومزّق الصحيفة التي كانت بينه وبين رسول الله ﷺ، معلّناً انضمام قبيلته إلى حلف الأحزاب^٤. ولما اتّصل خبر الغدر بالنبي ﷺ، أرسل مبعوثه سعد بن معاذ -سيد الأوس وحليف بني قريظة القديم- ليفاوضهم ويثنيهم عن عزمهم، فقابلوه بصلف وغرور، وردّوا عليه ردّاً قبيحاً^٥.

١. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٤٩١؛ الصالحى الشامى، سبل الهدى، ٤: ٥٥٠.

٢. ابن سيّد الناس، عيون الأثر، ٢: ٦٦؛ الدياربكري، تاريخ الخميس، ١: ٤٩٢؛ الحلبي، السيرة الحلبية، ٢: ٣٢٨.

٣. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٤٥٤.

٤. م. ن. ٢: ٤٥٤-٤٥٧؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٢٢٠-٢٢١؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢: ٥١.

٥. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٤٥٨-٤٥٩.

أثارت هذه الخيانة -التي وقعت والعدو الخارجي يحيط بالمدينة- قلقاً بالغاً في صفوف المسلمين. فقد سبق للنبي ﷺ أن عفا عن غدر اليهود في حادثتين سابقتين مع بني قَيْنُقَاع وبني النضير، واكتفى بإجلائهم. إلا أن جرم بني قريظة كان أشنع وأخطر؛ فقد جاء طعناً في الظهر، في وقت كانت فيه جيوش الأحزاب تحاصر المدينة من الخارج. ولو قُدِّر للمشاركين الانتصار، لقاموا -بمعاونة بني قريظة- بإبادة المسلمين عن بكرة أبيهم. لذا، بات من الضروري إذلال هذه القوة الغادرة واستئصال خطرهما؛ إذ إن الحياة السياسيّة للإسلام كانت تعتمد كلياً على احترام المعاهدات، وكان استمرار الحياة في المدينة مستحيلاً في ظل وجود عدوٍّ داخلي يتربّص الدوائر وينقض العهود عند أول فرصة سانحة.

ما إن انكسر الأحزاب وعاد المسلمون إلى المدينة، حتّى نزل الأمين جبريل ﷺ بأمر الله تعالى على النبي ﷺ -الذي كان حينها في بيت ابنته فاطمةؓ- بالتوجّه فوراً لقتال بني قريظة^١. فاستدعى النبي ﷺ عليّاًؓ، وبعثه في مقدّمة الجيش، وأمر المسلمين بالآلا يصلّوا صلاة الظهر أو العصر إلّا في ديار بني قريظة^٢.

امتطى رسول الله ﷺ فرسه «عُفَيْر» وتحرك نحو حصونهم، ونزل بالقرب من بئر لهم تُدعى «أنا». وتتابع وصول المسلمين أرسالاً جماعات متفرّقة؛ فمنهم من وصل بعد صلاة العشاء، ومنهم من التحق بالركب ولم يكن قد أدّى صلاتي الظهر والعصر بعد. وفي البدء، دعى النبي ﷺ بني قريظة إلى الإسلام، فأبوا. فضرب المسلمون عليهم حصاراً محكمًا، تباينت الروايات في مدّته ما بين عشرة أيام إلى شهر كامل^٣.

بعد انقضاء مدّة الحصار، ونزولاً عند رغبة بني قريظة، ارتضى الطرفان سعد بن معاذ

١. الطبرسي، إعلام الوری، ٩٢-٩٣؛ الدياربكري، تاريخ الخميس، ١: ٤٩٣.

٢. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢: ٥٧.

٣. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٤٩٦.

حَكَمًا بينهم. فَحَكَمَ سعد بأن يُقتل الرجال المقاتلة، وتُسبى النساء والذراري. وقد جُمع الأسرى في دار أسامة بن زيد، بينما وُضعت الأسلحة والأمتعة في دار بنت الحارث. وُزعت الغنائم بين المسلمين بعد إخراج الخمس منها؛ فكان للفارس سهمان وللراجل سهم واحد. وقد استُخدمت عوائد بيع الغنائم في شراء الخيل والسلاح لتقوية شوكة المسلمين^١.

على الرغم من ذكر هذه الواقعة في المصادر التاريخية الإسلامية، إلا أن بعض الباحثين المعاصرين، وحتى بعض المستشرقين، قد أثاروا تشكيكات حول صحة أصل الواقعة أو تفاصيلها، لا سيّما فيما يخص عدد القتلى^٢.

بعد إسدال الستار على هذه الحادثة، التي لعب فيها سعد دور المبعوث ثم الحكم، انفجر جرحه الذي كان قد أصيب به يوم الخندق، وفاضت روحه شهيداً. حزن النبي ﷺ لفقده حزناً شديداً، وبكاه الصحابة، ورثاه حسان بن ثابت^٣.

١. م. ن. ٢: ٥٢١-٥٢٥؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٣: ١٩٤؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢: ٥٢-٥٣.
٢. راجع: شهيدى، تاريخ تحليلي اسلام، ٨٨-٩٠؛ زرگري نژاد، تاريخ صدر اسلام، ٤٦٠-٤٦٢. وكذلك المصادر الغربية:

Arafat, "New Light on the Story of Banū Qurayza and the Jew of Medina"; Donner, *Muhammad and the Believers at the Origins of Islam*, 73; Salahi, *Muhammad: His Character and Conduct*, 247-56; Cole, *Muhammad: Prophet of Peace Amid the Clash of Empires*, 123.

٣. ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٢٦٩-٢٧٠.

صلح الحديبية

في السنة السادسة للهجرة، رأى رسول الله ﷺ في منامه رؤيا؛ رأى أنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين، مُحَلِّقِينَ رؤوسهم ومُقَصِّرِينَ^١، ودخل الكعبة المشرفة وأخذ مفتاحها بيده، وطاف وسعى، ووقف بعرفات^٢.

فلما قصَّ النبي ﷺ رؤياه على أصحابه، استبشروا بها خيراً، وظنوا أن دخولهم مكة سيكون في عامهم هذا. فأخبرهم النبي ﷺ بعزمه على الخروج لأداء العمرة، فتجهَّزوا للسفر. كما استنفر رسول الله ﷺ مَنْ حوله من العرب وأهل البوادي، فدعا قبائل غفار، وجُهَيْنَةَ، ومُزَيْنَةَ، وأسلمَ للخروج معه تعظيماً للبيت وحذراً من قريش.

اغتنس النبي ﷺ في بيته وتجرَّد لإحرامه، ثم ركب ناقته القصواء وخرج. نزل بمنطقة ذي الحليفة^٣، فصلى في مسجدتها ركعتين، ثم أحرم من موضعه ذلك هو وسواد الناس معه، وبعضهم أحرم من الجحفة. وعقب الصلاة، استوى على راحلته قبالة المسجد، وتوجَّه شطر مكة وهو يلبي. وكان خروجه في شهر ذي القعدة، وقيل في شهر رمضان.

قد صحبته في هذه الرحلة من نسائه: أم سلمة، وأم عُمارة، وأم مَنيع، وأم عامر الأشهلية. وخرج معه المهاجرون والأنصار ومَنْ لحق بهم من العرب، وإن كان بعض الناس قد تناقلوا وتأخروا، وسلكوا طرق البوادي.

ساق النبي ﷺ معه سبعين ناقةً للهدي والقربان. وبعد أن صلى الظهر بذِي الحليفة، قام

١. الحلق والتقصير: من مناسك الحج والعمرة، حيث يقوم الحاج أو المعتمر بحلق شعر رأسه كاملاً أو قص جزء منه (التقصير) تحلاً من الإحرام بعد ذبح الهدي.

٢. مجاهد، تفسير مجاهد، ٦٠٨؛ الصالحى الشامى، سبل الهدى، ٥: ٣٣.

٣. مسجد ذي الحليفة: يُعرف اليوم بمسجد الشجرة أو الميقات، ويقع على بعد ٨ كم جنوب غرب المسجد النبوي في طريق مكة. ومن أسمائه «آبار علي»، نسبة إلى الآبار التي حفرها أمير المؤمنين علي عليه السلام لخدمة الحجاج (انظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ٧٨؛ السمهودي، وفاء الوفا، ٣: ١٠٠٢-١٠٠٤).

بإشعار بعض الهدّبي بيده الشريفة، وأمر ناجية بن جُندب بإشعار الباقي وتقليدها ووضع القلائد في أعناقها دلالة على أنّها لله سبحانه. تراوح عدد المسلمين في هذا الركب ما بين ٧٠٠ إلى ١٤٠٠ محرم، ومعهم مائتا فرس. وواصل الركب مسيره حتى بلغ منطقة عُسفان^١.

وقد استخلف رسول الله ﷺ على المدينة في غيبته أحد الأربعة: ابن أم مكتوم، أو أبا رُهم، أو كلثوم بن حُصين، أو ثُميلة بن عبد الله الليثي. وقد جمعت بعض الروايات بين الأقوال بأنّه ﷺ جعل ابن أم مكتوم إمامًا للصلاة، وأبا رُهم أميرًا^٢.

المنافقون في الحديبية

رأى كثير من المنافقين أنّ مرافقة النبي ﷺ في هذه السفرة ليست من المصلحة؛ فقد دلّت الظواهر على أنّ قريشًا لن تأذن لمحمّد ﷺ بدخول مكة، وأنّ الحرب واقعة لا محالة. وللنجاة بأنفسهم من هذه التهلكة المتوقعة، انتحلوا الأعذار المتعلقة بأشغالهم وأموالهم وأهلهم للتخلّف عن الركب. بيد أنّ نفرًا منهم خرجوا مع النبي ﷺ؛ معوّلين في أمانهم على علاقاتهم الخاصّة بمشركي مكة في حال انتصارهم، أو خشية من سقوط مكانتهم الاجتماعية عند المسلمين وافضاح أمرهم إن تخلّفوا.

لم يحمل المسلمون معهم من السلاح إلّا «سلاح المسافر»، السيوف في القُرب. وقد سأل عمر بن الخطاب رسول الله ﷺ: «أتخشى يا رسول الله علينا من أبي سفيان بن حرب وأصحابه، ولم نأخذ للحرب عدّتها؟»، فأجابه النبي ﷺ: «لست أحبّ أحمل السلاح مُعتمراً»^٣.

١. عُسفان: منطقة تقع بين الجحفة ومكة (الحموي، معجم البلدان، ٤: ١٢١). الواقدي، كتاب المغازي، ٢:

٥١٧؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٢٨٠؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢: ٧٢-٧٣.

٢. الصالحى الشامي، سبل الهدى، ٥: ٣٣؛ الحلبي، السيرة الحلبية، ٣: ٩.

٣. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٥٧٣.

لما طرق سماع المشركين خبر مسير النبي ﷺ نحو مكة، فزعوا وعقدوا مجلساً للشورى، وقالوا بلسان واحد: «يريد أن يدخل علينا في جنوده معتمراً، فتسمع به العرب وقد دخل علينا عنوة، وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا! والله، لا كان هذا أبداً ومناً عيناً تطرف»^١. فجردوا حملة عسكرية بقيادة خالد بن الوليد قوامها مائتي فارس، مدعومة بالأحابيش^٢ وحلفائهم من ثقيف، واصطحبوا معهم النساء والذراري لتحفيز الهمم، وعسكروا في منطقة بلدح^٣. وهناك، نشروا العيون والجواسيس على رؤوس الجبال لرصد تحركات المسلمين ومنعهم من دخول مكة.

وفي تلك الأثناء، وصل بشر بن سفيان -الذي كان عيناً للنبي ﷺ إلى منطقة عُسفان- ورفع تقريره للنبي ﷺ قائلاً: «يا رسول الله! هذه قريش، قد سمعت بمسيرك، فخرجوا معهم العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمر، وقد نزلوا بذئ طوى^٤، يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم^٥. فحقناً للدماء وتجنباً للصدام المباشر، قال النبي ﷺ: «من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم؟»^٦.

١. اكتسبت منطقة مكة حرمة مضاعفة عند العرب بعد حادثة الفيل، وكانوا يعدّون سفك الدماء فيها شؤماً عظيماً. وكان دخول النبي ﷺ وأصحابه لأداء العمرة أمراً معيباً لقريش؛ فمن جهة تمنعهم عداوتهم من السماح له، ومن جهة أخرى تمنعهم حرمة مكة من قتاله. كما أنّ السكوت عن دخوله قد يُفسّر ضعفاً. لذا أرسلوا خالدًا إلى خارج مكة لمنعهم قبل الوصول للحرم.

٢. الأحابيش: هم حلفاء قريش من قبائل بني الهون بن خزيمه، وبني الحارث بن عبد مناف، وبني المصطلق. سُمّوا بذلك لأنهم تحالفوا عند جبل يقال له «حُبشي» بأسفل مكة.

٣. بلدح: وإيقع شمال مكة في الطريق الغربي للمدينة (الحموي، معجم البلدان، ١: ٤٨٠).

٤. ذي طوى: منطقة تقع شمال المسجد الحرام (م. ن.، ٤: ٤٥).

٥. كراع الغميم: موضع بين المدينة ومكة، ويشمل منطقة بلدح (م. ن.، ٤: ٢١٤).

٦. ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٣٠٩؛ ابن سيّد الناس، عيون الأثر، ٢: ١١٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٤:

صلاة الخوف

لما دنا رسول الله ﷺ من مكة، اعترضه خالد بن الوليد في خيله لصدّ المسلمين عن المسير. فأمر النبي ﷺ عباد بن بشر أن يتقدّم بالمسلمين، فصَفَّ خيله بإزاء خيل المشركين. وفي تلك الأثناء، حانت صلاة الظهر، فقام رسول الله ﷺ يصلي بالناس جماعة، وهم مستقبلون لجيش المشركين.

فلما انقضت الصلاة، قال خالد بن الوليد متحسّرًا على فوات الفرصة: «لقد كانوا على غرة، لو حملنا عليهم لأصبنا منهم. ولكن تأتي الساعة صلاة هي أحب إليهم من أنفسهم وأبنائهم^١». فأنزل الله تعالى بواسطة الأمين جبريل ﷺ تشريع «صلاة الخوف» حمايةً للمسلمين:

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَدَى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (النساء: ١٠٢).

ولما حانت صلاة العصر، أقامها النبي ﷺ بالمسلمين صلاة الخوف^٢.

١. ويقصد بذلك صلاة العصر.

٢. راجع: الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٥٨٢-٥٨٣؛ الصنعاني، المصنف، ٢: ٥٠٥؛ أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ٤: ٥٩-٦٠؛ القمي، تفسير القمي، ٢: ٣١٠؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٢٠: ٣٤٨ و ٨٣: ١١٠. في «صلاة الخوف» ينقسم الجيش إلى طائفتين؛ طائفة تقف بإزاء العدو للحراسة، وطائفة تقوم للصلاة مع الإمام. فيصلي الإمام بالمصلين ركعة واحدة، ثم يتم المصلون الركعة الثانية بسرعة فرادى وينصرفون لمواجهة العدو. وفي الوقت نفسه، ينتظر الإمام -وهو قائم للركعة الثانية- حتى تأتي الطائفة الأخرى التي كانت تحرس، وتقتدي به. فإذا وصلوا، ركع بهم الإمام وسجد، ثم يجلس للتشهد، فتقوم الطائفة لإتمام

في الحديبية

قرّر النبي ﷺ القيام بمناورة عسكرية ليلية؛ فاستغلّ ظلمة الليل لتجاوز جيش خالد بن الوليد والالتفاف خلفه. ولهذا الغرض، استعان بأدلاء من بني أسلم، فسلكوا بالمسلمين طريقاً وعراً وشاقاً بين الجبال والأودية، طريق ثنية المِرار، حتّى أفضوا إلى منطقة الحديبية^١، ونزلوا بها في تلك الليلة^٢.

لما استقر المقام برسول الله ﷺ وأصحابه في الحديبية، جاءه بُدَيْل بن وَرْقَاء في نفر من قبيلتي خُزاعة وتِهامة، وكانوا موضع ثقة النبي ﷺ. قال بُدَيْل للنبي ﷺ: «جئناك من عند قومك، كعب بن لؤي وعامر بن لؤي، قد استنفروا لك الأحابيش ومن أطاعهم، معهم العوذ المطافيل، النساء والصبيان^٣، يقسمون بالله لا يخلّون بينك وبين البيت حتّى تبيد خضر أؤهم». فأجابه النبي ﷺ موضحاً موقفه: «إنّا لم نأت لقتال أحد، إنّما جئنا لنطوف بهذا البيت، وقريش قوم قد أضرتّ بهم الحرب ونهكتهم، فإن شاءوا ماددتهم مدّة يأمنون فيها، ويخلّون فيما بيننا وبين الناس».

رجع بُدَيْل إلى المشركين وأبلغهم رسالة النبي ﷺ، ثمّ قال ناصحاً: «يا معشر قريش، إنكم تعجلون على محمد، إنّ محمّداً لم يأت لقتال، وإنّما جاء زائراً هذا البيت». عندها، رحّب عروة بن مسعود الثقفي -من كبار قبيلة ثقيف- بهذه المبادرة وقال لقريش: «إنّ بُدَيْلاً قد جاءكم بخطة رُشدٍ لا يردها أحد أبداً إلّا أخذ شراً منها،

ركعتها الثانية، ثمّ يلتحقون بالإمام في تشهده الذي أطاله انتظاراً لهم، ويسلمّ بهم جميعاً. وفي الصلاة الثلاثية أو الرباعية يختلف التقسيم بحسب الركعات.

١. الحديبية: قرية تقع على حدود الحرم المكيّ، قيل نصفها في الحرم ونصفها في الحلّ وقيل كلّها في الحرم، على بُعد تسع مراحل من المدينة المنورة (الحموي، معجم البلدان، ٢: ٢٢٩-٢٣٠).

٢. انظر: الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٥٨٣-٥٨٧؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٣٠٩-٣١٠.

٣. كناية عن خروج قريش بكلّ عدّتهم وعددهم.

فاقبلوها منه وابعثوني حتى آتيكم بمصدقها من عنده، وأنظر إلى من معه وأكون لكم عيناً آتيكم بخبره».

بعثت قريش عروة لمفاوضة النبي ﷺ، فجاء حتى جلس بين يديه ﷺ وقال: «يا محمد، إنني تركت قومك على أعداد مياه الحديدية معهم العوذ المطافيل، قد استنفروا لك أحابيشهم ومن أطاعهم، وهم يقسمون بالله لا يخلون بينك وبين البيت حتى تجتاحهم. وإنما أنت من قتالهم بين أحد أمرين: أن تجتاح قومك، ولم نسمع برجل اجتاح أصله قبلك؛ أو بين أن يخذلك من نرى معك، فإنني لا أرى معك إلا أوباشاً من الناس، لا أعرف وجوههم ولا أنسابهم». عند ذاك، انتفض أبو بكر وسب عروة سباً قبيحاً، فقال عروة: «من هذا؟»، قالوا: «أبو بكر»، فقال: «أما والذي نفسي بيده، لولا يدٌ كانت لك عندي لم أجرك بها، لأجبتك»^١. وكان رد النبي ﷺ على عروة مطابقاً لما قاله لبديل بن ورقاء؛ وهو التأكيد على سلمية الرحلة والرغبة في العمرة، وعرض الهدنة المؤقتة.

عاد عروة إلى قريش مبهوراً بما رأى، فخاطبهم قائلاً: «يا قوم، إنني وفدتُ إلى الملوك كسرى وقيصر والنجاشي، وإنني والله ما رأيتُ ملكاً قطّ أطوع فيما بين ظهرائيه من محمد في أصحابه، والله إن رأيتُ ملكاً قطّ يعظّمه أصحابه ما يعظّم أصحاب محمد محمد، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون النظر إليه تعظيماً له، ولا يتكلم رجل منهم حتى يستأذن، فإن هو أذن له تكلم، وإن لم يَأْذَن له سكت. وقد عرض عليكم خطة رشد فقبلوها. قد حرزت القوم^٢، واعلموا أنكم إن أردتم منهم

١. كان عروة بن مسعود قد تحمّل ديةً في الجاهلية، فأعانه أبو بكر بهال كثير لوفائها. فكانت هذه هي «اليد»

التي منعت عروة من الرد على شتيمة أبي بكر (الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٥٩٥).

٢. أي: حنّنتُ قدراتهم وعرفتهم.

السيف بذلوه لكم، وقد رأيت قومًا لا يباليون ما يُصنع بهم إذا منعتهم صاحبهم. فروا رأيكم فأتوه يا قوم، واقبلوا ما عرض عليكم. فإني لكم ناصح، مع أنني أخاف أن لا تنصروا على رجل أتى زائرًا لهذا البيت معظماً له، معه الهدْي ينحره وينصرف». فردّت قريش بعناد: «لا تتكلّم بهذا يا أبا يعفور^١، أو غيرك تكلم بهذا؟ ولكن نردّه عامنا هذا، ويرجع إلى قابل». فقال عروة محدّراً: «ما أراكم تصيبيكم قارعة^٢»، ثم غادر هو وأصحابه إلى الطائف.

بعد فشل عروة، قام الحُلَيْس بن علقمة الكناني -سيد الأحابيش- وقال: «دعوني آتِه»، فقالوا: «افعل». فلمّا أشرف على المسلمين، رآه النبي ﷺ فقال: «هذا من قوم يعظّمون الهدْي ويتأهّون، فابعثوها له». عندما رأى الحُلَيْس الهدْي يسيل عليه من عرض الوادي، ورأى المسلمين شعثاً غبراً قد طال مكثهم في الإحرام أكثر من ١٥ يوماً، صرخ قائلاً: «سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يُصدّوا عن البيت! أبى الله أن تحجّ لحِم وجُذام وكِنْدَة وحمير ويُمْنَع ابن عبد المطلب! ما ينبغي لهؤلاء أن يُصدّوا عن البيت. هلك قريش وربّ الكعبة. إنّ القوم إنّما أتوا عمّاراً^٣». فقال له رسول الله ﷺ: «نعم، يا أخا بني كنانة!».

عاد الحُلَيْس بن علقمة إلى قريش مغضباً، ونقل لهم ما رآه قائلاً: «أما والله ما على هذا حالناكم، ولا عاقدناكم على أن تصدّوا عن بيت الله من جاء معظماً لحرمة مؤدّيّ لحقه، وساق الهدْي معكوفاً أن يبلغ محله. والذي نفسي بيده، لتخلنّ بينه وبين ما جاء به، أو لأنفرنّ بالأحابيش نفرة رجل واحد». فردّت عليه قريش باستخفاف:

١. هي كنية عروة بن مسعود الثقفي.

٢. أي: إني أراكم ستورطون في شرّ.

٣. أي: قاصدون العمرة.

«اجلس، فإننا أنت أعرابي لا علم لك! كل ما رأيت من محمد مكيدة، فاكفف عنا حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به».

ثم قام مكرز بن حفص -من كبار قريش وشعراءهم- وقال: «دعوني آته». ولما وصل إلى النبي ﷺ، كرر عليه رسول الله ﷺ ما قاله لسابقه بديل وعروة. فرجع مكرز إلى قريش وأخبرهم بما سمع^١.

استشعر رسول الله ﷺ غدر قريش، فرتب ثلاثة من الصحابة لتناوب الحراسة حول المعسكر، وهم: أوس بن خولي، وعبد بن بشر، ومحمد بن مسلمة. وفي ليلة حراسة محمد بن مسلمة، أرسلت قريش مفرزة عسكرية قوامها أربعون أو خمسون رجلاً بقيادة مكرز بن حفص، لشن غارة ليلية على معسكر المسلمين. فتمكن ابن مسلمة من أسرهم جميعاً، واقتادهم إلى النبي ﷺ، إلا أن مكرزاً تمكن من الفرار^٢. وعندما علمت قريش بأسر رجالها، أرسلت مجموعة أخرى، فاشتبكوا مع المسلمين، وانتهى الأمر بأسر اثني عشر مشركاً، واستشهد أصحابي واحد هو ابن زئيم^٣.

أمام هذا المأزق، أوفدت قريش وفدًا رفيع المستوى يضم سهيل بن عمرو، وخويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص. فلما رأى النبي ﷺ سهيلاً مقبلاً، تفاعل وقال لأصحابه: «لقد سهل أمركم»^٤.

١. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٥٩٣-٦٠٠؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٣١١-٣١٢؛ وللمزيد حول المفاوضات انظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢: ٧٣-٧٤؛ الكليني، الكافي، ٨: ٣٢٣؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر، ٢: ١١٦؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٤: ١٩٠؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٦: ١٤٥-١٤٦؛ السيوطي، الدر المنثور، ٦: ٧٦-٧٨؛ الصالحى الشامى، سبل الهدى، ٥: ٤٣-٤٦؛ الحلبي، السيرة الحلبية، ٣: ١٣-١٦.

٢. أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ٤: ٣٢٤؛ الصالحى الشامى، سبل الهدى، ٥: ٤٧.

٣. انظر: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢: ٢٧٨؛ الصالحى الشامى، سبل الهدى، ٥: ٤٨ و ٥٥.

٤. انظر: الصنعاني، المصنف، ٥: ٣٣٧؛ ابن أبي شيبة، المصنف، ٨: ٥١٠؛ ابن شهر آشوب، مناقب، ١:

بادر سهيل بالتصّل من المناوشات السابقة قائلاً: «يا محمد! مَنْ قاتلك لم يكن من رأي ذوي رأينا ولا ذوي الأحلام منّا، بل كنّا له كارهين حين بلغنا ولم نعلم به، وكان من سفهائنا. فابعث إلينا بأصحابنا الذين أسرت أول مرة والذين أسرت آخر مرة». فردّ النبي ﷺ بحزم: «إنّي غير مرسلهم حتّى ترسل أصحابي»، وكان يقصد ﷺ نفرًا من المسلمين دخلوا مكة خفية فقبض عليهم^١. فبعث سهيل إلى قريش، فأطلقوا سراح المسلمين، وفي المقابل أطلق النبي ﷺ سراح أسرى المشركين.

قبل وصول الأسرى المحرّرين، شاع خبر كاذب بأنهم قد قُتلوا. عند ذلك، دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة^٢. جلس النبي ﷺ تحت شجرة سمرة خضراء عند منازل بني مازن بن النجار بالحديبية، وقال: «إنّ الله أمرني بالبيعة». فثار المسلمون إليه يبايعونه بحماس منقطع النظير، حتّى كادوا يحطمون أمتعة بني مازن من شدّة الزحام. وقد تقلّدوا ما معهم من سلاح قليل، حتّى أنّ أمّ عُمارة -إحدى النساء المسلمات في ركب المسلمين- انتزعت عمود فسطاطها وجعلت في رأسه شفرة استعدادًا للقتال^٣. كان أول من بايع النبي ﷺ هو سنان بن أبي سنان^٤. وبعد إتمام البيعة، تبيّن كذب الشائعة، وعاد الأسرى والرسّل سالمين إلى المعسكر^٥.

١٧٤.

١. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٦٠٣-٦٠٤؛ الصالحى الشامى، سبل الهدى، ٥: ٤٨.
٢. ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٣١٥-٣١٦؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١: ٤٦١.
٣. ابن أبي شيبة، المصنف، ٨: ٥١٢؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢: ٢٧٩؛ الصالحى الشامى، سبل الهدى، ٥: ٤٨.
٤. ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٣١٦؛ العسقلاني، الإصابة، ٧: ١٥٥ و ١٦٣.
٥. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٦٠٤-٦٠٥.

وثيقة الصلح

بعد إتمام عملية تبادل الأسرى، عاد المشركون المفرج عنهم إلى قريش، ونقلوا لهم مشاهداتهم عنبيعة المسلمين وتفانيهم، مؤكدين جاهزية المسلمين التامة للحرب وشوقهم المطلق لطاعة نبيهم ﷺ. فذبّ القلق في نفوس قريش لما سمعوا هذه الأخبار، وجنحوا إلى السلم وقرروا مصالحة النبي ﷺ شريطة أن يرجع عنهم عامه هذا، وأن يعود في العام القادم ليدخل مكة ثلاثة أيام فقط للطواف والنحر، دون أن يختلط بالمشركون. وبذلك، يحققون هدفهم بمنعه من دخول مكة هذا العام، ويتجنبون الصدام العسكري. فأرسلت قريش وفدًا للمفاوضة يضمّ سهيل بن عمرو وحويط بن عبد العزى ومكرز بن حفص، فلما رأى النبي ﷺ سهيلًا قال: «قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا»^١.

جرت المفاوضات والمسلمون جلوس حول النبي ﷺ، حتى تمّ الاتفاق على بنود المعاهدة، وتولّى كتابة وثيقة الصلح علي بن أبي طالب^٢. وقد تضمنت الوثيقة البنود التالية، وفقًا لما ورد في المصادر:

١. الهدنة ووضع الحرب أوزارها لمدة عشر سنين.
٢. أن يأمن فيها الناس، ويكفّ بعضهم عن بعض.
٣. أن يرجع محمد ﷺ عامه هذا، فإذا كان العام القادم قدّم مكة فأقام فيها ثلاثة أيام.
٤. ألا يدخل مكة إلاّ بسلاح المسافر.
٥. من أتى محمدًا ﷺ من قريش مسلمًا بغير إذن وليه^٣، ردّه عليهم.

١. ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٣١٦؛ البيهقي، السنن الكبرى، ٩: ٢٢١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٤: ١٩٢.

٢. البلاذري، أنساب الأشراف، ١: ٣٥٠.

٣. الولي: تعبير ورد في المصادر التاريخية، والمقصود به غالبًا رئيس القبيلة أو كبير العشيرة الذي يملك سلطة القرار على الفرد.

٦. مَنْ جَاءَ قَرِيشًا مَعَهُ مُحَمَّدٌ ﷺ مَرْتَدًّا، لَمْ يَرُدُّوهُ عَلَيْهِ.
٧. أَلَّا يَتَأَمَّرَ الطَّرَفَانِ وَيَكُونَ بَيْنَهُمَا «عِيَّةٌ مَكْفُوفَةٌ»^١.
٨. أَلَّا يَسْرِقَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا.
٩. أَلَّا يَخُونُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا.
١٠. مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَعَهْدِهِ دَخَلَ فِيهِ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ قَرِيشٍ وَعَهْدِهِ دَخَلَ فِيهِ.
١١. مَنْ دَخَلَ مَكَّةَ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا، فَهُوَ آمِنٌ عَلَى مَالِهِ وَدَمِهِ. وَمَنْ مَرَّ بِالْمَدِينَةِ مِنْ قَرِيشٍ مُجْتَازًا إِلَى مِصْرَ أَوْ الشَّامِ فَهُوَ آمِنٌ عَلَى مَالِهِ وَدَمِهِ.
١٢. تُخَلِّي قَرِيشٌ مَكَّةَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ وَأَصْحَابِهِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْعَامِ الْقَادِمِ، وَلَا يَبْقَى بِهَا أَحَدٌ مِنْ قَرِيشٍ، إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ لِمُرَاقَبَتِهِمْ.
١٣. لَا يَخْرُجُ مُحَمَّدٌ ﷺ مَعَهُ بِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، وَإِنْ أَرَادَ الْخُرُوجَ مَعَهُ.
١٤. لَا يَمْنَعُ مُحَمَّدٌ ﷺ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ أَرَادَ الْبَقَاءَ بِمَكَّةَ.
١٥. أَنْ يَكُونَ الْإِسْلَامُ ظَاهِرًا بِمَكَّةَ، وَلَا يُكْرَهُ أَحَدٌ عَلَى دِينِهِ، وَلَا يُؤْذَى وَلَا يُعَيَّرَ بِسَبَبِ إِسْلَامِهِ^٢.

فور إبرام المعاهدة، سارعت قبيلتا خُزاعة وبنو بكر إلى النبي ﷺ لتأكيد عهودهم وتحديد مواقفهم، حيث دخلت خُزاعة في عهد الرسول ﷺ، ودخلت بنو بكر في عهد

١. أي: صدور منطوية عن الغُلِّ والغَدْرِ والخِدَاعِ تجاه الآخر.

٢. تفرقت بنود الصلح في المصادر المختلفة، وللإطلاع على مجموع هذه البنود راجع: ابن أبي شيبه، المصنف، ٣٨٣: ٧ و ٣٨٦-٣٨٥؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٣١٧-٣١٨؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢: ٤٥؛ القمي، تفسير القمي، ٩: ١١٨؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢: ٢٨٢؛ المسعودي، التنبيه والإشراف، ٢٢١؛ الطبرسي، مجمع البيان، ٩: ١١٨؛ ابن شهر آشوب، مناقب، ١: ١٧٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٤: ٢٣٤؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٢٠: ٣٣٤ و ٣٥٢ و ٣٦٢ و ٣٧٢ و ٣٢٨.

قريش. وفي تلك الأثناء، حاول بعض المسلمين -ممن شقّ عليهم بعض بنود الصلح- تغيير الشروط المجحفة، إلا أنّ سهيل بن عمرو -المفاوض القرشي- تعنت ووقف دون ذلك.

كان عمر بن الخطاب من أشدّ المعترضين على الصلح، فجاء إلى النبي ﷺ مغضباً وقال: «ألست نبي الله حقاً؟»، قال ﷺ: «بلى»، قال عمر: «ألسنا على الحقّ وعدونا على الباطل؟»، قال: «بلى»، قال: «أليس قتلنا في الجنة وقتلاهم في النار؟»، قال: «بلى»، قال: «فعلامَ نعطي الدنيّة في ديننا؟ ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟». فأجابه النبي ﷺ بثبات ويقين: «إني عبد الله ورسوله، ولن أخالف أمره، ولن يضيعني». قال عمر: «أولست كنتَ تحدّثنا أنّا سنأتي البيت ونطوف به؟»، قال ﷺ: «بلى، فأخبرتك أنّك تأتيه عامك هذا؟»، قال عمر: «لا»، قال: «فإنّك آتية ومطوّف به».

وعقب الصلح، هاجرت نسوة مؤمنات من مكة إلى المدينة، فطالبت قريش بردهنّ استناداً إلى بنود المعاهدة. إلا أنّ النبي ﷺ رفض طلبهن، موضحاً أنّ بند «ردّ من جاء بغير إذن وليّه» صيغ بلفظ المذكر، فلا يشمل النساء^١.

صلح الحديبية: أعظم الفتح

نظّم رسول الله ﷺ صفوف المسلمين للقفل والعودة إلى المدينة، فقال قائل من المسلمين متذمّراً: «ما هذا بفتح، لقد صُدّدتنا عن البيت وصُدّ هدينا». وكان النبي ﷺ في الوقت نفسه قد أمر رجلين من المؤمنين بالرجوع -تنفيذاً لبنود الصلح- فلمّا تناهت تلك المقولة إلى مسامعه، قال مستنكراً:

بسّ الكلام! بل هو أعظم الفتح! قد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن

١. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٦٠٩؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٣٢٥-٣٢٦.

بلادهم، ويسألوكم القضية، ويرغبون إليكم في الأمان، ولقد رأوا منكم ما كرهوا، وأظفركم الله عليهم وردكم سالمين مأجورين، فهو أعظم الفتح. أنسيتم يوم أحد؟ إذ تصعدون ولا تلوون على أحد، وأنا أدعوكم في أخراكم!! أنسيتم يوم الأحزاب؟ ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ (الأحزاب: ١٠).

فأدرك المسلمون حكمة نبيهم ﷺ، وقالوا: «صدق الله ورسوله، فهو أعظم الفتوح. والله يا نبي الله، ما فكّرنا فيما فكّرت فيه، ولأنت أعلم بالله وبالأمر منّا»^٢.

ثمار الصلح ونتائجه

تمخض صلح الحديبية عن نتائج مفصلية غيرت موازين القوى في الجزيرة العربية، ومن أبرزها:

حرية العبادة والأمن الداخلي في مكة: أتاحت المعاهدة حرية المجاهرة بالإسلام داخل مكة المكرمة؛ فأصبح بإمكان أي شخص أن يعتنق الإسلام دون خوف من بطش المشركين أو تنكيلهم. وبذلك تخلّص المسلمون المستضعفون من الضغوط الجسدية والنفسية، وزال عنهم كابوس الاستهزاء والتعذيب. ولو كان النبي ﷺ قد اختار خيار الحرب، لتعرّض هؤلاء المستضعفون في مكة لخطر محقق؛ إذ كان المشركون سيضاعفون عليهم العنت وربّما أقدموا على تصفيتهم. وعلاوة على ذلك، كان هؤلاء يكتمون إيمانهم، ممّا يجعل تمييزهم مستحيلاً في خضمّ المعركة، بل كان من المحتمل أن

١. إشارة إلى الآية ١٥٣ من سورة آل عمران: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾.

٢. البيهقي، دلائل النبوة، ٤: ١٦٠؛ ابن سيّد الناس، عيون الأثر، ٢: ١٢٥؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ٢: ٣٩٧.

يُجبرهم المشركون على الخروج في صفوفهم، فيقاتلهم المسلمون ويقتلونهم عن غير عمد فتصيبهم منهم معرة. لذا، حقن الصلح دماءً كثيرة، وتحقق ذلك بتدبير إلهي وعلى يد قريش نفسها، ليثبت الله عظمته وحكمته البالغة.

الانتشار الجغرافي للإسلام والعزلة السياسيّة لقريش: أتاح الصلح للمسلمين فرصة ذهبية للتفرّغ للدعوة ونشر الإسلام بين قبائل الجزيرة العربية دون خشية من تهديدات قريش. وقد أدّى ذلك إلى اتّساع الرقعة الجغرافية للإسلام وتزايد عدد القبائل المنضوية تحته، ممّا كسر الطوق عن المدينة وفرض عزلة سياسيّة على قريش التي انحصرت نفوذها داخل مكة. وحتىّ مكة نفسها، لم تكن محصنة فكريّاً، إذ أخذ الإسلام يتغلغل فيها يوماً بعد يوم بفضل مناخ الحرّية الذي وفّره الصلح.

تحييد الجبهة الجنوبية والتفرّغ لخير: بفضل «الأمن» الناتج من صلح الحديبية وتحييد خطر قريش من جنوب المدينة المنورة، تمكّن النبي ﷺ من التفرّغ لحسم الخطر القادم من الشمال: «يهود خيبر». فقد كان هؤلاء يمثلون غرفة عمليات للتآمر، يسعون لتقويض الدولة الإسلامية عبر تحريض القبائل وتمويلها، كما فعلوا في الأحزاب حين حشدوا ١٠ آلاف مقاتل. وبفضل الهدنة، استطاع النبي ﷺ أن يسير إلى خيبر بجيش قوامه ١٤٠٠ مقاتل للقضاء على هذا التهديد بشكل نهائي.

رسائل النبي ﷺ إلى الملوك

في السنة السادسة أو السابعة للهجرة^١، وجه النبي ﷺ دعوته إلى ستة من كبراء ملوك العالم وحكامه، داعياً إياهم للدخول في الإسلام. وهؤلاء الملوك هم: «النجاشي» ملك الحبشة، «قيصر»^٢ إمبراطور الروم، «خسرو أبرويز»^٣ إمبراطور فارس والمدائن، «المقوقس» عظيم القبط^٤ وحاكم الإسكندرية، «الحارث الغساني» والي الشام، «ثمامة بن أثال» و«هَوْذَة بن علي الحنفي» ملكا اليمامة.

في أواخر شهر ذي الحجة أو أوائل شهر المحرم^٥، وقع الاختيار على ستة من الصحابة للقيام بهذه المهمة، فخرجوا من المدينة المنورة في وقت واحد. وقد توزعت المهام على النحو التالي: عمر بن أمية الضمري، مبعوثاً إلى النجاشي. دحية بن خليفة الكلبي، مبعوثاً إلى قيصر الروم. عبد الله بن حذافة السهمي، مبعوثاً إلى كسرى فارس. حاطب بن أبي بلتعة اللخمي، مبعوثاً إلى المقوقس. شجاع بن وهب الأسدي، مبعوثاً إلى الحارث الغساني. سليط بن عمرو العامري، مبعوثاً إلى ثمامة وهَوْذَة في اليمامة^٦.

١. حول الاختلاف في تحديد سنة هذا الحدث، راجع: ابن سعد، *الطبقات الكبرى*، ١: ٢٨٥؛ الطبري، *تاريخ الأمم والملوك*، ٢: ٢٨٨؛ المسعودي، *مروج الذهب*، ٢: ٢٨٩؛ ابن عساکر، *تاريخ مدينة دمشق*، ٢٧: ٢٥٧ و ٤٥: ٤٣٠؛ ابن الأثير، *أسد الغابة*، ٢: ٢١٠؛ ابن كثير، *البداية والنهاية*، ٤: ٢٦٢؛ المجلسي، *بحار الأنوار*، ٢٠: ٣٨٢.

٢. هرقل.

٣. كسرى.

٤. «القبط» هم سكان مصر القدماء المسيحيون. قيل أنّ نسبهم يصل إلى حام ابن النبي نوح ﷺ، فجدهم هو قبط بن مصر بن حام بن نوح، ولذا سُمّي مصر باسمه وسمّي ساكنيها بالقبط (راجع: النويري، *نهاية الأرب*، ٢: ٢٨٨-٢٨٩، "Atiya, "Kibt").

٥. الطبري، *تاريخ الأمم والملوك*، ٢: ٢٨٨؛ الدياربكري، *تاريخ الخميس*، ٢: ٢٩.

٦. ابن هشام، *السيرة النبوية*، ٢: ٦٠٧؛ الطبري، *تاريخ الأمم والملوك*، ٢: ٢٨٩؛ الحلبي، *السيرة الحلبية*، ٣: ٢٤١.

رسالة النبي ﷺ إلى كسرى

بعث رسول الله ﷺ بكتابه إلى كسرى أبرويز، عاهل الإمبراطورية الساسانية:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس

سلام على من أتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأني رسول الله إلى الناس كافة، لينذر من كان حياً. أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس^١.

أذن كسرى لمبعوث النبي ﷺ بالدخول. فلما مثل بين يديه، أمر كسرى أعوانه باستلام الكتاب منه، فامتنع المبعوث وقال: «لا حتى أدفعه أنا إليك، كما أمرني رسول الله». فتناوله كسرى، ودفعه إلى كاتبه ليقراه عليه. وما إن سمع الاستهلال باسم النبي ﷺ مقدماً على اسمه، حتى استشاط غضباً، فمزق الكتاب وصاح: «يكتب إليّ بهذا وهو عبدي؟!»، ثم أمر بطرد الرسول من مجلسه. فلما عاد المبعوث إلى المدينة وقصّ على النبي ﷺ ما جرى، قال ﷺ: «مزق كسرى مُلكه»^٢.

كتب كسرى إلى باذان -عامله على اليمن^٣- يأمره أن يبعث رجلين جليدين إلى الحجاز ليأتيانه بـ«هذا الرجل»، مشيراً إلى رسول الله ﷺ. فأرسل باذان معتمده ومدير خزانته، ورجلاً آخر بكتاب كسرى إلى رسول الله ﷺ. فلما وصلا وأبلغاه الرسالة، قال لهما النبي ﷺ: «ارجعا، فإنّي سأخبركما غداً». وفي تلك الليلة، نزل الوحي على النبي ﷺ بأن كسرى قد قُتل على يد ابنه شيرويه، فأخبرهما النبي ﷺ في الغد قائلاً: «أبلغا صاحبكما إن

١. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢: ٦٥٤.

٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ٤: ٢٦٩؛ الحلي، السيرة الحلبية، ٣: ٢٨٣.

٣. في تلك الحقبة، كانت اليمن ولاية تابعة للإمبراطورية الساسانية، وكان يحكمها ولاية من الفرس (الأبناء) الذين استوطنوا المنطقة.

ربِّي قد قتل ربّه كسرى في هذه الليلة». عاد الرجلان إلى باذان بالخبر، فقال باذان: «والله ما هذا كلام ملك، وإني لأراه نبياً. ولننظرنّ، فإن كان ما قال حقاً، فإنّه لنبيّ مرسل، وإن لم يكن، فنرى فيه رأينا». لم يمضِ وقت طويل حتّى وصل كتاب شيرويه، الامبراطور الجديد، ينعي فيه أباه ويأمر باذان: «انظر الرجل الذي كان كسرى كتب فيه إليك، فلا تُهجه حتّى يأتيك أمري فيه». عند ذلك، أيقن باذان بالحقّ فأعلن إسلامه، وأسلم معه الفرس المقيمون في اليمن، وبعثوا بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ^١.

كانت قريش تترقّب ردّ فعل كسرى بفارغ الصبر. فلمّا سمعوا بوعيده وأمره لباذان، استبشروا وقالوا: «أبشروا، فقد نصب له كسرى ملك الملوك، كُفِّتُم الرجل». ولكن سرعان ما تحوّلت فرحتهم إلى خيبة وحزن عميقين حين بلغهم نبأ مقتل كسرى، وإسلام باذان، وخروج اليمن من نفوذ الشرك^٢.

رسالة النبي ﷺ إلى قيصر الروم

بعث النبي ﷺ بكتاب آخر إلى قيصر، عاهل الروم، وهذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم

سلام على من اتّبع الهدى؛ أمّا بعد، فإنّي أدعوك بدعاية الإسلام. أسلم تُسلم، يؤتكَ

الله أجرك مرتين. فإن تولّيت فإنّ عليك إثم الأريسيين^٣. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ

١. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢: ٦٥٦؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٤: ٣٠٧؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٣٩١: ٢٠.

٢. ابن أبي شيبة، المصنف، ٤: ٣٣٧-٣٣٨؛ الفسوي، المعرفة والتاريخ، ٣: ٢٦٢؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٣٨٠ و ٣٨٢.

٣. «الأريسيين»، وهي كلمة معرّبة تعني الخدم أو الفلاحين أو الأتباع، ويُقصد بها هنا تحميل الملِك وزر ضلال رعيّته إذا منعهم من الإسلام.

تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا
يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا
مُسْلِمُونَ ﴿آل عمران: ٦٤﴾^١.

وعلى النقيض من تصرف كسرى، استقبل قيصر مبعوث رسول الله ﷺ، دحية الكلبي،
بكل حفاوة وتكريم. وردّ على النبي ﷺ بكتاب يفيض أدبًا، وبعث معه هدايا. وقد عظم
قيصر كتاب النبي ﷺ، فلفّه في ديباج وحرير، وأودعه صندوقًا ليحفظه. ولمّا بلغ خبر
ذلك رسول الله ﷺ، قال: «يبقى ملكهم ما بقي كتابي عندهم»^٢.

رسالة النبي ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط

بعث رسول الله ﷺ بكتاب إلى المقوقس، حاكم الإسكندرية ومصر، جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط

سلام على من اتّبع الهدى؛ أمّا بعد، فإنّي أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تُسلم، يؤتكَ
الله أجركَ مرّتين. فإن تولّيت، فإنّ عليك إثم القبط. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى
كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا
بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤)^٣.

كتب المقوقس ردًّا باللغة العربية، وبعث به إلى النبي ﷺ مشفوعًا بهدايا نفيسة^٤.

١. ابن كثير، البداية والنهاية، ٤: ٢٦٥.

٢. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢: ٦٧-٦٨؛ وانظر أيضًا: السهيلي، الروض الأنف، ٤: ١٩٦-١٩٧؛ الصالحي
الشامي، سبل الهدى، ١١: ٣٥٤.

٣. ابن سيّد الناس، عيون الأثر، ٢: ٣٣٢.

٤. ابن الجوزي، المنتظم، ٣: ٢٧٤-٢٧٥؛ العسقلاني، الإصابة، ٣: ٥٣١؛ الدياربكري، تاريخ الخميس، ٢:
٣٧. تضمّنت الهدايا: أربع جوارٍ، إحداهن «مارية القبطية»، التي أصبحت فيما بعد زوجًا للنبي ﷺ وأمّا

فتح خيبر

شكّل صلح الحديبية نقطة تحوّل استراتيجي، برز المسلمون بعدها كقوة عظمى في المنطقة. فقد أدّت الحروب المتتالية والهزائم المتكررة إلى استنزاف قوى قريش العسكرية والمعنوية، ممّا اضطرّهم للجنوح إلى السلم والاعتراف بالمسلمين كطرف ندّ. وفي ظلال هذا الصلح، تمكّن النبي ﷺ من الانطلاق بدعوته نحو العالمية، فكاتب الملوك والأمراء في مختلف الأقطار برسائل اتّسمت بلهجة حازمة وواثقة.

بعد تحييد خطر مشركي قريش، لم تبقَ في المنطقة قوة متماسكة ومنظمة تهدّد الدولة الإسلامية سوى يهود خيبر. كان هؤلاء يمثلون قوة ضاربة؛ إذ كان بمقدورهم حشد ما يربو على عشرة آلاف مقاتل، فضلاً عن اعتمادهم على نفوذ اقتصادي واسع، وشبكة من الحصون المنيعة، ومخزون استراتيجي من المؤن يكفيهم للصمود والحصار لأشهر طويلة.

لقد كانت الكفة العسكرية والاقتصادية -نظرياً- راجحة لصالح اليهود مقارنة بالمسلمين. وكانت سطوتهم ومكانتهم قد أبهرت بعض بسطاء العقول من المسلمين، وأخضعت لنفوذهم قبائل العرب المجاورة كغطفان. بيد أنّ مجريات الأحداث اللاحقة جاءت مخيبةً لآمال اليهود، ومعاكسةً لكلّ حساباتهم وتوقعاتهم.

خيبر، منطقة تقع على بعد ١٩٠ كيلومتراً إلى الشمال من المدينة المنورة، وهي مسافة كانت تقطعها القوافل قديماً في ثلاثة أيام. ولفظة «خيبر» في العبرية تعني «الحصن»، وقد سمّيت «خيابر». وتقع هذه المنطقة الاستراتيجية على طريق الحجّ الشامي، وتمتاز بوفرة قلاعها ومزارعها وبساتين نخيلها؛ حتّى قيل إنّ حصن الكتيبة وحده كان يضمّ أربعين ألف نخلة. وكانت خيبر تتألف من ثمانية حصون رئيسية

لولده إبراهيم ﷺ، وغلاماً، ودابّتين: إحداهما بغلة تُدعى «دُلْدُل»، والأخرى حمار يُدعى «يَعْفُور»، وهدايا أخرى. (راجع: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١: ٣٧٦ و ٣٨٠-٣٨١ و ٣: ٤ و ٨: ١٧٠-١٧١).

منوعة، هي: النَّطَاطة، والوَطِيح، والسَّلَام، والكَتِيبة، والشَّقَّ، والصَّعْب، والنَّاعِم، والقُمُوص^١.

عاد النبي ﷺ من الحديبية إلى المدينة في ذي الحجة من السنة السادسة للهجرة. وكان الله تعالى قد بشر المؤمنين في سورة الفتح -التي نزلت أثناء العودة- بالنصر القريب والمغانم الوفيرة، حيث قال: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمُ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (الفتح: ٢٠). وقد أجمع المفسرون والمؤرخون على أن هذه «المغانم الكثيرة» هي مغانم خيبر^٢.

بعد عودته إلى المدينة بعشرين يومًا، ومع حلول شهر المحرم للسنة السابعة للهجرة، استنفر رسول الله ﷺ أصحابه للزحف نحو خيبر. فلبى أهل الحديبية النداء بحماس وجدية. وهنا، طمع المنافقون والذين تخلفوا عن صلح الحديبية في الغنائم الموعودة، فأرادوا الخروج مع الجيش. إلا أن النبي ﷺ قطع الطريق على أطماعهم الدنيوية، وأمر منادياً ينادي في الناس: «لا تخرجوا معي إلا راغبين في الجهاد، فأما الغنيمة فلا»^٣.

قبل خروجه، استخلف النبي ﷺ على المدينة خليفة له. وقد اختلفت الروايات التاريخية في تحديد اسمه على ثلاثة أقوال: نُمَيْلَة بن عبد الله الليثي^٤، أو سِبَاع بن عُرْفُطَة^٥، أو أبو ذر الغفاري^٦.

1. Vaglieri, "Khaybar," *EP* 4: 1137-43.

٢. الصالحى الشامى، سبل الهدى، ١١٥: ٥ و ١٥٢-١٥٣؛ الدياربكري، تاريخ الخميس، ٤٣: ٢؛ المجلسي، بحار الأنوار، ١: ٢١.

٣. الواقدي، كتاب المغازي، ٦٣٤: ٢؛ الحلبي، السيرة الحلبية، ٣: ٣١؛ الصالحى الشامى، سبل الهدى، ٥: ١١٥.

٤. الحلبي، السيرة الحلبية، ٣: ٣١؛ الصالحى الشامى، سبل الهدى، ٥: ١١٥.

٥. الواقدي، كتاب المغازي، ٦٣٦: ٣؛ البخاري، التاريخ الصغير، ٤٣: ١؛ العسقلاني، الإصابة، ١٣: ٢.

٦. الواقدي، كتاب المغازي، ٦٣٧: ٢. قد يكون منشأ هذا الاختلاف هو تعدد الغزوات، مما أدى إلى الخلط في

وبينما كان النبي ﷺ يتأهب للخروج، دبّ الذعر في نفوس يهود المدينة الذين كان بينهم وبين النبي ﷺ عهد؛ إذ أيقنوا أنّ وصول النبي ﷺ إلى خيبر يعني أنّ مصير أهلها سيكون كمصير إخوانهم من بني قَيْنُقَاع والنضير وقريظة^١.

لم يكن يدور في خلد يهود خيبر أنّ النبي ﷺ يجرؤ على غزوهم؛ نظرًا لتفوقهم الكاسح في العدة والعدد والحصانة. وكان يهود المدينة يقولون للمسلمين متبجحين: «ما أمتع والله خيبر منكم! لو رأيتم خيبر وحصونها ورجالها، لرجعتم قبل أن تصلوا إليهم. حصون شامخات في ذري الجبال، والماء فيها واتن^٢. إنّ بخيبر لألف دارع^٣، ما كانت أسد وغطفان يمتنعون من العرب قاطبة إلا بهم، فأنتم تطيقون خيبر؟»^٤.

تحرك الجيش الإسلامي وسار حتى نزل ليلاً بساحة خيبر، في منطقة سوق النظاة. مع أنّ اليهود قد علموا بمسيرهم، لكنهم جهلوا موقع نزولهم؛ وقد اختلفوا في خطة الدفاع تلك الليلة، فأثروا السكون والبقاء في حصونهم. وفي الصباح الباكر، خرجوا بمساحيهم ومكاتلهم إلى مزارعهم، ففوجئوا بالنبي ﷺ وجيشه، فولّوا هاربين إلى حصونهم فزعين^٥.

عندما عقد النبي ﷺ العزم على الهجوم، جعل عليّاً ﷺ في مقدمة الجيش وصاحب اللواء، ونادى: «مَنْ دخل النخل فهو آمن». فلما كرّر عليّ ﷺ النداء، رأى النبي ﷺ جبريل ﷺ يتبسّم، فسأله: «ما يضحكك؟»، قال جبريل: «إني أحبه»، فقال النبي ﷺ:

أذهان الرواة وتداخل الأسماء. كما لا ينبغي إغفال دور الأهواء السياسية والتعصّبات القبلية والمصالح الفردية والفئوية في توجيه الروايات.

١. م. ن. ٢، ٦٣٤-٦٣٥؛ ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ٢٧: ٣٤٣.

٢. أي: الماء فيها موجود دائماً.

٣. مقاتل مدّرع.

٤. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٦٣٧.

٥. م. ن. ٢، ٦٤٢-٦٤٣؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢: ١٠٦؛ الصالحى الشامى، سبل الهدى، ٥: ١١٨.

لعلي عليه السلام: «إن جبريل يقول إنه يحبك»، فقال علي عليه السلام: «وُبُلِّغْتُ أن يحبني جبريل؟»، قال النبي صلى الله عليه وآله: «نعم، ومن هو خير من جبريل: الله عز وجل!»^١.

أذن النبي صلى الله عليه وآله بالقتال، موصيًا أصحابه بالصبر. وكان أول حصن ضرب عليه الحصار هو حصن الناعم، حيث اشتدت مقاومة اليهود ورميهم، حتى اضطر بعض الصحابة لحمل الترس دون رسول الله صلى الله عليه وآله لحمايته، وكان صلى الله عليه وآله حينها يلبس مغفرًا ودرعين، ويحمل رمحًا وترسًا^٢.

إسلام الراعي الحبشي

تورد المصادر التاريخية قصة عبد حبشي كان يرعى غنمًا لسيده اليهودي في خير. فلما رأى القوم يتجهزون ويحملون السلاح، سألهم: «ما تريدون؟»، قالوا: «نقاتل هذا الرجل، الذي يزعم أنه نبي». فوقع حب النبي صلى الله عليه وآله في قلبه، وساق غنمه حتى أطل على معسكر المسلمين، ووقف بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله. سأل الراعي: «ماذا تقول، وما ذا تدعو إليه؟»، قال النبي صلى الله عليه وآله: «أدعوك إلى الإسلام؛ وأن تشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، وألا تعبد غير الله». قال العبد: «وماذا يكون لي إن شهدت بذلك، وآمنت بالله تعالى؟»، قال صلى الله عليه وآله: «لك الجنة».

أسلم الراعي في الحال، ثم قال بانكسار: «يا رسول الله! إنني رجل أسود اللون قبيح الوجه، لا مال لي، فإن قاتلت هؤلاء حتى أقتل، أدخل الجنة؟»، قال النبي صلى الله عليه وآله: «نعم!». ثم سأل الراعي عن الغنم التي بحوزته: «إن هذه الغنم عندي أمانة، فكيف بها؟»، فأجابه النبي صلى الله عليه وآله درسًا عظيمًا في الأمانة حتى مع العدو المحارب: «أخرجها من العسكر، وارمها بالحصباء، فإن الله سيؤدّي عنك أمانتك!». ففعل الراعي ما أمر به،

١. ابن الأثير، *أسد الغابة*، ٢: ٤٢٧.

٢. الواقدي، *كتاب المغازي*، ٢: ٦٤٩؛ البيهقي، *دلائل النبوة*، ٤: ٤٨؛ الحلبي، *السيرة الحلبية*، ٣: ٣٤-٣٥.

فخرجت الغنم تتدافع وكأنَّ سائقًا يسوقها، حتَّى دخلت كلَّ شاةٍ إلى بيت أهلها في الحصن. فعلم اليهود حينها أنَّ غلامهم قد أسلم.

تقدَّم الراعي للقتال، فما لبث أن أصابه سهم غرب مجهول المصدر، فقتله. احتمل المسلمون جثمانه ووضعوه في خيمة رسول الله ﷺ. فلما نظر إليه النبي ﷺ، قال مواسيًا ومبشِّرًا: «لقد حَسُنَ إسلام صاحبكم، لقد دخلتُ عليه، وإنَّ عنده لزوجتين له من الحور العين»^١.

فتح القموص

تحصَّن ما يربو على أربعة عشر ألفًا من اليهود داخل حصون خيبر. ومع تساقط الحصون واحدًا تلو الآخر بيد المسلمين، تجمَّعت فلول المنهزمين من حصني النطاة والشَّقَّ ولجأت إلى حصن القموص. كان هذا الحصن أمتع حصون خيبر وأشدَّها تحصينًا، حتَّى أنَّ مساحته الشاسعة كانت تضمُّ آلافًا من النخيل داخله^٢.

عقد رسول الله ﷺ اللواء أولًا لأبي بكر لفتح الحصن، لكنَّه رجع ولم يتمكَّن من فتح الحصن. وفي اليوم التالي، بعث عمر بن الخطاب، فرجع كذلك خائبًا دون فتح^٣؛ عاد الجيش والروح المعنوية منكسرة، فبعد رجوع عمر بمن معه من الجيش، أخذ يُجَبِّن أصحابه ويحبِّسونه. وقد كانت الغلبة العسكرية في هذين اليومين لصالح اليهود^٤.

١. راجع: الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٦٤٩-٦٥٠؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٣٤٤-٣٤٥؛ الحاكم النيسابوري، المستدرک، ٢: ١٣٦.

٢. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٦٧٠؛ أبو داود، سنن أبي داود، ٣: ١٦١؛ الطبرسي، إعلام الوری، ٩٩؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٢١: ٢١.

٣. أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ٥: ٣٥٨؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢: ٣٠٠؛ المفيد، الإرشاد، ١: ١٢١؛ الخوارزمي، المناقب، ١٠٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٤: ٢١٣؛ الصالحی الشامي، سبل الهدى، ٥: ١٢٤؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٢١: ٣ و ٣٩: ١٠.

٤. ابن أبي شيبة، المصنف، ٧: ٣٩٣-٣٩٤؛ الصالحی الشامي، سبل الهدى، ٥: ١٢٤.

في تلك اللحظة الحاسمة، قام رسول الله ﷺ خطيباً وقال كلمته المشهورة: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، كزار غير فرار، يفتح الله على يديه». فبات الناس يدوكون ليلتهم يخوضون ويتمنون أيهم يعطاها. فلما أصبح الصباح، وغدا الناس على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها، سأل ﷺ: «أين علي بن أبي طالب؟»، قالوا: «هو يشتكي عينيه»، قال ﷺ: «فأرسلوا إليه»^١.

كان علي ﷺ في المدينة يعاني من رمد شديد، ورغم ذلك كابد المشاق للحاق بالركب في خيبر^٢. فلما جاء به إلى النبي ﷺ، سألته: «ما لك؟»، قال علي ﷺ: «رمدت حتى لا أبصر ما قدامي». فأذناه النبي ﷺ منه، ووضع رأسه في حجره، وتفل في عينيه ودعا له. فبرأ علي ﷺ لوقته، حتى كأن لم يكن به وجع قط، ولم يشك عينيه بعدها طيلة حياته. ثم سلم رسول الله ﷺ إليه الراية وقال له: «اذهب فقاتل حتى يفتح الله عليك ولا تلتفت، قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. فإذا فعلوا ذلك، فقد منعوا منّا دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله»^٣.

انطلق علي ﷺ يهرول نحو الحصن، وتبعه نفر من المسلمين، حتى ركز رايته عند أصل الحصن. فخرجت كتائب اليهود للمبارزة. وكان أول من برز منهم الحارث أخو مرحب الخير - وكان معروفاً ببطشه وشجاعته - حتى أن المسلمين لما رأوه تراجعوا وانحازوا خوفاً منه. إلا أن علياً ﷺ ثبت له كالطود، وتصادم معه؛ ولم تكن إلا جولة قصيرة حتى أرداه علي ﷺ قتيلاً. عند ذلك، دبّ الدُعر في قلوب أصحاب

١. البيهقي، دلائل النبوة، ٤: ٢٠٥؛ المفيد، الإرشاد، ١: ١٢٦.

٢. البخاري، صحيح البخاري، ٥: ١٧١؛ الدياربركي، تاريخ الخميس، ٢: ٤٨؛ الصالحى الشامى، سبل الهدى، ٥: ١٢٤.

٣. الصالحى الشامى، سبل الهدى، ٥: ١٢٥؛ وانظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٣٣٤-٣٣٥؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣: ١٥٧.

الحارث، ففرّوا واعتصموا بالحصن وأغلقوا البوابة عليهم، بينما عاد المسلمون إلى مواقعهم استعداداً للمرحلة التالية^١.

لم يمضِ وقت طويل حتّى خرج مرحب -بطل اليهود- من الحصن يتبختر بسلاحه، طالباً المبارزة وهو يرتجز:

قد علمت خير أنّي مرحب شاكي السلاح بطل مجرب
إذا الليوث أقبلت تلهب
فبرز إليه عليّ ﷺ وعليه حُلّة حمراء، وهو يرتجز رادّاً عليه:

أنا الذي سمّنتني أمي حيدرَه ضرغام آجام وليث قسورَه
التحم البطلان، فضرب مرحب عليّاً ﷺ ضربةً أطاحت بالترس من يده. فتناول عليّ ﷺ سيفه وعاجل مرحباً بضربة قاصمة على رأسه، فخرّ صريعاً.

بعد مصرع مرحب، توجه الإمام عليّ ﷺ منفرداً صوب الحصن، فاقطلع بابه الحديدي الضخم من أصله، واتّخذ منه جسراً. وكان هذا الباب من الثقل بحيث عجز ثمانية رجال أشداء عن تحريكه أو رفعه من الأرض. وبسقوط الباب، فُتح الطريق أمام المسلمين، وتمّ الفتح^٢.

وعن سرّ هذه القوّة الخارقة، قال أمير المؤمنين ﷺ لاحقاً: «ما قلعتُ باب خير بقوّة جسمانية، ولكن بقوّة إلهية»^٣. كما رُوي أنّ عمر بن الخطاب سأله متعجباً: «يا

١. راجع: الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٦٥٣-٦٥٤؛ ابن الأثير، الكامل، ٢: ٢٢٠؛ المجلسي، بحار الأنوار، ١٦: ٢١.

٢. انظر: الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٦٥٧؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٣٣٥؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣: ١٥٧؛ أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ٥: ٣٣٣ و ٣٥١؛ مسلم، صحيح مسلم، ٥: ١٩٥؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٣: ٣٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٤: ١٨٥.

٣. الديار بكري، تاريخ الخميس، ٢: ٥١.

أبا الحسن! لقد اقتلعت منيعاً، وأنت ثلاثة أيام خميصاً^١، فهل قلعتها بقوة بشرية؟»، فأجابه علي عليه السلام: «ما قلعتها بقوة بشرية، ولكن قلعتها بقوة إلهية ونفس بلقاء ربها مطمئنة رضية»^٢.

توالت الفتوحات بعد ذلك، فتساقطت الحصون واحداً تلو الآخر بالترتيب التالي: ناعم، القموص، الصَّعب - وكان أغنى حصون خيبر بالمؤن والماشية -، الشَّق، النَّطاة، والكُتَيْبَة. هذه الحصون الستة افتتحها النبي صلى الله عليه وآله عنوةً بالقوة العسكرية. أما حصننا الوطيح والسَّلام، فقد اعتصم بهما بقيّة اليهود، فضرب عليهم المسلمون حصاراً دام ما بين ١٠ إلى ٢٠ يوماً. وفي شهر صفر، أعلنوا استسلامهم، وصالحوا النبي صلى الله عليه وآله على حقن دمائهم مقابل تسليم ما بحوزتهم من الذهب والفضة، فقبل النبي صلى الله عليه وآله منهم ذلك وأمنهم^٣.

عودة المهاجرين من الحبشة

قبيل المسير نحو خيبر، كان النبي صلى الله عليه وآله قد أوفد عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة، ليطلب منه تسيير جعفر عليه السلام وأصحابه وعودتهم إلى الحجاز. وقد استجاب النجاشي فجّهزهم وأكرم وفادتهم وسيّرهم على خير وجه. وباستثناء من وافقهم المنية هناك أو الذين كانوا قد عادوا في وقت سابق، قد بقي من المهاجرين ستة عشر رجلاً، انطلقوا نحو الحجاز على متن سفينتين محملتين بالهدايا الجزيلة^٤. كما أرسل النجاشي ابن أخيه مرافقاً لجعفر عليه السلام وأصحابه في هذه الرحلة^٥.

١. أي: لم تأكل شيئاً.

٢. الصدوق، الأُمالي، ٣٠٧؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٢١: ٢٦.

٣. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٦٢٢؛ وانظر أيضاً: العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ١٧: ٧٠.

٤. ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٣٥٩؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١: ٢٠٨-٢٠٩ و ٤: ٣٤٩؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٢١: ٢٣.

٥. ابن كثير، البداية والنهاية، ٣: ٧٨؛ الصالح الشامي، سبل الهدى، ١١: ٤١٥.

وعندما تمّ فتح خيبر، وصل جعفر بن أبي طالب إلى الحجاز، فبعث النبي ﷺ أبا رافع لاستقباله هو ومن معه^١. حينما أبصره النبي ﷺ، قام إليه واستقبله بحفاوة، فاعتنقه وقبل ما بين عينيه، وقال: «لا أدري أنا بأيهما أشدّ فرحًا، بقدوم جعفر أو فتح خيبر؟»^٢.

عمرة القضاء

كما سلف في أحداث صلح الحديبية، لقد أبرم النبي ﷺ اتفاقًا مع قريش يقضي بدخوله مكة في العام القابل، شريطة ألا يحمل المسلمون من السلاح إلا سلاح المسافرين، وألا تتجاوز مدة إقامتهم في مكة ثلاثة أيام. والآن، وبعد مرور عام على ميثاق الحديبية، عزم النبي ﷺ التوجه نحو مكة لأداء مناسك العمرة، وهي التي عُرفت في التاريخ بـ«عمرة القضاء» أو «عمرة القضية».

خرج النبي ﷺ في غرة ذي القعدة من العام السابع للهجرة متجهًا صوب مكة، واستخلف على المدينة أبا ذر الغفاري. وقد أمر أصحابه بالاستعداد للسير، وحثّ كلّ من شهد الحديبية على الخروج معه، فبدأت الرحلة بقافلة ضمت نحو ٢٠٠٠ شخص^٣. وكان جعفر بن أبي طالب ﷺ من ضمن المشاركين في هذه العمرة رغم غيابه عن صلح الحديبية، حيث كان آنذاك لا يزال في بلاد الحبشة.

وفي سياق الاستعداد، قال رجل من أعراب المدينة: «والله يا رسول الله، ما لنا من زاد وما لنا من يطعمنا»، فأمر النبي ﷺ المسلمين بالإنفاق والصدقة وألا يبخل

١. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٩: ١٣٣.

٢. ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٣٥٩؛ ابن أبي شيبه، المصنف، ٧: ٣٥١؛ الطبري الآملي، المسترشد، ٣٣٣؛ المجلسي، بحار الأنوار، ١٨: ٤١٣ و ٢١: ٢٣ و ٣٩: ٢٠٧ و ٨٨: ٢٠٦ و ٢٠٨ و ٢١١.

٣. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٧٣٣؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢: ١٢٠؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٢١:

بعضهم على بعض بالطعام. تساءل البعض: «يا رسول الله، بِمَ نتصدَّق وأحدنا لا يجد شيئاً؟»، فأجابهم ﷺ: «بما كان، ولو بشقِّ تمر، ولو بمشقص^١ يحمل به أحدكم في سبيل الله»^٢.

اصطحب النبي ﷺ في هذه العمرة هَدْيًا يتراوح بين ستين إلى سبعين بَدَنَةً^٣، وقد جعلت لها علامات ليعرفها الجميع فلا يُطمع فيها. وأوكل مهمّة رعاية هذه الإبل إلى ناجية بن جُنْدَب وأربعة رجال من قبيلة أسلم^٤. وتحسّباً لأيّ غدر، حملت مع القافلة آلات الحرب من سيوف ورماح ودروع، وكانت عهدها موكّلة إلى بشير بن سعد. كما ضمت القافلة ١٠٠ فرس كان محمد بن مسلمة هو المسؤول عنها^٥.

أحرم المسلمون، ولما انتهوا إلى ذي الخليفة، قدّموا الخيل أمامهم. وفي تلك الأثناء، أبدى البعض توجّسهم قائلين لرسول الله ﷺ: «حملت السلاح وقد شرطوا أن لا ندخلها عليهم بسلاح إلّا سلاح المسافر، السيوف في القرب؟»، فأجابهم ﷺ: «إنّا لا ندخله عليهم الحرم، ولكن يكون قريباً منّا. فإن هاجنا هيج من القوم كان السلاح منّا قريباً»^٦. كان محمد بن مسلمة يسير في طليعة القافلة مع ثلّة من أصحابه لاستطلاع الأوضاع، فلمّا بلغوا منطقة مرّ الظّهْران قُرب مكة، واجهوا ركباً من قريش. وما إن رأى المشركون العُدّة الحربية مع المسلمين، حتّى استحثّوا خطى خيلهم نحو مكة ليخبروا ساداتها

١. المشقّص: سهم له نصل عريض لا يُستخدم عادةً لرمي الوحوش.

٢. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٧٣٢؛ الصالحى الشامى، سبل الهدى، ٥: ١٨٩.

٣. انظر: الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٧٣٣؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢: ١٢١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٢: ١٥٤.

٤. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٧٣٢.

٥. م. ن. ٢: ٧٣٣.

٦. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٧٣٣؛ الصالحى الشامى، سبل الهدى، ٥: ١٩٠؛ الحلبي، السيرة الحلبية، ٣:

بالأمر. ثارت ثائرة صناديد قريش وقالوا: «والله ما أحدثنا حَدَثًا^١ ونحن على كتابنا ومدّتنا، ففيمَ يغزونا محمد في أصحابه؟». وعلى الفور، بعثوا مكرز بن حفص في نفر من رجالهم لتقصّي الجليّة، فلقوا رسول الله ﷺ بمنطقة يَأْجَج^٢، فقالوا: «يا محمد! والله ما عُرِفْتَ صغيرًا ولا كبيرًا بالغدر. تدخل بالسلاح في الحرم على قومك، وقد شرطت لهم أن لا تدخل إلاّ بسلاح المسافر، السيوف في القرب؟»، فردّ عليهم النبي ﷺ بوضوح: «إني لا أدخل عليهم السلاح»، فقال مكرز: «هذا الذي تُعرف به، البرّ والوفاء». ثمّ قفل مكرز وأصحابه راجعين إلى مكّة، وطمانوا قريشًا قائلين: «إنّ محمدًا لا يدخل بسلاح، وهو على الشّرط الذي شرط لكم»^٣.

لما دنا النبي ﷺ من مكّة، خرجت قريش من شعابها وأزقتها، إذ كانت صدورهم تغلي بالحقّد والضغينة لرسول الله ﷺ، فلم يطيقوا رؤيته وهو يطوف بالبيت العتيق^٤. وفي صبيحة اليوم الرابع من ذي الحجّة^٥، دخل رسول الله ﷺ مكّة من ثنية كدّاء الواقعة في منطقة الحُجُون شمالي مكّة، وهو يمتطي ناقته التي أخذ بزمامها عبد الله بن رواحة، فيما أحاط به أصحابه متوشّحين سيوفهم ومجلجلين بالتلبية في حلقة حوله. وقد وضع رسول الله ﷺ مائتي رجل من المسلمين مع أسلحتهم وعتادهم الحربي في منطقة يَأْجَج مرابطين هناك، وبعد أن أدّى الفريق الأول أعمال العمرة، حلّ محلّهم مائتان آخرون ليتمكّن المرابطون من أداء مناسكهم بدورهم. وكان أوس بن خولي هو القائد على تلك المائتين^٦.

١. أي لم ننقض العهد.

٢. منطقة بالقرب من مكّة (الحموي، معجم البلدان، ٥: ٤٢٤).

٣. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٧٣٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٤: ٢٦٣؛ الحلبي، السيرة الحلبية، ٣: ٦٢.

٤. الدياربكري، تاريخ الخميس، ٢: ٦٢.

٥. الصالحى الشامي، سبل الهدى، ٥: ١٩١.

٦. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٧٣٥؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢: ١٢١ و ٣: ٥٤٢؛ الصالحى الشامي،

كان بعض المشركين يرقبون طواف النبي ﷺ والمسلمين من فوق رؤوس الجبال، فقالوا تهكمًا: «إِنَّ حُمَّى يَثْرِبُ^١ قد أوهنت المهاجرين وأضعفت قواهم». فأطلععه الوحي على مقاتلتهم تلك، فقال ﷺ استنهاضًا لَهُمَّ أصحابه: «رَحِمَ اللَّهُ امرأً أراهم مِن نفسه قوَّة». ثم أمر أصحابه أن يُسرِعُوا في المشي في الأشواط الثلاثة الأولى من الطواف، ليرى المشركون جَلَدَ المسلمين وبأسهم الجسائي. وعندها تعجَّب المشركون ممَّا رأوا وقالوا: «أهؤلاء الذين زعمتم أَنَّ الحُمَّى قد وهنتهم؟ هؤلاء أجلد من كذا وكذا، ما يرضون بالمشي، أما إِيَّاهم لينقزون نقر الظَّبْيِ»^٢.

لبث النبي ﷺ وأصحابه في مكة ثلاثة أيام، وهي المدَّة المشروطة في العهد، وفي أعقابها أقبل حُوَيْطِب بن عبد العزَّى وسهيل بن عمرو على رسول الله ﷺ، وطالباه بمغادرة مكة إيفاءً لما نصَّت عليه وثيقة الصلح؛ فاستجاب النبي ﷺ فخرجوا من مكة^٣.

معركة مؤتة

في السنة الثامنة للهجرة، بعث رسول الله ﷺ الحارث بن عمير الأزدي بكتابٍ إلى مَلِك بَصْرَى^٤. وفي أثناء طريقه، وتحديدًا عند قرية مؤتة -وهي من قرى منطقة البلقاء في الشام- اعترضه حاكم تلك المنطقة المُعَيَّن من قِبَل مَلِك الروم، فلمَّا استبان له أَنَّهُ

سبل الهدى، ٥: ١٩٤.

١. كانت يثرب (المدينة المنورة) قبل الهجرة النبوية مشتهرة بكثرة الأوبئة ومنها الوباء والحُمَّى، وقد ورد ذكر هذه الحُمَّى في أخبار تاريخية مختلفة (انظر: السمهودي، وفاء الوفاء، ١: ٥٢-٥٩).

٢. ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٣٧١؛ أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ٤: ٤٢٣؛ مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، ٢: ٩٢٣.

٣. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٧٣٩.

٤. مدينة تقع شمال الحجاز وجنوب الشام، تقع في حدود السورية اليوم (الحموي، معجم البلدان، ١: ٤٤١).

رسولُ نبيِّ الإسلام ﷺ، أمر بقتله صبراً^١. فلما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ، شقَّ عليه ذلك، وأمر بتجهيز جيشٍ قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، وجعل إمرتهم لجعفر بن أبي طالب ﷺ^٢.

شيعَ النبي ﷺ جيش الإسلام حتَّى بلغ ثنية الدواع، وأوصاهم بوصيته الجامعة قائلاً: «اغزوا بسم الله، فقاتلوا عدوَّ الله وعدوكم بالشام، وستجدون فيها رجالاً في الصوامع معتزلين للناس، فلا تعرّضوا لهم... ولا تقتلن امرأة ولا صغيراً مرضعاً ولا كبيراً فانيّاً، لا تغرقن نخلاً ولا تقطعن شجراً، ولا تهدموا بيتاً»^٣.

خرج المسلمون من المدينة حتَّى انتهوا إلى وادي القرى، وهناك علم شرحبيل بن عمرو الغساني، حاكم المنطقة، بمسير المسلمين فسيرَ إليهم جيشاً بقيادة أخيه سدوس، فاشتبكوا مع المسلمين وقتل سدوس في المعركة. حينها بعث شرحبيل بأخيه الآخر وبر بن عمرو، فداخله الرعب وتحصّن في إحدى القلاع، فواصل المسلمون تقدّمهم حتَّى عسكروا في منطقة معان من أرض الشام^٤.

على الجانب الآخر، تحرّك حلفاء حاكم المنطقة صوب منطقة المشارف، على قُرب من بُصرى الشام^٥. ولما وقف المسلمون على كثرة جموع العدو وضخامة حشدتهم، أقاموا في معان يتشاورون في أمرهم؛ فاقترح بعضهم قائلين: «نبعثُ إلى رسول الله فنخبره بكثرة عدونا، حتَّى يرى في ذلك رأيه»^٦. بيدَ أنَّ عبد الله بن رواحة انبرى يشدّ من أزهرهم

١. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٧٥٥؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢: ٩٧؛ المقدسي، البدء والتاريخ، ٤: ٢٣٠.

٢. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢: ٦٥؛ الطبرسي، إعلام الوري، ٢١٢؛ ابن شهر آشوب، مناقب، ١: ٢٠٥.

٣. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٧٥٨؛ الصالحى الشامى، سبل الهدى، ٦: ١٤٦.

٤. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٧٥٧-٧٦٠.

٥. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٧٦٠؛ الحموي، معجم البلدان، ٥: ١٣١.

٦. الطبرسي، إعلام الوري، ١٠٢-١٠٣؛ ابن شهر آشوب، مناقب، ١: ٢٠٥.

ويُذكي في نفوسهم روح الفداء قائلاً: «والله ما كنّا نقاتل الناس بكثرة عدد، ولا بكثرة سلاح، ولا بكثرة خيول، إلّا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به. انطلقوا! والله لقد رأيتنا يوم بدر ما معنا إلّا فرسان، ويوم أحد فرس واحد، وإنّا هي إحدى الحُسَيْنين: إمّا ظهور عليهم، فذلك ما وعدنا الله ووعدنا نبيّنا وليس لوعده خلف، وإمّا الشهادة فنلحق بالإخوان نرافقهم في الجنان»^١.

التقى الجمعان واحتدم وطيس القتال. كان جعفر بن أبي طالب ﷺ يحمل لواء الجيش ويدود عنه ببسالة نادرة، فانقض عليه أحد الأعداء وقطع يده اليمنى، فأخذ اللواء بيده اليسرى، فما لبثوا أن قطعوها أيضاً، فاحتضن اللواء بعضديه وضمه إلى صدره، وظلّ ثابتاً حتّى استشهد وقد أثختته جراح السيوف وضربات^٢.

وتوالى سقوط قادة المسلمين واحداً تلو الآخر، حتّى آلت الراية إلى عبد الله بن رواحة، فقاتل حتّى استشهد وهو الآخر من قادة المسلمين^٣. وبسقوطه، وقعت الهزيمة في صفوف المسلمين وانفرط عقدهم وتفرّقوا في كلّ اتّجاه، فتعقبهم المشركون يقتلون فيهم، فاستشهد من المسلمين في تلك اللحظات خلق كثير.

١. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٧٦٠؛ وانظر أيضاً: ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٣٧٥؛ المقرئ، إمتاع الأسماع، ١: ٣٣٩-٣٤٠.

٢. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٧٦١؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٣٨٠؛ الطبرسي، إعلام الوري، ١٠٣.

٣. ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٣٧٩.

من فتح مكّة إلى الوفاة

فتح مكّة

كانت ثمة عداوة متأصلة وثارَات قديمة بين قبيلتي بني خُزاعة وبني نُفّاة. وكانت خُزاعة حليفة لرسول الله ﷺ، استنادًا إلى حلف قديم كان يربطهم بجده عبد المطلب ﷺ؛ في حين كانت بنو نُفّاة حليفة لمشركي قريش. وبموجب صلح الحديبية الذي أقرّ بوقف الحرب وحرية التحالفات، توقفت الاشتباكات بين القبيلتين^١.

في سنة ٨هـ، وبعد بضعة أشهر من معركة مؤتة، ولما مضى عن الهدنة عامان، تجدد الصراع بمشاجرة بين رجل من خُزاعة وآخر من نُفّاة، أدّت إلى جرح أفرادٍ من الأخير. استنجد بنو نُفّاة بحلفائهم من قريش للأخذ بالثأر من خُزاعة، فاستجاب لهم كبار قريش من وراء ظهر أبي سفيان ودون مشورته، ظنًّا منهم أنّ ظلمة الليل ستستر مشاركتهم. فأمدّوا بني نُفّاة بالسلاح والرجال، وهاجموا خُزاعة ليلاً في منطقة الوتر في أسفل مكّة، وقتلوا منهم عددًا. وبهذا الهجوم الغادر، تكون قريش قد نقضت صلح الحديبية فعليًا وانتهكت بنوده^٢.

١. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٧٨١-٧٨٢.

٢. م. ن. ٢، ٧٨٢-٧٨٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٢: ٢٣٩-٢٤٤.

في صبيحة الليلة التي وقعت فيها الغارة، قال رسول الله ﷺ لعائشة: «قد حَرَتْ في أمرِ خزاعة». قالت عائشة مستبعدة ذلك: «يا رسول الله، أترى قريشاً تجترئ على نقض العهد بينكم وبينهم، وقد أفناهم السيف؟»، فقال النبي ﷺ: «ينقضون العهد لأمر يريد به الله تعالى بهم»، قالت: «خير أو شر يا رسول الله؟»، قال: «خير»^١.

استشعر زعماء قريش فداحة خطئهم بنقض العهد ومظاهرة بني نُفَثة، ودبَّ الرعب في قلوبهم خشية انتقام المسلمين، فعقدوا مجلساً طارئاً للتشاور وتدارك الموقف. افتتح سُهَيْل بن عمرو الكلام قائلاً: «ما خصلة أيسر علينا من التبرؤ من حلف بني نفثة»، فردَّ عليه شَيْبَة بن عثمان العَبْدَرِي -من كبار قريش- متهمًا: «حفظت أحوالك وغضبت لهم!»^٢، فأجابه سهيل: «وأَيُّ قريش لم تلده خُزاعة؟». فاقترح شيبَة حلاً آخر: «لا، ولكننا ندي^٣ قتلى خزاعة، فهو أهون علينا».

هنا تدخل قَرْظَة بن عبد عمرو معترضًا بشدة: «لا والله، لا يُودُّون ولا نبراً من حلف نُفَثة؛ ولكن نبذ إليه على سواء»^٤. عندها حسم أبو سفيان النقاش برأي ماكر: «ما هذا بشيء! وما الرأي لنا إلا جحد هذا الأمر، أن تكون قريش دخلت في نقض عهد وقطع مدَّة». فأجمع الحاضرون على رأي أبي سفيان وقالوا: «هذا هو الرأي»^٥.

انطلق أبو سفيان بصحبة غلام له راكباً صوب المدينة المنورة لمحاولة احتواء

١. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٧٨٨؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٧: ٢٦١.

٢. أي: تراعي مصلحة أقاربك.

٣. أي: ندفع دياتهم.

٤. أي: نقف معهم في نقض العهد، ونحن معهم سواء فيه.

٥. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٧٨٧-٧٨٨؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٧: ٢٦١؛ الصالحى

الشامي، سبل الهدى، ٥: ٢٠٤.

الأزمة. وقبل وصوله، أخبر النبي ﷺ أصحابه بالخبر غيباً، قائلاً: «لكأنكم بأبي سفيان قد جاء يقول: جدّد العهد وزد في الهدنة، وهو راجع بسخطه»^١.

توجّه أبو سفيان فور وصوله إلى المدينة إلى بيت ابنته أم حبيبة، زوجة النبي ﷺ. فلما همّ بالجلوس على فراش النبي ﷺ، طوت الفراش عنه وسحبته من تحته. فقال أبو سفيان متعجباً: «يا بُنَيَّة! أرغبت بهذا الفراش عني، أم رغبت بي عنه؟»، فأجابته: «بل هو فراش رسول الله، وأنت امرؤ مشرك». قال أبو سفيان: «والله لقد أصابك بعدي شر!»، قالت: «بل هداني الله للإسلام. وأنت يا أبت، سيّد قريش وكبيرها، كيف يسقط عنك الدخول في الإسلام، وأنت تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر؟»^٢.

خرج أبو سفيان من عند ابنته محبطاً، وتوجّه إلى المسجد حيث رسول الله ﷺ، وقال: «يا محمّد! إني كنت غائباً في صلح الحديبية، فاشدد العقد وزدنا في المدة». فقال النبي ﷺ متجاهلاً العرض: «ولذلك جئت يا أبا سفيان؟»، قال: «نعم». فسأله النبي ﷺ سؤال العارف: «هل كان قبلكم حدّث [نقض العهد]؟»، قال أبو سفيان نافياً: «معاذ الله!». فأجابه النبي ﷺ بعبارة حاسمة: «فنحن على مدّتنا وصلحنا يوم الحديبية، لا نغيّر ولا نبذل». كرّر أبو سفيان مقولته مراراً، فلم يرد عليه رسول الله ﷺ بشيء بعدها.

أدرك أبو سفيان أنّ الباب قد أغلق، فطفق يدور على الصحابة يطلب شفاعتهم عند النبي ﷺ لتجديد العهد. فقصّد كلّاً من أبي بكر، وعمر، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وسعد بن عباد، فلم يُجبه أحد منهم إلى طلبه، وواجهوه بالرفض القاطع^٣.

١. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٧٨٦-٧٨٧ و ٧٩١؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٣٩٥-٣٩٦.

٢. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٧٩٢-٧٩٣؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٨: ٧٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٤: ٣٢١.

٣. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٧٩٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٤: ٣٢١؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٢١: ١٠١-١٠٢ و ١٢٦.

لما ضاقت به السبل، دخل على فاطمة الزهراء عليها السلام وعندها ابناها الحسن والحسين عليهما السلام، فقال مستجدياً: «يا بنت محمد! هل لك أن تُجيري بين الناس؟»، فرفضت طلبه^١. ثم نظر إلى الحسن عليه السلام وقال: «يا بنت محمد، هل لك أن تأمرى بنيك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيّد العرب إلى آخر الدهر؟». فأجابته فاطمة عليها السلام: «ما بلغ بُنيّ ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله^٢».

حينئذٍ، التفت أبو سفيان إلى علي بن أبي طالب عليه السلام وقال: «يا أبا الحسن! إني أرى الأمور قد اشتدت عليّ، فانصحنني». قال علي عليه السلام: «والله ما أعلم لك شيئاً يغني عنك شيئاً... ولكنك سيّد بني كِنانة^٣، فقم فأجر بين الناس^٤، ثم الحق بأرضك». خرج أبو سفيان إلى المسجد، وصرخ بأعلى صوته: «أيها الناس! إني قد أجرت بين الناس»، ثم ركب راحلته وانطلق عائداً إلى مكة^٥.

أبطأ أبو سفيان في المدينة، فطالت غيبته حتّى ارتاب به المشركون، وخالجتهم الظنون بأنّه قد غير دينه وأسلم خفية. فلما قدم ليلاً ودخل على زوجته هند بنت عتبة، بادرت قائلة: «لقد حُبست حتّى اتهمك قومك، فإن كنت مع طول الإقامة جئتهم بنجح فأنت الرجل». قصّ عليها أبو سفيان خبره في المدينة، وقال بقلّة حيلة: «لم أجد إلّا ما قال علي». فصكّت هند في صدره وقالت موبخة: «قُبّحت من رسول قوم».

١. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٧٩٤؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٧: ٢٦٣؛ الصالحى الشامى، سبل الهدى، ٥: ٢٠٧.

٢. ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٣٩٦؛ الطبرسي، إعلام الورى، ١٠٦؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٢١: ١٢٦.

٣. بنو كِنانة: هي القبيلة الأم التي تنحدر منها قريش، فكلّ قرشي كناني.

٤. أي: أعلن الجوار من طرف واحد.

٥. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٧٩٤-٧٩٥؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٣٩٧؛ الطبرسي، إعلام الورى،

١٠٦؛ ابن شهر آشوب، مناقب، ١: ١٧٧.

في الصباح الباكر، ومن أجل دفع تهمة الإسلام عنه، غدا أبو سفيان إلى صنمي إساف ونائلة، فحلق رأسه عندهما وذبح لهما. ثم لَطَخَ رؤوسهما بدم القربان، وقال مقسمًا: «لا أفارق عبادتكما حتى أموت على ما مات عليه أبي». فلما رأت قريش صنيعه واطمأنوا لعقيدته، أقبلوا عليه يسألونه: «ما وراءك؟ أجتت بكتاب من محمد، أو زيادة في المدة؟ ما نأمن أن يغزونا». فأخبرهم أبو سفيان بما جرى، وبإجارته بين الناس التي أشار بها عليؓ، فردّوا عليه ساخرين وموبخين: «رضيت بغير رضى! جئت بما لا يغني عنا ولا عنك شيئًا. والله ما زاد [عليؓ] على أن تلعب بك تلعبًا! فما يغني عنا ما قلت؟ وهل يجير أحد على محمد؟». قال أبو سفيان منكسرًا: «لا والله، ما وجدتُ غير ذلك»^١.

نحو مكة

بعد عودة أبي سفيان بفترة وجيزة، عزم النبي ﷺ على المسير إلى مكة، وقرّر أن تكون الحركة سرّية ومباغطة لئلا تأخذ قريش حذرها^٢. فأمر عائشة بتجهيز جهازه، وأوصاها بالكتمان الشديد. ثم رفع يديه بالدعاء: «اللهم خذ على قريش الأخبار والعيون، حتّى تأتيهم بغتة»^٣.

بينما كان النبي ﷺ يتجهز للخروج، قام حاطب بن أبي بلتعة بكتابة رسالة سرّية إلى قريش، يحذّره فيها من زحف النبي ﷺ، وسلّم الرسالة لامرأة من قبيلة مُرَيَنَة لتوصيلها إلى مكة^٤. كان حاطب من المهاجرين، لكن أهله وولده بقوا في مكة. وقد

١. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٧٩٥؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٣٩٧؛ المفيد، الإرشاد، ١: ١٣٤.

٢. المفيد، الإرشاد، ١: ٥٦؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٢١: ١١٩.

٣. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٧٩٦؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٧: ٢٦٥-٢٦٦؛ المقرئ، إمتاع الأسماع، ١: ٣٥١-٣٥٢.

٤. ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٣٩٨؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٢١: ١١٩.

ضغطت قريش على أسرته، فكتب حاطب الرسالة ليتخذ عندهم يدًا يحمي بها قرابته، إذ لم يكن له عشيرة بمكة تمنعهم^١.

نزل الوحي الأمين على النبي ﷺ بخبر الرسالة. فاستدعى النبي ﷺ أمير المؤمنين عليًا ﷺ والزبير بن العوام، وقال لهما: «إنَّ بعض أصحابي قد كتب إلى أهل مكة يخبرهم بخبرنا، وقد كنتُ سألتُ الله أن يعمي أخبارنا عليهم. والكتاب مع امرأة سوداء قد أخذت على غير الطريق». انطلق علي ﷺ والزبير مسرعين يتخللان الدروب، حتى أدركا المرأة، فاستخرجا الكتاب منها، وعادا به إلى النبي ﷺ^٢.

أمر رسول الله ﷺ فنودي في الناس الصلاة جامعة. ثمَّ صعد المنبر والكتاب بيده، وقال: «أيُّها الناس، إنِّي كنتُ سألتُ الله عزَّ اسمه، أن يخفي أخبارنا عن قريش. وإنَّ رجلاً كتب إلى أهله يخبرهم خبرنا. فليقم صاحب الكتاب وإلا فضحه الوحي».

ساد الصمت ولم يقم أحد؛ فكرَّر النبي ﷺ مقالته. عندها، قام حاطب بن أبي بلتعة وهو يرتعد من الخوف، وقال: «أنا صاحب الكتاب، وما أحدثُ نفاقًا بعد إسلامي ولا شكًا بعد يقيني». فقال النبي ﷺ: «فما الذي حملك على ذلك؟»، قال: «إنَّ لي أهلاً بمكة ولا عشيرة لي بها، وخفتُ أن تكون الدائرة لهم علينا، فيكون الكتاب كفًّا لهم عن أهلي ويدًّا لي عليهم، ولم يكن لشكِّ منِّي في الدين».

هنا وثب عمر بن الخطاب وقال: «يا رسول الله! مُرني بقتله، فإنَّه قد نافق». ولكن النبي ﷺ نهى عمر، وبعد أن أخرج حاطب من المسجد في بادئ الأمر، أمر برده وقال له بقلب رحيم: «قد عفوت عنك، فاستغفر ربَّك ولا تعد لمثل ما جنيت»^٣.

١. القمي، تفسير القمي، ٢: ٣٦١؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٢١: ١١٢ و ٧٢: ٣٨٨.

٢. المفيد، الإرشاد، ١: ٥٧؛ وانظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٣٩٩؛ المقرئ، إمتاع الأسماع، ١: ٣٥٢ و ٣٧٦: ١٣.

٣. المفيد، الإرشاد، ١: ٥٨-٥٩؛ الطبرسي، إعلام الورى، ١٠٤-١٠٥؛ الإربلي، كشف الغمة، ١: ٢١٧.

استخلف رسول الله ﷺ على المدينة أبا لُبابة بن عبد المنذر^١ أو كلثوم بن حُصَيْن الغفاري^٢. وفي عصر يوم الأربعاء، العاشر من شهر رمضان، تحرّك الراكب النبوي العظيم قاصدًا مكة، بجيش قوامه عشرة آلاف مقاتل^٣. وفي ذلك اليوم، خيّر المسلمون بين الصيام والإفطار، إلّا أنّ النبي ﷺ كان صائمًا. وقد سار الجيش بنظام دقيق؛ يمتطون الخيل والإبل، يتقدّمهم الزبير بن العوام على رأس مقدّمة قوامها مائتي فارس^٤. لمّا وصل الجيش إلى الصحراء، بين العُرج وطلُوب^٥، تمكّنت طلائع الجيش من القبض على جاسوس لقبيلة هوازن، واقتادوه إلى النبي ﷺ. اعترف الجاسوس بأنّ هوازن قد تحالفت مع ثقيف لمواجهة المسلمين، وأنّهم جلبوا من اليمن المنجنيق وآلات الحرب الثقيلة استعدادًا للمعركة^٦. فقال النبي ﷺ بثقة: «حسبنا الله ونعم الوكيل، ما أراه إلّا صدقني»، ثمّ أمر بحبسه لئلاّ ينقل خبر وصول الجيش إلى قومه. ولمّا وصل النبي ﷺ إلى منطقة قُديد -بالقرب من مكة- وافته قبيلة بني سُليم، وهناك قام ﷺ بعقد الألوية والرايات وتوزيعها على القبائل^٧.

في منطقة الجُحفة أو ذي الحُلَيْفة، التقى الجيش بالعباس بن عبد المطلب -عمّ

-
١. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٥٨: ٢؛ الطبرسي، إعلام الوري، ١٠٦؛ المجلسي، بحار الأنوار، ١٢٧: ٢١.
 ٢. ابن هشام، السيرة النبوية، ٣٩٩: ٢؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٣٢٨: ٢؛ المسعودي، التنبيه والإشراف، ٢٣١.
 ٣. ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ٤٥٨: ٢.
 ٤. راجع: الواقدي، كتاب المغازي، ٨٠١: ٢؛ الصنعاني، المصنف، ٥٦٩: ٢؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٣٩٩-٤٠٠.
 ٥. «العرج»: منعطف بين الجبال في طريق الحج من المدينة إلى مكة. «طلوب»: بئر في طريق الحج من المدينة إلى مكة (الحموي، معجم البلدان، ٣٩: ٤ و ٩٩).
 ٦. توجّه النبي ﷺ بعد فتح مكة لقتال هوازن في شوال، وهي المعروفة بغزوة حنين.
 ٧. الواقدي، كتاب المغازي، ٨٠١: ٢ و ٨٠٤-٨٠٦؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١٠٢: ٢؛ المقرئ، إمتاع الأسباع، ٣٨٥: ٨.

النبي ﷺ - الذي كان قد خرج بعياله مهاجرًا من مكة إلى المدينة^١. فأرسل العباس أهله إلى المدينة، وانضمّ هو ومعه، أبو سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية، إلى ركب النبي ﷺ.

كان أبو سفيان بن الحارث ابن عم النبي ﷺ وأخوه من الرضاعة، أرضعتها حليلة السعدية. كان صديقًا حميمًا للنبي ﷺ قبل البعثة، لكنّه تحوّل بعدها إلى أشدّ الناس عداوة وإيذاءً له طوال عشرين عامًا^٢. وعبد الله بن أبي أمية، هو ابن عمّة النبي ﷺ - عاتكة بنت عبد المطلب - وأخو زوجته أم سلمة، وكان هو الآخر من أشدّ المؤذنين للنبي ﷺ في مكة^٣.

لما جاء هذان العدوّان القديمان تائبين، نصّح الإمام علي بن أبي طالب ﷺ أبا سفيان بن الحارث أن يدخل على النبي ﷺ ويخاطبه بما خاطب به إخوة يوسف ﷺ أخاهم حين عرفوه. فامثلا أبو سفيان وعبد الله للنصيحة، ووقفوا أمام النبي ﷺ ونادا بصوت عالٍ: ﴿تَاللّهِ لَقَدْ أَثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ (يوسف: ٩١). فرق قلب النبي ﷺ وأجابهما بما أجاب به يوسف ﷺ إخوته: ﴿لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوسف: ٩٢)^٤.

خفيت أخبار الجيش الإسلامي تمامًا عن قريش، فلم يعلموا بمسير النبي ﷺ ولا بمقصده، وتملكهم الذعر خشية المباغته. ولتقصي الحقائق، أرسلوا أبا سفيان بن حرب

١. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٢: ٢٤٢؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٢١: ١١٨.

٢. المقرئزي، إمتاع الأسماع، ١: ٣٥٦؛ الحلبي، السيرة الحلبية، ٣: ٧٧.

٣. راجع: الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٨٠٦-٨٠٧؛ أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ٤: ١٣٧-١٣٨.

٤. المجلسي، بحار الأنوار، ٢٢: ٢٥٩؛ وانظر: الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٨١٠-٨١١؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٤٠٠-٤٠١.

من فتح مكة إلى الوفاة | ١٧٣

لاستطلاع الخبر^١. وصل رسول الله ﷺ بجيش قوامه عشرة آلاف مقاتل إلى وادي مَرّ الظَّهران قُرب مكة، ونزلوا به عشَاء. ولَبِثَ الرعب في قلوب الأعداء، أمر النبي ﷺ كلَّ جندي أن يوقد نارًا، فاشتعلت عشرة آلاف نار طبَّقت الآفاق. وكان عمر بن الخطاب موكلاً بحراسة العسكر^٢.

خرج أبو سفيان بصحبة حكيم بن حزام، والتقى في الطريق ببُدَيْل بن وَرْقَاء، يتلمسون الأخبار. كانت قريش من قبل أوصت أبا سفيان: «إن لقيتَ مُحَمَّدًا، فخذُ لنا منه جوارًا، إلَّا أن ترى رقَّة^٣ من أصحابه فأذنه بالحرب». فلمَّا أشرف الثلاثة على مَرّ الظهران، هالَتْهم كثرة النيران التي ملأت الصحراء، وسمعوا ضجيج العسكر وصهيل الخيل، فأيقنوا بالهلاك^٤.

من جانب آخر، كان العباس بن عبد المطلب -عمّ النبي ﷺ- يخشى على قومه من الاستئصال. فركب بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، وخرج يلتمس حطَّابًا أو أحدًا يرسله إلى أهل مكة ليخبرهم بمكان الجيش فيأتوا ويستأمنوا النبي ﷺ قبل أن يدخلها عنوة بالجيش. وفي ظلام الليل، سمع العباس صوت أبي سفيان وبُدَيْل يتحدثان، فعرفهما وعرفاه. وبعد حوار قصير، أردف العباس أبا سفيان خلفه على البغلة، ليجيره ويدخله على رسول الله ﷺ.

مضى العباس بأبي سفيان نحو معسكر المسلمين، فكلمَّا مرَّوا بنار، نظر المسلمون فرأوا بغلة رسول الله ﷺ وعمّه، فخلَّوا سبيلهم. حتَّى مرَّوا بنار عمر بن الخطاب، فقام

١. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢: ١٣٥؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٢١: ١٠٣ و ١٢٧.

٢. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٨١٤.

٣. أي: ضعفاً.

٤. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٨١٤؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ٢٣: ٤٤٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٤: ٣٣٣.

عمر وسأل: «من هذا؟»، قال العباس: «أنا». فلمح عمر أبا سفيان خلفه، فصرخ: «أبو سفيان! عدو الله! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد»، ثم اشتدَّ يعدو نحو خيمة النبي ﷺ ليطلب الإذن بقتله. فركض العباس بالبعلة وسابق عمر، فاقتحم خيمة النبي ﷺ قبل وصوله.

دخل عمر لا هتأ وقال: «يا رسول الله! هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بلا عقد ولا عهد، فدعني فلاضرب عنقه»، فقال العباس: «يا رسول الله! إني قد أجرته». ولمَّا أكثر عمر في الإلحاح على قتله، غضب العباس وقال: «مهلاً يا عمر! والله لو كان من بني عدي^١ ما قلت هذا، ولكنك عرفت أنه من رجال بني عبد مناف^٢». ثم قال العباس: «أبو سفيان، وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء، قد أجرتهم وهم يدخلون عليك»، فقال النبي ﷺ: «أدخلهم».

دخل الثلاثة على رسول الله ﷺ وقضوا شطر الليل عنده. طفق النبي ﷺ يستخبرهم عن أحوال مكة، ويدعوهم إلى الإسلام، فقالوا: «نشهد أن لا إله إلا الله». فقال النبي ﷺ: «تشهدون أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله»، فشهد بديل بن ورقاء وحكيم بن حزام بالشهادتين، أما أبو سفيان، فقال متردداً: «والله يا محمد، إن في النفس من هذا شيئاً سيراً بعد، فأرجئها». وقيل لحكيم بن حزام: «بايع»، فأبى أن يجزَّ ساجداً لله وقال بنخوة الجاهلية: «أبايعك، ولكنني لا أحرَّ إلا قائماً». فقال النبي ﷺ متجاوزاً عن كبريائه: «أما من قبلنا، فلن تخرَّ إلا قائماً».

بات أبو سفيان في خيمة العباس بأمر النبي ﷺ. فلما ارتفع صوت الأذان لصلاة الفجر، فرع أبو سفيان وقال: «يا عباس! هل أمر في بشيء؟»، قال العباس: «لا، إنهم

١. عشيرة عمر.

٢. عشيرة النبي ﷺ والعباس.

قاموا إلى الصلاة». سأل أبو سفيان: «كم يصلّون في اليوم والليلة؟»، قال: «يصلّون خمس صلوات»، قال: «كثير والله!».

راقب أبو سفيان المسلمين وهم يزدحمون على وضوء النبي ﷺ يتبرّكون به، فقال مذهولاً: «ما رأيت يا أبا الفضل^١ مُلْكًا هكذا قطّ، لا ملك كسرى، ولا ملك بني الأصفر^٢». ثمّ توضّأ وخرج مع العباس، فرأى النبي ﷺ يؤمّ المسلمين، وهم يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده في نظام بديع. فقال: «ما رأيت كالיום طاعة، قوم جمّعهم من ههنا وههنا، ولا فارس الأكرام، ولا الروم ذات القرون بأطوع منهم له. يا أبا الفضل، أصبح ابن أخيك والله عظيم الملك!». فصحّح له العباس قائلاً: «إنّه ليس بملك، ولكنّها النبوة»، فردّ أبو سفيان متعجباً: «النبوة؟!». بعد انقضاء الصلاة، التفت النبي ﷺ إلى أبي سفيان وقال: «يا أبا سفيان! ألم يأن لك^٣

أن تعلم أن لا إله إلا الله؟»، قال أبو سفيان: «بأبي أنت وأمي! ما أحلمك وأكرمك وأعظم عفوك! إنّه لو كان مع الله إله، لقد أغنى عني شيئاً بعد. لقد استنصرت إلهي واستنصرت إلهك، فوالله ما لقيتُك من مرة إلا نصرت عليّ. فلو كان إلهي محقاً وإلهك مبطلاً، لقد غلبتُك». فقال النبي ﷺ: «ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أنّي رسول الله؟»، قال أبو سفيان: «بأبي أنت وأمي! ما أحلمك وأكرمك وأعظم عفوك! أمّا هذه، فوالله إنّ في النفس منها شيئاً حتّى الآن». فأمهله النبي ﷺ وأمنه، ثمّ عاد أبو سفيان لاحقاً وشهد بالنبوة.

حاول أبو سفيان تبرير موقفه، فقال: «يا محمد! جئت بأوباش الناس، من يُعرف ومن لا يُعرف، إلى عشيرتك وأصلك؟»، فردّ النبي ﷺ بحزم: «أنت أظلم وأفجر،

١. كنية العباس بن عبد المطلب.

٢. الروم.

٣. أي: أمّا حان الوقت؟

غدرتم بعهد الحديبية وظاهرتم على بني كعب بالإثم والعدوان في حرم الله وأمنه!». فأقر أبو سفيان بذلك وقال: «صدقت»، ثم حاول صرف النبي ﷺ عن مكة باقتراح قتال هوازن، فأكد النبي ﷺ عزمه على فتح مكة وقتال هوازن معاً، راجياً نصر الله في كليهما. سأل أبو سفيان وحكيم بن حزام: «يا رسول الله، ادع الناس بالأمان، أرايت إن اعتزلت قريش وكفت أيديها آمنون هم؟»، قال ﷺ: «نعم». هنا تدخل العباس الخير بنفسية أبي سفيان المحبة للفخر، وقال: «يا رسول الله! إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً»، فقال النبي ﷺ معلناً شروط الأمان التاريخية: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»، قال أبو سفيان: «وما تسع داري؟». قال ﷺ: «ومن دخل المسجد فهو آمن»، قال أبو سفيان: «وما يسع المسجد؟». قال ﷺ: «ومن أغلق عليه بابه فهو آمن»، قال أبو سفيان: «هذه واسعة»^١.

الاستعراض العسكري ودخول مكة

أمر رسول الله ﷺ القبائل أن تتعباً وتتحمّش في كتائبها تحت رايات قادتها، وأن تستعرض عدتها وعتادها الحربي. وبعد أن عاين أبو سفيان جحافل الإسلام وقوتها الضاربة، انطلق مسرعاً إلى مكة لينذر قومه. تحرّك سواد الجيش الأعظم في إثره صوب مكة، وتوافى الجمع في منطقة ذي طوى على مشارف مكة بانتظار النبي ﷺ. ثم دخل رسول الله ﷺ مكة في كتيبة خضراء على الجنود ثياب خضر، ممتطياً ناقته، معتملاً بعمامة، وقد عصّب وجهه بقطعة قماش حمراء^٢.

١. للتفصيل عن هذه الأحداث، راجع: الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٨١٦-٨١٩؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٤٠٢-٤٠٤؛ الطبرسي، إعلام الوري، ١٠٦-١٠٧؛ الصالح الشامي، سبل الهدى، ٢١٦-٢١٨؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٢١: ٢١٦-٢١٨.

٢. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٨٢٣؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٤٠٤؛ الصالح الشامي، سبل الهدى، ٢١٩: ٥.

وبينما كانت الكتائب تمرّ، مرّ سعد بن عبادَةَ حاملاً راية رسول الله ﷺ أمام أبي سفيان، فصاح به: «يا أبا سفيان! اليوم يوم الملحمة! اليوم تُستحل الحُرمة! اليوم أذلّ الله قريشاً!». فلمّا حاذى رسول الله ﷺ أبا سفيان، ناداه أبو سفيان مستغيثاً: «يا رسول الله! أمرتَ بقتل قومك؟»، فقال النبي ﷺ مصحّحاً الشعار ومطمئناً: «اليوم يوم الرحمة! اليوم أعزّ الله فيه قريشاً».

ولتأكيد هذا المعنى، أمر النبي ﷺ عليّاً أن يدرك سعداً، ويأخذ الراية منه، ويدخل بها هو، ليكون دخول رحمة لا نقمة^١. وإمعاناً في تأمين الناس، عقد النبي ﷺ لواءً لأبي رُوَيْحَةَ الخثعمي، وأمر أن يُنادى: «مَنْ دخل تحت لواء أبي رويحة فهو آمن»^٢.

ضربت خيمة النبي ﷺ في منطقة الحجون عند شعب أبي طالب، ونزل بها ومعه زوجته، أم سلمة وميمونة^٣. وقف النبي ﷺ عند ثنية أذاخر مشرفاً على منازل مكة، ثمّ التفت إلى موضع خيمته وقال لجابر بن عبد الله الأنصاري الذي تولّى ضرب الخيمة: «هذا منزلنا يا جابر، حيث تقاسمت علينا قريش في كفرها».

يقول جابر: فتذكّرتُ قول رسول الله ﷺ بالمدينة: «إن فتح الله مكة، فمزلنا بالخيْف، حيث تقاسموا على الكفر». وكنا في ذلك الموضع، قبالة شعب أبي طالب، المكان الذي حوَّصر فيه رسول الله ﷺ وبنو هاشم سابقاً^٤.

١. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٨٢١-٨٢٢؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٤٠٦-٤٠٧؛ المقرئ، إمتاع الأسماع، ٨: ٣٨٦.

٢. الحلبي، السيرة الحلبية، ٣: ٨٠.

٣. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٨٢٩؛ الصالح الشامي، سبل الهدى، ٥: ٢٣٠.

٤. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٨٢٨؛ الصالح الشامي، سبل الهدى، ٥: ٢٣٠؛ الحلبي، السيرة الحلبية، ٣: ٨٥.

طواف النصر

دخل رسول الله ﷺ مكة وهو مُحِلٌّ غير مُحَرَّم، وعليه سلاحه. وبعد أن استقرَّ به المقام في منزله واطمأنَّ على استتباب الأمن للمسلمين، اغتسل وأمر بتقديم راحلته ففُكِّرت إلى باب خيمته. تقلَّد النبي ﷺ سيفه، ولبس المغفر على رأسه، وحفَّ به المسلمون من كلِّ جانب. ثمَّ انطلق راكبًا يغذ السير من منطقة الحجون صوب المسجد الحرام.

وما إن وقعت عيناه الشريفتان على الكعبة، حتَّى استلم الركن وكبَّر: «الله أكبر». فردَّد المسلمون التكبير خلفه بصوت واحد، حتَّى ارتجت مكة بأسرها وضجت جبالها بصدى التكبير. فأشار إليهم النبي ﷺ بالسكوت، فسكتوا. وكان المشركون يرقبون هذا المشهد المهيِّب من رؤوس الجبال. شرع النبي ﷺ في الطواف على راحلته، فاستلم الحجر الأسود بمِخْجَنِهِ، وتابع طوافه^١.

كان المشركون قد نصبوا حول الكعبة ثلاثمائة وستين صنمًا، وقد شُدَّت أقدامها بالرصاص لئلا تسقط. وكان «هُبَل» هو الصنم الأكبر المنصوب قبالة الكعبة، بينما وُضع صنمًا إِسَاف ونَائِلَة عند موضع النحر^٢.

وفي مشهد يجسّد ذروة التوحيد وتخطيم الشرك، يروي الإمام عليّ عليه السلام تفاصيل ذلك اليوم قائلاً:

انطلق بي رسول الله ﷺ حتَّى أتى بي الكعبة،... ثمَّ قال لي: «يا علي! اصعد على منكبِي». فصعدت على منكبِهِ... فقال لي رسول الله ﷺ: «ألقي صنمهم الأكبر». وكان من نحاس موتدًّا بأوتاد من حديد إلى الأرض. فقال لي: «عالجْه» ورسول الله ﷺ

١. الحاكم النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین، ٣: ٢٤٤؛ الصالحی الشامي، سبل الهدى، ٥: ٢٣٣؛

الخلبي، السيرة الحلبية، ٣: ٨٨.

٢. الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٨٣٢.

يقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾. فلم أزل أعالجه حتى استمكنت منه. فقال: «اقذف به»، فقفذتُ به، فتكسر كما تتكسر القوارير^١.

خطبة الفتح وإعلان العفو العام

بعد أن فرغ رسول الله ﷺ من طوافه، وقف خطيباً في حشود أهل مكة. فاستفتح خطبته بحمد الله والثناء عليه، ثم تلا قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوسف: ٩٢)، معلناً بذلك عفواً عاماً شمل جميع أهل مكة، الذين عُرفوا تاريخياً بـ«الطُّلقاء».

وقد تضمّنت الخطبة مبادئ دستورية وتشريعية هامة، منها:

إقرار الوظائف الدينية: أبقى المناصب الرئيسة المتعلقة بخدمة الكعبة والحجيج -تحديداً الحِجَابَة (السَّدَانَة) والسَّقَايَة- في أيدي العائلات التي كانت تتولّاها في الجاهلية، بني شيبه والعباس بن عبد المطلب، ولم ينزعها منهم.

إلغاء الطبقة والعنصرية: أعلن إلغاء مفاخر الجاهلية، وأسقط التمايز الطبقي القائم على النسب والأصل، مؤكداً أن الناس سواسية لآدم ﷺ، وآدم من تراب. ثم تلا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣).

الأخوة الإسلامية: أكد أن «المسلم أخو المسلم»، وأن المسلمين «يُدُّ واحدة على من سواهم» من الأعداء.

التكافل الاجتماعي: شدّد على المسؤولية المجتمعية، ووجوب مساعدة الأغنياء والتموّلين للفقراء.

١. أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ٢: ٧٣؛ الصالحى الشامى، سبل الهدى، ٥: ٢٣٦؛ وانظر أيضاً: ابن طاووس، الطرائف، ١: ٨٠-٨١.

تنظيم الزكاة: بين أن الصدقات تُؤخذ من المسلمين بكرامة واحترام، لترد وتوزع على فقرائهم.

حرمة مكة الأبدية: أعلن مكة حرماً آمناً بأمر الله، لا تحل حرمتها لأحد بعد تلك الساعة، فحرّم تنفير صيدها، وقطع شجرها، أو إيذاء نباتها.

قانون الوصية: حدّد سقف الوصية في الأموال، بحيث لا يتجاوز الشخص في وصيته ثلث ماله.

تحريم الزنا: أكد على حرمة الزنا وقبح فعله، وأنّ فاعله يستحقّ العقاب^١.

البيعة العامة للنبي ﷺ

في يوم الفتح، جلس رسول الله ﷺ في موضع بالقرب من جبل أبي فُيس^٢ لاستقبال الوفود. فتقاطر الناس عليه من كلّ حذب وصوب، رجالاً ونساءً، شبيّاً وشباناً، يبايعونه على السمع والطاعة لله ولرسوله، ويشهدون بأنّ لا إله إلا الله وأنّ محمداً ﷺ رسول الله^٣.

تحقّق هذا الفتح المبين يوم الجمعة، العشرين من شهر رمضان المبارك. وقد مكث النبي ﷺ في مكة بعد الفتح فترة اختلفت المصادر في تحديدها بدقّة، حيث تراوحت الروايات ما بين ١٠ إلى ٢٠ يوماً، قضاها في تنظيم شؤون مكة وتثبيت دعائم الإسلام فيها^٤.

١. للاطلاع على تفاصيل نصّ الخطبة، راجع: الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٨٣٥-٨٣٩؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٤١٢؛ البلاذري، فتوح البلدان، ٥١-٥٢؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢: ٥٠؛ البيهقي، دلائل النبوة، ٩: ١١٨.

٢. الأزرق، أخبار مكة، ٢: ٢٩٠.

٣. أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ٣: ٤١٥؛ الصالحى الشامى، سبل الهدى، ٥: ٢٤٧؛ الحلبي، السيرة الحلبية، ٩٤: ٣.

٤. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢: ١٣٧؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢: ٣٤٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٤: ٣١٦.

غزوة حنين

ألقي انتصار المسلمين الساحق على قريش الرعب في قلوب بقية القبائل المشركة، وتحديدًا قبيلتي ثقيف وهوازن. فتداعى زعماءهم - وهم أهل بأس ونجدة^١ - إلى الاجتماع، وقرروا توجيه ضربة استباقية للقضاء على المسلمين قبل أن يغزوهم النبي ﷺ في عقر دارهم. حشدت هوازن جيوشها تحت قيادة مالك بن عوف النصري، وهو شاب في الثلاثين من عمره. وانضمت إليهم قبيلة ثقيف بكاملها، وبطون نصر وجشم وسعد بن بكر. بينما تخلّفت عشائر كعب وكلاب من هوازن عن المشاركة؛ أو لروابط الدم التي تجمعهم بقريش، حيث يلتقون في النسب عند «مُضَر»، فقلّت عددهم لمواجهة جيش المسلمين^٢.

بلغ النبي ﷺ أن هوازن قد جمعت جموعها وعسكرت في منطقة أوطاس^٣، فاستنفره القبائل وحضّ الناس على الجهاد واعدّا إيّاهم بالنصر، وعقد اللواء الأعظم للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام. وفي السادس من شهر شوال سنة ٨هـ، تحرّك النبي ﷺ صوب أوطاس بجيش ضخم قوامه اثنا عشر ألف مقاتل: عشرة آلاف من أهل المدينة وألفان من أهل مكة^٤.

عندما تحرّك الركب النبوي، خرج معه أهل مكة عن بكرة أبيهم، فرسانًا ومشاة. حتّى النساء اللواتي لم يسلمن بعد، خرجن للفرجة على الحرب والطمع في الغنائم. كما شارك في الحملة مع المسلمين نحو ٨٠ رجلًا من المشركين، الذين لم يسلموا بعد ولكنهم انحازوا لصفّ قومهم وقريش^٥.

١. الدياربكري، تاريخ الخميس، ٩٩:٢؛ الحلبي، السيرة الحلبية، ٣: ١٠٥.

٢. ابن هشام، السيرة النبوية، ٤٣٧:٢؛ وانظر: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ٢٤٣.

٣. وادّ في ديار هوازن (الحموي، معجم البلدان، ١: ٢٨١).

٤. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١٥٠:٢؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٦٢:٢؛ المفيد، الإرشاد، ١: ٤١٠.

٥. الذهبي، تاريخ الإسلام، ٥٧٧:٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٤: ٣٧٧.

جواسيس مالك

بعث مالك بن عوف ثلاثة من رجاله للتجسس على جيش المسلمين واستطلاع خبرهم، فعادوا إليه وقد خلعت قلوبهم من الخوف. سأهم مالك: «ما شأنكم؟»، قالوا: «رأينا رجالاً بيضاً على خيل بُلق^١، فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى. والله ما نقاتل أهل الأرض، إنما نقاتل أهل السماء! ولئن أطعنا لترجعن بقومك؛ فإن الناس إن رأوا مثل ما رأينا، أصابهم مثل الذي أصابنا». صاح بهم مالك غاضباً: «أف لكم! بل أنتم قوم أجبن أهل العسكر»، فأمر بحبسهم عنده لئلا يشيع الخبر في العسكر فتنهار المعنويات. ثم نادى في جيشه: «دلوني على رجل شجاع»، فدلّوه على رجل، فبعثه؛ فما لبث أن عاد وهو يرتعد، يقول مثل ما قال الأولون^٢.

ورغم هذه النذر، مضى مالك في غيّه وتجهيزه للحرب. ولما تصافّ الجيشان، أمر مالك بن عوف أصحابه بكسر جفون سيوفهم^٣، فواجهوا المسلمين بعشرين ألف سيف مسلول^٤.

بداية المعركة

اندلعت الشرارة الأولى للمعركة عند السحر في وادٍ من أودية حُنين. بادر المسلمون بالهجوم، فراجع مشركو هوازن. ظنّ المسلمون أنّهم حسموا المعركة، فانكبّوا على جمع الغنائم. وفي تلك اللحظة، وقعوا في الكمين؛ إذ أمطرهم رماة هوازن -وكانوا رماة مهرة- بوابل كثيف من السهام حتّى أظلمت السماء منها.

١. يخالط بياضها سواد.

٢. الواقدي، كتاب المغازي، ٣: ٨٩٢-٨٩٣؛ البيهقي، دلائل النبوة، ٥: ١٢٣؛ الصالحى الشامى، سبل الهدى، ٥: ٣١٦.

٣. هي عادة عربية تدل على الاستماتة في القتال وعدم نية إغمد السيوف أبداً.

٤. الواقدي، كتاب المغازي، ٣: ٨٩٣.

عندما رأى طُلُقَاء أهل مكة -الذين عفا عنهم النبي ﷺ- اختلال توازن الجيش، قال بعضهم لبعض: «اخذلوه هذا وقته». فكانوا أَوَّل مَنْ وَلَّى هاربًا، وتبعهم في الفرار بعض الصحابة وحديثي العهد بالإسلام، ممَّا اضطر الجيش بأسره للترجع^١. ولمَّا رأى بعض المكيّين انهزام المسلمين، أظهرُوا ما في صدورهم من الشَّامة والضغائن القديمة. فتحدَّث أبو سفيان بلهجة ساخرة شامته، وصاح جَبَلَة بن حَبَل الذي أسلم لاحقًا: «ألا بطل السحر اليوم!»^٢.

بقي رسول الله ﷺ ثابتًا في قلب المعركة، وحوله المسلمون يفرّون لا يلوون على شيء. فأمر عمّه العباس بن عبد المطلب -وكان جهوريّ الصوت- أن ينادي في الناس. فصرخ العباس بأعلى صوته: «يا أهل بيعة الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة، إلى أين تفرّون؟ اذكروا العهد الذي عاهدتم عليه رسول الله!». رغم النداءات، استمرّ الفرار في البداية وبقي النبي ﷺ وحيدًا في الوادي، ولم يثبت معه للدفاع عنه والمنافحة دونه في تلك اللحظات العصيبة إلَّا علي بن أبي طالب^٣.

لم يدم هذا الوضع طويلًا؛ إذ سرعان ما ثارت حمية المسلمين، وبدأ الفارّون يعودون تدريجيًّا نحو رسول الله ﷺ. فكسر الأنصار جفون سيوفهم ومروا بين يدي رسول الله ﷺ وهم يلبّون. وحياءً من رسول الله ﷺ، تجمّعوا حول علي^٤ -حامل الراية- وانطلقوا خلفه لمقارعة هوازن^٥.

١. الدياربكري، تاريخ الخميس، ٢: ١٠١؛ الحلبي، السيرة الحلبية، ٣: ١٠٨. يظهر من ظاهر بعض الأخبار والروايات أن عمر بن الخطاب كان أيضًا فيمن قرّ (انظر: البخاري، صحيح البخاري، ٥: ١٥٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٤: ٣٢٩؛ الدياربكري، تاريخ الخميس، ٢: ١٠٦).

٢. الواقدي، كتاب المغازي، ٣: ٩١٠؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٤٤٣-٤٤٤.

٣. المفيد، الإرشاد، ١: ١٤٢؛ الإربلي، كشف الغمّة، ٢: ٢٢٢؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٢١: ١٦٧.

٤. القمي، تفسير القمي، ١: ٢٨٧-٢٨٨؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٢١: ١٥١.

نادى سعد بن عبادَةَ في الخُزرج، وناذى أُسَيْدُ بن حُصَيْرٍ في الأوس، فاجتمعت القبائل حول زعمائها وأطبق المسلمون الحصار على العدو. وفي مفارقة عجيبة، لم يستشهد من جيش الإسلام في هذه المعركة الضارية سوى خمسة رجال^١. انقلبت الموازين، وطارَد المسلمون فلول هوازن في كلِّ اتجاه. أمّا قائدهم مالك بن عوف، فقد فرَّ ناجياً بجلده، ولجأ ليتحصَّن في حصن الطائف^٢.

غزوة الطائف

لجأت فلول المشركين المنهزمة في حُنين إلى مدينة الطائف، وبادروا فور وصولهم إلى إعداد العدة لمواجهة المسلمين. فقد حصَّنوا القلاع، وكدَّسوا المؤن والأقوات ما يكفيهم للصمود عامًّا كاملاً تحت الحصار. كما جمعوا صخوراً ضخمة لإلقائها من أعلى الأسوار، وأعدَّوا القواعد الحديدية لنصب المجانيق. وقد انضمت إليهم قبيلة عُقَيْل وبعض القبائل العربية الأخرى، وقاموا بتأمين مواشيهم في أماكن حصينة، وأغلقوا بوابات المدينة، معلنين الجاهزية التامة للقتال.

بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد، على رأس مقدِّمة قوامها ألف مقاتل. وصل خالد إلى أسوار الطائف وضرب معسكره هناك، بينما انتشر الرماة والمقاتلون المشركون على رؤوس القلاع. بعد جولة استطلاعية حول الحصن، وقف خالد وناذى بصوت جهوري عارضاً التفاوض: «ينزل إليّ بعضكم أكلّمه وهو آمن حتّى يرجع، أو اجعلوا لي مثل ما جعلتُ لكم وأدخل عليكم حصنكم أكلّمكم». فرفضوا العرض، وردّوا بتبجّج: «لا ينزل إليك رجل منّا ولا تصل إلينا. يا خالد! إنّ صاحبكم لم يلقَ قومًا

١. الواقدي، كتاب المغازي، ٣: ٩٢٢؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٤٥٩؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٥:

٣٨٠.

٢. الواقدي، كتاب المغازي، ٣: ٩١٧.

يخسرون قتاله غيرنا». فردّ عليهم خالد محدّراً ومذكّراً: «فاسمعوا من قولي، نزل رسول الله بأهل الحصون والقوّة ييثرب وخيبر، وبعث رجلاً واحداً إلى فذك، فنزلوا على حكمه. وأنا أحذّركم مثل يوم بني قريظة... ثم دخل مكة فافتتحها وأوطأ هوازن في جمعها، وأنتم في حصن في ناحية من الأرض، لو ترككم لقتلكم من حولكم ممن أسلم». فأجابوه بإصرار: «لا نفارق ديننا». عندئذ وبعد فشل المحاولة، عاد خالد بن الوليد إلى معسكره^١.

في شهر شوال من السنة الثامنة للهجرة، وعقب انتهاء معركة حُنين، أمر النبي ﷺ بترحيل الأسرى والسبايا الكثر إلى نواحي مكة. ثم واصل سيره مباشرة صوب الطائف دون أن يعرّج على مكة، وكانت غنائم حُنين لا تزال موقوفة لم تُقسّم بعد. سلك الجيش النبوي طريقاً مرّ بمناطق منها نخلة اليمانية، ثم قرْن، ثم المُلَيْح، ثم بحرّة الرُّغَاء من جهة وادي لِيَّة^٢. وفي بحرة الرغاء^٣، ابتنى النبي ﷺ مسجداً وصلى فيه. ولما وصل الجيش إلى وادي لِيَّة، وجدوا هناك حصناً وقصراً لقائد هوازن مالك بن عوف. فأمر النبي ﷺ بهدم الحصن، وصلى الظهر في ذلك الموضع^٤.

حصن الطائف

ضرب رسول الله ﷺ معسكره بالقرب من حصن الطائف. وقد أعدّت ثقيف مائة رامٍ من أمهر الرماة، تمركزوا في أعلى الحصن، وأخذوا يمطرون المسلمين بوابل من السهام

١. راجع: الصالح الشامي، سبل الهدى، ٥: ٣٨٢-٣٨٣؛ الديار بكري، تاريخ الخميس، ٢: ١١٠.

٢. مواضع من توابع منطقة الطائف.

٣. موضع في منتصف الطريق بين مكة وجدّة، تبعد عن مسجد الحرام ٣٩ كم (الكردى المكي، التاريخ القويم، ٣: ١٥٨).

٤. الواقدي، كتاب المغازي، ٣: ٩٢٥؛ الصالح الشامي، سبل الهدى، ٥: ٣٨٣.

والحجارة، ويصبون عليهم الحديد المحمى. أسفر هذا القصف المكثف عن إصابة عدد كبير من المسلمين، واستشهد اثني عشر رجلاً منهم. وقد نزل النبي ﷺ في الموضع الذي بُني فيه مسجد الطائف (مسجد ثقيف) لاحقاً.

وفي الجانب الآخر، كان عمرو بن أمية الثقفي -وهو من دهاة العرب وقد أسلم لاحقاً- قد أشار على قومه داخل الحصن بعدم الخروج للمبارزة، وتجاهل أيّ تحدٍّ من المسلمين. وعليه، حينما اقترب خالد بن الوليد من الأسوار ونادى ثلاثاً: «من يبارز؟»، لم يجبه أحد. فصاح عبد ياليل -زعيم ثقيف- من داخل الحصن: «لا ينزل إليك أحد، ولكننا نقيم في حصننا. خبأنا فيه ما يصلحنا سنين، فإذا أقمتَ حتى يذهب هذا الطعام، خرجنا إليك بأسيفنا جميعاً حتى نموت عن آخرنا!». وهكذا، اقتصرَت المعركة على التراشق بالنبال، وتزايدت الإصابات في صفوف الطرفين^١.

استشار النبي ﷺ أصحابه في كيفية حسم المعركة واقتحام الحصن. فأشار سلمان الفارسي قائلاً: «يا رسول الله، أرى أن تنصب المنجنيق على حصنهم. فإننا كنا بأرض فارس ننصب المنجنيقات على الحصون. وتنصب علينا، فنصيب من عدونا ويصيب منا بالمنجنيق، وإن لم يكن منجنيق طال الثواء^٢».

فأمر رسول الله ﷺ سلمان بصنع منجنيق، فكان أول منجنيق يُنصب في الإسلام، وقُصف به حصن الطائف. كما لجأ المسلمون إلى «الدبابة»، آلة خشبية مغطاة بجلود البقر لحماية الجنود بداخلها، وزحفوا بها نحو سور الحصن لنقبه. إلا أن ثقيفاً ألقَت عليهم من الأعلى الحديد المحمّة بالنار، ممّا أدّى إلى احتراق الدبابة. فاضطرّ المسلمون

١. الصالحى الشامى، سبل الهدى، ٥: ٣٨٢-٣٨٣؛ الدياربكرى، تاريخ الخميس، ٢: ١١٠؛ الحلبي، السيرة

الحلبى، ٣: ١١٥-١١٦.

٢. أي: طال مقامنا هنا.

للخروج منها والتراجع، وحينها أمطروهم الرماة بالسهام، فاستشهد نفر منهم. وقد عُرف هذا اليوم الدامي بـ«يوم الشدخة»، أي يوم الجراحة والكسر^١.
أمر النبي ﷺ المنادي ينادي: «أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر»، فتسلل نحو ٤٠ رجلاً -معظمهم من الرقيق- من الحصن والتحقوا بالمعسكر الإسلامي^٢. أوفى النبي ﷺ بوعده فأعتقهم جميعاً، ودفع بكل واحد منهم إلى رجل من المسلمين ليكفله ويعلمه القرآن وأحكام الدين^٣. وبعد إسلام ثقيف لاحقاً، جاء وفد منهم برئاسة الحارث بن كعدة يطالبون النبي ﷺ برّد هؤلاء العبيد إليهم. فرفض النبي ﷺ قائلاً: «أولئك عتقاء الله، لا سبيل إليهم»^٤.

ترك حصار الطائف

طال الحصار واستعصى الحصن، فاستشار النبي ﷺ نوفل بن معاوية الديلي^٥ في الأمر، سائلاً: «يا نوفل! ما ترى في المقام؟». فأجابه نوفل: «يا رسول الله! [هم] ثعلب في جحر؛ إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرّك شيئاً»^٦. وفي سياق متصل، جاءت خوّلة بنت حكيم السلمية -زوجة عثمان بن مظعون- تطلب نصيبها من الغنائم المتوقعة، فقالت: «يا رسول الله! إن فتح الله عليك الطائف، فأعطني حليّ بادية بنت

١. الواقدي، كتاب المغازي، ٣: ٩٢٧؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٤٨٣؛ الطبرسي، إعلام الوري، ١٢٣.

٢. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢: ٦٤.

٣. الواقدي، كتاب المغازي، ٣: ٩٣١؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢: ١٢٠؛ ابن شهر آشوب، مناقب، ١: ٦٠٥-٦٠٦.

٤. الصالحى الشامي، سبل الهدى، ٥: ٣٨٤-٣٨٥؛ الدياربكري، تاريخ الخميس، ٢: ١١١.

٥. نوفل بن معاوية الديلي من مسلمة الفتح، استشاره النبي ﷺ لخبرته الطويلة في الحروب، حيث كان شيخاً مسنّاً مجرباً (انظر: الذهبي، تاريخ الإسلام، ٥: ٢٦٢-٢٦٣؛ العسقلاني، الإصابة، ٦: ٣٨٠).

٦. الواقدي، كتاب المغازي، ٣: ٩٣٧.

غَيْلَان وَحُلِي فَارِعة بنت عَقِيل^١، فأجابها النبي ﷺ مَلَمَحًا إلى عدم الفتح: «وإن كان لم يُؤذَن لي في ثقيف يا خويلة؟». خرجت خولة وأخبرت عمر بن الخطاب بما سمعت، فدخل عمر على النبي ﷺ وسأله: «ما حديث حدثتنيهِ خويلة، زعمت أنك قلتها؟ أو ما أذن لك فيهم يا رسول الله؟»، قال: «لا»، قال عمر: «أفلا أُوذَن بالرحيل؟»، قال: «نعم». فنَادى عمر في الجيش بالرحيل والعودة إلى المدينة^٢.

قد أسفرت هذه الغزوة عن استشهاد اثني عشر مسلمًا^٣، ودام حصار الطائف قرابة ثلاثين يومًا، ثم رحل النبي ﷺ عنها. لقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يتأخر إسلام ثقيف وأهل طائف إلى شهر رمضان من السنة التاسعة للهجرة^٤.

لم يأتِ إسلام أهل الطائف نتيجة قهر عسكري مباشر، بل نتيجة عزلة استراتيجية؛ فقد أسلمت جميع القبائل العربية المحيطة بهم، ممَّا جعلهم كجزيرة معزولة في محيط إسلامي. فلم يعد بإمكانهم مقاومة المد الإسلامي، فضلًا عن تضرُّر مصالحهم التجارية وعلاقاتهم الاقتصادية مع القبائل الأخرى بسبب بقائهم على الشرك. لذا، أرسلوا وفدَهم إلى المدينة معلنين إسلامهم، فقبلَ النبي ﷺ منهم، وبعث معهم عثمان بن أبي العاص واليًّا ومعلمًا، يعلمهم القرآن وأحكام الدين^٥.

-
١. كانت هاتان المرأتان تُعدَّان من أجمل نساء ثقيف وأكثرهنَّ حُلِيًّا (الواقدي، كتاب المغازي، ٣: ٩٣٥).
 ٢. ن. ٣، ٩٣٥-٩٣٦؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٤٨٤؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٣: ٨٥.
 ٣. ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٤٨٦-٤٨٧؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢: ١٥٨؛ خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ٥٦.
 ٤. ابن كثير، البداية والنهاية، ٤: ٤٠٢؛ الطبرسي، إعلام الوري، ١٢٤.
 ٥. راجع: ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٥٣٧-٥٤٠؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢: ٧٩-٨٠؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٣: ٩٧-٩٩.

واقعة سدّ الأبواب

كان نفرٌ من الصحابة قد ابتنوا دورًا لهم ملاصقة للمسجد النبوي الشريف، وكانت لهذه البيوت -إضافة إلى أبوابها الخارجية- أبواب شارعة إلى داخل المسجد مباشرة، يستخدمونها للدخول والخروج. فنزل الوحي بالأمر الإلهي إلى النبي ﷺ بسدّ جميع تلك الأبواب الشارعة إلى المسجد، واستثنى من ذلك باب علي بن أبي طالب رضي الله عنه وحده. وقد عُرفت هذه الواقعة تاريخيًا بـ«سد الأبواب»^١، وهي حادثة مشهورة وثّقتها المصادر الإسلامية السنية والشيعية، باستفاضة وتواتر^٢.

شقّ هذا الأمر على بعض الصحابة، ووجدوا في أنفسهم شيئًا، فكثّر القيل والقال والاعتراض. فقام النبي ﷺ خطيبًا لبيان الحقيقة الإلهية، وقال: **إني أمرت بسدّ هذه الأبواب، غير باب علي، فقال فيه قائلكم. وإني والله ما سدّدتُ شيئًا ولا فتحته، ولكن أمرت بشيء فاتبعته**^٣.

يبدو أنّ هذه الحادثة وقعت بعد فتح مكّة، أي في حدود السنة التاسعة للهجرة. إذ إنّ العباس بن عبد المطلب -عمّ النبي ﷺ- كان من المعترضين على سدّ الأبواب

١. ثمة خلاف حول تاريخ وقوع هذا الحدث. وقد نُقلت هذه الواقعة بشكل متواتر في مصادر الفريقين، وعُدّت من خصائص الإمام علي رضي الله عنه وفضائله. ومما يؤكّد ذلك أن أمير المؤمنين رضي الله عنه احتجّ بها على القوم يوم الشورى التي عُقدت لتعيين الخليفة بعد عمر (راجع: الأميني، الغدير، ٣: ٢١٣).

٢. راجع: ابن أبي شيبه، المصنف، ٦: ٣٦٩؛ أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ٣: ٩٨-٩٩ و ٥: ١٧٨-١٨٩ و ٦: ٩٠ و ٨: ٤١٦ و ٣٢: ٤١؛ أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة، ٢: ٥٦٧؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ٢: ١٠٦؛ ابن أبي عاصم، السنة، ٢: ٥٩٩؛ النسائي، السنن الكبرى، ٧: ٤١٧ و ٤٢٤؛ ابن شهر آشوب، مناقب، ٢: ١٩٠-١٩٢؛ الطوسي، الأمالي، ٥٥٨.

٣. النسائي، السنن الكبرى، ٧: ٤٢٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٧: ٣٤٢.

أو مَن شملهم حكم السد^١. وبما أنَّ العباس لم يهاجر إلى المدينة ويسكنها إلَّا بعد فتح مكَّة^٢، فيرد احتمال كون الحادثة قد وقعت في تلك الفترة الزمنية.

واقعة المباهلة

في العام التاسع للهجرة^٣، بعث رسول الله ﷺ كتابًا إلى نصارى نجران يدعوهم فيه إلى الإسلام. وكان الكتاب موجَّهًا إلى الأسقف أبي حارثة بن علقمة. فلما وصله الكتاب، قرأه على ملأ من قومه واستشارهم في الأمر، فاستقرَّ رأيهم على إيفاد بعثة للتفاوض مع النبي ﷺ.

قدم وفد نجران إلى المدينة في موكب مكوّن من ستين راكبًا، يضمّ ثلاثة عشر رجلًا من أشرافهم وكبارهم، يتقدّمهم ثلاثة من القادة: «العاقب» واسمه عبد المسيح، نائب الأسقف وأمير القوم وصاحب مشورتهم الذي لا يصدرون إلَّا عن رأيه. و«السيد» واسمه الأيهم، وهو صاحب رحلهم^٤، وأبو حارثة بن علقمة من بني بكر بن وائل، وهو الأسقف والخبر الأعظم، وصاحب مدارسهم. وكان له في دينهم شرف ومنزلة، حتّى أنَّ ملوك الروم الذين كانوا على دينه، بنوا له الكنائس وأكرموه ومولوه لما عرفوا من رسوخه في العلم^٥.

التقى الوفد برسول الله ﷺ في المدينة، فتلا عليهم آيات الله ودعاهم، إلَّا أنّهم

١. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢: ١٧٦؛ ابن أبي عاصم، السنة، ٢: ٦٠٩؛ البزار، البحر الزخار، ٢: ١٤٤؛ النسائي، السنن الكبرى، ٧: ٤٢٤.

٢. البلاذري، أنساب الأشراف، ١: ٣٥٥؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ٣: ٦١.

٣. المفيد، الإرشاد، ١: ١٦٦-١٧١.

٤. «السيد» و«العاقب» هما لقبان لمنصب دينية وقيادية لدى نصارى نجران، وقد ورد ذكرهما في المصادر الإسلامية (ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ٣: ٢٦٨).

٥. ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٥٧٣.

جادلوه وأبوا القبول. عندئذ، نزل الأمر الإلهي بمباهلتهم والملاعنة، لبيان الصادق من الكاذب:

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا
وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ
عَلَى الْكَاذِبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ (آل عمران: ٦١-٦٣).

فور نزول الآية، دعا النبي ﷺ علياً وفاطمة والحسن والحسين ﷺ، وقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي»^١، ثم قال لوفد نجران: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَمَرَنِي إِنْ لَمْ تَقْبَلُوا هَذَا، أَنْ أَبَاهِلَكُمْ». فقالوا: «يا محمد! بل نرجع فننظر في أمرنا ثم نأتيك».

لما انقضت المهلة وحان الموعد، خرج رسول الله ﷺ للمباهلة محتضناً الحسين وآخذاً بيد الحسن، وخلفه فاطمة، وعلي خلفها ﷺ. ولم يُخرج النبي ﷺ معه أحداً من زوجاته ولا من صحابته سوى هؤلاء الأربعة، تطبيقاً دقيقاً للأمر الإلهي: أبناءنا، ونساءنا، وأنفسنا. وقال لهم موصياً: «إذا أنا دعوتُ فأمنوا أنتم»^٢.

حينما وقعت عينا الأسقف على طلعة رسول الله ﷺ وهو يتقدّم بمن معه من أهل بيته، تملكته رعدة والتفت إلى قومه قائلاً بعبارته التاريخية المشهورة: «يا معشر النصارى! إني لأرى وجوهاً لو سألوها الله أن يزيل جبلاً من مكانه، لأزاله بها! فلا تباهلوا فتهلكوا، ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة». ثم أضاف محذراً

١. ابن شهر آشوب، مناقب، ٢: ٦٦؛ الصالحى الشامى، سبل الهدى، ٦: ٤١٩؛ المجلسى، بحار الأنوار، ٣٧: ٢٦٤-٢٦٥ و ٢٧٠.

٢. السيوطى، الدر المنثور، ٢: ٣٩؛ الصالحى الشامى، سبل الهدى، ٦: ٤١٩؛ المجلسى، بحار الأنوار، ٣٥: ٢٦٤.

من مغبة العناد: «والله ما بأهل قومٌ نبياً قطّ، إلّا هلكوا. فإن أيتّم إلّا إلف دينكم، فوادعوا الرجل^١ وارجعوا إلى بلادكم».

أذعن الوفد لنصيحة الأسقف، وقالوا للنبي ﷺ: «يا أبا القاسم! قد رأينا أن لا نباهلك»، فقال النبي ﷺ: «فأسلموا، يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم»، فأبوا الإسلام وتمسكوا بدينهم. عندئذ، صالحهم النبي ﷺ على الجزية مقابل حمايتهم وتركهم على دينهم.

عقب انصرافهم، كشف النبي ﷺ عن حقيقة العذاب الذي كان يتهدهم، قائلاً: «والذي نفسي بيده! لقد تدلّى العذاب على أهل نجران^٢. ولو تلاعنوا، لمسخوا قردة وخنزير، ولا ستأصل الله نجران وأهله، حتّى الطير على الشجر»^٣.

غزوة تبوك

تعدّ غزوة تبوك آخر غزوة قادها رسول الله ﷺ بنفسه، وقد وقعت أحداثها في شهري رجب وشعبان من السنة التاسعة للهجرة. كان الهدف من هذه الحملة هو استباق التحركات العسكرية للروم البيزنطيين، وقطع دابر تهديداتهم على التخوم الشمالية في الشام.

تواترت الأخبار إلى المدينة بأن هرقل، إمبراطور الروم، قد حشد جيشاً جراراً وألّب معه القبائل العربية الموالية له لحّم، وجُذّام، وغَسَّان، وعَامِلَة. وقد نزلت مقدّمة

١. أي: صالحوه.

٢. أي: كاد يقع عليهم.

٣. راجع: ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٥٨٣-٥٨٤؛ ابن أبي شيبة، المصنف، ٧: ٤٢٦؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٢١: ٢٧٧.

جيشه في منطقة البلقاء، شمال تبوك، بينما اتخذ هرقل من مدينة حمص مقراً لقيادته^١. فأعلن النبي ﷺ النفير العام وعسكر أولاً في ثنية الوداع، خارج المدينة، ثم انطلق بجيش قوامه ثلاثون ألف مقاتل صوب الشمال باتجاه الحدود الرومانية^٢.

قبل انطلاق الجيش، استخلف النبي ﷺ علياً عليه السلام على المدينة ليدبر شؤونها ويحفظ أمنها الداخلي^٣. فأراد المنافقون إثارة الفتنة في غيابه، فأرجفوا في المدينة وشاعوا أنّ النبي ﷺ إنّما خلفه استثقلاً له أو كرهاً لصحبته. فلمّا بلغت هذه المقالة علياً عليه السلام، أخذ سلاحه ولحق بالنبي ﷺ في منطقة الجُرف على مشارف المدينة، وأخبره بما قال المنافقون. فقال له رسول الله ﷺ كلمته الخالدة: «أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى، إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي؟»^٤.

وصل الجيش الإسلامي إلى تبوك، وعسكر فيها مدّة عشرين يوماً^٥. لم يحدث أيّ اشتباك عسكري مع الروم، حيث أثر الجيش الروماني الانسحاب أو عدم المواجهة لما سمعوا بقدوم جيش المسلمين. وفي شهر رمضان من العام نفسه، ٩هـ، أمر النبي ﷺ بالعودة إلى المدينة^٦.

تعدّدت الروايات التاريخية حول سبب العودة دون قتال؛ وتشير بعض المصادر إلى

١. الواقدي، كتاب المغازي، ٣: ٩٨٩-٩٩٠؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢: ١٢٥-١٢٦؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ١: ٣٦٨.

٢. الواقدي، كتاب المغازي، ٣: ٩٩٢ و ٩٩٦ و ١٠٠٢.

٣. المسعودي، التنبيه والإشراف، ٢٧٠-٢٧١.

٤. ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٥١٩-٥٢٠. اشتهر هذا الحديث بـ«حديث المنزلة»، ويُعدّ من أبرز مناقب الإمام علي عليه السلام، وقد روته مصادر أهل السنة بطرق متعدّدة (انظر على سبيل المثال: معمر بن راشد، جامع معمر بن راشد، ١١: ٢٢٦؛ الصنعاني، المصنف، ٥: ٤٠٥-٤٠٦؛ ابن أبي شيبة، المصنف، ٦: ٣٦٦).

٥. الواقدي، كتاب المغازي، ٣: ٩٩٩ و ١٠١٥؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢: ١٢٥-١٢٦.

٦. الواقدي، كتاب المغازي، ٣: ١٠٥٦؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢: ٦٨.

أن هرقل أرسل مبعوثين إلى معسكر المسلمين يطلب الصلح أو صرف النظر عن الحرب، فقبل النبي ﷺ منهم ذلك، وأكرم وفادتهم، ثم قفل راجعاً^١.

أصحاب العقبة ومؤامرة اغتيال النبي ﷺ

تعاقدت زمرة من المنافقين على الفتك برسول الله ﷺ واغتياله في طريق عودته من تبوك، متربّصين به الفرصة المناسبة. وقد وجدوا في الطرق الجبلية الوعرة والعقبات بغيتهم؛ إذ خططوا لنفراقة وطرحه في الوادي السحيق، إلا أن الوحي الأمين أطلع النبي ﷺ على مكرهم. وحين علم رسول الله ﷺ بالمؤامرة، أمر منادياً ينادي في الناس أن يسلكوا بطن الوادي، وأنه سيسلك طريق العقبة منفرداً، إلا من خاصته. فلما علم المنافقون بخلو الطريق، تلمّثوا وغطّوا وجوههم واستعدّوا لتنفيذ مخطّطهم المشؤوم.

سلك رسول الله ﷺ العقبة ومعه عمار بن ياسر آخذاً بزمام الناقة يقودها، وحذيفة بن اليمان يسوقها من خلفها. وفي أثناء المسير، سمع النبي ﷺ وقع أقدام القوم وجلبة الركاب، فأدرك دنوّهم. فعَمَدَ المنافقون إلى تنفير الناقة، ممّا أدّى إلى سقوط بعض رحل النبي ﷺ. فأمر النبي ﷺ حذيفة بالتصدّي لهم، فانطلق حذيفة نحوهم وضرب وجوه رواحلهم بمحجن كان بيده. فلما رأى القوم انكشاف أمرهم ويقظة الحراس، ولّوا مدبرين مسرعين واختلطوا بسواد الجيش في بطن الوادي ليخفوا أثرهم.

مضى النبي ﷺ ومعه صاحبه مسرعين حتى قطعوا العقبة، ونزلوا بانتظار بقية الجيش. سأل النبي ﷺ حذيفة: «هل عرفتَ أحدًا من الركب الذين ردّدتهم؟»، قال: «يا رسول الله! عرفت رواحلهم، وكان القوم متلثمين، فلم أبصرهم من أجل ظلمة الليل»^٢. فقال النبي ﷺ: «إن الله قد أخبرني بأسمائهم وأسماء آبائهم، وسأخبركم بهم إن

١. ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٥٢٤-٥٢٥؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ١: ٣٦٨.

٢. الواقدي، كتاب المغازي، ٣: ١٠٤٢-١٠٤٣.

شاء الله»، فقال حذيفة بحمية: «أفلا تأمر بهم يا رسول الله، إذا جاء الناس أن تُضرب أعناقهم؟»، فأجابه النبي ﷺ بحكمته المعهودة: «أكره أن يتحدث الناس ويقولوا: إنّ محمّداً قد وضع يده في أصحابه^١»، ثم أسر النبي ﷺ بأسمائهم إلى حذيفة وعمار، وأمرهم بكتنائها^٢.

تجاوز النبي ﷺ عن عقاب هؤلاء الخونة -الذين عُرفوا تاريخياً بـ«أصحاب العقبة»- واكتفى باللعن عليهم^٣. وقد أخبر النبي ﷺ حذيفة قائلاً: «إنّ في أمّتي اثني عشر منافقاً، لا يدخلون الجنة...»^٤. وفيهم نزل قوله تعالى فاضحاً حلفهم وكفرهم: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ وَاعِدُونَ بِاللّهِ إِن يَرَوْهُمِ لَأَيَّدَنَّهُمْ﴾ (التوبة: ٧٤).

قد اختلفت الروايات في عدد المتورّطين بمؤامرة اغتيال رسول الله ﷺ بين ١٢ و ١٥ شخصاً، ولم تُقدّم المصادر التاريخية الرسمية قائمة صريحة بأسمائهم^٥، ولعلّ ذلك يعود لسياسة الستر النبوي، أو لمحاولات لاحقة للتعتيم على هويّة بعض الشخصيات المشاركة.

١. أي: قتلهم.

٢. البيهقي، دلائل النبوة، ٥: ٢٥٧؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى، ٥: ٤٦٦-٤٦٧.

٣. البيهقي، دلائل النبوة، ٥: ٢٦١؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ٢: ٦٤٨.

٤. أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ٣١: ١٨٠؛ مسلم، صحيح مسلم، ٤: ٢١٤٣.

٥. انظر كمثال: مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، ٤: ٢١٤٤.

٦. راجع: البيهقي، دلائل النبوة، ٥: ٢٥٨-٢٥٩؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى، ٥: ٤٦٧-٤٦٨؛ وانظر

أيضاً: ابن حزم، المحلى بالآثار، ١٢: ١٦٠.

مسجد الضرار

أقدمت مجموعة من المنافقين المتمين إلى عشيرة بني غنم بن عوف، على بناء مسجد في منطقة قُباء، وتوجَّهوا إلى رسول الله ﷺ يطلبون منه الصلاة فيه. فقد أعلنوا عن هدفهم من بناء المسجد أمورًا كالتخفيف عن الضعفاء، وإيواء أبناء السبيل في الليالي الشتوية والمطيرة. لكنَّ النبي ﷺ أجَّل ذلك إلى بعد رجوعه من تبوك، إذ كان طلبهم عند عزم رسول الله ﷺ على الخروج لغزو الروم^١.

أثناء عودة النبي ﷺ من غزوة تبوك، نزلت الآية ١٠٧ من سورة التوبة، فاضحًا النوايا الخبيثة لبُناة هذا المسجد، وكاشفًا عن كونه وكراً للتأمر لا للعبادة. فأمر النبي ﷺ بهدمه وإحراقه فورًا. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾^٢. وسُمِّي ذلك المسجد تاريخيًا بـ«مسجد الضرار» اقتباسًا من الوصف القرآني له بأنه مبعث للضرر والشقاق.

لقد مرَّ سابقًا أنَّ «مسجد قباء» الذي يقع جنوب المدينة، كان أوَّل مسجد أسَّسه النبي ﷺ عند هجرته، وقد بُني في ديار بني عمرو بن عوف، وهم أبناء عمومة

١. ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٥٢٩.

٢. تشير بعض التفاسير إلى أنَّ المقصود بـ﴿لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ هو أبو عامر بن صيفي (ت. ١٠هـ). كان راهبًا من الأوس في الجاهلية، فلما جاء الإسلام حاربه، وخرج إلى مكة محرصًا قريشًا على النبي ﷺ، وشارك معهم في أحد، فسماه المسلمون «أبا عامر الفاسق». مات وحيدًا طريدًا في الشام. وتشير الروايات إلى أنَّه هو مَنْ أوعز للمنافقين ببناء المسجد ليكون مخزنًا للسلاح ومعقلًا لأنصاره، ريثما يعود بجيش من الروم لإخراج النبي ﷺ من المدينة (راجع: الصنعاني، تفسير عبد الرزاق، ٢: ١٦٥؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ١: ٢٨١؛ المسعودي، مروج الذهب، ١: ٨٨-٨٩؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٢: ١٥٠-١٥١؛ كحالة، معجم قبائل العرب، ١: ٥١؛ الحلبي، السيرة الحلبية، ٣: ٢٠٣).

بني غنم^١. وقد حظي هذا المسجد باهتمام خاص من النبي ﷺ، فكان يزوره كل سبت راكباً أو ماشياً للصلاة فيه^٢. أثار هذا التقدير النبوي حفيظة وحسد بني غنم بن عوف، فقرروا بناء مسجد خاص بهم في ديارهم لمنافسة بني عمرو^٣، وسعوا للحصول على مكانة اجتماعية لمسجدهم هذا، من خلال طلب صلاة النبي ﷺ فيه^٤.

أدى بناء هذا المسجد إلى شق عصا المسلمين في منطقة قباء، فانصرف بعض الناس عن مسجد قباء الرئيسي. كما تشير الأخبار إلى تحوله لمركز اجتماع للمنافقين للاستهزاء بالنبي ﷺ والمسلمين. ولتنفيذ حكم الهدم، أرسل النبي ﷺ مجموعة من الصحابة، وعلى رأسهم مالك بن الدخشم الذي كان من بني غنم أنفسهم، فأحرقوا المسجد وسووه بالأرض، منهين بذلك بؤرة الفتنة^٥.

تبليغ سورة براءة

لم يكن فتح مكة يعني النهاية الفورية للوثنية أو إسلام جميع سكان الجزيرة العربية؛ فقد ظلت بعض القبائل على عنادها. حتى جاء العام التاسع للهجرة، الذي عُرف بـ«عام الوفود»، حيث توافدت القبائل على النبي ﷺ لإعلان إسلامها^٦.

١. ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٤٩٤.

٢. للتفصيل، انظر: السهمودي، وفاء الوفا، ٣: ٨٠٢-٨٠٥.

٣. الصالحى الشامي، سبل الهدى، ٥: ٤٧٠.

٤. ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٥٢٩.

٥. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣: ٤١٤؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ١: ٢٨٣؛ البيهقي، دلائل النبوة، ٥: ٢٥٩-٢٦٠؛ الحلبي، السيرة الحلبية، ٣: ٢٠٣. في تكليف مالك بن الدخشم، وهو من نفس العشيرة البانية للمسجد، حكمة سياسية بالغة؛ فكان ذلك لئلا يفسر الهدم على أنه اعتداء قبلي من عشيرة أخرى، بل يظهر كطهير داخلي قام به أحد أبناء العشيرة المخلصين، مما يقطع دابر الثأر الجاهلي.

٦. انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٥٥٩-٥٦٠.

في أواخر سنة ٩هـ، نزلت الآيات الأولى من سورة «البراءة» (التوبة)^١. وصدر الأمر الإلهي للنبي ﷺ بأن تُتلى هذه الآيات على المشركين في موسم الحج في شهر ذي الحجة، بمكة المكرمة^٢. في البدء، دعا النبي ﷺ أبا بكر، وسلّمه الآيات وأمره بالخروج إلى مكة لإبلاغها. ولكن بعد رحيله، نزل الوحي على النبي ﷺ، فاستدعى عليّاً عليه السلام وأعطاه ناقته، وأمره أن يلحق بأبي بكر فيأخذ الكتاب منه، ويتولّى هو بنفسه مهمة الإبلاغ^٣. انطلق علي عليه السلام مسرعاً، فأدرك أبا بكر في منطقة الجحفة، وتسلم منه الكتاب. عاد أبو بكر إلى النبي ﷺ مضطرباً وسأل: «يا رسول الله، نزل فيّ شيء؟»، فأجابه النبي ﷺ: «لا، ولكن جبريل جاءني، فقال: لن يؤدّي عنك، إلّا أنت أو رجل منك»^٤. وصل الإمام علي عليه السلام إلى مكة، وفي ظهيرة يوم النحر (عيد الأضحى)، وقف في جموع الحجاج معلناً نفسه مبعوثاً خاصاً لرسول الله ﷺ، ثم تلا فواتح سورة براءة، وأعلن البنود الأربعة الفاصلة: «لا يطوفنّ بالبيت عريان بعد اليوم. لا يحجّ بعد هذا العام مشرك. من كان له عهد من رسول الله في تأجيله أربعة أشهر، فهو على عهده، ومن لم يكن له عنده عهد، فقد أجله خمسين ليلة»^٥.

١. م. ن. ٢: ٥٤٣-٥٤٤؛ العياشي، التفسير، ٢: ٧٣؛ الطبرسي، مجمع البيان، ٥: ٣.

٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ٥: ٣٦-٣٧.

٣. ذهب بعض علماء أهل السنة إلى أنّ عزل أبي بكر وإرسال علي عليه السلام لا يدلّ على الأفضلية المطلقة، معلّنين ذلك بالعرف العربي الذي يقضي بأن لا يحلّ العقود إلّا العاقد أو رجل من عصبته وأقاربه. بينما يرى علماء الشيعة أنّ المهمة لم تكن مجرد فسخ عقود، بل «إبلاغاً لرسالة إلهية وتشريعاً جديداً»، وهو ما يتطلب عصمة ومقاماً يائس مقام النبوة، مستندين لقوله ﷺ: «لا يؤدّي عنك إلّا» بصيغة الحصر (انظر: الطباطبائي، الميزان، ٩: ١٦٤-١٦٨).

٤. ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٥٤٥-٥٤٦؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢: ١٢٨؛ أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ٢: ٤٢٧؛ المفيد، الإرشاد، ١: ٦٥-٦٦؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ٤٢: ٢٤٨؛ ابن شهر آشوب، مناقب، ٢: ١٢٦.

٥. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢: ٧٦؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٥: ٣٧.

تُعدّ هذه الحادثة من أبرز فضائل أمير المؤمنين عليه السلام، المتّفق عليها في مصادر الفريقين الشيعة^١ والسنة^٢. وقد روتها المصادر التاريخية والحديثية باستفاضة وتواتر^٣، كما اتخذها الإمام علي عليه السلام حجةً دامغةً في مناشداته لاحقاً لإثبات أهليته للخلافة ومقامه الاستثنائي من رسول الله صلى الله عليه وآله^٤.

إبراهيم ابن النبي صلى الله عليه وآله

في شهر ذي الحجة من السنة الثامنة للهجرة، وهب الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وآله غلاماً سمّاه «إبراهيم»، من زوجته مارية القبطية. تولّت قبالتها سلمى، زوجة أبي رافع. فلمّا جاءت إلى النبي صلى الله عليه وآله تبشّره بسلامة المولود، سرّ النبي صلى الله عليه وآله بذلك وأعطاه هدية لهذه البشارة. وفي اليوم السابع من ولادته، عقّ عنه النبي صلى الله عليه وآله بشاة، وحلق شعر رأسه، وتصدّق بوزن شعره فضةً على فقراء المدينة، ثمّ أمر بدفن الشعر في الأرض. وقد أثار ميلاد إبراهيم الغيرة في نفوس بعض زوجات النبي صلى الله عليه وآله، لكون مارية قد انفردت بالولد من رسول الله صلى الله عليه وآله. وممّا زاد في تشريف هذا المولود، أنّ جبريل عليه السلام نزل على النبي صلى الله عليه وآله مهتّباً ومخاطباً إيّاه بكنيته الجديدة: «السلام عليك يا أبا إبراهيم»^٥.

شاءت الأقدار الإلهية ألاّ يطول عمر هذا الغلام؛ ففي العاشر من ربيع الأول سنة

١. المفيد، الإرشاد، ١: ٦٥؛ ابن شهر آشوب، مناقب، ٢: ١٢٦.

٢. الخوارزمي، المناقب، ١٦٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٧: ٣٥٧.

٣. ذكر العلامة الأميني ٧٣ مصدرًا من مصادر أهل السنة روت هذا الحديث، وعقّب قائلاً: «هذا الحديث متواتر النقل بين الرواة» (الأميني، الغدير، ٦: ٣٣٨-٣٤١).

٤. ابن المغازلي، مناقب أمير المؤمنين، ١٧٠؛ الطبرسي، الاحتجاج، ١: ١٤٤.

٥. البلاذري، أنساب الأشراف، ١: ٤٤٨-٤٥٠؛ الصالحى الشامي، سبل الهدى، ١١: ٢١-٢٢؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٢١: ١٨٣.

١٠هـ، فاضت روح إبراهيم إلى بارئها^١. حزن رسول الله ﷺ حزناً شديداً، ودمعت عيناه، وقال كلمته المشهورة التي رسمت حدود الصبر والرضا بقضاء الله: تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول ما يسخط الرب. لولا أنه وعد صادق ووعد جامع، وأن الآخر لاحق بالأول، لوجدنا عليك يا إبراهيم، أشد من وجدنا. وأنا بك لمحزونون^٢.

إسلام القبائل اليمنية

في سنة ١٠هـ، بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى اليمن داعياً إلى الإسلام. فأقام فيهم ستة أشهر يدعوهم، فلم يجبه أحد. فأرسل النبي ﷺ علي بن أبي طالب ﷺ لاستلام المهمة، وأمره أن يقفل خالداً إلى المدينة، وقال له: «مر أصحاب خالد، من شاء منهم أن يعقب^٣ معك فليعقب، ومن شاء فليقبل».

فلما وصل علي ﷺ إلى تلك الديار، صلى بأصحابه الفجر، ثم صفهم صفّاً واحداً، وتقدمهم وقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ. كان لإخلاص أمير المؤمنين ﷺ وبيانه ساحر الأثر في النفوس، فأسلمت قبيلة همدان عن بكرة أبيها في يوم واحد. كتب علي ﷺ إلى النبي ﷺ يبشره بإسلامهم، فلما قرأ رسول الله ﷺ الكتاب، خرّ ساجداً لله شكراً، ثم رفع رأسه وقال: «السلام على همدان! السلام على همدان!»^٤.

وفي شهر رمضان من نفس العام، عقد رسول الله ﷺ لعلي ﷺ لواءً آخر لبعثه إلى

١. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١: ١١٤-١١٥.

٢. م. ن. ١: ١١٤؛ ابن أبي شيبة، المصنف، ٣: ٦٢؛ الكليني، الكافي، ٣: ٢٦٢.

٣. أي: يبقى.

٤. البلاذري، أنساب الأشراف، ١: ٣٨٤؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٣: ١٣١-١٣٢؛ المفيد، الإرشاد،

اليمن، وأمره أن يعسكر في منطقة قناة^١. عمده النبي ﷺ إلى عمامة كانت عليه، فعمم بها علياً عليه السلام بيده، ودفع إليه اللواء، ثم أوصاه قائلاً: «امض ولا تلتفت... إذا نزلت بساحتهم، فلا تقاتلهم حتى يقتلوك. فإن قاتلوك، فلا تقاتلهم حتى يقتلوا منكم قتيلاً. فإن قتلوا منكم قتيلاً فلا تقاتلهم... ثم تقول لهم: هل لكم إلى أن تقولوا لا إله إلا الله؟ فإن قالوا نعم، فقل: هل لكم أن تصلوا؟ فإن قالوا نعم، فقل: هل لكم أن تخرجوا من أموالكم صدقة تردونها على فقرائكم؟ فإن قالوا نعم، فلا تبغ منهم غير ذلك. والله، لأن يهدي الله على يدك رجلاً واحداً، خير لك مما طلعت عليه الشمس أو غربت».

خرج علي عليه السلام في ثلاثمائة فارس، حتى نزل بأرض قبيلة مذحج. فرّق أصحابه في نواحي الأرض للدعوة، ثم واجه القوم ودعاهم إلى الإسلام، فأبوا وبدأوا المسلمين بالقتال ورموهم بالنبل والحجارة. عبأ علي عليه السلام جيشه، ودفع الراية إلى مسعود بن سنان السلمي. برز رجل من مذحج للتحدي، فبرز له الأسود بن خزاعي وقتله. ثم حمل علي عليه السلام بمن معه عليهم، فقتل منهم عشرون رجلاً، وتفرّق الباقي وتركوا راياتهم. كفّ علي عليه السلام عن طلبهم وملاحقتهم، ودعاهم إلى الإسلام والهدنة، فسارعوا إلى الإجابة والبيعة، وقالوا: «هذه صدقاتنا، فخذ منها حق الله».

جمع علي عليه السلام الغنائم، وقسمها خمسة أخماس: عزل خمساً لله وللرسول ﷺ، ثم أقرع بين الأخماس الباقية وقسمها بين الجيش. وكانت العادة في مثل هذه الغزوات أن يخصّ القادة بعض الشجعان والمقربين بـ«النفل»، زيادة على سهمهم، من سهم الله والرسول ﷺ قبل تسليمه للنبي ﷺ، ثم يقرّهم النبي ﷺ على ذلك. فطالب بعض وجوه العسكر علياً عليه السلام أن يخصّهم بشيء من ذلك الخمس، فأبى علي عليه السلام ذلك بصرامة، وقال:

١. قناة: وإد يصبّ من جنوب المدينة (البكري، معجم ما/ستعجم، ٣: ١٠٩٦).

«الخميس أحمله إلى رسول الله فيرى فيه رأيه، وهذا رسول الله يوافي الموسم ونلقاه، يصنع فيها ما أراه الله»^١.

أقام علي بن أبي طالب ﷺ فترةً في ديار مَذْحِج، يعلمهم القرآن وأحكام الدين. ثم كتب إلى رسول الله ﷺ كتاباً يخبره فيه بأحوال اليمن، وبعثه مع عبد الله بن عمرو المزني. فلما وصل الكتاب، أرسل النبي ﷺ أمره إلى علي ﷺ بأن يوافيه في موسم الحج، وفور تلقي الأمر، تحرّك علي ﷺ عائداً إلى الحجاز. وعند وصوله إلى منطقة الفتق قرب مكة، استخلف أبا رافع على الجند وعلى ما معه من الخمس والغنائم، وسبقهم هو مسرعاً للقاء رسول الله ﷺ الذي كان قد وصل مكة لأداء المناسك.

في غياب علي ﷺ، ألحّ الجند على أبي رافع أن يكسوهم من الثياب اليمانية التي كانت في الخمس، ليتجمّلوا بها ويحرموا فيها. فضعف أبو رافع أمام إلحاحهم وأعطى كلّ واحد منهم ثوبين. لما شارف الجيش على دخول الحرم في منطقة السُدْرَة، خرج علي ﷺ لاستقبالهم، فرأهم قد اكتسوا بتلك الخلل، فقال لأبي رافع غاضباً: «ويحك! ما هذا؟»، قال أبو رافع: «كلموني ففرقت من شكائهم، وظننتُ أنّ هذا يسهل عليك، وقد كان مَنْ كان قبلك يفعل هذا بهم»، فقال علي ﷺ: «رأيتُ إبائي عليهم ذلك وقد أعطيتهم! وقد أمرتُك أن تحتفظ بما خلّفت، فتعطيهم؟». ثمّ قام علي ﷺ بانتزاع تلك الخلل منهم لأنّها حقّ عام لم يُقسّم بعد، وأمر بردها إلى الخمس.

تذمّر الجند من صرامة علي ﷺ في الحق، فرفعوا شكواهم إلى رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ لعلي ﷺ: «ما لأصحابك يشكونك؟»، قال علي ﷺ: «قسّمتُ عليهم ما غنموا، وحسبْتُ الخمس حتّى يقدم عليك وترى رأيك فيه. وقد كانت الأمراء يفعلون أموراً،

١. راجع: الواقدي، كتاب المغازي، ٣: ١٠٧٩-١٠٨٢؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢: ١٢٨-١٢٩؛

الصالحى الشامى، سبل الهدى، ٦: ٢٣٨-٢٣٩.

ينقلون من أرادوا من الخمس، فرأيتُ أن أحمله إليك لترى فيه رأيك»^١. فخرج رسول الله ﷺ وقال رادًّا على القوم: «لا تقعوا في علي؛ فإنه مني وأنا منه، وهو وليكم بعدي»^٢.

حجّة الوداع

أقام رسول الله ﷺ بالمدينة عشر سنين لم يحج فيها، وإن كان يضحي كل عام، حتى أذن في الناس في شهر ذي القعدة من السنة العاشرة للهجرة أنه حاج في عامه هذا. فطارت الأخبار إلى أهل المدينة والقبائل المجاورة، فتقاطر الناس من كل فج، مشاة وركبانا، ليأتوا برسول الله ﷺ في حجّته، ويقتفوا أثره في المناسك خطوة بخطوة. غصت المدينة بالوفود، واجتمع حول ركب النبي ﷺ سواد عظيم لا يحده البصر^٣.

صلى رسول الله ﷺ الظهر بالمدينة، وخطب في الناس يعلمهم مناسكهم، ثم اغتسل وتجهّز للإحرام^٤. وفي ظهر يوم الخامس والعشرين من ذي القعدة، غادر النبي ﷺ المدينة^٥. ونزل في ذي الحليفة، ميقات أهل المدينة على بُعد ٨ كم جنوب المسجد النبوي، فانتظر في مسجدها حتى صلى العصر بأصحابه، وأمرهم بالصلاة في ذلك الموضع وقال ﷺ: «أتاني آت من ربي فقال: صل في هذا الوادي المبارك»، ثم أعلن عن تشريع الجمع بين الحج والعمرة قائلاً: «دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة»^٦.

١. الواقدي، كتاب المغازي، ٣: ١٠٨١؛ المقرئ، إمتاع الأسع، ٢: ٩٧؛ الصالحى الشامى، سبل الهدى، ٦: ٣٣٩.

٢. أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ٣٨: ١١٧-١١٨؛ أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة، ٢: ٦٨٨؛ النسائي، السنن الكبرى، ٧: ٤٤١؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ٤٢: ١٨٩-١٩٠ و ١٩٩.

٣. الصالحى الشامى، سبل الهدى، ٨: ٤٥٠.

٤. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢: ١٧٣؛ المقرئ، إمتاع الأسع، ٢: ١٠٢.

٥. المفيد، الإرشاد، ١: ١٧١؛ الصالحى الشامى، سبل الهدى، ٨: ٤٥١.

٦. أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ١: ٢٩٩؛ البخارى، صحيح البخارى، ٢: ١٣٥-١٣٦ و ٣: ١٠٧؛ الصالحى الشامى، سبل الهدى، ٨: ٤٥١. وتجدر الإشارة إلى أنّ العرب في الجاهلية كانوا يرون العمرة في أشهر الحج

تحرك الركب النبوي من ذي الحليفة مليياً، حتّى وصلوا إلى ذي طوى المعروفة بآبار الزاهر، حيث باتوا ليلة الأحد السادس والعشرين من ذي القعدة، وصلى فيها الصبح واغتسل لدخول مكّة. وفي التنعيم، على بعد فرسخين من مكّة، جدّد هيئة إحرامه واستبدل ثيابه، وركب دابة متواضعة، ثمّ رفع يديه بالدعاء الخالص: «اللهم اجعله حجّاً مبروراً، لا رياء فيه ولا سُمعة»^١.

دخل النبي ﷺ مكّة نهراً من ثنية كداء، الثنية العليا المشرفة على الحُجُون. ثمّ قصد المسجد الحرام سحراً، ودخله من «باب عبد مناف» الذي كان الناس يسمّونه «باب بني شيبه». فلمّا وقعت عيناه الشريفتان على الكعبة، رفع يديه مستقبلاً البيت وقال: «اللهم أنت السلام ومنك السلام، فحينا ربنا بالسلام. اللهم زد هذا البيت تشريقاً وتعظيماً ومهابة وتكريماً، وزد من حجّه أو اعتمره تشريقاً وتكريماً وتعظيماً وبراً». ثمّ مضى ﷺ واستلم الركن، وطاف بالبيت، ثمّ خرج من «باب بني مخزوم» (باب الصفا) للتوجّه إلى المسعى^٢.

خطبة منى

في مشعر منى، وقف رسول الله ﷺ خطيباً في تلك الجموع الغفيرة. وكانت سورة «النصر» قد نزلت في ذلك اليوم، فنعى النبي ﷺ نفسه، وأدرك أنّها آخر حجة يحجّها، فأودع في خطبته خلاصة الشريعة ومقاصدها. ومّا جاء في تلك الخطبة العصماء:

المساواة الإنسانية: «يا أيّها الناس! ألا إنّ ربّكم واحد، وإنّ أباكم واحد. ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود إلّا بالتقوى. إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم».

من أفجر الفجور، فجاء الإسلام لإبطال هذه العادة (انظر: العيني، نخب الأفكار، ٩: ٢٣٨).

١. ابن ماجه، سنن ابن ماجه، ٤: ١٣٨؛ الصالحى الشامى، سبل الهدى، ٨: ٤٦٨.

٢. الواقدي، كتاب المغازي، ٣: ١٠٩٧؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢: ١٣١.

حرمة الدماء والأموال: «إِنَّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، إلى يوم تلقون ربكم». أداء الأمانة وإلغاء الربا: «من كانت عنده أمانة، فليؤدها إلى مَنْ ائتمنه عليها. ألا وإنّ ربا الجاهلية موضوع كلّ».

تحريم الظلم: «المسلم أخو المسلم... اسمعوا منّي تعيشوا: ألا لا تظلموا، ألا لا تظلموا، ألا لا تظلموا. إنّ لا يحلّ مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه». حقوق النساء: «أيّها الناس! إنّ لنسائكم عليكم حقًا، ولكم عليهنّ حقّ... استوصوا بالنساء خيرًا؛ فإنّهنّ عندكم عوان^١، وإنّكم إنّما أخذتموهنّ بأمانة الله، فاتّقوا الله في النساء».

التحذير من الشيطان والفرقة: «أيّها الناس! إنّ الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه أبدًا، ولكنّه قد رضي أن يُطاع فيما سوى ذلك ممّا تحقرون من أعمالكم... فلا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض^٢».

واقعة الغدير

بعد قضاء مناسك الحج، قفل رسول الله ﷺ راجعًا صوب المدينة. وفي يوم الخميس، الثامن عشر من شهر ذي الحجة سنة ١٠هـ، وصل الركب النبوي إلى منطقة «غدير خُم»، وهي مفترق طرق يتشعب منه طريق أهل المدينة والعراق ومصر. وفي ذلك الموضع، نزل الأمين جبريل بهذه الآية الحاسمة: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي

١. أي: أمانات.

٢. راجع: ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٦٠٣-٦٠٤؛ الصدوق، الخصال، ٢: ٨٤؛ الصالحى الشامي، سبل الهدى، ٨: ٤٨٢-٤٨٣.

الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ» (المائدة: ٦٧). وقد جاء الأمر الإلهي صريحاً بوجوب تنصيب علي بن أبي طالب ﷺ علماً للناس، وإبلاغ ما نزل في ولايته، والتأكيد على فرض طاعته على الجميع.

امثالاً للأمر الإلهي، أمر النبي ﷺ بحبس الركب، فدُعي من تقدّم منهم الذين شارفوا على الجحفة، ليرجعوا وانتظر من تأخر ليلحق. صلى النبي ﷺ الظهر بالحجيج في الهاجرة وشدة الحر. ثم رُكمت له أقتاب الإبل والرحال لتكون منبراً، فارتقاه وخطب فيهم بصوت جهوري، فكان ممّا قال:

«الحمد لله ونستعينه ونؤمن به ونتوكل عليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، الذي لا هادي لمن أضلّ ولا مُضِلّ لمن هدى... أمّا بعد؛ أيّها الناس قد نبأني اللطيف الخبير أنّه لم يُعمّر نبيّاً إلّا مثل نصف عمر الذي قبله، وإنّي أُوشك أن أدعى فأُجيب، وإنّي مسؤول وأنتم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟». قالوا: «نشهد أنّك قد بلغتَ ونصحتَ وجهدتَ، فجزاك الله خيراً».

قال ﷺ: «ألستم تشهدون أن لا إله إلّا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله، وأنّ جنته حقّ وناره حقّ وأنّ الموت حقّ، وأنّ الساعة آتية لا ريبَ فيها وأنّ الله يبعثُ مَنْ في القبور؟»، قالوا: «بلى، نشهد بذلك»، قال ﷺ: «اللهم اشهد».

ثم قال ﷺ: «أيّها الناس! ألا تسمعون؟»، قالوا: «نعم»، قال: «فإنّي فرط^١ على الحوض وأنتم واردون عليّ الحوض، وإنّ عرضه ما بين صنعاء وبصرى^٢، فيه أقداح عدد النجوم من فضّة، فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين».

فنادى منادٍ: «وما الثقلان يا رسول الله؟»، قال ﷺ: «الثقل الأكبر كتاب الله، طرفُ

١. أي: متقدّم.

٢. صنعاء وبصرى: مدينتان معروفتان؛ صنعاء في اليمن، وبصرى في الشام (سوريا الحالية)، واستخدمتهما في الحديث لبيان سعة الحوض.

بيد الله عز وجل وطرف بأيديكم، فتمسكوا به لا تضلّوا، والآخر الأصغر عترتي، وإنّ اللطيف الخبير نبأني أنّهما لن يتفرّقا حتّى يردا عليّ الحوض، فسألت ذلك لهما ربّي، فلا تقدموهما فتهلّكوا، ولا تقصروا عنها فتهلّكوا».

ثم أخذ النبي ﷺ بيد علي بن أبي طالب ﷺ فرفعها عاليًا حتّى رآه الناس وعرفوه. فقال ﷺ: «أيها الناس! من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟»، قالوا: «الله ورسوله أعلم». قال: «إنّ الله مولاي وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم. فمن كنت مولاه، فهذا عليّ مولاه». كرّرها ثلاث مرات^١، ثم دعا له قائلاً: «اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحقّ معه حيث دار». وفي الختام، أمر النبي ﷺ بأن تتناقل الأجيال هذا البلاغ قائلاً: «ألا فليبلغ الشاهد الغائب»^٢.

لم يكد الجمع يتفرّق، حتّى نزل الوحي بمسك الختام، معلناً كمال الشريعة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣)^٣. ووفقاً لبعض الروايات، كبر رسول الله ﷺ وقال: «الله أكبر على إكمال الدين، وإتمام النعمة، ورضا الرب برسالي والولاية لعليّ من بعدي». عندئذ، أقبل المسلمون يبائعون رسول الله ﷺ وعليّاً ﷺ. وكان في طليعة المبايعين أبو بكر،

١. وفي بعض الروايات أربعاً.

٢. الأميني، الغدير، ١: ٣٤-٣٥. وللاطلاع على نصّ خطبة الغدير وتفصيلها، راجع: الطوسي، الأمالي، ٢٤٧؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ١٢: ٢٣٧؛ ابن شهر آشوب، مناقب، ٣: ٢٩؛ الفخر الرازي، التفسير الكبير، ١٢: ٤٩؛ السيوطي، الدر المنثور، ٢: ٢٩٨؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٣٧: ١٢٤ و ١٨٤-١٨٥.

٣. ورد نزول هذه الآية يوم الغدير في المصادر التالية: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٨: ٢٩٠؛ ابن المغازلي، مناقب أمير المؤمنين، ٤٦؛ الخوارزمي، المناقب، ١٣٥ و ١٥٦؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ١٢: ٢٣٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٥: ٢١٠؛ السيوطي، الدر المنثور، ٢: ٢٥٩.

وعمر، وطلحة، والزبير، ثم تلاهم المهاجرون والأنصار وبقية الناس. وقد هنا أبو بكر وعمر علياً ﷺ بعبارتهما التاريخية المشهورة: «بخ بخ لك يا ابن أبي طالب! أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة»، وفي هذا المشهد المهيّب، علّق عبد الله بن عباس قائلاً: «وجبت والله [البيعة] في أعناق القوم»^٢.

استمرت وفود الحجيج تتقاطر على خيمة النبي ﷺ وعلي ﷺ للبيعة والتهنئة مدة ثلاثة أيام متتالية. وكان رسول الله ﷺ كلما بايع فوجاً، يقول: «الحمد لله الذي فضّلنا على جميع العالمين». وقد تحوّلت هذه الطريقة في البيعة، المصافحة والتهنئة، إلى سنة متبعة منذ ذلك اليوم، حتّى أنّ الخلفاء الذين جاؤوا لاحقاً - وإن لم يكن لهم استحقاق النص - اعتمدوا نفس الطريقة في أخذ البيعة لأنفسهم^٣.

وبعد فراغ كبار الصحابة، أمر رسول الله ﷺ أن يدخل عامة الناس على علي ﷺ أفواجا للتهنئة، كما أمر زوجاته بالذهاب إلى خيمة علي ﷺ لتهنئته بالولاية، ففعلن ذلك^٤.

١. أي: مبارك.

٢. المفيد، الإرشاد، ١: ١٧٧؛ ابن المغازلي، مناقب أمير المؤمنين، ٤٦؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٣٧: ١٨٠؛ الأميني، الغدير، ١: ٣٥.

٣. الطبرسي، الاحتجاج، ١: ٦٦؛ الأميني، الغدير، ١: ٥٠٨-٥٠٩.

٤. مرتضى العامل، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ٣١: ٢٣٤. وتجدر الإشارة إلى أنّ حديث الغدير يُعدّ من الأحاديث المتواترة التي رواها جمع غفير من الصحابة، منهم: أبو بكر، وعمر بن الخطاب، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، والعباس، وزيد بن أرقم، والبراء بن عازب، وبريدة، وأبو هريرة، وأبو سعيد الخدري، وجابر بن عبد الله، وابن عباس، وحشي بن جنادة، وابن مسعود، وعمران بن حصين، وابن عمر، وعمار، وأبو ذر، وسلمان، وأسعد بن زرارة، وخزيمة بن ثابت، وأبو أيوب الأنصاري، وسهل بن حنيف، وحذيفة، وسمرة بن جندب، وزيد بن ثابت، وأنس بن مالك، وغيرهم (راجع: الأميني، الغدير، ١: ٢٩٨-٢٩٩).

سورة المعارج

ورد في الروايات أنّه عقب انتشار خبر واقعة الغدير، قدم شخص يُدعى جابر بن النضر بن الحارث العبدي^١ إلى رسول الله ﷺ معترضاً فقال: «يا محمد! أمرتنا عن الله بشهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، وبالصلاة والصوم والحجّ والزكاة، فقَبِلنا منك، ثمّ لم ترض بذلك حتّى رفعت بضبع ابن عمك^٢ فضَلّته علينا وقلت: من كنت مولاه فعليّ مولاه، فهذا شيء منك أم من الله؟»، فقال رسول الله ﷺ: «والذي لا إله إلا هو، إنّ هذا من الله».

فولّى جابر مدبراً نحو راحلته وهو يقول حانقاً: «اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً، فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم»، فما وصل إلى راحلته حتّى رماه الله بحجر من السماء، وقع على رأسه فقتله في الحال. فأنزل الله تعالى قوله: ﴿سَأَلُكَ بَعْدَاقٍ وَقِيعٍ﴾ (المعارج: ١)^٣.

جيش أسامة

يُعدّ جيش أسامة آخر حملة عسكرية أمر رسول الله ﷺ بتجهيزها لمواجهة التهديدات الرومانية. وقد سُميت بهذا الاسم نسبة إلى قائدها الشاب أسامة بن زيد. ووالده هو زيد بن حارثة، مَوْلى رسول الله ﷺ ومن السابقين الأولين إلى الإسلام؛ ولذا لُقّب زيد وابنه أسامة بـ«الموالي» النبي ﷺ. وُلد أسامة في السنة الرابعة للبعثة/ ٦١٤ م، وكان عمره حين وفاة النبي ﷺ تسعة عشر عاماً^٤.

١. في بعض المصادر ورد الاسم: «الحارث بن النعمان الفهري»، وفي أخرى «جابر بن النضر».

٢. أي: بيد ابن عمك.

٣. للمزيد راجع: الحسكاني، *سواهد التنزيل*، ٢: ٣٨١-٣٨٣؛ ابن شهر آشوب، *مناقب*، ٣: ٤٠؛ القرطبي، *الجامع لأحكام القرآن*، ١٨: ٢٧٨؛ الحلبي، *السيرة الحلبية*، ٣: ٣٠٢؛ المجلسي، *بحار الأنوار*، ٣٧: ١٣٦-١٣٧ و ١٦٢-١٦٣ و ١٧٦.

٤. الواقدي، *كتاب المغازي*، ٣: ١١٢٥.

في أواخر شهر محرم من السنة الحادية عشرة للهجرة^١، أصدر النبي ﷺ أمره للمسلمين بغزو الروم، وعقد اللواء لأسامة بن زيد أميرًا عليهم. عسكر أسامة في منطقة الجُرْف على مشارف المدينة، وبدأ المسلمون يتوافدون للانضمام إليه^٢. تفاوتت التقديرات التاريخية حول عدد الجيش، حيث تراوحت الروايات ما بين ٧٠٠ إلى ٤٠٠٠، بل وذهب بعضها إلى ١٢٠٠٠ مقاتل^٣. وكانت الوجهة المحددة للجيش هي منطقة البلقاء والداروم من أرض الشام وتحديدًا فلسطين^٤.

شمل قرار التعبئة غالبية المهاجرين، حيث خرج جلّ المهاجرين الأولين تقريبًا مع جيش أسامة^٥. وقد ضُمَّت القائمة شخصيات بارزة من المهاجرين والأنصار، منهم أبو بكر، وعمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح^٦. إلّا أنّ تعيين أسامة واجه معارضة من البعض^٧؛ إذ استنكروا تولية شاب حدث السنّ على شيوخ المهاجرين والأنصار وكبار الصحابة، قائلين: «أمر غلامًا حدثًا على جلة المهاجرين والأنصار!»^٨.

١. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٣: ١٨٤.

٢. الواقدي، كتاب المغازي، ٣: ١٨٤؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٦٥٠.

٣. انظر: ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ١٠: ١٣٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٦: ٣٠٥؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٢٨: ١٠٧.

٤. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٣: ١٨٤.

٥. الواقدي، كتاب المغازي، ٣: ١١٨؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٣: ١٨٤.

٦. الواقدي، كتاب المغازي، ٣: ١١٨؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢: ١٤٥-١٤٦؛ ابن سيّد الناس، عيون الأثر، ٢: ٣٥٠.

٧. الواقدي، كتاب المغازي، ٣: ١١٨؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ٢: ١١٥.

٨. ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٦٥٠. ورد في بعض المصادر أنّ رسول الله ﷺ ولتأكيد وجوب إنفاذ جيش أسامة قال: «لعن الله من تخلف عن جيش أسامة» (ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٦: ٥٢؛ وانظر أيضًا: الشهرستاني، الملل والنحل، ١: ٣٠؛ الآمدي، أبكار الأفكار، ٥: ٣٧). وقد ذهب البعض، مع قبولهم بوقوع تخلف أبي بكر وعمر، إلى أنّ ذلك كان اجتهادًا منها مقابل النص النبوي، رعاية للمصلحة

رزية يوم الخميس

في أوائل سنة ١١هـ، اشتدّ المرض برسول الله ﷺ وهو في بيته. وفي يوم الخميس - قبل وفاته بأيام قلائل - وحينما غلب عليه الوجد، قال ﷺ: «أتتوني بكتف ودواة، أكتب لكم كتابًا لن تضلّوا بعده أبدًا». فحدث لغط واضطراب بين الحاضرين حول سرير النبي ﷺ، فقال عمر بن الخطاب: «إنّ رسول الله قد غلبه الوجد، وعندكم القرآن. حسبنا كتاب الله»^١. وقع الخلاف بين مَنْ في البيت؛ فمنهم من يقول: «قربوا يكتب لكم النبي كتابًا لا تضلّوا بعده»، ومنهم مَنْ يقول ما قال عمر. فلمّا كثر اللغط والاختلاف بمحضر النبي ﷺ، قال لهم: «قوموا عني! ولا ينبغي عندي التنازع». وقد عُرِفَت هذه الحادثة في التاريخ بـ«رزية يوم الخميس»، وكان عبد الله بن عباس كلّما تذكّر هذا اليوم بعد وفاة النبي ﷺ، يبكي حتّى تبلّ دموعه لحيته، ويقول بمرارة: «يوم الخميس! وما يوم الخميس!... إنّ الرزية كلّ الرزية، ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغظهم»^٢.

(ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٢: ٨٣؛ وانظر أيضًا: الآمدي، أبحار الأفكار، ٥: ٢٥٠).

١. وردت هذه الحادثة في مصادر أهل السنة بألفاظ مختلفة. ففي غالب المصادر جاءت بلفظ: «غلب عليه الوجد» (انظر: الصنعاني، المصنف، ٥: ٤٣٨؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢: ١٨٧؛ البخاري، صحيح البخاري، ١: ٣٦-٣٧ و ٧: ٩؛ مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، ٥: ٧٦). ولكن ورد أيضًا في مصادر معتبرة مثل صحيح البخاري، بلفظ صريح: «إنّه ليهجر» (أي يهذي) (البخاري، صحيح البخاري، ٧: ١٣٧، باب مرض النبي ووفاته).

٢. راجع: الصنعاني، المصنف، ٥: ٤٣٨؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢: ١٨٨؛ أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ٥: ١٣٤-١٣٥؛ البخاري، صحيح البخاري، ١: ٣٤ و ٩: ١١١؛ المفيد، الإرشاد، ١: ١٨٤؛ ابن شهر آشوب، مناقب، ١: ٢٣٢ و ٢٣٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٥: ٢٢٧ و ٢٥١؛ المقرئ، إمتاع الأسماع، ١٤: ٤٤٦-٤٤٧؛ الصالح الشامي، سبل الهدى، ١٢: ١٤٨؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٢٢: ٤٦٨.

وفاة النبي ﷺ

اشتدّ المرض برسول الله ﷺ وقد حَفَّ به أصحابه، فقام عمار بن ياسر وسأل: «فداك أبي وأمي يا رسول الله، مَنْ يَغْسِلُكَ مِنَّا إذا كان ذلك منك؟»، قال ﷺ: «ذاك علي بن أبي طالب. لأنّه لا يهَمُّ بعضو من أعضائي، إلّا أعانته الملائكة على ذلك»، قال عمار: «فداك أبي وأمي يا رسول الله، فَمَنْ يَصَلِّيُ عَلَيْكَ مِنَّا إذا كان ذلك منك؟»، قال ﷺ: «مه، رحمك الله!». ثمّ التفت إلى عليّ عليه السلام وقال له: «ضع يا علي رأسك في حجرى، فقد جاء أمر الله تعالى. فإذا فاقت نفسي، فتناولها بيدك وامسح بها وجهك. ثمّ وجّهني إلى القبلة وتولّ أمري، وصلّ عليّ أوّل الناس ولا تفارقني حتّى تواريني في رمسى، واستعن بالله تعالى»^١.

ثمّ وجّه ﷺ خطابه لأصحابه مبيّناً كيفيّة الصلاة عليه: «احملوني حتّى تضعوني على شفير قبري. فأوّل مَنْ يَصَلِّيُ عَلَيَّ، الجبّار جلّ جلاله من فوق عرشه، ثمّ جبرئيل وميكائيل وإسرافيل في جنود من الملائكة، لا يحصي عددهم إلّا الله عزّ وجلّ، ثمّ الحافون بالعرش، ثمّ سكّان أهل سماء فسما». ثمّ خاطب عليّاً عليه السلام وقال: «يا علي، كُنْ أنت وفاطمة والحسن والحسين، وكبروا خمساً وسبعين تكبيرة، وكبر خمساً وانصرف. وذلك بعد أن يؤذّن لك في الصلاة»، قال عليّ عليه السلام: «ومن يأذن لي بها؟»، قال ﷺ: «جبرئيل يؤذّنك بها. ثمّ رجال أهل بيتي يصلّون عليّ فوجاً فوجاً». عندئذ سأل أبو بكر: «مَنْ يدخل قبرك؟»، قال ﷺ: «الأدنى فالأدنى من أهل بيتي، مع ملائكة لا ترونهم. قوموا فأدّوا عنيّ إلى مَنْ وراءكم»^٢.

١. الصدوق، الأُمالي، ٦٣٣؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٥٠٧: ٢٢.

٢. المجلسي، بحار الأنوار، ٤٧٠: ٢٢.

٣. الصدوق، الأُمالي، ٦٣٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٥: ٢٥٣؛ الصالحى الشامى، سبل الهدى، ١١: ٢٥٤؛

المجلسي، بحار الأنوار، ٥٠٧: ٢٢ و ٥٣١: ٧٨؛ ٣٧٩-٣٨٠.

أسند علي بن أبي طالب عليه السلام رأس النبي صلى الله عليه وآله إلى صدره، فبينما يد عليه السلام تحت حنكه، فاضت روحه الشريفة. فوجّه الجسد الطاهر إلى القبلة، وأغمض عينيه، ومدّ عليه رداءه، ثمّ اشتغل بتجهيزه^١.

كان ذلك اليوم العصيب هو يوم الإثنين، الثامن والعشرين من شهر صفر سنة إحدى عشرة للهجرة^٢، وكان عمر النبي صلى الله عليه وآله حين وفاته ٦٣ عامًا^٣.

تجهيز النبي صلى الله عليه وآله ودفنه

تولّى علي بن أبي طالب عليه السلام بنفسه غسل رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان يقول وهو يغسله: «بأبي أنت وأمي! طبتّ حيًّا وطبتّ ميتًا». وقد عبقت الأجواء برائحة طيّبة لم يجد الحاضرون أطيب منها قط^٤. وعملاً بالوصية النبوية، غسله علي عليه السلام بسبع قِرب من ماء بئر عَرَس، وهي بئر في المدينة كان النبي صلى الله عليه وآله يستعذب ماءها^٥. واستعمل في غسله السدر والكافور، وتشير الروايات إلى أنّ هذا الكافور^٦ نزل به جبرائيل من الجنة، وكان وزنه أربعين درهماً، فقسّمه النبي صلى الله عليه وآله ثلاثة أجزاء: جزءاً لنفسه، وجزءاً لعلي^٧، وجزءاً لفاطمة عليها السلام^٨.

١. المفيد، الإرشاد، ١: ١٨٧؛ الطبرسي، إعلام الوري، ١٣٦؛ ابن شهر آشوب، مناقب، ١: ٢٠٣.

٢. المفيد، الإرشاد، ١: ١٨٩؛ الطبرسي، مجمع البيان، ٢: ٢١٤؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٢٢: ٥١٤ و ٥٣١.

٣. ابن قتيبة، المعارف، ٧٥؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢: ٤٥٣؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٥٥: ٣٦٢ و ٣٦٤.

٤. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢: ٢١٤-٢١٥؛ المقرئ، إمتاع الأسعاع، ١٤: ٥٧٢؛ الصالح الشامي، سبل الهدى، ١٢: ٣٢٢.

٥. ابن ماجه، سنن ابن ماجه، ١: ٤٧١؛ المزني، تهذيب الكمال، ٣: ١١٢؛ الصالح الشامي، سبل الهدى، ١٢: ٣٢٣.

٦. الحنوط.

٧. روي عن هارون بن سعيد، أنّ علياً عليه السلام كان عنده مسك فأوصى أن يُحطّط به وقال: «هو فضل حنوط رسول الله» (ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢: ٢٨٨؛ البيهقي، دلائل النبوة، ٧: ٢٤٩؛ المقرئ، إمتاع الأسعاع،

وقد أوصى النبي ﷺ علياً ﷺ ألا يغالي في كفته^١، فكفّنه علي ﷺ -الذي انفرد بتجهيزه^٢- في ثلاثة أثواب، وكان الغسل قد تمّ والنبي ﷺ في قميصه^٣.

وقع الاختلاف في موضع الدفن؛ فاقترح البعض البقيع، واقترح آخرون صحن المسجد. فحسم علي ﷺ الأمر بقوله: «إن الله لم يقبض روح نبيه إلا في أطهر البقاع، فينبغي أن يُدفن حيث قبض»، فاتفق الجميع على دفنه في حجرته التي توفي فيها^٤.

لما فرغ من جهازه، وُضع ﷺ على سريرته، ثم وقف علي ﷺ على الباب^٥، وأذن للناس بالدخول عشرة عشرة. فكانوا يدخلون ويحيطون بالجثمان الطاهر، وعلي ﷺ واقفاً بينهم يتلو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٥٦)، فردد القوم الآية ويصلّون عليه ويسلمون، ثم يخرجون ليدخل غيرهم^٦.

نزل في القبر لدفن النبي ﷺ علي بن أبي طالب ﷺ، والعباس بن عبد المطلب، والفضل بن العباس، وأسامة بن زيد. وفي تلك الأثناء، نادى الأنصار من خلف الجدار: «يا علي! إننا نذكرك الله وحقنا اليوم من رسول الله أن يذهب، أدخل منا

١٤: ٥٨٠؛ الصالحى الشامى، سبل الهدى، ١٢: ٣٢٤).

٨. الكليني، الكافي، ٣: ١٥١؛ الصدوق، علل الشرائع، ١: ٣٠٢؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٢٢: ٥٤٤-٥٤٥.

١. المجلسي، بحار الأنوار، ٢٢: ٤٩٣-٤٩٤.

٢. الطوسي، الأمالي، ٥٥٥-٥٥٦.

٣. ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٦٦٣؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢: ٢٨٥؛ البيهقي، تاريخ البيهقي، ٢: ١١٤.

٤. الطبرسي، إعلام الوري، ١٠؛ ابن شهر آشوب، مناقب، ١: ٥٠٥-٥٠٦.

٥. المجلسي، بحار الأنوار، ٢٢: ٥١٧ و ٥٤٠ و ٧٨: ٣٠٢.

٦. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢: ٢٣٠؛ الصالحى الشامى، سبل الهدى، ١٢: ٣٢٩؛ ابن شهر آشوب، مناقب، ١: ٢٠٦.

رجلاً يكون لنا به حظٌّ من مواراة رسول الله»، فقال عليٌّ: «ليدخل أوس بن خُوَلي»، وهو بدري من وجوه الخزرج. فنزل أوس إلى القبر، وناولهُ عليٌّ الجسد الشريف. فلما استقر الجسد في القبر، قال له عليٌّ: «اخرج»، فخرج أوس، ونزل عليٌّ إلى القبر، فكشف عن وجه رسول الله ﷺ، ووضع خدَّ الشريف على التراب موسداً إياه يمينه مستقبل القبلة، ثم أهال عليه اللحد والتراب^١. ورفع القبر عن الأرض قدر شبر وأربع أصابع، ثم رَشَّ عليه الماء، قائلاً: «والسنَّة أن يُرَشَّ على القبر الماء»^٢.

بعد أن سُوي عليه التراب، أقبلت فاطمة الزهراء ﷺ إلى قبر أبيها، فأخذت قبضة من تراب القبر فوضعتها على عينيها، وأنشأت تقول تلك الأبيات الخالدة:

ماذا على من شمَّ تربة أحمدٍ أن لا يشمَّ مدى الزمانِ عَواليا
صُبَّتْ عليَّ مصائبُ لو أنَّها صُبَّتْ على الأيامِ صِرْنَ كَيالِيا^٣

لقد شهد دفن النبي ﷺ عدد قليل من المسلمين، وغاب عنه السواد الأعظم؛ لانشغالهم في «سقيفة بني ساعدة» وبالمنازعة على الخلافة. ولذا، لما أصبح الصباح، قالت فاطمة ﷺ: «وا سوا صباحاه!»، فسمعها أبو بكر فقال: «إنَّ صباحك لصباح سوء»^٤.

١. المفيد، الإرشاد، ١: ١٨٨-١٨٩؛ الطبرسي، إعلام الوري، ١٤٣-١٤٤؛ وانظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢: ٣٢٨؛ البيهقي، دلائل النبوة، ٧: ٢٥٢؛ الصالحى الشامى، سبل الهدى، ١٢: ٣٣٤.

٢. الحميري، قرب الإسناد، ١٥٥.

٣. ابن سيّد الناس، عيون الأثر، ٢: ٤٠٦؛ الصالحى الشامى، سبل الهدى، ١٢: ٣٣٧.

٤. المفيد، الإرشاد، ١: ١٨٩.

اجتماع السقيفة

بينما كان الإمام علي عليه السلام وثلة من بني هاشم والصحابة الخُلص منشغلين بتجهيز جثمان النبي ﷺ ومراسم تدفينه، تداعى نفر من الأنصار بقيادة سعد بن عباد -سيد الخرج- للاجتماع في سقيفة بني ساعدة^١ للتشاور في أمر الخلافة وتعيين خليفة لرسول الله ﷺ.

استهّل سعد بن عباد الاجتماع بخطبة أكد فيها أنّ الخلافة حق حصري للأنصار، لما بذلوه من نصره وإيواء. وقد أيده الحاضرون في ذلك، إلا أنّ بعضهم تحسباً لمخالفة المهاجرين لهذا الطرح، اقترحوا حلاً وسطاً وهو اختيار أمير من كلا الطرفين واقتسام السلطة بين المهاجرين والأنصار^٢.

تسرّب خبر الاجتماع إلى أبي بكر وعمر بن الخطاب، فانطلقا مسرعين ومعهما أبو عبيدة بن الجراح، حتّى وصلوا إلى السقيفة. خطب أبو بكر في القوم، مدّعياً أفضليّة المهاجرين ومؤكّداً على أولوية قريش في تولّي منصب الخلافة^٣. أثارت كلماته جدلاً واسعاً بين أخذ وردّ، وارتفعت أصوات معارضة، حتّى أنّ بعض الأصوات نادى صراحةً بأحقية علي بن أبي طالب عليه السلام بخلافة رسول الله ﷺ^٤.

آخر الأمر، طرح أبو بكر اسمي عمر وأبي عبيدة الجراح مرشحين للخلافة، لكنّهما رفضا التقدّم عليه. وينقل عمر بن الخطاب واصفاً تلك اللحظات الحرجة: «فارتفعت الأصوات وكثر اللغط، فلمّا اشفقت الاختلاف، قلت لأبي بكر: ابسط يدك اباعك!».

١. السقيفة: هو بناء مسقوف أو دكة مظلمة، كانت القبائل العربية تتخذها مجلساً للشورى والبت في القضايا

العامّة. وكانت السقيفة المذكورة هنا خاصة ببني ساعدة، بطن من الخرج.

٢. ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ١: ٢٢.

٣. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٢: ٣٢٧.

٤. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٣: ٢٠٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٢: ٣٢٥؛ ابن أبي الحديد، شرح

نهج البلاغة، ٢: ٢٢.

ولكن قبل أن تمتد يد عمر، بادر بشير بن سعد الخزرجي، وهو من منافسي ابن عمه سعد بن عباد، فسبقه وبايع أبا بكر^١. بمجرد وقوع البيعة الأولى، تدافع الحاضرون للتسليم والبيعة، وحدث هرج ومرج شديد، حتى كاد سعد بن عباد - وكان مريضاً مسجى بينهم - أن يُوطأ بالأقدام ويُقتل تحت أرجل المتدافعين^٢.

ينقل الصحابي البراء بن عازب مشهداً حياً لما جرى في شوارع المدينة عقب مؤتمر السقيفة، قائلاً: «فلم ألبث وإذا أنا بأبي بكر قد أقبل ومعه عمر وأبو عبيدة وجماعة من أصحاب السقيفة، وهم مُحْتَجِزون بالأُزُر الصنعانية، لا يمرّون بأحد إلا خبطوه^٣، وقدّموه فمدّوا يده فمسحوها على يد أبي بكر، شاء ذلك أم أبى^٤».

ويشير الطبري (ت. ٣١٠هـ) إلى الدور الحاسم الذي لعبته قبيلة أسلم - وهم أعراب سكنوا ضواحي المدينة - في حسم الموقف لصالح أبي بكر. فقد تدفقت جموعهم إلى المدينة حتى ضاقت بهم السكك والأسواق، وكانوا بمثابة قوة ضاربة لتثبيت البيعة. وهو ما اعترف به عمر بن الخطاب صراحةً بقوله: «ما هو إلا أن رأيتُ أسلم، فأيقنتُ بالنصر»^٥.

وفي تفصيل آخر لكيفية حشد هؤلاء، يروي الشيخ المفيد (ت. ٤١٣هـ) عن زائدة بن قدامة:

كان جماعة من الأعراب قد دخلوا المدينة ليمتاروا منها^٦، فشغل الناس عنهم بموت

١. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٣: ٢٠٦؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٢: ٣٢٧.

٢. ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ١: ٢٧.

٣. أي: ضربه.

٤. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١: ٢١٩.

٥. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٣: ٢٢٢.

٦. أي: يجلبوا الطعام منها.

رسول الله ﷺ. فشهدوا البيعة وحضروا الأمر فأنفذ إليهم عمر واستدعاهم وقال لهم: «أخذوا بالخطِّ والمعونة على بيعة خليفة رسول الله، واخرجوا إلى الناس واحشروهم ليبياعوا. فَمَنْ امتنع فاضربوا رأسه وجبينه». قال: فوالله لقد رأيتُ الأعراب قد تحزَّموا واتَّشحو بالأُزر صنعانية، وأخذوا بأيديهم الخشب وخرجوا حتَّى خبطوا الناس خطبًا وجاءوا بهم مكرهين إلى البيعة^١.

في أواخر حياته، أقرَّ عمر بن الخطاب في خطبة عامَّة بأنَّ طريقة بيعة أبي بكر لم تكن مسارًا طبعيًّا أو شوري حقيقيَّة، بل وصفها بـ«الفَلْتَة»^٢ قائلاً: «إنَّ بيعة أبي بكر كانت فلتة وقي الله شرَّها... فمن عاد لمثلها فاقتلوه»^٣.

بعد سنوات طويلة، وفي سياق الصراع السياسي، كتب معاوية بن أبي سفيان رسالة إلى محمد بن أبي بكر -والي علي عليه السلام- على مصر -يكشف فيها بوضوح عمَّا حدث في السقيفة، مقرًّا بفضل علي عليه السلام ومؤكِّدًا وقوع التأمُّر عليه. ومَّا جاء في رسالته:

فقد كنَّا وأبوك معنا في حياة نبيِّنا، نرى حقَّ ابن أبي طالب لازمًا لنا، وفضله مبررًا علينا... فلَمَّا قبض الله نبيِّه... كان أبوك وفاروقه أوَّل من ابتزَّه حقُّه، وخالفه على أمره. على ذلك اتَّفقا واتَّسقا... ثمَّ إنَّهما دعواه إلى بيعتهما، فأبطأ عنهما وتلكأ عليهما، فهما به الهموم وأرادا به العظيم...^٤.

١. المفيد، الجمل، ٤٣.

٢. الزلة أو الأمر المفاجيء الذي يحدث دون تروٍّ.

٣. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢: ١٥٨؛ وانظر أيضًا: البلاذري، أنساب الأشراف، ١: ٥٨١؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٣: ٢٠٥ (بلفظ: «كانت فلتة كفلتات الجاهلية»؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ٣: ٨).

٤. عمر بن الخطاب.

٥. نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ١١٩-١٢١؛ المسعودي، مروج الذهب، ٣: ١٢-١٣؛ وانظر أيضًا: البلاذري، أنساب الأشراف، ٢: ٣٩٦-٣٩٧. ويجدر بالذكر أنَّ الطبري حين وصل إلى ذكر المراسلات بين

الإعراضات على خلافة أبي بكر

تشير الأخبار التاريخية إلى أنّ خلافة أبي بكر لم تحظَ بالإجماع العام كما رُوجَ له، فقد رفض أهل البيت (عليه السلام) - وفي مقدّمهم علي وفاطمة (عليه السلام) - الاعتراف بشرعية ما حدث في السقيفة. كما انضمّ إليهم نخبة من كبار الصحابة الذين رأوا في نتائج السقيفة انقلاباً صريحاً على النصوص النبوية المتواترة - خاصة حديث الغدير - وتجاوزاً للوصية الإلهية. ومن أبرز هؤلاء المعارضين: الفضل وعبد الله ابنا العباس عمّ النبي (صلى الله عليه وآله)، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، والمقداد بن الأسود، وخالد بن سعيد، وأبيّ بن كعب، والزبير بن العوام، وحذيفة بن اليمان.

تصاعدت وتيرة المعارضة لتتحوّل إلى احتجاج علني في المسجد النبوي. فقد توافق اثنا عشر رجلاً من وجوه المهاجرين والأنصار على مواجهة أبي بكر بالحجّة. وفي يوم الجمعة، وبينما كان أبو بكر يخطب على المنبر، قام هؤلاء واحداً تلو الآخر، وفندوا شرعية خلافته، مؤكّدين أحقية أمير المؤمنين (عليه السلام)¹. وهؤلاء الاثنا عشر هم:

من المهاجرين ستة: خالد بن سعيد بن العاص من بني أمية، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، والمقداد بن الأسود، وبُرَيْدة الأسلمي، وعمار بن ياسر. ومن الأنصار ستة آخرون: خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، وسهل بن حنيف، وأبو الهيثم بن التّيهان، وقيس بن سعد بن عبادة²، وأبيّ بن كعب، وأبو أيوب الأنصاري.

محمد بن أبي بكر ومعاقبة، امتنع عن إيراد النصّ الكامل، معلّلاً ذلك بأنّ «العامة لا تحتمل سماعه»، ممّا يشير إلى خطورة المضامين الواردة فيها (انظر: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٤: ٥٥٧).

١. البرقي، كتاب الرجال، ٦٣-٦٦؛ الطبرسي، الاحتجاج، ١: ٩٧-١٠٥. ويقول السيّد ابن طاووس (ت. ٦٦٤هـ): «اعلم أنّ هذا الحديث روته الشيعة متواترين، ولو كانت هذه الرواية رجال الشيعة، ما نقلناه. لأنّهم عند مخالفتهم في مقام متّهمين، ولكن نذكره حيث هو من طريقهم الذي يعتمدون عليه...». ثمّ أورده نقلاً عن أحمد بن محمد الطبري، من علماء السنة في القرن الرابع بلفظه (ابن طاووس، اليقين، ٣٣٥-٣٤٢).

٢. نقل الشيخ الصدوق (ت. ٣٨١هـ) في كتاب الخصال بسنده عن زيد بن وهب: «الذين أنكروا على أبي بكر

وفي الأيام الأولى، حينما حاولت السلطة الجديدة إجبار الإمام علي عليه السلام على البيعة، واجههم بمنطقهم نفسه الذي غلبوا به الأنصار، فقال لهم: «أنا أحق بهذا الأمر منكم، لا أبايحكم وأنتم أولى بالبيعة لي. أخذتم هذا الأمر من الأنصار واحتججتم عليهم بالقرابة من رسول الله، فأعطوكم المقادة وسلّموا إليكم الإمارة. وأنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار، فأنصفونا إن كنتم تخافون الله من أنفسكم، واعرفوا لنا من الأمر مثل ما عرفت الأنصار لكم، وإلا فبوءوا بالظلم وأنتم تعلمون»^١.

تشير بعض الروايات إلى أن الإمام علياً عليه السلام أجرى مناظرة مفصلة وصریحة مع أبي بكر حول مسألة الخلافة، أدان فيها تخلّفه عن البيعة الشرعیّة وتجاهله حقّ أهل البيت عليه السلام. وقد كان لقوّة حجة أمير المؤمنين عليه السلام أثر بالغ، حتّى أن أبا بكر رقّ وانكسر عند سماعه، وكاد يسلم الأمر لعلي عليه السلام ويعتزل^٢.

لم يتوقّف الإمام علي عليه السلام عن التذكير بحقه في مناسبات شتى، وتعدّد الخطبة الشّقشقيّة من أشهر وثائقه التاريخية التي صرح فيها بمظلوميته. ومّا جاء في مطلعها قوله: «أما والله لقد تقمّصها ابن أبي قحافة [أبو بكر]، وإنّه ليعلم أن محلي منها محلّ القُطب من الرّحى، ينحدر عني السيل، ولا يرقى إليّ الطير...»^٣.

عقب أحداث السقيفة، كان علي عليه السلام يحمل فاطمة الزهراء عليها السلام ليلاً، ويطوف بها على بيوت كبار الأنصار يطلب نصرتهم. فكانوا يعتذرون بسبق بيعتهم لأبي بكر، غياب

جلوسه في الخلافة وتقدّمه على علي بن أبي طالب اثنا عشر رجلاً...». ولكن ورد في روايته اسم «عبد الله بن مسعود» بدلاً من «قيس بن سعد بن عبادة» (الصدوق، الخصال، ٢: ٤٦١-٤٦٥).

١. ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ١: ٢٨-٢٩؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٦: ١١.

٢. راجع: الطبرسي، الاحتجاج، ١: ١١٥-١٣٠.

٣. الصدوق، علل الشرائع، ١: ١٥٠؛ المفيد، الإرشاد، ١: ٢٨٧؛ الشريف الرضي، نهج البلاغة، الخطبة ٣.

علي^{عليه السلام} في السقيفة، فكان^{عليه السلام} يجيبهم: «أفكنت أدع رسول الله في بيته لم أدفنه، وأخرج أنزع الناس سلطانه؟»^١.

وقفت السيدة فاطمة الزهراء^{عليها السلام} سداً منيعاً أمام انحراف السقيفة، معتبرة إياه انقلاباً على وصايا النبي^{صلى الله عليه وآله}. وتجلّى رفضها في مواقف حاسمة، منها ما قالتها حينما حاصروا دارها لإجبار علي^{عليه السلام} على البيعة^٢. وفي خطبتها الشهيرة بـ«الخطبة الفدكية» التي ألقتها في مسجد أبيها، والتي تُعدّ وثيقة سياسية وعقائدية دامغة^٣. كذلك في خطابها اللاذع لئساء المهاجرين والأنصار اللاتي جئن لعيادتها في مرض الذي أدّى إلى وفاتها، حيث حذّرت من الفتن التي ستجرّها السقيفة على الأمة الإسلامية^٤.

اختلفت المصادر التاريخية اختلافاً جوهرياً حول حقيقة وتوقيت بيعة الإمام علي^{عليه السلام}. يذهب بعض علماء الشيعة كالشيخ المفيد، إلى أنّ علياً^{عليه السلام} لم يبايع أبا بكر قطّ، لا في يوم السقيفة ولا بعده^٥. وتفيد بعض الروايات الشيعية أنّه^{عليه السلام} أُجبر تحت التهديد، ومع ذلك لم يبسط يده، بل قبضها فمسحوا عليها مسحاً^٦. وفي المقابل تذهب مصادر أهل السنة إلى أنّه^{عليه السلام} امتنع عن البيعة ستة أشهر، ولم يبايع إلا بعد وفاة فاطمة الزهراء^{عليها السلام}^٧.

١. ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ١: ٢٩-٣٠؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٦: ١٣.

٢. ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ١: ٣٠-٣١.

٣. للاطلاع، انظر: ابن طيفور، بلاغات النساء، ١٩-٢٣.

٤. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٦: ٢٣٣-٢٣٤؛ الإربلي، كشف الغمة، ١: ٤٩٢.

٥. المفيد، الفصول المختارة، ٥٦.

٦. الهلالي، كتاب سليم بن قيس، ٢: ٥٩٣؛ المسعودي، إثبات الوصية، ١٤٦؛ الطبرسي، الاحتجاج، ١:

١٣٠.

٧. كنموذج، انظر: البخاري، صحيح البخاري، ٥: ١٣٩؛ مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، ٣: ١٣٨٠.

القسم الثاني: المقالات

مصادر السيرة النبوية

محمد رضا الخاقاني

مقدمة في التدوين التاريخي الإسلامي

احتلّ التاريخ مكانة متميّزة لدى المجتمع العربي قبل الإسلام؛ فقد كانت الانتصارات والأحداث الجسام تخلّد في الذاكرة بأسماء محدّدة، وكانت القبائل المنتصرة تفتخر بها. وقد عُرِفَت هذه الأيام الهامّة بـ«أيام العرب»، وحظيت بموقع هامّ في الذاكرة التاريخية للمجتمع العربي. وعلى سبيل المثال، يشير هشام بن محمّد الكلبي (ت. ٢٠٤هـ) في كتابه حول علم الأنساب إلى نماذج عديدة من هذه الوقائع تحت عنوان أيام العرب^١. وبعد بعثة النبي ﷺ في الحجاز، ازدادت مسألة التاريخ أهميّة، وقد ادّعى البعض أنّ اهتمام المسلمين بالتاريخ نابع من المضامين التاريخية في القرآن الكريم^٢. ولعلّنا نستطيع

١. انظر: ابن الكلبي، *جمهرة النسب*، ٧٢٦.

2. Rosenthal, *A History of Muslim Historiography*, 27-28.

القول بأن الموضوع الأهمّ والرئيسي في المكتوبات التاريخية الأولى للمسلمين، كان نقل وتدوين الأحداث التاريخية التي تتمحور حول حياة وشخصية النبي ﷺ.

يُمكن تنظيم مراحل تدوين العلوم في المجتمع الإسلامي -بما فيها التدوين التاريخي- في ثلاث مراحل متتالية:

١. **التدوين الشخصي:** كتابة العلوم بناءً على الذوق الشخصي والفضول العلمي، دون وجود تبويب أو تنظيم محدّد. وقد استمرّت هذه المرحلة حتّى بداية القرن الثاني الهجري.

٢. **التدوين المبوّب:** تدوين العلوم المختلفة بناءً على ترتيب وتبويب محدّد ووفق هيكلية معلومة. وقد سادت هذه المرحلة خلال القرن الثاني الهجري.

٣. **التدوين الحولي:** كتابة العلوم، ولا سيّما التاريخ، مرتّبة حسب السنوات، وذلك خلال القرن الثالث الهجري^١.

بعد اجتياز هذه المراحل الثلاث، وصل التدوين التاريخي إلى شكل قياسي من حيث القالب والترتيب. ومن خلال تتبّع مسار تطوّر التدوين التاريخي الإسلامي، نجد أنّ هذا العلم نشأ أولاً في رَحِم «علم الحديث»؛ ولذا كان كثير من المؤرّخين في عداد المحدثين والحفّاظ، وكانت الكتابة التاريخية للمسلمين في بدايتها عبارة عن جمع لمجموعات حديثة.

والنقطة الجديرة بالانتباه هي أنّ الأفكار الكلامية والنزعات السياسيّة كان لها تأثير بالغ على الروايات التاريخية، وخصوصاً تدوين السيرة النبوية. فمن نماذج هذه التأثيرات نتمكّن من الإشارة إلى ما جرى عند تقديم سيرة أبان بن عثمان بن عفان(ت. ١٠٥هـ) إلى سليمان بن عبد الملك(ت. ٩٩هـ) إبّان ولاية عهده؛ حيث أمر سليمان

١. مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ١: ٩٢-١٠١.

بإحراق نسخ تلك السيرة، لأنّه رأى أنّ ما جمعه أبان لا يصبّ في مصلحة الحكومة^١. ومن تلك الموارد ما أمر خالد بن عبد الله القسري (ت. ١٢٠هـ) -والي بني أمية- لابن شهاب الزهري (ت. ١٢٤هـ) بوضع ما يُظهر أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام بمظهر أهل النار^٢. كما نلاحظ نماذج متعدّدة لتأثير هذه التوجّهات والمباني الاعتقادية على تدوين السيرة في آثار مؤرخين كبار مثل ابن هشام (ت. ٢١٤هـ)، والطبري (ت. ٣١٠هـ) وابن كثير (ت. ٧٧٤هـ).

من المعلوم أنّه مع نزول القرآن الكريم في المجتمع الإسلامي، تراجع الاهتمام بالأشعار والتفاخر بحكايات الماضي الجاهلي إلى الهامش، وانعطفت النظرة التاريخية نحو مسارين: تفسير الإشارات التاريخية الواردة في القرآن حول الأنبياء والأمم السابقة، وتسجيل وقائع حياة النبي ﷺ وأحداث عصره، وهو ما سُمّي لاحقاً بـ«السيرة والمغازي» أو «السيرة».

وعلى الرغم من أنّ التعاليم الإسلامية كانت تتعارض بشدّة مع التفاخر القبلي والتميز الاجتماعي الجائر، إلّا أنّ هذه التمييزات عادت للظهور بعد وفاة رسول الله ﷺ، ولا سيما في أمور مثل تقسيم غنائم الفتوحات. فعندما تولّى عمر بن الخطاب (حكم ١٣-٢٣هـ) زمام الحكم، جعل النظام القبلي والاختلاف الطبقي أساساً لإدارة الأمور. وبناءً عليه، تحدّد نصيب الأفراد من بيت المال وفقاً لقبيلتهم ومكانتهم الاجتماعية؛ ومن ذلك عدم مساواة سهم الأنصار بسهم المهاجرين. وقد انسحب هذا الإجراء حتّى على تنظيم الجيوش للفتوحات. وبهذا الشكل، استعاد النظام القبلي والأنساب أهمّيته بسبب تبعاته الاقتصادية والاجتماعية، وعاد ليحظى بالاهتمام في نقل الروايات والمباحث التاريخية.

١. انظر: الزبير بن بكار، الأخبار الموفقيات، ٣٣١-٣٣٣.

٢. أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ٢٢: ٢٨١.

بعد الفتوحات واتّسع رقعة الدولة الإسلامية، أصبح المجتمع الإسلامي يضمّ أعرافاً مختلفة من عرب الشمال والجنوب، والفرس، واليهود، والمسيحيين. فقام كلّ قوم من هؤلاء بجمع وتدوين تاريخهم الخاص لمواجهة التفاخر العربي^١. يُمكن تقسيم ودراسة مسار نشأة وتحولات التدوين التاريخي الإسلامي في ثلاث مناطق رئيسية، هي: المدينة، والشام، والعراق.

مدرسة المدينة (من القرن الأول حتى أواخر القرن الثالث الهجري)

كانت المدينة المنورة -بصفتها عاصمة الدولة الإسلامية في عهد النبي ﷺ والخلفاء، وموطن إقامة الكثير من الصحابة- القبلة الأولى لطلاب العلم من مختلف الأقطار الإسلامية. قصدوها لنهل العلوم الدينية كالشريعة والتفسير، فغدت بذلك «المدرسة الأم» لكافة العلوم الإسلامية، ولم يكن علم التاريخ استثناءً من ذلك. يبرز عبد الله بن عباس (ت. ٦٨هـ) كأحد أهمّ أعمدة هذه المرحلة؛ إذ لم يقتصر دوره على الفقه، بل نال لقب «البحر» لتبحّره وشموليّة علمه بالتفسير، واللغة، والشعر، والأنساب، وأخبار العرب وأيامهم. يمكن تصنيف رواد الرواية التاريخية في هذه المدرسة إلى جيلين رئيسيين: الجيل الأول، وهُم: سهل بن أبي خُثَيْمة الأنصاري (توفي في عهد معاوية ٤١-٦٠هـ)، سعيد بن المسيّب المخزومي (ت. ٩٤هـ)، أبان بن عثمان بن عفان (ت. ١٠٥هـ)، عروة بن الزبير بن العوام (ت. ٩٤هـ)، وسعيد بن سعد بن عباد الخزرجي (ت. ١٢٣هـ). والجيل اللاحق، وهُم: محمّد بن مسلم بن شهاب الزُّهري (ت. ١٢٤هـ)، محمّد بن إسحاق (ت. ١٥١هـ)، أبو مَعْشَر السَّنْدي (ت. بعد ١٧٠هـ)، ومحمّد بن عمر الواقدي (ت. ٢٠٧هـ)^٢.

١. مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ١: ١١٤-١١٨.

٢. م. ن. ١: ١٥١-١٥٥؛ الدوري، نشأة علم التاريخ عند العرب، ٥٣-٦٦.

تميّزت مدرسة المدينة بالتركيز على ثلاثة مسارات تاريخية: السيرة والمغازي - وهو المجال الأوفر حظاً والأكثر اهتماماً -، الأنساب، والتاريخ العالمي^١. وقد طغى تدوين السيرة والمغازي على الأنساب، بينما واجه تدوين التاريخ العالمي بعض المعارضة في الأوساط المدنية، ربما للتحفظ الديني آنذاك.

اعتمدت هذه المدرسة في كتابتها للتاريخ على المنهج الروائي، حيث تُساق الأخبار التاريخية مدعومة بسلسلة الأسناد معنعة، متأثرة في ذلك بمنهج المحدثين. ويُعد كتاب السير والمغازي لابن إسحاق من أهم نتاجات هذه المدرسة. ومع انتقال الثقل السياسي للعاصمة من المدينة، انتقل التراث العلمي التاريخي منها إلى حواضر أخرى. فانتقل تراث هذه المدرسة عبر ابن شهاب الزهري وعروة بن الزبير إلى الشام^٢، بينما انتقل هذا التراث عبر ابن إسحاق، وأبي معشر السندي، والواقدي إلى العراق^٣.

وبانتقال عاصمة الخلافة إلى بغداد، بدأت المدينة المنورة تفقد مركزيتها العلمية تدريجياً، حتى تلاشت مكانتها كمركز لإنتاج المعرفة التاريخية بحلول أواخر القرن الثالث الهجري.

See also Horovitz, "The Earliest Biographies of the Prophet and Their Authors (I)," 536-52.

١. التاريخ العالمي: يقصد به التاريخ الذي يبدأ من قصة الخلق (مبتدأ الخلق) ويستمر حتى عصر المؤلف، ويشمل تاريخ الأمم والمناطق المختلفة من العالم.

٢. مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ١: ١٢٤-١٢٧.

See also Horovitz, "The Earliest Biographies of the Prophet and Their Authors (I)," 544-47; Josef Horovitz, "The Earliest Biographies of the Prophet and Their Authors (II)," 35-36.

٣. مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ١: ١٦٠ و ١٦٢-١٦٣.

مدرسة الشام (من منتصف القرن الأول إلى أوائل القرن الرابع الهجري)

مع انتقال العاصمة السياسيّة للخلافة الإسلامية إلى دمشق، أصبحت الشام مهوى أفئدة العلماء، فتشكّلت فيها مدرسة علمية متميّزة. كان معاوية بن أبي سفيان (حكم ٤١ - ٦٠ هـ) دور محوري في استقطاب علماء الأمصار إلى الشام، وسار على نهجه خلفاء بني مروان كعبد الملك (حكم ٦٥ - ٨٦ هـ)، والوليد (حكم ٨٦ - ٩٦ هـ)، وهشام (حكم ١٠٥ - ١٢٥ هـ)، الذين ساهموا بفاعليّة في تعزيز هذا الحراك العلمي. انفردت مدرسة الشام بميّزة «التخصّص التاريخي» المبكر، وهي سمة لم تظهر في مدارس المدينة والعراق إلّا في فترات لاحقة. فإلى جانب اهتمامها بالأنساب والسيرة النبوية والفتوحات، أوّلت هذه المدرسة اهتماماً استثنائياً بـ«تاريخ الجاهلية» وفترة ما قبل الإسلام.

ومن المؤشّرات الدالة على هذا التوجه دعوة معاوية للمؤرخ اليماني عبيد بن شريّة الجُرهمي (ت. ٦٧ هـ) إلى دمشق، وأمره بتدوين ما يحفظه عن تاريخ العرب القدماء وملوك اليمن. كذلك تعيين معاوية لكلّ من عبيد بن شريّة ودغفّل النّسابة (ت. ٧٠ هـ) مؤدّبين لولده يزيد لتعليمه التاريخ والأنساب. وذلك بالإضافة إلى اهتمام معاوية الشخصي بالتاريخ، حيث خصّص وقتاً ليلياً يُقرأ عليه فيه دفاتر سيرة الملوك وأخبار الأمم السالفة، حتّى تحوّل ذلك إلى برنامج يومي ثابت في بلاطه^١.

ساهمت التركيبة السكّانية للشام في إغناء مادّة تاريخ الفتوحات والأنساب، وذلك لوجود فئتين: المشاركون في الفتوحات ممّن استقروا في الشام، أمثال: أبو أمامة الباهلي (ت. ٨٦ هـ) وعُباد بن الصامت (ت. ٣٤ هـ)؛ والعلماء الوافدون،

١. المسعودي، مروج الذهب، ٣: ٣١.

سواء من دُعوا إليها أو هاجروا طوعاً، ممّن يحملون مرويات تاريخية، أمثال: أبو عثمان الصنعاني، وجُبَيْر بن نُفَيْر الحَضْرَمِي (ت. ٨٠هـ).^١

من أبرز وجوه هذه المدرسة: عُبيد بن شَرِيّة، وعروة بن الزبير، وابن شهاب الزهري، والأوزاعي (ت. ١٥٧هـ). وقد شهدت هذه المدرسة ولادة أول كتاب يحمل عنوان «التاريخ» صراحةً، وهو من تأليف عَوَانة بن الحَكَم الكَلْبِي (ت. ١٤٧هـ أو ١٥٧هـ). وتجدر الإشارة هنا إلى أن قبيلة كَلْب اليمانية التي سكنت جنوب الشام، كانت الحليف الاستراتيجي للأُمويين ورافعتهم للسلطة، وكان لهم دور بارز في تدوين تاريخ اليمن أيضاً.^٢

اعتمدت مدرسة الشام في استقاء مادتها التاريخية على ثلاثة مصادر رئيسية: علماء اليمن للأنساب والأخبار القديمة، علماء المدينة، للسيرة والمغازي، وعناصر رومية بيزنطية مطلّعة على تاريخ الروم بحكم الجوار الجغرافي والإرث الحضاري. أما المنهج، فقد سارت على خطى المدينة والعراق في اعتماد الأسلوب الروائي. إلّا أنّ الصبغة السياسيّة كانت حاضرة بقوة؛ فقد برز مؤرخون ذوو نزعة أموية صريحة مثل سعيد بن يحيى الأموي (ت. ٢٤٩هـ) وخالد بن هشام، الذين دوّنوا تاريخ الأمويين. كما نشط التأليف في الأنساب وفي المغازي والسير، حيث ظهرت في المؤلفات المتأخّرة في أواخر العصر الأموي وبداية العصر العباسي، آثار الصراع الأيديولوجي بين الدولتين بوضوح.

مع سقوط الدولة الأموية وانتقال مركز الثقل إلى بغداد، تراجع النشاط العلمي لمدرسة الشام تدريجياً. إلّا أنّ جذوة التأليف عادت لتتقد لاحقاً عبر «التواريخ

١. م. ن. ٢٠٠٢: ٢٥٠-٢٥١.

٢. مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ١: ١٢٣ و ١٢٦-١٣٣.

المحلية» بين القرنين الرابع والثامن الهجري، وبلغت ذروتها في المصنّفات التاريخية العالمية الشاملة، وأبرزها كتاب *البداية والنهاية* للحافظ ابن كثير الدمشقي (ت. ٧٧٤هـ).^١

مدرسة العراق (من منتصف القرن الثاني حتى القرن السابع الهجري)

كان العراق، قبل الفتح الإسلامي، مسرحاً لتجاذب وتقاطع ثقافات متنوعة؛ فالثقافة اليونانية تطلّ من الشمال، والفارسية من الشرق، والعربية من الجنوب، ولكلّ منها أتباع ورواقد. ومع دخول الإسلام، انحسرت الثقافتان اليونانية والفارسية، لتفسح المجال لسيادة الثقافة العربية والإسلامية.^٢

لم يكن التاريخ والتدوين التاريخي بمنأى عن هذا التمازج؛ فقد وفد إلى العراق «علم الأنساب» من الشام، و«التاريخ العالمي» من الحجاز. وفضلاً عن ذلك، كان المفهوم الأموي للإمامة والخلافة لا يزال رائجاً في تلك الأوساط. أدّى هذا المزيج، إلى تنوّع كبير في الرؤى والأهداف والمناهج التاريخية.

ومما عزّز هذا التنوع، الرعاية السخية التي وفّرها الخلفاء العباسيون للعلماء، لا سيما في العصر العباسي الأول (١٣٢-٢٣٢هـ). وخير مثال على ذلك، المؤرخ محمد بن عمر الواقدي، الذي كان يعمل «حنّاطاً» يبيع الحنطة في المدينة، ولكنّه حين انتقل إلى العراق، حظي باستقبال حافل من الوزير العباسي، وتولّى القضاء في منطقة الكرخ ببغداد.^٣

١. م. ن.، ١: ١١٩-١٣٥.

٢. م. ن.، ١: ١٦٩.

٣. انظر: ابن سعد، *الطبقات الكبرى*، ٥: ٤٩٣-٤٩٩؛ وكيع، *أخبار القضاة*، ٦٦٠-٦٦١؛ ابن النديم، *الفهرست*، ١٤٤؛ الخطيب البغدادي، *تاريخ بغداد*، ٣: ٢١٣-٢١٤.

تميّزت النظرة التاريخية في مدرسة العراق بالتباين، وأحياناً بالتضاد. كالنزعة القبلية، ومثالها سيف بن عمر التميمي (ت. ١٨٠هـ) الذي غلبت عليه النزعة لتمجيد قبيلته بني تميم؛ والنزعة المذهبية، ومثالها أبو مخنف (ت. ١٥٧هـ) الذي عُرف بميوله العلوية. فلم يكن للمؤرخين في هذه المدرسة -على غرار مدرستي المدينة والشام- لون عقائدي أو كلامي واحد. فقد شهد العراق نشاطاً ملحوظاً لمؤرخين شيعة، أمثال: نصر بن مزاحم (ت. ٢١٢هـ)، والحسن بن فضال (ت. ٢٢٤هـ)، وأحمد بن محمد بن خالد البرقي (ت. ٢٧٠ أو ٢٧٤هـ).

شارك الفقهاء والمحدثون في تدوين التاريخ في العراق، كما في المدارس الأخرى، ولكن ما ميّز هذه المدرسة هو انضمام أرباب الحرف والمهّن المتنوعة، وحتى الوزراء مثل الفتح بن خاقان (ت. ٢٤٧هـ) إلى ركب المؤرخين. والنقطة المفصلية في هذه المدرسة، هي ظهور «التخصص التاريخي» الدقيق، وبروز تيار «النقد التاريخي» في منتصف القرن الرابع الهجري على يد أعلام مثل المسعودي (ت. ٣٤٦هـ) ومُسكويه (ت. ٤٢١هـ). في هذه المرحلة، انتقلت دفّة الكتابة التاريخية من أيدي «الأخباريين» رواة الأخبار المنفصلة، إلى أيدي «المؤرخين»، أصحاب المنهج النقدي والتحليلي.

تبنت مدرسة العراق «النظرة العالمية الشمولية»، متجاوزة الحدود القبلية الضيقة، لتنظر إلى المجتمع العربي والإسلامي كوحدة واحدة. ومن أبرز رواد هذا الاتجاه: المدائني (ت. ٢٢٥هـ)، وخليفة بن خياط (ت. ٢٤٠هـ)، وابن قتيبة (ت. ٢٧٦هـ)، واليعقوبي (ت. ٢٩٢هـ). ويتربّع محمد بن جرير الطبري (ت. ٣١٠هـ) على قمة هذا الهرم، حيث يُعد كتابه تاريخ الأمم والملوك أهمّ نتاج لهذه المدرسة. وقد بلغ تأثير هذا

العمل الموسوعي حدًّا جعل حركة التأليف التاريخي تُصاب بنوع من الركود أو البطء لمدة ثلاثين عامًا تقريبًا حتّى منتصف القرن الرابع الهجري، لهية هذا العمل وضخامته^١.

المصادر الأولية للسيرة النبوية

يُمكن حصر المصادر الأولية التي اعتمد عليها في تدوين السيرة النبوية في رافدين رئيسيين: القرآن الكريم، والأحاديث.

أولاً: القرآن الكريم

نظرًا لنزول الآيات القرآنية في مناسبات متباعدة وارتباطها الوثيق بوقائع العصر النبوي، فإنّها تُعدّ من أوثق مصادر السيرة. فكثير من الآيات تشير تصريحًا أو تلميحًا، إلى حوادث وقعت في زمن الرسول ﷺ. بل إنّ هذه الإشارات قد تستوعب محتوى سورة كاملة، ومن الأمثلة على ذلك سورة الأنفال التي تناولت تفاصيل غزوة بدر، وسورة البقرة التي أشارت إلى حادثة تحويل القبلة، وسورة التوبة التي استعرضت وقائع غزوة تبوك وهجرة النبي ﷺ إلى المدينة.

وقد التفت المؤرخون الأوائل، مثل ابن هشام والواقدي، إلى أهميّة هذا المصدر وبناءً عليه، يمكن عدّ «كتب التفسير» ضمن مصادر السيرة النبوية؛ حيث تزخر المصنّفات التفسيرية لدى الفريقين بذكر «أسباب النزول» التي هي في جوهرها أحداث تاريخية، وإن كان حجم الاهتمام بهذا الجانب يتفاوت من تفسير لآخر.

١. مصطفى، *التاريخ العربي والمؤرخون*، ١: ٢٨٦. حول مدرسة التاريخ في العراق، انظر: م. ن.، ١: ١٦٩-٢٦٤؛ الدوري، *نشأة علم التاريخ عند العرب*، ١٠٣-١١٣؛ ترحيني، *المؤرخون والتاريخ عند العرب*، ٥٩-٦٩.

ثانيًا: الأحاديث

تُعدّ الأحاديث الركن الثاني في تدوين السيرة. ونظرًا للمكانة التشريعية للنبي ﷺ، فإنّ أقواله وأفعاله تُعدّ مصدرًا للأحكام الشرعية؛ ممّا دفع المسلمين لرصد وتدوين سكناته وحركاته بدقّة متناهية. ومن هنا اكتسبت المصادر الروائية أهمّيّتها في بحث السيرة.

تمّ جمع التراث النبوي في موسوعات حديثة تُعرف أحيانًا بـ«كتب السُنن»، وفي ثنايا هذه الكتب، وإلى جانب أحاديث الأحكام، نجد تقارير تاريخية وافية عن حياة النبي ﷺ. وقد خُصّصت في بعض المجاميع الحديثية أبواب مستقلة للسيرة والمغازي، ومن أبرزها:

١. المُصنّف لعبد الرزاق الصنعاني(ت. ٢١١هـ): خُصّص فيه باب لمغازي رسول الله ﷺ، بدأ فيه من حفر زمزم، مرورًا بتسلسل الغزوات، وصولاً إلى مرض النبي ﷺ ووفاته، ثمّ تاريخ الخلفاء^١.
٢. المُصنّف لابن أبي شيبة(ت. ٢٣٥هـ): تضمن قسمين تاريخيين «كتاب التاريخ» أشار فيه لفتوحات عمر بن الخطاب^٢، و«كتاب المغازي» بدأ فيه من عام الفيل حتّى وفاة النبي ﷺ، ثمّ أتبعها بأخبار الخلفاء^٣.
٣. صحيح البخاري(ت. ٢٥٦هـ): عُقد فيه باب بعنوان «كتاب المغازي»، ابتداءً بغزوة العشيرة واختتمه بوفاة النبي ﷺ^٤.

١. الصنعاني، المصنّف، ٥: ٣١٣-٤٩٢.

٢. انظر: ابن أبي شيبة، المصنّف، ٦: ٥٦٤ و ٧: ٢٧.

٣. م. ن. ٧: ٣٢٦-٤٤٦.

٤. انظر: البخاري، صحيح البخاري، ٥: ٧١ و ٦: ١٦.

٤. الكافي للكليني (ت. ٣٢٩هـ): تضمن قسمًا بعنوان «أبواب التاريخ»، تناول فيه مواليد ووفيات المعصومين (عليه السلام)، وتضمن إشارات للسيرة النبوية^١.
٥. الأُمالي للشيخ المفيد (ت. ٤١٣هـ): احتوى أيضًا على مرويات متفرقة تخص السيرة النبوية^٢.

التصانيف الحديثية الموضوعية

بالإضافة إلى هذه المصادر العامة التي تعتمد المنهج الروائي، ظهرت مصنفات حديثة ركزت على موضوعات خاصّة من السيرة النبوية، حيث جمعت الأحاديث المتعلقة بجوانب محدّدة من شخصية الرسول ﷺ.

كتب الشمائل

تُعنى مصنفات الشمائل برصد وتوثيق الصفات الظاهرية (الخَلْقِيَّة) والسمات الشخصية (الخُلُقِيَّة) للنبي ﷺ. كما تتسع هذه الآثار لتشمل وصف مقتنياته الشخصية، كملابسه، وسيفه، ودرعه، وغيرها من أدواته ﷺ. ومن أبرز هذه المصنفات:

١. الشمائل النبوية والخصائص المصطفوية: لمحمد بن عيسى الترمذي (ت. ٢٧٩هـ)؛
٢. أخلاق النبي وآدابه: لابن حيّان الأصبهاني (ت. ٣٦٩هـ)؛ ٣. الشّفا بتعريف حقوق المصطفى: للقاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت. ٥٤٤هـ)؛ ٤. الأنوار في شمائل النبي المختار: للحسين بن مسعود البغوي (ت. ٥١٦هـ)؛ ٥. الوفا بتعريف فضائل المصطفى: لابن الجوزي (ت. ٥٩٢هـ)؛ ٦. الشمائل الشريفة: لجلال الدين السيوطي (ت. ٩١١هـ)؛ ٧. مكارم الأخلاق: للحسن بن الفضل الطبرسي؛

١. انظر: الكليني، الكافي، ١: ٤٣٩-٥٤٩.

٢. انظر: المفيد، الأُمالي، ٣٥-٤٢.

٨. المواهب اللدنية بالمنح المحمدية: للقسطلاني (ت. ٩٢٣هـ)؛ ٩. حقائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار: لمحمد بن عمر بحرّق الحضرمي (ت. ٩٣٠هـ).

كتب دلائل النبوة والمعجزات

تختص هذه الفئة من الكتب بجمع آيات النبوة وبراهينها، سواء ما يتعلق بالأنبياء ﷺ عامة أو بالنبي الأكرم ﷺ بصفة خاصة^١. وغالبًا ما تتضمن هذه المؤلفات مباحث كلامية وعقائدية، تهدف لإثبات صدق النبوة. من أهم مصادر هذا الباب:

١. أمارات النبوة: للجوزجاني (ت. ٢٩٥هـ)؛ ٢. دلائل النبوة: للفريابي (ت. ٣٠١هـ)؛ ٣. دلائل النبوة: لأبي نعيم الأصبهاني (ت. ٤٣٠هـ)؛ ٤. أعلام النبوة: للمؤيد (ت. ٤٥٠هـ)؛ ٥. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة: للبيهقي (ت. ٤٥٨هـ)؛ ٦. الثاقب في المناقب: لابن حمزة الطوسي (ت. بعد ٥٦٦هـ)؛ ٧. الخرائج والجرائح وقصص الأنبياء: لقطب الدين الراوندي (ت. ٥٧٣هـ).

كتب الخصائص

تركز هذه الآثار على السمات التكوينية والتشريعية التي انفرد بها رسول الله ﷺ دون غيره من الأمة أو الأنبياء ﷺ، مع التركيز بشكل خاص على الأحكام المختصة به ﷺ^٢. وقد تتداخل أحيانًا مع كتب المعجزات. من أشهرها: ١. غاية السؤل في خصائص الرسول: لابن الملقن (ت. ٨٠٤هـ)؛ ٢. كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب: للسيوطي^٣.

١. مهدي دامغاني، «دلائل النبوة».

٢. طبع هذا الكتاب بعنوان: أحاديث منتخبة من كتاب أمارات النبوة.

٣. حسيني سمناني، «خصائص النبي».

٤. يشتهر هذا الكتاب بالخصائص الكبرى.

المباحث الفقهية في السيرة

تناولت بعض المصنّفات السيرة النبوية من منظور فقهي استنباطي، وغالبًا ما ركّزت على أبواب محدّدة ذات أبعاد اجتماعية أو اقتصادية. ومن أهمّها «كتب الأموال»، التي تبحث في أحكام الأراضي المفتوحة، والخُمس، والصدقات، والجزية، مستندة إلى فعل النبي ﷺ وتطبيقات الخلفاء من بعده. فمن المصادر المبكّرة التي تناولت هذا الموضوع يُمكن ذكر كلّ من كتاب الأموال، للقاسم بن سلام (ت. ٢٢٤هـ) والأموال لابن زنجويه (ت. ٢٥١هـ).

النموذج الآخر من هذه المصنّفات هو زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزيّة (ت. ٧٥١هـ). وهو كتاب يستعرض حياة النبي ﷺ بهدف استخلاص الأحكام الفقهية من هديه وسيرته. ورغم تشابهه مع كتب الشئائل، إلّا أنّ الصبغة الفقهية هي الغالبة عليه.

كما نجد إشارات للسيرة في الموسوعات الفقهية، مثل كتاب المُتَنَعَة للشيخ المفيد (ت. ٤١٣هـ)^١، وشرحه تهذيب الأحكام للشيخ الطوسي (ت. ٤٦٠هـ)^٢، حيث تطرّقًا للسيرة في سياق المباحث ذات الصلة، كالجهاد والمزارات.

المصادر الحضارية والإدارية

عنيت طائفة من المصنّفات بدراسة السيرة النبوية من منظور النُظُم الإدارية والديوانية للحكومة الإسلامية. وتنوّعت هذه الآثار بين مؤلّفات شاملة، وأخرى اقتصرَت على رصد أحوال الكُتّاب والمراسلات السياسيّة.

ففي المؤلّفات الإدارية الشاملة، سعى المؤلّفون في هذا المجال إلى استنباط هيكل

١. انظر: المفيد، المُتَنَعَة، ٤٥٥-٤٦٠.

٢. انظر: الطوسي، تهذيب الأحكام، ٦: ١٩-٢.

إداري متكامل للدولة الإسلامية استنادًا إلى النصوص الروائية والسيرة العملية للنبي ﷺ. ومن أبرزها تخرج الدلالات السَّمعية على ما كان في عهد رسول الله ﷺ من الحِرَف والصنائع والعمَالات الشرعية، لعلي بن محمد الخزاعي (ت. ٧٨٩هـ) ونظام الحكومة النبوية المُسمّى بالتراتب الإدارية، لعبد الحَيِّ الكَتَّاني (ت. ١٣٨٢هـ). والمؤلَّفات المختصّة بالكتّاب والمراسلات، وهي دراسات مونوغرافية أحاديّة الموضوع، ركّزت على الجهاز الدبلوماسي والإداري، منها:

١. المصباح المُضيء في كُتّاب النبي الأُمِّي ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي: لابن حديدة الأنصاري (ت. ٧٨٣هـ). استعرض فيه وفادات القبائل وإسلامها، ثمّ السفراء الذين بعثهم النبي ﷺ والرسائل المتبادلة مع الملوك ورؤساء القبائل.

٢. إعلام السائلين عن كتب سيّد المرسلين: لابن طولون الصالحي (ت. ٩٥٣هـ)، واختصّ بنقل نصوص رسائل النبي ﷺ.

٣. الوزراء والكتّاب: للجهمياري (ت. ٣٣١هـ)، الذي أفرد في كتابه فصلاً خاصاً لذكر كُتّاب الوحي والرسائل في العهد النبوي.

المصنفات الأخرى

اتَّجهت بعض التأليفات إلى تسليط الضوء على زوايا محدّدة من الحياة الشخصية والاجتماعية للرسول الأكرم ﷺ، ومن نماذجها كتاب تَرِكَة النبي لحَمَّاد بن إِسْحاق (ت. ٢٦٧هـ)، الذي بحث في مصير أموال النبي ﷺ بعد وفاته. ومن المؤلَّفات التي بحثت عن أحوال زوجات النبي ﷺ وأولاده، كتاب أزواج النبي وأولاده لمَعْمَر بن المُنْثَي (ت. ٢٠٨هـ)، حيث أحصى زوجاته ﷺ قبل البعثة وبعدها، وعدّد أولاده. والمتنخب من كتاب أزواج النبي للزبير بن بَكَار (ت. ٢٥٦هـ)، وهو ملخّص لكتاب أصله مفقود،

يسرد تفاصيل زواج النبي ﷺ من زوجاته وقصصه. كذا من المصنّفات التي تتعلّق بأسرة النبي ﷺ وحياته الشخصية كتاب *عشرة النساء* لأحمد بن شعيب النسائي (ت. ٣٠٣هـ)، الذي تناول الحياة الخاصة وهديّه ﷺ في التعامل مع أهله. كما أنّ هناك بعض المصنّفات خُصّصت لسرد وقائع الأيام الأخيرة من حياة رسول الله ﷺ ووفاته، مثل كتاب *الوفاة للنسائي* وسلوة *الكثير بوفاة الحبيب*، لابن ناصر الدين الدمشقي (ت. ٨٤٢هـ).

المصادر التاريخية

تتميّز المصنّفات التاريخية في السيرة النبوية عن نظيراتها الحديثية بفارقين جوهريين: أولاً، «شمولية الموضوع»، حيث ركّزت المصادر الحديثية غالباً على الجوانب التي تصلح لاستنباط الأحكام الشرعية، بينما توسّعت الكتب التاريخية لتشمل الجوانب الحكومية، والسياسية، والتفاصيل حياة للنبي ﷺ. وثانياً، «معايير النقد»، فتتسم المصنّفات الحديثية بالصرامة والدقّة في نقد الأسانيد وتقييم الرواة، في حين يتسم المنهج التاريخي -رغم استناده غالباً إلى نفس المرويات- بشيء من التساهل والمرونة في قبول الأخبار.

كتب السير والمغازي

تنقسم المدونات التاريخية في هذا الباب إلى فئتين: «كتب المغازي» وهي التي قصرت اهتمامها على الحملات العسكرية والغزوات والسرائيا النبوية، مثل: كتاب *المغازي* للواقدي (ت. ٢٠٧هـ)، و*فتوح البلدان* للبلاذري (ت. ٢٧٩هـ)^١. و«كتب السيرة»،

١. كتاب *فتوح البلدان* للبلاذري لا يقتصر على الغزوات النبوية، بل يغطّي حركة الفتوحات الإسلامية في عهد الخلفاء أيضاً.

وهي التي غطّت حياة النبي ﷺ بشكل عام، سواء كانت مؤلفات مستقلة أو مختصرات لأعمال سابقة. فيمكن عدّ أهمّ المصنّفات المستقلة في السيرة على ما يلي:

١. *السير والمغازي*: لمحمّد بن إسحاق (ت. ١٥١هـ). يُعدّ العمل التأسيسي الأهمّ في هذا المجال. وتألّف الكتاب أصلاً من ثلاثة أقسام: المبتدأ، والمبعث، والمغازي^١. وقد فقد الأصل ولم يتبقّ منه إلّا قطعة برواية يونس بن بكير (ت. ١٩٩هـ)^٢.

٢. *السيرة النبوية*: لابن هشام (ت. ٢١٤هـ). وهي تهذيب وتلخيص لسيرة ابن إسحاق، وقد أشار المؤلّف في مقدّمته إلى منهجه في حذف الأشعار الضعيفة وما «يسوء بعض الناس ذكره»^٣. ويُعدّ هذا الكتاب أوّل مصنف يُعرف اصطلاحاً بـ«السيرة»^٤.

٣. *جوامع السيرة النبوية*: لابن حزم الأندلسي (ت. ٤٥٦هـ). بدأه بالنسب الشريف، ثمّ الشّماثل والخصائص، واختتمه بوفاة النبي ﷺ بعد استعراض الغزوات.

٤. *الدّرر في اختصار المغازي والسير*: لابن عبد البر (ت. ٤٦٣هـ).

٥. *الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله والثلثة الخلفاء*: لأبي الربيع الكلاعي (ت. ٦٣٤هـ). وهو تلخيص لسيرة ابن إسحاق مع إضافة مغازي الخلفاء الثلاثة الأوّل^٥.

٦. *عيون الأثر في فنون المغازي والشّماثل والسير*: لابن سيّد الناس اليعمري (ت).

1. Brockelmann, *History of the Arabic Written Tradition*, 1: 202-3.

٢. بالنظر إلى عنوان الكتاب الأصلي «المبتدأ والمبعث والمغازي»، فإنّه يصنّف ضمن «التاريخ العام»، ولكن نظراً لأنّ المتبقّي منه يركّز على العهد النبوي، فقد دُرّج على تصنيفه ضمن كتب السيرة.

٣. ابن هشام، *السيرة النبوية*، ١: ٤.

4. Raven, "Sīra," *EF* 9: 660.

٥. انظر: الكلاعي، *الاكتفاء*، ١: ٥-٩.

٧٣٤هـ). تميّز بجمعه بين السرد التاريخي، والمعجزات، والشئال، وأخبار الذرية النبوية.

٧. المختصر الكبير في سيرة رسول الله: لابن جماعة الكِناني (ت. ٧٦٧هـ).

٨. الفصول في السيرة: لابن كثير (ت. ٧٧٤هـ).

٩. إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفلة والمتاع: للمقريزي (ت. ٨٤٥هـ). موسوعة شاملة بدأت من المولد إلى الوفاة، ثم أفردت فصولاً للشئال، والخصائص، والفضائل، ودلائل النبوة، والذرية، والموالي، والخدم، والحراس، واختتمت بذكر نبوءاته ﷺ وتحققها.

١٠. سُبُل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد: للصالحى الشامي (ت. ٩٤٢هـ). موسوعة ضخمة جمعت السيرة، والشئال، والمعجزات، والمكاتبات، وتضمنت مباحث كلامية وعقائدية.

١١. السيرة الحلبية المسمى بإنسان العيون في سيرة الأمين المأمون: لنور الدين الحلبي (ت. ١٠٤٤هـ).

كتب التاريخ العام

تتميّز كتب التاريخ العام بتدوين حوادث التاريخ الإسلامي مرتبةً على السنين، بدءاً من عصر الرسالة وحتى عصر المؤلف. ومن أهم هذه المصنفات التي تضمنت السيرة النبوية:

١. تاريخ خليفة بن خياط (ت. ٢٤٠هـ): استعرض المؤلف أهمّ الحوادث التاريخية من السنة الأولى للهجرة حتى سنة ٢٣٢هـ. وقد تناول السيرة النبوية ضمن أحداث السنوات الإحدى عشرة الأولى من الهجرة النبوية المباركة.

٢. المُحَبَّر لابن حبيب البغدادي (ت. ٢٤٥هـ): استهلّ ابن حبيب كتابه بمرور

إجمالي على العصر النبوي وصولاً لعصره^١. وتميّز بنظرة موسوعية غير حولية بحثة؛ حيث رصد النسب النبوي من جهة الأم، وبنات النبي ﷺ، والخلفاء وصولاً لبني العباس وأصهارهم، ثم بنات ومصاهرات بني هاشم. كما خصّص فصولاً لأزواج النبي ﷺ في مكّة والمدينة، وبعض غزواته، موردًا نكات تاريخية دقيقة.

٣. السيرة النبوية وأخبار الخلفاء لابن حبان (ت. ٣٥٤هـ): بدأ كتابه ببيان وجوب حفظ الآثار النبوية، ثم اعتمد التسلسل الزمني من المولد الشريف حتّى الوفاة. كما تتبّع أهمّ وقائع الخلافة حتّى سنة ٤٠هـ بشكل حولي وبعدها، انتقل لذكر دُول الخلفاء وسيرهم حتّى عهد المطيع لله العباسي (حكم ٣٣٤-٣٦٤هـ)، وختم كتابه بقائمة لأسماء الصحابة.

٤. العبر في خبر من عَبر وتاريخ الإسلام للذهبي (ت. ٧٤٨هـ): في كتاب العبر، رصد الذهبي أهمّ الوقائع من السنة الأولى للهجرة حتّى سنة ٧٠٠هـ، ثم ألحق بها ذيلًا حتّى سنة ٧٤١هـ، تاريخ فقده لبصره. وقد جاء بعده محمد بن علي الحسيني (ت. ٧٦٥هـ) فأكمل الذيل حتّى سنة ٧٦٤هـ^٢.

وفي كتاب تاريخ الإسلام، التزم الذهبي المنهج الحولي ذاته، ولكن بصورة أكثر تفصيلاً وسعة من العبر؛ حيث جمع بين حوادث كلّ سنة وتراجم ووفيات الأعيان الذين توفّوا فيها حتّى سنة ٧٠٠هـ.

١. ورد في الكتاب ذكر لأحداث تصل إلى زمن المعتضد العباسي (حكم ٢٧٩-٢٨٩هـ)، والمرجّح أنّها

زيادات من راوي الكتاب أو ناسخه، لأنّ ابن حبيب توفي ٢٤٥هـ (انظر: ابن حبيب، المحبر، ٤٤).

٢. انظر: الذهبي، العبر، ١: ع (المقدمة).

كتب التاريخ العالمي

تتميّز كتب التاريخ العالمي بتدوين الوقائع التاريخية منذ بدء الخليقة وخلق آدم ﷺ وصولاً إلى عصر المؤلف، وتشمل استعراضاً لأحوال الأمم السابقة والحضارات المختلفة. ويمكن اعتبار كتاب «المبتدأ والمبعث والمغازي» لابن إسحاق أول مصنف إسلامي في هذا الباب، ولكن نظراً لضياع أصله ووصول قطع منه تتعلق بالسيرة والمغازي فقط، فقد صُنّف سابقاً ضمن «كتب السير والمغازي».

أما أبرز المصنفات الباقية في هذا المجال، فهي:

١. تاريخ اليعقوبي (ت. ٢٩٢هـ): سرّد فيه الوقائع التاريخية وفق التسلسل الزمني من عهد آدم ﷺ حتى سنة ٢٥٨هـ. وقد خصّص قسماً منه للسيرة النبوية.
 ٢. تاريخ الأمم والملوك للطبري (ت. ٣١٠هـ): تناول فيه تاريخ الأمم والحكومات من بدء الخلق حتى الهجرة النبوية، ثم انتقل بعد الهجرة إلى المنهج الحولي لرصد الوقائع حتى سنة ٣٠٢هـ. وقد كُتبت لهذا الكتاب ذيول وتكملات لاحقة^١.
 ٣. مروج الذهب ومعادن الجوهر والتنبيه والإشراف للمسعودي (ت. ٣٤٦هـ): في مروج الذهب، بدأ من خلق آدم واختتمه بأخبار المطيع لله العباسي (حكم ٣٣٤-٣٦٣هـ)، وأشار للسيرة النبوية بإيجاز.
- أما كتابه التنبيه والإشراف، فقد وضعه كخلاصة لكتابه السابقين «أخبار الزمان» ومروج الذهب^٢. وقد غطّى فيه الوقائع حتى سنة تأليفه في ٣٤٥هـ^٣، واعتمد فيه التسلسل السنوي لحوادث ما بعد الهجرة، مع تخصيص قسم موجز للسيرة النبوية.

1. see Brockelmann, *History of the Arabic Written Tradition*, 1: 214-15.

٢. المسعودي، التنبيه والإشراف، ١.

٣. م. ن. ٥.

٤. *البدء والتاريخ* للمطهر بن طاهر المقدسي (ت. بعد ٣٥٥هـ): استهل كتابه بمباحث كلامية في التوحيد، والصفات، وإثبات النبوة، ثم انتقل لقصة الخلق والأنبياء ﷺ والملوك والأمم السابقة. وتطرق للأديان القديمة، وجغرافية الأرض والأقاليم وعجائبها، وأنساب العرب. ثم تناول حياة النبي ﷺ ومباحث في الشرائع والخصائص، وختم كتابه بوقائع خلافة المطيع لله.

٥. *المنتظم في تاريخ الأمم والملوك* لابن الجوزي (ت. ٥٩٢هـ): بدأه بمقدمة كلامية في إثبات الصانع، ثم ذكر الأنبياء ﷺ وملوك الأمم وسرد أحداث السيرة النبوية من المولد الشريف حولياً. واستمر هذا المنهج بعد الهجرة حتى وفاة النبي ﷺ، ثم واصل تأريخه للحوادث حتى سنة ٥٧٤هـ.

٦. *الكامل في التاريخ* لابن الأثير (ت. ٦٣٠هـ): ألفه -باعتراؤه- اعتماداً على *تاريخ الطبري*، مع شرح وإضافات عليه^١. بدأ ببحث في مفهوم الزمان، ثم سرد التاريخ من خلق آدم ﷺ حتى العصر النبوي. وفي السيرة، بدأ بالنسب، ثم اتبع المنهج الحولي بعد الهجرة حتى وفاة النبي ﷺ. واستمر في منهجه الحولي ذاكراً أهم الحوادث والوفيات حتى سنة ٦٢٨هـ.

٧. *البداية والنهاية* لابن كثير (ت. ٧٧٤هـ): يبدأ برواية خلق السماوات والأرض، ثم قصص الأنبياء ﷺ وصولاً لزمان الرسول ﷺ. ويمتاز قسم السيرة فيه بالتفصيل والسعة، مقارنة بالتواريخ العامة الأخرى؛ حيث غطى الحياة النبوية من المولد إلى الوفاة، وأتبعها بالسرائر والفضائل والخصائص. أما حوادث ما بعد الهجرة، فقد دونها على السنين واختتم كتابه بوقائع سنة ٧٦٧هـ.

١. ابن الأثير، *الكامل في التاريخ*، ٣: ١.

كتب الجغرافيا

تُعنى كتب الجغرافيا -أو ما يُصطلح عليه بـ«البلدانيات»- ببيان المسافات والخصائص الجغرافية للأقاليم، وكثيراً ما تنطرق لذكر المحدثين والصحابه الذين نزلوا في كل منطقة؛ وفي ثانيا حديث هذه المصنّفات عن مدينتي مكّة والمدينة، نجد إشارات مهمّة للسيرة النبوية. يمكن تصنيف هذه الأعمال إلى فئتين: أعمال شاملة التي تغطي البلدان كافة، وأعمال محلّية اختصّت بتاريخ مكّة، أو المدينة، أو الحرمين الشريفين معاً. من أبرز المصنّفات الجغرافية الشاملة التي تضمنت فصولاً عن السيرة النبوية، كتاب *البلدان*، لابن الفقيه الهمداني (ت. ٣٤٠هـ)، حيث أورد في الفصول المخصّصة للحديث عن مكّة والمدينة مقتطفات من السيرة النبوية^١. وكذلك معجم *البلدان* لياقوت الحموي (ت. ٦٢٦هـ)، الذي تضمن أيضاً إشارات للسيرة النبوية عند تعرضه لمكّة والمدينة^٢.

تواريخ مكّة المكرمة

نظراً للمكانة الروحية لمكّة المكرمة بوصفها قبلة المسلمين ومسقط رأس النبي ﷺ، فقد حظيت بعناية فائقة من المؤرخين. وتكتسب هذه المصنّفات أهميتها في دراسة السيرة النبوية لاشتغالها على تفاصيل النشأة والبعثة وحجة الوداع. ومن أهم هذه الآثار:

١. أخبار مكّة وما جاء فيها من الآثار للأزرقي (ت. ٢٥٠هـ): يتناول تاريخ مكّة منذ بدء الخليقة وبناء إبراهيم عليه السلام للكعبة، وتاريخ قريش. وتركز مادة السيرة فيه على حجة الوداع وتفاصيل المناسك التي أداها النبي ﷺ.

١. انظر: ابن الفقيه، *البلدان*، ٧٤-٧٨ و ٨٠-٨٤.

٢. انظر: الحموي، معجم *البلدان*، ٥: ٨٢-٨٨ و ١٨١-١٨٨.

٢. أخبار مَكَّة في قديم الدهر وحديثه للفاكهى (ت. ٢٧٥هـ): ويشابه محتواه كتاب الأزرقى إلى حدٍّ كبير.

٣. عَرَفُ الطَّيِّب من أخبار مَكَّة ومدينة الحبيب لابن العاقولي (ت. ٧٩٧هـ): رغم عنوانه الموهَّم بالشمول، إلَّا أنَّه يختصُّ بتاريخ مَكَّة مع إشارات عابرة لفصائل المدينة. يستعرض بناء الكعبة وحج الأنبياء ﷺ، ويشير إلى المواضع المرتبطة بالسيرة، مثل المولد النبوي، ومنزل السيِّدة خديجة ﷺ، وغاري حراء وثور.

٤. شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام للفاسي (ت. ٨٣٢هـ): يجمع بين ذكر الفضائل، وتاريخ عمارة المسجد الحرام، ويورد فصولاً من السيرة النبوية، لا سيَّما ما يتعلق بفتح مَكَّة.

تواريخ المدينة المنورة

كانت يثرب/ المدينة المنورة العاصمة الأولى للدولة الإسلامية، ومنها أدار النبي ﷺ شؤون الأقاليم الإسلامية. وقد شهدت هذه الحاضرة وقائع جمَّة إبَّان حياته الشريفة وبعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى؛ ممَّا بَوَّأها مكانة استثنائية في التاريخ الإسلامي. وهذا، ما دفع المؤرخين لتصنيف مؤلَّفات خاصة بتاريخها. ونظرًا لطول مدة إقامة النبي ﷺ في ربوعها، فقد اكتنزت هذه المؤلَّفات بمعلومات غزيرة حول السيرة النبوية. وفيما يلي إشارة إلى نزرٍ من تلك الآثار المصنَّفة في تاريخ المدينة والتي اشتملت على جوانب من سيرة رسول الله ﷺ:

١. تاريخ المدينة لابن شَبَّة (ت. ٢٦٢هـ): لا يكتفي هذا السفر بحصر القبور ومنازل القبائل المختلفة في المدينة، أو سرد أهمِّ الحوادث التاريخية التي عصفت بها فحسب، بل يتضمَّن فصولاً من حياة الرسول ﷺ. ومن ذلك ذكره لغزوات النبي ﷺ، وتركته، وشماله، وجوانب أخرى من سيرته العطرة.

٢. أخبار مدينة الرسول المعروف بالدُّرَّة الثمينة لابن النجَّار (ت. ٦٤٣هـ): يستهلّ

المؤلف كتابه بذكر أسماء المدينة ومواطن سكنى اليهود والعرب فيها. كما يُحصى مناطق المدينة وآبارها، ويسلط الضوء على بناء المسجد النبوي وتوسعته. ويتناول الكتاب هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة، وبيوت النبي ﷺ المحيطة بالمسجد، وبعض الخصائص الأخرى المتعلقة بحياته ﷺ في هذه المدينة.

٣. تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة للمراغي (ت. ٨١٦هـ): يُفتتح هذا الأثر ببيان فضل المدينة وساكنيها، ثم يعرج على تاريخ المسجد النبوي، وفضل وآداب زيارة النبي ﷺ وأهل البقيع، وذكر بعض الحوادث المفصلية في تاريخ المدينة. كما يشير الكتاب إلى هجرة الرسول ﷺ، وبيوته، ووفاته.

٤. التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة للسخاوي (ت. ٩٠٢هـ): يُعدّ هذا الكتاب من كتب التراجم؛ فقد انصبّ اهتمام السخاوي فيه على شرح أحوال الأعيان الذين نزلوا المدينة، من الصحابة والتابعين ومن تلاهم. وقد صَدَّرَ الكتاب بمقدمة تحوي تاريخاً موجزاً للمدينة والمسجد النبوي، تضمّنت إشارات إلى قبس من سيرة رسول الله ﷺ.

٥. وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى وخلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى للسمهودي (ت. ٩١١هـ): يُعدّ وفاء الوفا الكتاب الثاني ضمن ثلاثية ألفها السمهودي في تاريخ المدينة؛ إذ بدأ بتأليف «اقتفاء الوفا»، وقبل إتمامه شرع في كتابة وفاء الوفا الذي كان بمثابة خلاصة لاقتفاء الوفا؛ وقد التهم حريق المسجد النبوي الكتاب الأول ولم يبقَ له أثر. وعقب الفراغ من وفاء الوفا، صنّف السمهودي مختصراً له أسماه خلاصة الوفا^١. ويمكن عدّ وفاء الوفا للسمهودي الكتاب الأبسط والأهمّ في تاريخ المدينة؛ فقد توخّى المؤلف دقّة عزّ نظيرها في تحديد المواقع المختلفة بالمدينة، وتناول بتبويب متقن

١. السمهودي، خلاصة الوفا، ١: ٢.

لكافة أبعاد تاريخ المدينة قبل هجرة النبي ﷺ وبعدها. استهل كتابه بذكر أسماء المدينة وخصائص تلك البقعة الشريفة، ثم انتقل لبيان جغرافيتها الطبيعية، وسرد أحكام المسجد النبوي. وقد أحصى بدقة نادرة مناطق المدينة وأحياءها ودور الصحابة والأعيان، ساعياً لتعيين مواقعها عبر أوصاف دقيقة. وقد خصص السهمودي في أثره قسماً للمرور الإجمالي على السيرة النبوية، بيد أن فائدة الكتاب في باب السيرة لا تنحصر في هذا القسم؛ بل يمكن العثور على معلومات قيمة مبثوثة في ثنايا الكتاب وأبوابه المختلفة. وقد التزم السهمودي في خلاصة الوفا الترتيب ذاته ولكن مع الإيجاز.

تاريخ الحرمين الشريفين

في هذا المصمار، تجدر الإشارة إلى كتاب تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف لابن ضياء (ت. ٨٥٤هـ). حيث تطرق المؤلف في هذا السفر إلى تاريخ مكة والكعبة والمسجد الحرام، كما استعرض تاريخ المدينة المنورة متخذاً من تاريخ المسجد النبوي محوراً لسرده. وقد تضمن الكتاب في مواضع متفرقة منه معلومات وإفادات حول حياة النبي ﷺ وسيرته العطرة.

كتب الطبقات والتراجم والأنساب

تدرج كتب الطبقات والتراجم والأنساب ضمن المصنّفات التي تضم بين دفتيها -في كثير من الأحيان- مباحث من السيرة النبوية. فإلى جانب شخص رسول الله ﷺ، حظي صحابته بمكانة مرموقة ومنزلة خاصة، مما دفع العلماء إلى إفرادهم بمصنّفات تُعنى بسيرهم وأخبارهم. وقد صيغت هذه المصنّفات في قالبين رئيسيين هما: «الطبقات» و«التراجم».

ففي كتب الطبقات، يُصنّف الصحابة وفقاً للحقبة الزمنية التي عاشوا فيها أو «الطبقة» التي ينتمون إليها. أما في كتب التراجم، فيعتمد المؤلفون الترتيب الأبجدي

لأسماء الأعلام منهجاً لسرد أحوالهم. وتزخر هذه الكتب بذكر وقائع حياة المترجم لهم، وتواريخ ميلادهم ووفياتهم، وقد تعرّج أحياناً على ذكر مروياتهم الحديثية التي نُقلت من طريقهم.

ولا يقف فنّ التدوين الطبقي والترجمة عند حدود الصحابة فحسب، بل يتعدّاهم ليشمل الطبقات التي تلتهم من التابعين ورواة الحديث. كما قد تختصّ هذه التأليفات أحياناً بأهل إقليم جغرافي بعينه، أو بأرباب صنف محدّد من الأصناف المهنية أو العلمية. وسبق أن أشرنا إلى المنزلة الرفيعة التي احتلّها النسب والقربة في الثقافة العربية؛ ومن هذا المنطلق، خُصّص شطرٌ من التدوين التاريخي لـ «علم الأنساب».

وغالباً ما يُصدّر المؤلفون كتبهم في الطبقات والتراجم والأنساب بسيرة مقتضبة لرسول الله ﷺ تيمناً وتبرّكاً بذكر اسمه الشريف. بيد أن هذا ليس المسوّغ الوحيد لعدّ هذه المصنّفات ضمن مصادر السيرة النبوية؛ إذ يُمكن للباحث، من خلال تتبع تراجم الأشخاص وأنسابهم في ثنايا هذه الكتب، استخلاص معلومات وفيرة وإشارات دقيقة تتعلّق بحياة نبي الإسلام ﷺ وسيرته.

كتب الطبقات والتراجم

أولاً وفي موضوع الطبقات، يشار بالبنان إلى كتاب *الطبقات الكبرى* لابن سعد (ت. ٢٣٠هـ)، الذي يُعدّ أجلّ المصنّفات في هذا المضمار وأجمعها. وقد أُفرد فيه قسمٌ خاصّ للسيرة النبوية، يستهلّه المؤلّف بذكر نسب الرسول ﷺ وعقبه، وصولاً إلى وفاته، مستعرضاً أهمّ محطات حياته الشريفة. كما يعرّج ابن سعد في هذا السفر على شمائله وخصائله وسائر جوانب حياته ﷺ.

ويندرج تحت هذا القسم نوع آخر من المؤلّفات، وهي تلك التي اختصّت بضبط تواريخ ولادة المعصومين (عليه السلام) ووفياتهم. ومن أبرزها كتاب *تاج المواليد* للفضل بن

الحسن الطبرسي (ت. ٥٤٨هـ). وبحكم موضوعه الذي يعنى بتاريخ المعصومين (عليه السلام)، فقد خُصَّص جزء منه لذكر مولد الرسول (صلى الله عليه وآله) ووفاته، وأسمائه وألقابه، وأبنائه وأزواجه.

كما أنَّ كتب التراجم تنقسم إلى صنفين رئيسيين: «تراجم الصحابة» و«التراجم العامة». وفي تراجم الصحابة التي تعني بتدوين سير لصحابة رسول الله (صلى الله عليه وآله)، يُمكن ترتيب أهمّ مصادر هذا الصنف على النحو الآتي:

١. الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (ت. ٤٦٣هـ): استهّل ابن عبد البر كتابه بعقد فصل لترجمة رسول الله (صلى الله عليه وآله)، أورد فيه نسبه وعشيرته وآله، وتناول مولده ووفاته، متحدّثاً عن أمّهات أحداث السيرة النبوية.

٢. أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (ت. ٦٣٠هـ): سار ابن الأثير على نهج سابقه، فبدأ كتابه بترجمة للرسول (صلى الله عليه وآله). فبعد تحقيق نسبه الشريف، أورد أهمّ وقائع حياته، معرّجاً على شمائله ومعجزاته، ومختّماً هذا القسم بذكر وفاته (صلى الله عليه وآله).

أمّا التراجم العامة، فمن أهمّ المصنفات في هذا المجال:

١. المعارف لابن قتيبة (ت. ٢٧٦هـ): صاغ ابن قتيبة أثرًا موسوعيًا في المعارف الإسلامية، ووجّه إدراجه ضمن كتب التراجم، هو اشتماله على تراجم لنخبة من الصحابة والتابعين والفقهاء. يبدأ المؤلف بأخبار الأنبياء (صلى الله عليه وآله) وصولاً إلى المبعث النبوي. وفي القسم الخاص بالنبي (صلى الله عليه وآله)، أورد تقريراً عن نسبه وشمائله وخصائصه وأهمّ مجريات حياته، لينتقل بعدها لترجمة الخلفاء والصحابة والتابعين والفقهاء.

٢. المعرفة والتاريخ ليعقوب بن سفيان الفسوي (ت. ٢٧٧هـ): يسرد الفسوي في مستهّل كتابه الحوادث الواقعة بين عامي ١٣٥هـ و٢٤١هـ، ثمّ يثني بذكر تراجم الصحابة. وقد ذيل كتابه بقسم خاص بالسيرة النبوية.

٣. سير أعلام النبلاء للذهبي (ت. ٧٤٨هـ): رتب الذهبي تراجم الصحابة

والتابعين والفقهاء والحفاظ في هذا السفر الجليل ضمن خمس وثلاثين طبقة. وقد خصص صدر الكتاب للسيرة النبوية، راوياً أحداثها من المولد إلى وفاة النبي ﷺ.

وقد اختصت بعض كتب التراجم العامة بذكر أعيان منطقة بعينها. ومن هذه الآثار التي تضمنت إشارات للسيرة النبوية، تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر (ت. ٥٧١هـ). فبعد أن استعرض ابن عساكر خطط دمشق وفصائل الشام وخصائصها، أفرد قسمًا لسيرة رسول الله ﷺ، متناولاً أسماءه ونسبه وعقبه وشيئله وخصائصه وسائر شؤون حياته الشخصية، كما أدرج ضمن هذا القسم تراجم لبعض صحابته. والنموذج الآخر هو تاريخ أبي زرعة الدمشقي (ت. ٢٨٠هـ)، الذي ركز في تراجمه على من نزل الشام وفلسطين، وقد استهل كتابه بذكر السيرة النبوية.

ثمة مصنفات عُنت بفئة محدّدة من المجتمع، حيث تحتل سير العباد والزهاد من الصحابة والتابعين والفقهاء مكانة محورية فيها. ومن هذه المجموعات التي طالت السيرة النبوية كتاب صفة الصفوة لابن الجوزي (ت. ٥٩٧هـ)، إذ يبدأ فيه بعد ذكر فضل الأولياء والصالحين، بترجمة لرسول الله ﷺ، مسلطاً الضوء على نسبه ومولده وأسمائه وجوانب أخرى من حياته الشريفة.

كتب الأنساب

تُعنى هذه المصنفات بدراسة أنساب الأفراد وأصولهم الأسرية. وقد وُضعت بعض هذه الآثار خصيصاً لبيان نسب النبي ﷺ، بينما عرّج بعضها الآخر على السيرة النبوية في سياق حديثه عن أنساب القبائل والأعيان. ومن أبرز العناوين في هذا المضمار:

١. أمّهات النبي لابن حبيب البغدادي (ت. ٢٤٥هـ): ينصب اهتمام ابن حبيب في هذا السفر على تتبع أنساب أمّهات النبي ﷺ، فهو يذكر والده وأجداده من جهة الأب، ثم يستقصي أنساب أمّهاتهم، مبيّناً عراقة المحتد النبوي من الجهتين.

٢. أنساب الأشراف للبلاذري (ت. ٢٧٩هـ): عكف البلاذري في هذا الكتاب على تدوين أنساب أشراف العرب وأعيانهم، ولم يكتفِ بسرد الأنساب المجردة، بل أردفها بلمحات من سيرة كلِّ علَم من الأعلام. ولما كان الرسول الأكرم ﷺ سيّد العرب وأشرفهم، فقد استهلّ البلاذري كتابه بذكر نسبه الشريف، حيث بدأ بأخبار آدم ﷺ، ثم انطلق من «عدنان» الجدّ الأعلى للرسول ﷺ، متسلسلاً في عمود النسب وصولاً إليه ﷺ. وعقب الفراغ من النسب، شرع البلاذري في سرد السيرة النبوية، معدّداً أهمّ وقائع عصره، ومفصّلاً في غزواته، ثم انتقل لبيان شأئله وخصائصه وسائر جوانب حياته الكريمة، مختتماً هذا الفصل بذكر وفاته ﷺ.

٣. الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة للبرّي (ت. ٦٤٥هـ): يتناول البرّي في هذا المؤلّف نسب النبي ﷺ ونسب العشرة المبشرين بالجنة من صحابته. وقد صدر كتابه بذكر النسب النبوي الشريف قبل الانتقال إلى أنساب الصحابة.

كتب تاريخ الأئمة ﷺ والخلفاء

ثمة مصنّفات تاريخية وُضعت في الأصل لتاريخ أئمة الشيعة ﷺ والخلفاء، إلّا أنّها تضمّنت إشارات ومباحث تتعلّق بسيرة رسول الله ﷺ. ومن أبرز هذه الآثار:

١. الإرشاد في معرفة حُجَج الله على العباد للشيخ المفيد (ت. ٤١٣هـ): لم يعقد الشيخ المفيد في سفره هذا باباً مستقلاً لحياة النبي ﷺ؛ بيد أنّ استعراضه المفصّل لبطولات الإمام علي بن أبي طالب ﷺ ومواقفه في الغزوات، استلزم بالضرورة إيراد جانبٍ حيوي وهامٍّ من السيرة النبوية والمغازية.

٢. روضة الواعظين وبصيرة المتعظّين لمحمّد بن قتّال النيسابوري (ت. ٥٠٨هـ): فقد أفرد المؤلّف فصلاً خاصّة للحديث عن مولد النبي ﷺ ووفاته.

٣. إعلام الوري بأعلام الهدى للفضل بن الحسن الطبرسي (ت. ٥٤٨هـ): جعل

الطبرسي من السيرة النبوية رُكناً من الأركان الأربعة التي بنى عليها هيكلية كتابه؛ فتناول في هذا الركن نسب رسول الله ﷺ، ومولده، ومعجزاته، ومغازيه.

٤. مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب (ت. ٥٨٨هـ): خصّص ابن شهر آشوب حيزاً من كتابه لرسول الله ﷺ، مستعرضاً جملة من معجزاته وخصائصه، وباحثاً في نسبه الشريف وسيرته العطرة.

٥. الإكتفاء في أخبار الخلفاء لابن كردبوس (ت. بعد ٥٧٥هـ): استهلّ ابن كردبوس كتابه بذكر النسب النبوي، ثم عرّج على شمائل النبي ﷺ وخصائصه، وسرد أهم أحداث العصر النبوي. كما خصّص قسماً لمعجزاته، وأبنائه، وأزواجه، لينتقل بعد ذلك لذكر الحكام والخلفاء، مختتماً كتابه بخلافة المستنجد بالله العباسي (حكم ٥٥٥-٥٦٦هـ).

٦. كشف الغمّة في معرفة الأئمة لعلي بن عيسى الإربلي (ت. ٦٩٢هـ): وُضع هذا الكتاب في بيان فضائل أئمة أهل البيت ﷺ وتاريخ حياتهم. وقد استفتحه الإربلي بإيراد طائفة من الوقائع والمعجزات التي سبقت مولد النبي ﷺ وتلته، ذكر فضائل بني هاشم.

المصادر الأدبية

يحتلّ الأدب، ولا سيما الشعر، منزلة رفيعة في الثقافة العربية والإسلامية. وإذا تزخر المصادر التاريخية والروائية بالأبيات الشعرية التي توثّق حوادث العصر النبوي ووقائعه؛ فإنّ المصنّفات الأدبية البحتة انطوت هي الأخرى في تضاعيفها على شذرات من السيرة النبوية. فقد كانت أقوال الرسول ﷺ وأفعاله محطّ اهتمام الأدباء، فنقلوها ودوّنوها في آثارهم. ومن أبرز هذه المصنّفات:

١. البيان والتبيين والحيوان للجاحظ (ت. ٢٥٥هـ): حيث يُمكن للباحث أن يعثر

- في ثنايا هذين السفرين على نصوص وروايات وسما تَتَّصِل بالسيرة النبوية.
٢. *الكامل في اللغة والأدب للمبرّد* (ت. ٢٨٦هـ): الذي استهله مؤلفه بوصف رسول الله ﷺ، كما تضمن متنه تفاصيل متفرقة عن الحياة النبوية.
٢. *نهج البلاغة للشریف الرضي* (ت. ٤٠٦هـ): ورد في هذا الكتاب ذكر رسول الله ﷺ في أكثر من عشرين موضعاً، كما استشهد بكلامه الشريف في ما يربو على خمسة وثلاثين موضعاً.
٣. *المجازات النبوية للشریف الرضي*: يُعدّ هذا الكتاب دراسة تحليلية أدبية لأحاديث النبي ﷺ، عُنِيَ فيه المؤلف ببيان الوجوه البلاغية والجمالية في الكلام النبوي الشريف.

روايات في أوصاف النبي ﷺ وأحواله وسُننه*

العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي رحمه الله

شمائله ﷺ وجوامع أخلاقه

١. «قَالَ الْحُسَيْنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: سَأَلْتُ أَبِي ﷺ عَنْ مَدْخَلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: ... فَإِذَا أَوَى إِلَى مَنْزِلِهِ جَزَأَ دُخُولَهُ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ: جُزْءٌ لِلَّهِ، وَجُزْءٌ لِأَهْلِهِ، وَجُزْءٌ لِنَفْسِهِ، ثُمَّ جَزَأَ جُزْأَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، فَيَرُدُّ ذَلِكَ بِالْخَاصَّةِ عَلَى الْعَامَّةِ وَلَا يَدَّخِرُ عَنْهُمْ مِنْهُ شَيْئًا. وَكَانَ مِنْ سِيرَتِهِ فِي جُزْءِ الْأُمَّةِ إِثَارُ أَهْلِ الْفَضْلِ بِإِذْنِهِ، وَقَسَمُهُ عَلَى قَدْرِ فَضْلِهِمْ فِي الدِّينِ، فَمِنْهُمْ ذُو الْحَاجَةِ وَمِنْهُمْ ذُو الْحَاجَتَيْنِ وَمِنْهُمْ ذُو الْحَوَائِجِ، فَيَتَشَاغَلُ بِهِمْ وَيَشْغَلُهُمْ فِي مَا أَصْلَحَهُمْ وَالْأُمَّةُ مِنْ مَسْأَلَتِهِ عَنْهُمْ وَيَاخْبَارِهِم بِالَّذِي يَنْبَغِي، وَيَقُولُ: لِيُبْلَغَ الشَّاهِدُ مِنْكُمْ الْغَائِبَ وَأَبْلِغُونِي حَاجَةً مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى إِبْلَاحِ حَاجَتِهِ، فَإِنَّهُ مَنْ أَبْلَغَ سُلْطَانًا

* تم اختيار هذه الروايات من: الطباطبائي، سنن النبي ﷺ.

حَاجَةً مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى إِبْلَاغِهَا، ثَبَّتَ اللَّهُ قَدَمَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. لَا يَذْكُرُ عِنْدَهُ إِلَّا ذَلِكَ، وَلَا يَقَيِّدُ مِنْ أَحَدٍ عَثْرَةً. يَدْخُلُونَ رُودَادًا وَلَا يَفْتَرِقُونَ إِلَّا عَنْ ذَوَاقٍ وَيَخْرُجُونَ أَدَلَّةً.

قَالَ فَسَأَلْتُهُ عَنْ مَخْرَجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَيْفَ كَانَ يَصْنَعُ فِيهِ؟ فَقَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْزُنُ لِسَانَهُ إِلَّا عَمَّا يَعْنِيهِ، وَيُؤْلِفُهُمْ وَلَا يُنْفِرُهُمْ، وَيُكْرِمُ كَرِيمَ كُلِّ قَوْمٍ وَيُؤْلِيهِ عَلَيْهِمْ، وَيُحَذِّرُ النَّاسَ وَيَخْتَرِسُ مِنْهُمْ مَنْ غَيْرِ أَنْ يَطْوِي عَنْ أَحَدٍ بَشْرَهُ وَلَا خُلُقَهُ، وَيَتَفَقَّدُ أَصْحَابَهُ وَيَسْأَلُ النَّاسَ عَمَّا فِي النَّاسِ، وَيُحَسِّنُ الْحَسَنَ وَيُقَوِّبُهُ وَيُقَبِّحُ الْقَبِيحَ وَيُهَوِّنُهُ، مُعْتَدِلُ الْأَمْرِ غَيْرٌ مُحْتَلِفٍ، لَا يَغْفُلُ مُحَافَةً أَنْ يَغْفُلُوا أَوْ يَمَلُّوا وَلَا يُقَصِّرُ عَنِ الْحَقِّ وَلَا يَجُوزُهُ، الَّذِينَ يَلُونَهُ مِنَ النَّاسِ خِيَارُهُمْ، أَفْضَلُهُمْ عِنْدَهُ أَعْمَهُمْ نَصِيحَةُ لِلْمُسْلِمِينَ وَأَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ مَنْزِلَةٌ أَحْسَنُهُمْ مُؤَاسَاةً وَمُؤَازَرَةً.

فَسَأَلْتُهُ عَنْ مَجْلِسِهِ فَقَالَ: كَانَ ﷺ لَا يَجْلِسُ وَلَا يَقُومُ إِلَّا عَلَى ذِكْرٍ، وَلَا يُوطِئُ الْأَمَاكِينَ وَيَنْهَى عَنْ إِطْطَانِهَا، وَإِذَا انْتَهَى إِلَى قَوْمٍ جَلَسَ حَيْثُ يَنْتَهِي بِهِ الْمَجْلِسُ وَيَأْمُرُ بِذَلِكَ، وَيُعْطِي كُلَّ جُلُوسَاتِهِ نَصِيْبَهُ وَلَا يَحْسَبُ مِنْ جُلُوسَاتِهِ أَنْ أَحَدًا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنْهُ، مَنْ جَالَسَهُ صَابَرَهُ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْمُنْصَرِفَ عَنْهُ، مَنْ سَأَلَهُ حَاجَةً لَمْ يَرْجِعْ إِلَّا بِهَا أَوْ بِمِيسُورٍ مِنَ الْقَوْلِ، قَدْ وَسِعَ النَّاسَ مِنْهُ خُلُقُهُ وَصَارَ لَهُمْ أَبَا وَصَارُوا عِنْدَهُ فِي الْخُلُقِ سَوَاءً، مَجْلِسُهُ مَجْلِسُ حِلْمٍ وَحَيَاءٍ وَصِدْقٍ وَأَمَانَةٍ وَلَا تَرْتَفِعُ فِيهِ الْأَصْوَاتُ وَلَا تُؤْبِنُ فِيهِ الْحُرْمُ وَلَا تُنْشَى فَلَتَاتُهُ، مُتَعَادِلِينَ مُتَوَاصِلِينَ فِيهِ بِالتَّقْوَى مُتَوَاضِعِينَ، يُوقِفُونَ الْكَبِيرَ وَيَرْحَمُونَ الصَّغِيرَ وَيُؤْثِرُونَ ذَا الْحَاجَةِ وَيَحْفَظُونَ الْغَرِيبَ.

فَقُلْتُ: فَكَيْفَ كَانَ سِيرَتُهُ فِي جُلُوسَاتِهِ؟ فَقَالَ: كَانَ دَائِمَ الْبَشْرِ سَهْلَ الْخُلُقِ لَيْنَ الْجَانِبِ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا صَخَابٍ^١ وَلَا فَحَّاشٍ وَلَا عِيَابٍ وَلَا مَدَاحٍ، يَتَغَافَلُ عَمَّا لَا يَشْتَهِي فَلَا يُؤَيِّسُ مِنْهُ وَلَا يُحَيِّبُ فِيهِ مُؤْمَلِيهِ، قَدْ تَرَكَ نَفْسَهُ مِنْ ثَلَاثٍ: الْمِرَاءِ

١. شديد الصياح، كثير اللغط.

والإِثْثَارِ وَمَا لَا يَعْنِيهِ، وَتَرَكَ النَّاسَ مِنْ ثَلَاثٍ: كَانَ لَا يَذُمُّ أَحَدًا وَلَا يُعَيِّرُهُ وَلَا يَطْلُبُ عَثَرَاتِهِ وَلَا عَوْرَتَهُ، وَلَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا فِي مَا رَجَا ثَوَابَهُ... يَضْحَكُ مِمَّا يَضْحَكُونَ مِنْهُ وَيَتَعَجَّبُ مِمَّا يَتَعَجَّبُونَ مِنْهُ وَيَصْبِرُ لِلْغَرِيبِ عَلَى الْجُفْوَةِ فِي مَسْأَلَتِهِ وَمَنْطِقِهِ حَتَّى إِنْ كَانَ أَصْحَابُهُ لَيَسْتَجْلِبُونَهُمْ وَيَقُولُ إِذَا رَأَيْتُمْ طَالِبَ الْحَاجَةِ يَطْلُبُهَا فَارْزُدُوهُ وَلَا يَقْبَلُ الشَّاءَ إِلَّا مِنْ مُكَافِيٍّ وَلَا يَقْطَعُ عَلَى أَحَدٍ كَلَامَهُ حَتَّى يَجُوزَ فَيَقْطَعَهُ بِنَهْيٍ أَوْ قِيَامٍ.

قَالَ: فَسَأَلْتُهُ عَنْ سُكُوتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: كَانَ سُكُوتُهُ عَلَى أَرْبَعٍ: عَلَى الْحِلْمِ وَالْحَذَرِ وَالتَّقْدِيرِ وَالتَّفَكُّرِ، فَأَمَّا التَّقْدِيرُ فَفِي تَسْوِيَةِ النَّظَرِ وَالِاسْتِيعَاضَةِ بَيْنَ النَّاسِ، وَأَمَّا تَفَكُّرُهُ فَفِيمَا يَنْتَقِي أَوْ يَفْنَى، وَجُمِعَ لَهُ الْحِلْمُ فِي الصَّبْرِ فَكَانَ لَا يُغَضِبُهُ شَيْءٌ وَلَا يَسْتَفْزُهُ، وَجُمِعَ لَهُ الْحَذَرُ فِي أَرْبَعٍ: أَخَذَهُ بِالْحَسَنِ لِيُقْتَدَى بِهِ وَتَرَكَهُ الْقَبِيحَ لِيُسْتَهْتَمَ عَنْهُ وَاجْتِهَادِهِ الرَّأْيَ فِي صَلَاحِ أُمَّتِهِ وَالْقِيَامِ فِيهَا جَمَعَ لَهُمْ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ^١.

٢. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بُعِثْتُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِهَا»^٢.

٣. قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ع: «فَتَأَسَّ بِنَبِيِّكَ الْأَطْيَبِ الْأَطْهَرَ إِلَى أَنْ قَالَ: قَضَمَ الدُّنْيَا قَضْمًا^٣ وَلَمْ يُعْرِهَا طَرْفًا. أَهْضَمَ أَهْلَ الدُّنْيَا كَشْحًا وَأَحْمَصُهُمْ مِنَ الدُّنْيَا بَطْنًا، عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا. وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَبْغَضَ شَيْئًا فَأَبْغَضَهُ، وَحَقَّرَ شَيْئًا فَحَقَّرَهُ، وَصَغَّرَ شَيْئًا فَصَغَّرَهُ. وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِينَا إِلَّا حُبْنًا مَا أَبْغَضَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَتَعْظِيمُنَا مَا صَغَّرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، لَكَفَى بِهِ شِقَاقًا لِلَّهِ وَمُحَادَّةً عَنْ أَمْرِ اللَّهِ. وَلَقَدْ كَانَ ﷺ يَأْكُلُ عَلَى الْأَرْضِ وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبْدِ، وَيُخْصِفُ بِيَدِهِ نَعْلَهُ وَيَرْفَعُ بِيَدِهِ ثَوْبَهُ، وَيَرْكَبُ الْحِمَارَ الْعَارِيَّ وَيُرْدِفُ خَلْفَهُ^٤. وَيَكُونُ السِّرُّ عَلَى بَابِ بَيْتِهِ فَتَكُونُ فِيهِ التَّصَاوِيرُ، فَيَقُولُ يَا

١. الصدوق، معاني الأخبار، ٨١-٨٣.

٢. الطوسي، الأُمالي، ٥٩٦.

٣. أي: زهد فيها ورضي منها بالدون.

٤. أي: يجلس شخصاً آخر خلفه، وهو كناية عن عدم تكلفه.

فَلَانَتْهُ، لِإِحْدَى أَزْوَاجِهِ: غَيْبِهِ عَنِّي، فَإِنِّي إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا وَزَخَارِفَهَا. فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا مِنْ نَفْسِهِ، وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ لِكَيْلَا يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشًا، وَلَا يَعْتَقِدَهَا قَرَارًا، وَلَا يَرْجُو فِيهَا مَقَامًا. فَأَخْرَجَهَا مِنَ النَّفْسِ وَأَشْخَصَهَا عَنِ الْقَلْبِ وَغَيَّبَهَا عَنِ الْبَصَرِ، وَكَذَلِكَ مَنْ أَبْغَضَ شَيْئًا أَبْغَضَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ وَأَنْ يُذَكَّرَ عِنْدَهُ»^٢.

٤. رُوي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ «كَانَ يَبْكِي حَتَّى يَبْتَلَّ مُصَلَّاهُ خَشْيَةً مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ»^٣.

٥. «لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ادْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٤١)، اشْتَغَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى قَالَ الْكُفَّارُ إِنَّهُ جُنٌّ»^٤.

٦. رُوي عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عليه السلام: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً فَقُلْتُ: أَكَانَ يَقُولُ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ كَانَ يَقُولُ: أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ. قُلْتُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَتُوبُ وَلَا يَعُودُ وَنَحْنُ نَتُوبُ وَنَعُودُ، فَقَالَ: اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ»^٥.

٧. عَنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام أَنَّهُ إِذَا وَصَفَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ كَفًّا وَأَجْرًا النَّاسِ صَدْرًا، وَأَصْدَقَ النَّاسِ هَنْجَةً وَأَوْفَاهُمْ ذِمَّةً، وَأَلْيَنَهُمْ عَرِيكَةً وَأَكْرَمَهُمْ عِشْرَةً. مَنْ رَأَاهُ بِدِيَهَةِ هَابَةٍ وَمَنْ خَالَطَهُ مَعْرِفَةً أَحَبَّهُ، لَمْ أَرْ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ مِثْلَهُ»^٦.

١. الرِّياش: المال واللباس الفاخر.

٢. الشريف الرضي، نهج البلاغة، الخطبة ١٦٠.

٣. الطبرسي، الإحتجاج، ١: ٢٢٣.

٤. المحدث النوري، مستدرک الوسائل، ٥: ٢٩٦.

٥. الكليني، الكافي، ٢: ٤٣٨.

٦. الطبرسي، مكارم الأخلاق، ١٨.

حُسن معاشرته ﷺ مع الناس

١. «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَرْفَعُ ثَوْبَهُ وَيُخْصِفُ نَعْلَهُ وَيَجْلُبُ شَاتَهُ، وَيَأْكُلُ مَعَ الْعَبْدِ وَيَجْلِسُ عَلَى الْأَرْضِ وَيَرْكَبُ الْحِمَارَ وَيُرْدِفُ، وَلَا يَمْنَعُهُ الْحَيَاءُ أَنْ يَحْمِلَ حَاجَةً مِنَ السُّوقِ إِلَى أَهْلِهِ، وَيُصَافِحُ الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرَ، وَلَا يَنْزِعُ يَدَهُ مِنْ يَدِ أَحَدٍ حَتَّى يَنْزِعَهَا هُوَ، وَيُسَلِّمُ عَلَى مَنْ اسْتَقْبَلَهُ مِنْ غَنِيٍّ وَفَقِيرٍ وَكَبِيرٍ وَصَغِيرٍ، وَلَا يُحَقِّرُ مَا دُعِيَ إِلَيْهِ وَلَوْ إِلَى حَشْفِ التَّمْرِ. وَكَانَ خَفِيفَ الْمُتُونَةِ، كَرِيمَ الطَّبِيعَةِ، جَمِيلَ الْمَعَاشِرَةِ، طَلَقَ الْوَجْهَ بَسَامًا مِنْ غَيْرِ ضَحِكٍ، مُحْزُونًا مِنْ غَيْرِ عُيُوسٍ، مُتَوَاضِعًا مِنْ غَيْرِ مَذَلَّةٍ، جَوَادًا مِنْ غَيْرِ سَرَفٍ، رَقِيقَ الْقَلْبِ رَحِيمًا بِكُلِّ مُسْلِمٍ، وَلَمْ يَمُدَّ يَدَهُ إِلَى طَمَعٍ قَطُّ»^١.

٢. «كَانَ ﷺ يَنْظُرُ فِي الْمِرَاةِ وَيُرْجِلُ جُمَّتَهُ وَيَمْسِطُ، وَرُبَّمَا نَظَرَ فِي الْمَاءِ وَسَوَّى جُمَّتَهُ فِيهِ. وَلَقَدْ كَانَ يَتَجَمَّلُ لِأَصْحَابِهِ فَضْلًا عَلَى تَجَمُّلِهِ لِأَهْلِهِ، وَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَنْ عَبَدَهُ إِذَا خَرَجَ إِلَى إِخْوَانِهِ أَنْ يَتَهَيَّأَ لَهُمْ وَيَتَجَمَّلُ»^٢.

٣. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «حَسَسَ لَا أَدْعُهُنَّ حَتَّى الْمَمَاتِ: الْأَكْلُ عَلَى الْحُضِيِّضِ مَعَ الْعَبِيدِ، وَرُكُوبِي الْحِمَارَ مُؤَكَّفًا [بلا سرج]، وَحَلْبِي الْعَنْزَ بِيَدِي، وَلُبْسُ الصُّوفِ، وَالتَّسْلِيمُ عَلَى الصَّبْيَانِ لِتَكُونَ سُنَّةٌ مِنْ بَعْدِي»^٣.

٤. رُوي عن عبد العظيم الحسني رحمه الله: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَجْلِسُ ثَلَاثًا الْقُرْفُصَا، وَهُوَ أَنْ يُقِيمَ سَاقِيَهُ وَيَسْتَقْبِلُهَا بِيَدَيْهِ وَيَشُدُّ يَدَهُ فِي ذِرَاعِهِ، وَكَانَ يَجْثُو عَلَى رُكْبَتَيْهِ، وَكَانَ يَشْنِي رَجُلًا وَاحِدَةً وَيَسْطُ عَلَيْهِمَا الْأُخْرَى، وَلَمْ يُرَ ﷺ مُتَرَبِّعًا قَطُّ»^٤.

١. الديلمي، إرشاد القلوب، ١: ١١٥.

٢. الطبرسي، مكارم الأخلاق، ٣٤-٣٥.

٣. الصدوق، الأُمالي، ٧٢.

٤. الكليني، الكافي، ٢: ٦٦١.

٥. رُوي عن الإمام علي عليه السلام: «مَا صَافَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحَدًا قَطُّ فَفَزَعَ يَدَهُ مِنْ يَدِهِ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِي يَنْزِعُ يَدَهُ، وَمَا فَاوَضَهُ أَحَدٌ قَطُّ فِي حَاجَةٍ أَوْ حَدِيثٍ فَانْصَرَفَ حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يَنْصَرِفُ، وَمَا نَازَعَهُ أَحَدٌ الْحَدِيثَ فَيَسْكُتَ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِي يَسْكُتُ، وَمَا رُئِيَ مُقَدِّمًا رِجْلَهُ بَيْنَ يَدَيْ جَلِيسٍ لَهُ قَطُّ، وَلَا خَيْرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ بِأَشَدِّهِمَا، وَمَا انْتَصَرَ لِنَفْسِهِ مِنْ مَظْلَمَةٍ حَتَّى يُنْتَهَكَ مُحَارِمُ اللَّهِ فَيَكُونَ حِينَئِذٍ غَضَبُهُ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَمَا أَكَلَ مُتَكِنًا قَطُّ حَتَّى فَارَقَ الدُّنْيَا، وَمَا سُئِلَ شَيْئًا قَطُّ فَقَالَ: لَا، وَمَا رَدَّ سَائِلَ حَاجَةٍ قَطُّ إِلَّا بِهَا أَوْ بِمِثْلٍ مِنَ الْقَوْلِ، وَكَانَ أَخَفَّ النَّاسِ صَلَاةً فِي تَمَامٍ وَكَانَ أَقْصَرَ النَّاسِ خُطْبَةً وَأَقْلَهُمْ هَذَرًا، وَكَانَ يُعْرِفُ بِالرَّيْحِ الطَّيِّبِ إِذَا أَقْبَلَ، وَكَانَ إِذَا أَكَلَ مَعَ الْقَوْمِ كَانَ أَوَّلَ مَنْ يَبْدَأُ وَآخِرَ مَنْ يَرْفَعُ يَدَهُ، وَكَانَ إِذَا أَكَلَ أَكَلَ بِمَا يَلِيهِ فَإِذَا كَانَ الرُّطْبُ وَالتَّمَرُ جَالَتْ يَدُهُ، وَإِذَا شَرِبَ شَرِبَ ثَلَاثَةَ أَنْفَاسٍ وَكَانَ يَمَضُّ الْمَاءَ مَضًّا وَلَا يَعْبُهُ عَبًّا، وَكَانَ يَمِينُهُ لِبَطْعَامِهِ وَشَرَابِهِ وَأَخِذِهِ وَإِعْطَائِهِ فَكَانَ لَا يَأْخُذُ إِلَّا بِيَمِينِهِ وَلَا يُعْطِي إِلَّا بِيَمِينِهِ، وَكَانَ شِمَالُهُ لِمَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ بَدَنِهِ، وَكَانَ يُحِبُّ التَّيْمَنَ فِي كُلِّ أَمْرٍ، فِي لُبْسِهِ وَتَعْلِيهِ وَتَرْجُلِهِ، وَكَانَ إِذَا دَعَا دَعَا ثَلَاثًا، وَإِذَا تَكَلَّمَ تَكَلَّمَ وَتَرًّا، وَإِذَا اسْتَأْذَنَ اسْتَأْذَنَ ثَلَاثًا، وَكَانَ كَلَامُهُ فَضْلًا يَتَبَيَّنُهُ كُلُّ مَنْ سَمِعَهُ... وَكَانَ نَظَرُهُ اللَّحْظَ بِعَيْنِهِ، وَكَانَ لَا يُكَلِّمُ أَحَدًا بِشَيْءٍ يَكْرَهُهُ، وَكَانَ إِذَا مَشَى كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ، وَكَانَ يَقُولُ: إِنَّ خِيَارَكُمْ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَكَانَ لَا يَذُمُّ ذَوَاقًا وَلَا يَمْدَحُهُ، وَلَا يَتَنَازَعُ أَصْحَابُهُ الْحَدِيثَ عِنْدَهُ وَكَانَ الْمُحَدِّثُ عَنْهُ يَقُولُ: لَمْ أَرِ بَعِينِي مِثْلَهُ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ ﷺ»^١.

٦. رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْسِمُ لِحَظَاتِهِ بَيْنَ أَصْحَابِهِ، فَيَنْظُرُ إِلَى ذَا وَيَنْظُرُ إِلَى ذَا بِالسَّوِيَّةِ. قَالَ: وَلَمْ يَبْسُطْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رِجْلَيْهِ بَيْنَ أَصْحَابِهِ

قَطُّ، وَإِنْ كَانَ لِيَصَافِحُهُ الرَّجُلُ، فَمَا يَتْرُكُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ مِنْ يَدِهِ حَتَّى يَكُونَ هُوَ التَّارِكُ. فَلَمَّا فَطَنُوا لِذَلِكَ، كَانَ الرَّجُلُ إِذَا صَافَحَهُ - قَالَ بِيَدِهِ - فَتَزَعَهَا مِنْ يَدِهِ»^١.

٧. «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا حَدَّثَ بِحَدِيثٍ، تَبَسَّمَ فِي حَدِيثِهِ»^٢.

٨. رُوي عن يونس الشَّيباني عن أبي عبد الله ﷺ: «كَيْفَ مُدَاعَبَةٌ بَعْضُكُمْ بَعْضًا؟ قُلْتُ: قَلِيلٌ، قَالَ: فَلَا تَفْعَلُوا، فَإِنَّ الْمُدَاعَبَةَ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ وَإِنَّكَ لَتَدْخُلُ بِهَا السُّرُورَ عَلَى أَخِيكَ، وَلَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُدَاعِبُ الرَّجُلَ يُرِيدُ أَنْ يَسْرَهُ»^٣.

٩. رُوي عن الإمام الصادق ﷺ: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَفِيهِ دُعَابَةٌ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُدَاعِبُ وَلَا يَقُولُ إِلَّا حَقًّا»^٤.

١٠. عن مُعَمَّر بن خَلَّاد، قال: سألت أبا الحسن الرضا ﷺ: «جُعِلْتُ فِدَاكَ، الرَّجُلُ يَكُونُ مَعَ الْقَوْمِ فَيَجْرِي بَيْنَهُمْ كَلَامٌ يَمَزَحُونَ وَيَضْحَكُونَ»، فَقَالَ: «لَا بَأْسَ مَا لَمْ يَكُنْ - فَطَنْتُ أَنَّهُ عَنِ الْفُحْشِ - ثُمَّ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَأْتِيهِ الْأَعْرَابِيُّ فَيَهْدِي لَهُ الْهَدْيَةَ ثُمَّ يَقُولُ مَكَانَهُ: أَعْطِنَا ثَمَنَ هَدِيَّتِنَا، فَيَضْحَكُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ إِذَا اغْتَمَّ يَقُولُ: مَا فَعَلَ الْأَعْرَابِيُّ لَيْتَهُ أَتَانَا»^٥.

١١. رُوي عن الإمام الصادق ﷺ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَكْثَرَ مَا يَجْلِسُ نُجَاهَ الْقِبْلَةِ»^٦.

١٢. «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُؤْتَى بِالصَّبِيِّ الصَّغِيرِ لِيَدْعُو لَهُ بِالْبَرَكَةِ أَوْ يُسَمِّيَهُ، فَيَأْخُذُهُ فَيَضَعُهُ فِي حَجْرِهِ تَكْرِمَةً لِأَهْلِهِ. فَرُبَّمَا بَالَ الصَّبِيُّ عَلَيْهِ، فَيَصِيحُ بَعْضُ مَنْ رَأَاهُ حِينَ يَبُولُ

١. الكليني، الكافي، ٢: ٦٧١.

٢. الطبرسي، مكارم الأخلاق، ٢١.

٣. الكليني، الكافي، ٢: ٦٦٣.

٤. المحدث النوري، مستدرک الوسائل، ٨: ٤٠٨.

٥. الكليني، الكافي، ٢: ٦٦٣.

٦. م. ن. ٢: ٦٦١.

فَيَقُولُ ﷺ: لَا تُزْرِمُوا بِالصَّبِيِّ^١. فَيَدْعُهُ حَتَّى يَقْضِيَ بَوْلَهُ، ثُمَّ يَفْرُغُ لَهُ مِنْ دُعَائِهِ أَوْ تَسْمِيَّتِهِ وَيَبْلُغُ سُرُورَ أَهْلِهِ فِيهِ، وَلَا يَرُونَ أَنَّهُ يَتَأَذَى بِبَوْلِ صَبِيهِمْ. فَإِذَا انْصَرَفُوا غَسَلَ تَوْبَهُ بَعْدَهُ^٢.

١٣. «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَا يَدْعُ أَحَدًا يَمْشِي مَعَهُ إِذَا كَانَ رَاكِبًا، حَتَّى يَحْمِلَهُ مَعَهُ»^٣.

١٤. «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَتَّقِمْ لِنَفْسِهِ مِنْ أَحَدٍ قَطُّ، بَلْ كَانَ يَغْفُو وَيَصْفَحُ»^٤.

١٥. «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا فَقَدَ الرَّجُلَ مِنْ إِخْوَانِهِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، سَأَلَ عَنْهُ. فَإِنْ كَانَ غَائِبًا، دَعَا لَهُ وَإِنْ كَانَ شَاهِدًا، زَارَهُ وَإِنْ كَانَ مَرِيضًا، عَادَهُ»^٥.

١٦. عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ خَادِمِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «خَدَمْتُ النَّبِيَّ ﷺ تِسْعَ سِنِينَ فَمَا أَعْلَمُهُ قَالٍ لِي قَطُّ: هَلَّا فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا، وَلَا عَابَ عَلَيَّ شَيْئًا قَطُّ»^٦.

١٧. عن عَجَلَانَ، قَالَ: «كُنْتُ عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ﷺ فَجَاءَ سَائِلٌ، فَقَامَ إِلَى مِكَتَلٍ فِيهِ تَمْرٌ فَمَلَأَ يَدَهُ فَنَاولَهُ، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَسَأَلَهُ فَقَامَ فَأَخَذَ بِيَدِهِ فَنَاولَهُ، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَسَأَلَهُ فَقَامَ فَأَخَذَ بِيَدِهِ فَنَاولَهُ، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَقَالَ: اللَّهُ رَازِقُنَا وَإِيَّاكَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ لَا يَسْأَلُهُ أَحَدٌ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ، فَأَرْسَلْتُ إِلَيْهِ امْرَأَةً ابْنًا لَهَا فَقَالَتْ: انْطَلِقِي إِلَيْهِ فَاسْأَلِيهِ، فَإِنْ قَالَ لَكَ: لَيْسَ عِنْدَنَا شَيْءٌ، فَقُلِي: أَعْطِنِي قَمِيصَكَ. قَالَ: فَأَخَذَ قَمِيصَهُ فَرَمَى بِهِ إِلَيْهِ وَفِي نُسْخَةٍ أُخْرَى فَأَعْطَاهُ.

١. أي: لا تمنعوه.

٢. الطبرسي، مكارم الأخلاق، ٢٥.

٣. م. ن. ٢٢.

٤. المحدث النوري، مستدرک الوسائل، ٩: ٧.

٥. أي: حاضرًا.

٦. الطبرسي، مكارم الأخلاق، ١٩.

٧. م. ن. ١٦.

فَأَدَّبَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى الْقَصْدِ فَقَالَ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ (الإسراء: ٢٩)»^١.

آدابه ﷺ في الطيب والتجمل

١. «كان رسول الله ﷺ إِذَا غَسَلَ رَأْسَهُ وَحَيْثُ غَسَلَهَا بِالسِّدْرِ»^٢.
٢. رُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرْجِلُ شَعْرَهُ، وَأَكْثَرَ مَا كَانَ يُرْجِلُ شَعْرَهُ بِالْمَاءِ وَيَقُولُ: كَفَى بِالْمَاءِ طَبِيبًا لِلْمُؤْمِنِ»^٣.
٣. سأل محمد بن مسلم أبا جعفر الباقر عليه السلام عن الخضاب، فقال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَحْتَضِبُ وَهَذَا شَعْرُهُ عِنْدَنَا»^٤.
٤. رُوي عن الإمام علي عليه السلام في حديث الأربعمائة: «السَّوَاكُ مَرْضَاةُ اللَّهِ، وَسُنَّةُ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَطْهَرَةٌ لِلْقَمِ»^٥.
٥. رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام: «كَانَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُمَسَّكَةٌ، إِذَا هُوَ تَوَضَّأَ أَخَذَهَا بِيَدِهِ وَهِيَ رَطْبَةٌ، فَكَانَ إِذَا خَرَجَ عَرَفُوا أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِرَائِحَتِهِ»^٦.
٦. عن الإمام الصادق عليه السلام: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُنْفِقُ فِي الطَّيِّبِ أَكْثَرَ مِمَّا يُنْفِقُ فِي الطَّعَامِ»^٨.

١. الكليني، الكافي، ٤: ٥٥-٥٦.

٢. الطبرسي، مكارم الأخلاق، ٣٢.

٣. المحدث النوري، مستدرک الوسائل، ١: ٤٠٨.

٤. الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ١: ١٢٢.

٥. البرقي، المحاسن، ٢: ٥٦٢.

٦. ما يُحْفَظُ فِيهِ الْمَسْكُ وَالطَّيِّبُ.

٧. الكليني، الكافي، ٦: ٥١٥.

٨. م. ن. ٦: ٥١٢.

آدابه ﷺ في السفر

١. عن موسى بن عمر بن بزيع، قال: «قُلْتُ لِلرَّضَا ﷺ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، إِنَّ النَّاسَ رَوَوْا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَخَذَ فِي طَرِيقٍ رَجَعَ فِي غَيْرِهِ، فَكَذَا كَانَ يَفْعَلُ؟ قَالَ: فَقَالَ: نَعَمْ، وَأَنَا أَفَعَلُهُ كَثِيرًا فَأَفَعَلُهُ، ثُمَّ قَالَ لِي: أَمَا إِنَّهُ أَرْزُقُ لَكَ»^١.
٢. رُوي عن الإمام الصادق ﷺ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُخْرِجُ بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ»^٢.
٣. عن الإمام الباقر ﷺ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُسَافِرُ يَوْمَ الْحَمِيسِ»^٣.
٤. رُوي: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا سَافَرَ حَمَلَ مَعَهُ خَمْسَةَ أَشْيَاءَ [منها]: الْمِرَاةَ وَالْمُكْحَلَةَ وَالْمِذْرَى وَالسَّوَاكَ»^٤.
٥. رُوي عن الإمام الصادق ﷺ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرِهِ إِذَا هَبَطَ سَبَّحَ، وَإِذَا صَعِدَ كَبَّرَ»^٥.
٦. «إِنَّهُ ﷺ لَمْ يَرْتَحِلْ مِنْ مَنْزِلٍ إِلَّا وَصَلَّى عَلَيْهِ رَكَعَتَيْنِ وَقَالَ: حَتَّى يَشْهَدَ عَلَيَّ بِالصَّلَاةِ»^٦.
٧. «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا وَدَّعَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ: زَوَّدَكُمْ اللَّهُ التَّقْوَى، وَوَجَّهَكُمْ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ، وَقَضَى لَكُمْ كُلَّ حَاجَةٍ، وَسَلَّمْ لَكُمْ دِينَكُمْ وَدُنْيَاكُمْ، وَرَدَّكُمْ سَالِمِينَ إِلَى سَالِمِينَ»^٧.

١. الكليني، الكافي، ٥: ٣١٤.

٢. ابن طاووس، إقبال الأعمال، ١: ٢٨١.

٣. الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ٢: ٢٦٦.

٤. حَشَبَةُ ذات أَطْرَاف.

٥. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ١١: ٤٢٦.

٦. الكليني، الكافي، ٤: ٢٨٧.

٧. المحدث النوري، مستدرک الوسائل، ٨: ٢٤٥.

٨. الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ٢: ٢٧٦.

٨. عن الإمام علي عليه السلام: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ لِلْقَادِمِ مِنْ مَكَّةَ: تَقَبَّلَ اللَّهُ نُسُكَكَ وَغَفَرَ ذَنْبَكَ وَأَخْلَفَ عَلَيْكَ نَفَقَتَكَ»^١.

صفة لباسه وخاتمه ﷺ

١. «رُوي أَنَّهُ ﷺ كَانَ لَهُ عِمَامَةٌ سَوْدَاءُ، يَتَعَمَّمُ بِهَا وَيُصَلِّي فِيهَا»^٢.
٢. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «الْبَسُوا ثِيَابَ الْقُطْنِ، فَإِنَّهَا لِبَاسُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ لِبَاسُنَا»^٣.
٣. عن الإمام الصادق عليه السلام: «كَانَ خَاتَمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ وَرَقٍ»^٤.
٤. عن أبي خديجة: «الْفَصُّ مَدَوَّرٌ، هَكَذَا كَانَ خَاتَمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»^٥.
٥. عن الإمام الصادق عليه السلام: «كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَاتَمَانِ: أَحَدُهُمَا عَلَيْهِ مَكْتُوبٌ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، وَالْآخَرُ صَدَقَ اللَّهُ»^٦.

آداب نومه ويقظته ﷺ

١. عن الخديجة الكبرى عليها السلام: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْمَنَزَلَ، دَعَا بِالْإِنَاءِ فَتَطَهَّرَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ يُوجِزُ فِيهِمَا، ثُمَّ يَأْوِي إِلَى فِرَاشِهِ»^٧.
٢. قال الإمام الباقر عليه السلام: «مَا اسْتَيْقَظَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ نَوْمٍ إِلَّا خَرَّ لِلَّهِ سَاجِدًا»^٨.

١. المحدث النوري، مستدرک الوسائل، ٨: ٢٣٢.

٢. ابن أبي جهور الأحسائي، عوالي اللئالي، ٢: ٢١٤.

٣. الكليني، الكافي، ٦: ٤٤٦.

٤. ورق: الفضة. م. ن. ٦: ٤٦٨.

٥. م. ن. ٦: ٤٦٨.

٦. الصدوق، الخصال، ١: ٦١.

٧. م. ن. ٣: ٤٧١.

٨. الطبرسي، مكارم الأخلاق، ٣٩.

سنّته ﷺ في الزواج وأولاد

١. قال الإمام علي عليه السلام: «إِنَّ جَمَاعَةً مِنَ الصَّحَابَةِ كَانُوا حَرَمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمُ النِّسَاءَ وَالْإِفْطَارَ بِالنَّهَارِ وَالنَّوْمَ بِاللَّيْلِ، فَأَخْبَرْتُ أُمَّ سَلَمَةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَخَرَجَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: أَتَرْغَبُونَ عَنِ النِّسَاءِ؟ إِنِّي آتِي النِّسَاءَ وَأَكُلُ بِالنَّهَارِ وَأَنَامُ بِاللَّيْلِ، فَمَنْ رَغِبَ عَنِ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»^١.

٢. عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث الأربعمئة: «عُثُّوا عَنْ أَوْلَادِكُمْ يَوْمَ السَّابِعِ، وَتَصَدَّقُوا بِوِزْنِ شُعُورِهِمْ فِضَّةً عَلَى مُسْلِمٍ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْحُسَيْنِ وَالْحُسَيْنِ وَسَائِرِ وَلَدِهِ»^٢.

آدابه ﷺ في الأكل والشرب

١. رُوي عن الإمام الباقر عليه السلام: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَأْكُلُ الْهَدْيَةَ وَلَا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ»^٣.

٢. قال الإمام الصادق عليه السلام: «مَا كَانَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَنْ يَطْلَ جَائِعًا خَائِفًا فِي اللَّهِ»^٤.

٣. عن العيص بن القاسم، قال: «قُلْتُ لِلصَّادِقِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عليه السلام: حَدِيثٌ يُرْوَى عَنْ أَبِيكَ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: مَا شَبِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ خُبْزٍ بَرٍّ قَطُّ، أَهْوَ صَحِيحٌ؟ فَقَالَ: لَا، مَا أَكَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خُبْزَ بَرٍّ قَطُّ، وَلَا شَبِعَ مِنْ خُبْزٍ شَعِيرٍ قَطُّ»^٥.

١. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ٢٠: ٢١.

٢. الصدوق، الخصال، ٢: ٦١٩.

٣. الكليني، الكافي، ٥: ١٤٣.

٤. الكليني، الكافي، ٨: ١٢٩.

٥. الحنطة.

٦. الصدوق، الأمالي، ٣٢٠.

٤. عن الإمام الصادق عليه السلام: «مَا أَكَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَكِنًا مُنْذُ بَعَثَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ إِلَى أَنْ قَبِضَهُ، وَكَانَ يَأْكُلُ إِكْلَةَ الْعَبْدِ وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبْدِ... تَوَاضَعًا لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ»^١.
٥. سَأَلَ بَشِيرُ الدَّهَّانِ الْإِمَامَ الصَّادِقَ عليه السلام: «هَلْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَأْكُلُ مُتَكِنًا عَلَى يَمِينِهِ وَعَلَى يَسَارِهِ؟ فَقَالَ عليه السلام: مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَأْكُلُ مُتَكِنًا عَلَى يَمِينِهِ وَلَا عَلَى يَسَارِهِ، وَلَكِنْ كَانَ يَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبْدِ. قُلْتُ: وَلَمْ ذَلِكَ؟ قَالَ: تَوَاضَعًا لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ»^٢.
٦. عن الإمام الباقر عليه السلام: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَأْكُلُ أَكَلَ الْعَبْدِ وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبْدِ، وَكَانَ يَأْكُلُ عَلَى الْخَضِيزِ^٣ وَيَنَامُ عَلَى الْخَضِيزِ»^٤.
٧. عن ابن عباس: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَجْلِسُ عَلَى الْأَرْضِ، وَيَأْكُلُ عَلَى الْأَرْضِ، وَيَعْتَقِلُ الشَّاةَ، وَيُجِيبُ دَعْوَةَ الْمُتْلُوكِ عَلَى خُبْزِ الشَّعِيرِ»^٥.
٨. «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَأْكُلُ كُلَّ الْأَصْنَافِ مِنَ الطَّعَامِ، وَكَانَ يَأْكُلُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُ مَعَ أَهْلِهِ وَخَدَمِهِ إِذَا أَكَلُوا، وَمَعَ مَنْ يَدْعُوهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْأَرْضِ وَعَلَى مَا أَكَلُوا عَلَيْهِ وَمِمَّا أَكَلُوا، إِلَّا أَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ صَيْفٌ فَيَأْكُلُ مَعَ صَيْفِهِ. وَكَانَ أَحَبُّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ مَا كَانَ عَلَى صَفَفٍ»^٦.
٩. عن الإمام الصادق عليه السلام: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَكَلَ مَعَ قَوْمٍ طَعَامًا، كَانَ أَوَّلَ مَنْ يَضَعُ يَدَهُ وَآخِرَ مَنْ يَرْفَعُهَا، لِيَأْكُلَ الْقَوْمُ»^٧.

١. الكليني، الكافي، ٦: ٢٧٠.

٢. م. ن. ٦: ٢٧٢.

٣. أي: على الأرض.

٤. البرقي، المحاسن، ٢: ٤٥٧.

٥. الطوسي، الأموال، ٣٩٣.

٦. الضَّفَف: كثرة الأيدي على الطعام. الطبرسي، مكارم الأخلاق، ٢٦-٢٧.

٧. الكليني، الكافي، ٦: ٢٨٥.

١٠. قال الإمام الصادق عليه السلام: «مَا قُدِّمَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَعَامٌ فِيهِ تَمْرٌ، إِلَّا بَدَأَ بِالتَّمْرِ»^١.

١١. «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَحْمَدُ اللَّهَ بَيْنَ كُلِّ لُقْمَتَيْنِ»^٢.

١٢. عن وهب بن عبد ربّه، قال: «رَأَيْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام يَتَخَلَّلُ، فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَتَخَلَّلُ، وَهُوَ يُطِيبُ الْفَمَ»^٣.

١٣. عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «تَفَقَّدْتُ النَّبِيَّ ﷺ غَيْرَ مَرَّةٍ وَهُوَ إِذَا شَرِبَ تَنَفَّسَ ثَلَاثًا، مَعَ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا تَسْمِيَةٌ إِذَا شَرِبَ، وَتَحْمِيدٌ إِذَا انْقَطَعَ. فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: يَا عَلِيُّ، شَكَرُ اللَّهِ تَعَالَى بِالْحَمْدِ وَتَسْمِيَةٍ مِنَ الدَّاءِ»^٤.

آدابه عليه السلام في العبادات

١. عن زرارة، قال: «قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: أَلَا أَحْكِي لَكُمْ وُضُوءَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَقُلْنَا: بَلَى. فَدَعَا بِقُعْبٍ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ مَاءٍ ثُمَّ وَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ حَسَرَ عَنْ ذِرَاعَيْهِ، ثُمَّ غَمَسَ فِيهِ كَفَّهُ الْيُمْنَى، ثُمَّ قَالَ: هَكَذَا إِذَا كَانَتِ الْكَفُّ طَاهِرَةً. ثُمَّ غَرَفَ فَمَلَأَهَا مَاءً فَوَضَعَهَا عَلَى جَبِينِهِ، ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، وَسَدَّلَهُ عَلَى أَطْرَافِ لِحْيَتِهِ، ثُمَّ أَمَرَ يَدَهُ عَلَى وَجْهِهِ وَظَاهِرِ جَبِينِهِ مَرَّةً وَاحِدَةً، ثُمَّ غَمَسَ يَدَهُ الْيُسْرَى فَغَرَفَ بِهَا مِلَأَهَا، ثُمَّ وَضَعَهُ عَلَى مِرْفَقِهِ الْيُمْنَى وَأَمَرَ كَفَّهُ عَلَى سَاعِدِهِ حَتَّى جَرَى الْمَاءُ عَلَى أَطْرَافِ أَصَابِعِهِ، ثُمَّ غَرَفَ بِيَمِينِهِ مِلَأَهَا فَوَضَعَهُ عَلَى مِرْفَقِهِ الْيُسْرَى، وَأَمَرَ كَفَّهُ عَلَى سَاعِدِهِ حَتَّى جَرَى الْمَاءُ عَلَى أَطْرَافِ

١. م. ن. ٦: ٣٤٥.

٢. ابن طائوس، إقبال الأعمال، ١: ١١٦.

٣. الكليني، الكافي، ٦: ٣٧٦.

٤. المحدث النوري، مستدرک الوسائل، ١٧: ١٢.

٥. القَدَح الكبير.

أَصَابِعِهِ، وَمَسَحَ مُقَدَّمَ رَأْسِهِ وَظَهَرَ قَدَمَيْهِ بِلَبَّةٍ يَسَارِهِ وَبَقِيَّةِ بِلَّةٍ يُمْنَاهُ. قَالَ: وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ وَتَرُّ حُبِّ الْوُتْرِ، فَقَدْ يُجْزِئُكَ مِنَ الْوُضُوءِ ثَلَاثُ غُرَفَاتٍ: وَاحِدَةٌ لِلْوُجْهِ وَاثْنَتَانِ لِلذَّرَاعَيْنِ، وَتَمْسُحُ بِلَبَّةٍ يُمْنَاكَ نَاصِيَتِكَ وَمَا بَقِيَ مِنْ بِلَّةٍ يَمِينِكَ ظَهَرَ قَدَمِكَ الْيُمْنَى، وَتَمْسُحُ بِلَبَّةٍ يَسَارِكَ ظَهَرَ قَدَمِكَ الْيُسْرَى. قَالَ زُرَّارَةُ: قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ ﷺ: سَأَلَ رَجُلٌ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ عَنْ وَضُوءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَحَكَى لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ^١.

٢. عن الإمام الرضا ﷺ، عن أبيه ﷺ في حديث طويل: «قال رسول الله ﷺ: إِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ لَا نَحِلُّ لَنَا الصَّدَقَةَ، وَقَدْ أُمِرْنَا بِإِسْبَاغِ الطَّهُّورِ...»^٢.

٣. عن الفضيل بن يسار والفضل بن عبد الملك وبُكر، قالوا: «سَمِعْنَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي مِنَ التَّطَوُّعِ مِثْلِي الْفَرِيضَةِ، وَيُصُومُ مِنَ التَّطَوُّعِ مِثْلِي الْفَرِيضَةِ»^٣.

٤. رُوي عن معاوية بن وهب، قال: «سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ، وَذَكَرَ صَلَاةَ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: كَانَ يُؤْتَى بِطَهَّورٍ فَيُخَمَّرُ عِنْدَ رَأْسِهِ، وَيُوضَعُ سِوَاكُهُ تَحْتَ فِرَاشِهِ، ثُمَّ يَنَامُ مَا شَاءَ اللَّهُ، فَإِذَا اسْتَيْقَظَ جَلَسَ ثُمَّ قَلَبَ بَصَرَهُ فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ تَلَا الْآيَاتِ مِنْ آلِ عِمْرَانَ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ...﴾ (آل عمران: ١٩٠-٢٠٠)، ثُمَّ يَسْتَنُّْ وَيَتَطَهَّرُ، ثُمَّ يَقُومُ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَرْكَعُ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ عَلَى قَدْرِ قِرَاءَتِهِ، رُكُوعُهُ وَسُجُودُهُ عَلَى قَدْرِ رُكُوعِهِ، يَرْكَعُ حَتَّى يَقَالَ مَتَى يَرْفَعُ رَأْسَهُ، وَيَسْجُدُ حَتَّى يَقَالَ مَتَى يَرْفَعُ رَأْسَهُ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى فِرَاشِهِ فَيَنَامُ مَا شَاءَ اللَّهُ. ثُمَّ يَسْتَيْقِظُ فَيَجْلِسُ فَيَتْلُو الْآيَاتِ مِنْ آلِ عِمْرَانَ وَيَقْلِبُ بَصَرَهُ فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ يَسْتَنُّْ وَيَتَطَهَّرُ وَيَقُومُ إِلَى

١. المحدث النوري، مستدرک الوسائل، ٣: ٢٥.

٢. الصدوق، عيون أخبار الرضا ﷺ، ٢: ٢٩.

٣. الكليني، الكافي، ٣: ٤٤٣.

٤. أي: يُعْطَى عَلَيْهِ.

المسجد فيصلِّي أربع ركعاتٍ كما ركعَ قبلَ ذلك، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى فِرَاشِهِ فَيَنَامُ مَا شَاءَ اللهُ. ثُمَّ يَسْتَيْقِظُ فَيَجْلِسُ فَيَتْلُو الآيَاتِ مِنْ آلِ عِمْرَانَ وَيَقْلُبُ بَصَرَهُ فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ يَسْتَنْ وَيَتَطَهَّرُ وَيَقُومُ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَيُوتِرُ وَيُصَلِّي الرَّكَعَتَيْنِ، ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَى الصَّلَاةِ^١.

٥. عن الإمام الصادق عليه السلام: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَسْتَغْفِرُ اللهُ فِي الْوُتْرِ سَبْعِينَ مَرَّةً وَيَقُولُ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنَ النَّارِ، سَبْعَ مَرَّاتٍ^٢».

٦. «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي قُتُوبِ الْوُتْرِ: اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ، فَإِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْصَى عَلَيْكَ، سُبْحَانَكَ رَبَّ الْيَتِّ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، وَأُؤْمِنُ بِكَ وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْكَ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ يَا رَحِيمٌ^٣».

٧. رُوِيَ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عليه السلام: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا جَاءَ شَهْرُ رَمَضَانَ زَادَ فِي الصَّلَاةِ، وَأَنَا أَزِيدُ، فَزِيدُوا^٤».

٨. عَنِ الْإِمَامِ الْبَاقِرِ عليه السلام: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ فِي اللَّيْلَةِ الْمُطِيرَةِ، يُؤَخِّرُ مِنَ الْمَغْرِبِ وَيُعَجِّلُ مِنَ الْعِشَاءِ فَيُصَلِّيهِمَا جَمِيعًا، وَيَقُولُ: مَنْ لَا يَرْحَمَ، لَا يَرْحَمُ^٥».

٩. عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عليه السلام، قَالَ: «كَانَ الْمُؤَذِّنُ يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ فِي الْحَرِّ فِي صَلَاةِ الظُّهْرِ، فَيَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَبْرِدْ أَبْرِدْ^٦».

١٠. رُوِيَ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عليه السلام: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَصُومُ حَتَّى يُقَالَ: لَا يُفْطِرُ،

١. الطوسي، تهذيب الأحكام، ٢: ٣٣٤.

٢. الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ١: ٤٨٩.

٣. م. ن. ١: ٤٨٧.

٤. الطوسي، تهذيب الأحكام، ٣: ٦٠.

٥. م. ن. ٢: ٣٢.

٦. أي: آخر الأذان. الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ١: ٢٢٣.

ثُمَّ صَامَ يَوْمًا وَأَفْطَرَ يَوْمًا، ثُمَّ صَامَ الْإِثْنَيْنِ وَالْخَمِيسَ، ثُمَّ آَلَ مِنْ ذَلِكَ إِلَى صِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الشَّهْرِ: الْخَمِيسِ فِي أَوَّلِ الشَّهْرِ، وَأَرْبَعَاءَ فِي وَسْطِ الشَّهْرِ، وَخَمِيسٍ فِي آخِرِ الشَّهْرِ، وَكَانَ يَقُولُ ذَلِكَ صَوْمُ الدَّهْرِ...»^١.

١١. عن أنس بن مالك، قال: «كَانَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَرْبَةٌ يُفْطِرُ عَلَيْهَا وَشَرْبَةٌ لِلْسَّحَرِ، وَرُبَّمَا كَانَتْ وَاحِدَةً، وَرُبَّمَا كَانَتْ لَبَنًا، وَرُبَّمَا كَانَتْ الشَّرْبَةُ خُبْزًا يُمَاتُ»^٢.

١٢. عن الإمام الصادق عليه السلام: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوَّلُ مَا يُفْطِرُ عَلَيْهِ فِي زَمَنِ الرُّطْبِ، الرُّطْبُ، وَفِي زَمَنِ التَّمْرِ، التَّمْرُ»^٣.

١٣. «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا دَخَلَ شَهْرُ رَمَضَانَ، أَطْلَقَ كُلَّ أَسِيرٍ وَأَعْطَى كُلَّ سَائِلٍ»^٤.

١. الكليني، الكافي، ٤: ٩٠.

٢. يُمَاتُ: أي يذوب الخبز في الماء. الطبرسي، مكارم الأخلاق، ٣٢.

٣. الكليني، الكافي، ٤: ١٥٣.

٤. الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ٢: ٩٩.

أدوار علم الكلام عند الإمامية: الدور النبوي (١٣ق هـ - ١١هـ)•

السيد هاشم الميلاني

التمهيد^١

نعتقد أنّ علم الكلام بدأ في جذوره الأولى منذ العهد النبوي ﷺ، وتحديدًا بعد المبعث، إذ لا ينشأ الدين أيّ دين كان ولا ينمو ولا يستمرّ من دون وجود منظومة كلامية تُبين ركائزه الأساسية وتدافع عنها، وتردّ على ما يرد عليه من أسئلة واستفهامات عديدة.

نعم، إنّ المنظومة الكلامية هذه مع لحاظ وحدة مضمونها، غير أنّها تختلف وتتغيّر

• المصدر: العقيدة، ٢١ (٢٠٢٠م): ٩-٧٨.

١. اعتمدنا كثيرًا في تدوين هذا البحث على كتاب موسوعة الحديث النبوي عقيدة وشريعة وخلقًا باهتمام كاظم مدير شأنه جي، وكذلك موسوعة العقائد الإسلامية في الكتاب والسنة للشيخ الريشهري.

أساليبها ومناهجها عبر الزمن، وبحسب الحاجة، طالما كان الهدف هو التبيين والدفاع، فكان الإنسان المسلم يتخذ أجود الأساليب والمناهج المتاحة في زمنه للقيام بهذه المهمة.

ولذا عندما نرى بدايات علم الكلام في العهد النبوي ﷺ نراه يختلف في الأسلوب والمناهج وحتى نوعية المسائل المطروحة، عما هو عليه بعد قرون سيما إبان ازدهار العلوم الإسلامية، مع الحفاظ على المحتوى والبنية الرئيسية التي هي إثبات الذات الإلهية وما يتعلق بها وما يصدر عنها.

فعلم الكلام قد تكامل ووصل إلى الصيرورة بالتدريج، ومن الإجمال إلى التفصيل. علماً بأن أصول المسائل الكلامية قد وردت في القرآن الكريم، ورغم أن القرآن الكريم هو المصدر الأول للعقيدة، والنبى ﷺ ما كان إلا متبعاً أثره، غير أنه لم يلقَ رواجاً بين المسلمين آنذاك من وجهة نظر عقديّة كلاميّة، وبقيت تلك اللآلئ العقديّة الثمينة مشفرة المعنى والكُنه لم تفتح رموزها إلا على الخواص الذين زاحموا العلم بركبتهم فأصبحوا باب مدينته، أمّا الآخرون فكانوا في معزلٍ عن هذا، فلم يستضيئوا بنوره، فأصبحوا مذاهب وطرائق شتى.

ثم إن علم الكلام الإمامي قد تميّز عن غيره، بأن فترة حضور المعصوم عند الإمامية طالت بحدود ٢٥٠ سن، ممّا أعطى حصانة عقديّة للإمامية، رغم جميع الضغوط الخارجية والانشقاقات الداخلية، وهذا بخلاف سائر المدارس الكلامية التي انقطع عندها زمن الحضور بعد رحيل النبي ﷺ إلى الملاء الأعلى.

وإذا أردنا الوقوف التام على الدور العقديّ النبويّ ﷺ فلا بدّ لنا من التعرّف على خارطة العقديّة السائدة في المجتمع العربي عصر البعثة، إذ إنّ بعض المواقف العقديّة جاءت للإجابة على ما هو موجود بالفعل إلى جنب العقائد التأسيسية.

وعندما ننظر إلى المجتمعين المكي والمدني آنذاك، نراها خليطاً من آراء ومعتقدات مختلفة، إذ كان يقطن في هذين المكانين مشركوا العرب، نصارى ويهود، مضافاً إلى ما يحيط بهما في الأطراف من ديانات مجوسية ومانوية وصابئة وغيرها من المعتقدات، التي تركت أثرها المباشر أو غير المباشر من طريق التجارة أو السياحة الدينية.

إن أمير المؤمنين عليه السلام يصف الحالة العامة السائدة في العالم آنذاك بقوله: «وأهل الأرض يومئذ ملل متفرقة، وأهواء منتشرة، وطرائق متشعبة، بين مشبه لله بخلقه، أو ملحد في اسمه، أو مشير إلى غيره»^١.

فهذه الحالة أدت إلى أن يكون المجتمع العربي في الحجاز خليطاً من الآراء والمعتقدات المختلفة، توارثت بعضها من الآباء وبعضها ممن قدم الحجاز وسكن فيها، وبعضها الآخر من خلال التجارة والسفر، ولذا يقول اليعقوبي (ت. ٢٩٢هـ): «وكانت أديان العرب مختلفة بالمجاورات لأهل الملل، والانتقال إلى البلدان والانتجاعات»^٢.

وهذه الآراء والمعتقدات لدى العرب قد قامت كلها بوجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد مبعثه، منافحة عما كانت عليه وما ورثته من آبائها، وكان على النبي صلى الله عليه وآله وسلم إثبات دعوته أولاً، والإجابة على هذه المدعيات ثانياً.

وهذا ما سنسلط الضوء عليه في هذا المبحث.

وقبل التلويح في أصل الموضوع لا بد من الإشارة إلى نقاط منهجية عدة:

١. إن المنهج المتبع هنا هو المنهج النقلي المعتمد على النصوص والأخبار، وما حوته كتب السيرة والحديث.

١. الشريف الرضي، نهج البلاغة، الخطبة ١.

٢. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١: ٢٥٤.

٢. منهجنا هذا لا يعني الاعتماد على جميع ما رُوي ونُسب إلى رسول الله ﷺ، إذ توجد روايات غير صحيحة ومكذوبة على رسول الله ﷺ في حياته وبعد رحيله.

٣. الأصل عندنا صحّة الرواية إلا إذا خالفت القرآن، أو العقل الفطري السليم، أو الواقع التاريخي الثابت.

٤. نحاول أن نصل إلى ظاهر المعتقد الذي بيّنه النبي ﷺ من دون أن نضفي عليه تحليلاً أو شرحاً؛ كي لا تختلط الروايات بآرائنا ومفروضاتنا القبلية.

٥. إنّ مسألة منع تدوين الحديث سبّبت ضياع كثير من المعالم، ونسيان كثير من القرائن الحالية والمقالية المقتربة بالحدث، والتي لها الدور الهامّ في فهم الخبر من خلال سياقه العام، والروايات وإن حُفظت وتداولت شفهاً غير أنّ التداول الشفهي لم يكن كالكتابة، لذا نرى سمة من الروايات العقدية النبوية، والمفروض وجود آلاف من تلك الروايات، إذ رسول الله ﷺ جاء بحدث عظيم ودين جديد، وتحدى المشركين وأصحاب الديانات، مضافاً إلى أسئلة تدور في خلد المؤمنين، ممّا يعني وجود كم هائل من الروايات العقدية ضاعت عنا؛ بسبب تلك الجناية التي منعت من تدوين السّنة بتبريرات واهية.

٦. إنّ القرآن الكريم مليء بالآيات المتعلقة بالمبدأ والمعاد والخلقة والنبوة وغيرها من المسائل، وبعضها جاء كأجوبة موحاة من قبل الله تعالى إلى رسوله الكريم للإجابة على الشبهات، كما أنّ بعضها تأسيسية، وبما أنّنا بصدد تسليط الضوء على ما روي عن رسول الله ﷺ مباشرة، لم نتعرّض إلى هذه الآيات الكريمة إلّا نادراً، إذ مجال بحثها في مكان آخر.

سنعالج الدور العقدي النبوي ضمن خمسة مباحث بعدد أصول الدين: التوحيد ومباحث الإلهيات، العدل، النبوة، الإمامة، المعاد.

المبحث الأول: الإلهيات ومباحث التوحيد

لا شك أنّ الدعوة النبويّة كانت دعوة توحيدية، تُصنّف ضمن الأديان التوحيدية الداعية إلى الله الواحد الأحد، كما لا شك أنّ الفترة النبويّة، هي الفترة التأسيسية للتوحيد، يشهد لذلك ما ورد في القرآن الكريم والروايات النبويّة.

سنحاول في هذا الفصل الإشارة إلى الجهد النبويّ التوحيدي من خلال ما وصل إلينا من روايات، ونحن نتمسك بصحّة هذه الروايات كأصل موضوعي، إلّا إذا ثبت ما يخالفها من آية أو دليل عقلي أو تاريخي متقن يدلّ على عدم صحّة تلك الرواية أو ذاك الحدث.

١. معرفة الله تعالى وإثبات ذاته

ما كان رسول الله ﷺ بحاجة إلى بذل جهد كبير لإثبات الذات الإلهية وبداهة معرفته، إذ إنّهُ بُعث في وسط شهد ديانات مختلفة على مرّ العصور، فما كانت مسألة الألوهية مورد الإنكار، نعم إذا كانت هناك إشكالية فهي تعود إلى الشّرك وجعل الأنداد لله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (الزمر: ٣). لذا لم ترد روايات كثيرة تركّز على هذا الجانب، وما ورد عنه ﷺ بهذا الخصوص يمكن تصنيفه ضمن نقاط عدّة:

أولاً: الإشارة إلى فطرية معرفة الله تعالى، وأنّ الإنسان مجبوعٌ عليها منذ خلقته، وهذا ما ورد عنه ﷺ بألفاظ مختلفة، من قبيل قوله: «ما من مولودٍ إلّا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»^١. ثمّ يتلو الراوي قوله تعالى: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (الروم: ٣٠).

١. البخاري، صحيح البخاري، ٢: ٩٤ و ٦: ١١٤.

وفي لفظ آخر عن أبي جعفر عليه السلام عن رسول الله ﷺ: «كُلَّ مولود يولد على الفطرة، يعني المعرفة بأن الله عز وجل خالقه»^١. وفي لفظ آخر عنه ﷺ: «كُلَّ مولود يولد من والد كافر أو مسلم، فإنه يولد على الفطرة على الإسلام كلهم، ولكن الشياطين أتتهم فاجتالتهم عن دينهم، فهو دتهم ونصرتهم ومجستهم، وأمرتهم أن يشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً»^٢.

وقد تشير بعض الآيات إلى هذه البداهة أيضاً، من قبيل آية الفلك، ﴿فَإِذَا رَكَّبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ (العنكبوت: ٦٥). وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (يونس: ٢٢-٢٣).

فلايات تشير إلى أن الإنسان عندما ينقطع عن الأسباب المادية، ويحس بالخطر الحقيقي على نفسه، يرجع بالبداهة إلى فطرته الأولى ليستمد العون من الله تعالى، ولكن بعد النجاة يرجع إلى غيّه وإشراكه.

ثانياً: إن بداهة الذات الإلهية وفطرية معرفته تعالى، لا تنفي لزوم التأكيد وتذكير الإنسان بخالقه جلّت عظمته، ولذا كان يؤكد رسول الله ﷺ بين الحين والآخر على

١. الكليني، الكافي، ٢: ١٣.

٢. الحكيم الترمذي، نوادر الأصول، ١: ١٣٠؛ المتقي الهندي، كنز العمال، ١: ٢٦٦.

لزوم المعرفة بالله تعالى، فقد ورد عنه عليه السلام قوله: «دعامة الدين وأساسه المعرفة بالله»^١. وعندما سأله رجل عن أفضل الأعمال، أجابه عليه السلام بقوله: «العلم بالله»^٢. وفي سؤال آخر سأله أعرابي: «ما رأس العلم يا رسول الله؟ قال: معرفة الله حق معرفته، قال الأعرابي: وما معرفة الله حق معرفته؟ قال: تعرفه بلا مثل ولا شبه ولا ند، وأنه واحد أحد، ظاهر باطن، أول آخر، لا كفوله ولا نظير، فذلك حق معرفته»^٣.

إن معرفة الله تعالى مجبولة في القلوب والعقول، وعمل الأنبياء عليهم السلام إنما هو إنارة الطريق ورفع الموانع كي تذهب الغشاوة ويرى النور، وإلى هذا يشير رسول الله صلى الله عليه وآله بقوله: «يا مَنْ فَتَقَّ الْعُقُولُ بِمَعْرِفَتِهِ»^٤. ومن دعائه عليه السلام أيضًا: «الحمد لله الذي عرّفني نفسه ولم يتركني عريان القلب»^٥.

ثالثًا: وفي رواية أخرى تشير إلى تعليم الأنبياء عليهم السلام ومساعدتهم الخلق للتعرف على الرب: «وابتعث النبيّين... لِيَعْقِلَ الْعِبَادُ عَنْ رَبِّهِمْ مَا جَهِلُوهُ، فَيَعْرِفُوهُ بِرَبوبِيَّتِهِ بَعْدَمَا أَنْكَرُوا، وَيُوَحِّدُوهُ بِالْإِلَهِيَّةِ بَعْدَمَا عَضَدُوا»^٦. فدور الأنبياء عليهم السلام هنا إزاحة الستار لرؤية التوحيد وترك الإشراك الذي هو خلاف الفطرة التوحيدية.

رابعًا: إن الوقوف على كنه الذات الإلهية أمر مستحيل، إذ كيف للمحدود أن يحيط بغير المحدود، وهذا الجدل كان متداولًا آنذاك، لذا ورد عنه عليه السلام: «يا مَنْ لَا يَعْلَمُ مَا هُوَ

١. السيوطي، الجامع الكبير، ٤: ٨٠٧؛ المتقي الهندي، كنز العمال، ٣: ٣٨١.

٢. الزمخشري، ربيع الأبرار، ٤: ٢٦.

٣. الصدوق، التوحيد، ٢٨٥.

٤. أي: قَوَّمَ الْعُقُولَ.

٥. الطوسي، مصباح المتهجد، ١: ١٥٦.

٦. المجلسي، بحار الأنوار، ٨٣: ٢٨٢.

٧. عضدوا: أي حاربوا. الصدوق، التوحيد، ٤٤-٤٥.

إلا هو»^١. وفي لفظ آخر يعرب رسول الله ﷺ عن عجز الإنسان بقوله: «سبحانك، ما عرفناك حقّ معرفتك»^٢.

وهذه الاستحالة عامّة لجميع البشر بلا فرق بين نبيّ أو وصيّ، ولذا عندما قال ﷺ: «لا يبلغ أحدٌ كُنْه معرفته»، تعجّب الناس وسألوه عن نفسه: «ف قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، الله أعلى وأجلّ أن يطلّع أحد على كُنْه معرفته»^٣.

بل كان رسول الله ﷺ ينهى عن التفكّر في الذات الإلهيّة، فقد ورد عنه في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ (النجم: ٤٢)، قال ﷺ: «لا فكرة في الرب»^٤. أو قوله ﷺ: «تفكّروا في خلق الله، ولا تفكّروا في الله فتهلكوا»^٥.

وهناك حادثة يشير إليها ابن عباس رغم صغر سنّه، حيث تدلّ على اهتمام الرسول ﷺ بتعليم أصحابه طريقة التفكّر في الله تعالى للحصول على معرفة سليمة، يقول ابن عباس: «دخل علينا رسول الله ﷺ ونحن في المسجد حلّق^٦، قال لنا رسول الله: فيم أنتم؟ قلنا: نتفكّر في الشمس كيف طلعت وكيف غربت، قال: أحستم كونوا هكذا، تفكّروا في المخلوق ولا تفكّروا في الخالق»^٧.

وأهميّة هذه الرواية تكمن في إشارتها إلى تشكيل نواة أولى للمباحث الكلاميّة من خلال عقد حلقات واجتماعات في المسجد النبويّ، وإنّ رسول الله ﷺ كان يؤيّدُها

١. ابن طاووس، إقبال الأعمال، ١: ٣٤٣.

٢. ابن أبي جههور الأحسائي، عوالي اللئالي، ٤: ١٣٢.

٣. م. ن.، ٤: ١٣٢.

٤. ما يتكوّن في الذهن من مفهوم الشيء.

٥. أبو الشيخ الأصبهاني، العظمة، ١: ٢١٧؛ فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، ٢٩: ٢٧٨.

٦. أبو الشيخ الأصبهاني، العظمة، ١: ٢١٤؛ السيوطي، الجامع الكبير، ٤: ٤٠٩.

٧. أي: في حلقات من الصحابة.

٨. أبو الشيخ الأصبهاني، العظمة، ٤: ١٤٨٩-١٤٩١؛ المجلسي، بحار الأنوار، ٥٤: ٣٤٨.

وكان يمرّ بهم بين الحين والآخر ويشاركونهم الرأي، ويقوم بتقويم الأفكار وهدايتها، فهذه الرواية خير دليل على شرعية علم الكلام من جهة، ووجود حلقات منتظمة تُعقد في المسجد النبوي لتداول مباحث كلامية ولو بشكل بسيط من جهة ثانية.

خامساً: ممّا يدلّ أيضاً على عدم إمكان معرفة كُنْه الذات الإلهية، ما وَرَدَ تحت عنوان «روايات الحُجُب» حول احتجاب الذات الإلهية خلف سبعين ألف حجاب من نور وظلمة، كناية عن عدم إمكان إدراك الذات الإلهية، وقد وردت هذه الروايات بألفاظ مختلفة.

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ سَبْعِينَ أَلْفَ حِجَابٍ، وَأَقْرَبُ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ أَنَا وَإِسْرَافِيلُ، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَهُ أَرْبَعَةُ حُجُبٍ، حِجَابٌ مِنْ نُورٍ، وَحِجَابٌ مِنْ ظُلْمَةٍ، وَحِجَابٌ مِنَ الْغَمَامِ، وَحِجَابٌ مِنَ الْمَاءِ»^١. وفي لفظ آخر: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ دُونَ سَبْعِينَ أَلْفَ حِجَابٍ مِنْ نُورٍ وَظُلْمَةٍ، وَمَا يَسْمَعُ مِنْ نَفْسٍ شَيْئاً مِنْ حِسِّ تِلْكَ الْحُجُبِ إِلَّا زَهَقَتْ»^٢.

سادساً: وممّا يستدلّ به على بداهة معرفة الله تعالى آية الدر وأخذ الميثاق في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٢-١٧٣).

وهذه الآية - كما قال العلامة الطباطبائي رحمه الله - «من أدقّ الآيات القرآنية معني،

١. القمي، تفسير القمي، ٢: ١٠.

٢. الطبراني، المعجم الكبير، ٦: ١٤٨.

وأعجبها نظماً^١. وقد أثارت جدلاً كبيراً بين المتكلمين والمحدثين، فهي وإن كانت ظاهرة في معناها، غير أنها ساكتة عن الكيفية، قال العلامة الطباطبائي ﷺ في معنى الآية: «والمراد أنا أخذنا ذريتهم من ظهورهم وأشهدناهم على أنفسهم فاعترفوا بربوبيتنا فتمت لنا الحجة عليهم يوم القيامة، ولو لم نفعل هذا ولم نشهد كل فرد منهم على نفسه بعد أخذه، فإن كنا أهملنا الإشهاد من رأس، فلم يشهد أحد نفسه وأن الله ربّه ولم يعلم به، لأقاموا جميعاً الحجة علينا يوم القيامة بأنهم كانوا غافلين في الدنيا عن ربوبيتنا، ولا تكليف على غافل ولا مؤاخذه»^٢.

٢. التوحيد

التوحيد هو البرنامج النبويّ الشامل، وهو أساس الدعوة، وقد ابتدأ رسول الله ﷺ دعوته به حيث قال: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»^٣. ومنه ما رُوي عنه ﷺ: «حدّثني جبرائيل سيّد الملائكة، قال: قال الله سيّد السادات عزّ وجلّ: إني أنا الله لا إله إلا أنا، فمن أقرّ لي بالتوحيد دخل حصني، ومن دخل حصني أمن من عذاب»^٤. وفي لفظ آخر: «لا إله إلا الله لا يسبقها عمل، ولا تترك ذنباً»^٥.

إن كلمة التوحيد أساس الأعمال، ومفتاح الدخول في الإسلام، وعلامة المؤمن، قال ﷺ: «قوله لا إله إلا الله يعني وحدانيته، لا يُقبل الأعمال إلا بها، وهي كلمة التقوى، يثقل بها الموازين يوم القيامة»^٦. كما أن التوحيد ثمن الجنة، قال ﷺ: «التوحيد

١. الطباطبائي، الميزان، ٨: ٣٠٦.

٢. م. ن. ٨: ٣٠٩.

٣. ابن إسحاق، كتاب السير والمغازي، ٢٣١؛ أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ٢٥: ٤٠٤-٤٠٥.

٤. الصدوق، عيون أخبار الرضا ﷺ، ٢: ١٣٥.

٥. ابن ماجه، سنن ابن ماجه، ٤: ٧١٠.

٦. الصدوق، الأمالي، ١٨٨.

ثمن الجنة^١، وأيضاً: «مَن مات وهو يعلم أنّه لا إله إلا الله، دخل الجنة»^٢. إنَّ رسول الله ﷺ في حين دعوته إلى كلمة التوحيد، كان يطلب أن يكون الدخول في الإسلام صادقاً، مع قبول وإذعان، أمّا لقلقة اللسان وعدم الاعتراف القلبي، وإن كانت تدخل الإنسان ظاهراً في الإسلام وتحقن دمه، غير أنّها تدخله في النفاق وتوجب له أليم العقاب. قال ﷺ: «إِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كلمة عظيمة كريمة على الله عزَّ وجلَّ، مَن قالها مخلصاً استوجب الجنة، ومَن قالها كاذباً، عصمت ماله ودمه، وكان مصيره إلى النار»^٣. وفي لفظ آخر في موعظته ﷺ لابن مسعود: «إذا تكلمت بلا إله إلا الله ولم تعرف حقها، فإنَّه مردودٌ عليك»^٤.

مراتب التوحيد

لقد قسّم المتكلمون التوحيد إلى مراتب، من قبيل توحيد الذات، الصفات، الخالقيّة وغيرها، وهذه التقسيمات، وإن لم يرد فيها نصٌّ بالاسم عن أحد المعصومين عليه السلام، غير أنّها نتائج يستنبطها العقل ممّا ورد عنهم عليه السلام ولتنظيم كلامهم الطاهر ضمن باقات أو محاور لسهولة تداوله وفهمه. وفيما يلي بعض الروايات النبوية التي يمكن تصنيفها ضمن مراتب التوحيد:

١. م. ن.، ٥٧٠.

٢. مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، ٥٥: ١.

٣. الصدوق، الأُمالي، ٢٣.

٤. مردودٌ عليك: أي لم يُقبل منك. الطبرسي، مكارم الأخلاق، ٤٥٥.

أولاً: التوحيد في الذات

التوحيد في الذات يُقصد منه نفي الشريك لله تعالى تماماً وفي جميع المراحل، وقد ورد عنه ﷺ قوله: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ نِسْبَةً وَأَنَّ نِسْبَةَ اللَّهِ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾»^١. فسورة الإخلاص تجسّد أعلى مراتب التوحيد الذاتي، حيث تنفي الشريك عنه تعالى بجميع أصنافه، أنّه واحد أحدي، لم يلد ولم يولد، وليس له كفو أو ندّ. وعنه ﷺ أيضاً: «يا الله لا إله إلا أنت، وَحْدَكَ لا شريك لك ولا إلهٌ غيرك، أنت ربّ الأرباب، ومالك الرقاب، وصاحب العفو والعقاب، أسألك بالربوبية التي انفردت بها، أن تُعطيني من النّار بقدرتك»^٢.

ثانياً: التوحيد الأفعالي

ويُقصد به أنّ كلّ ما يصدر في هذا العالم فهو تحت قدرته وسلطته تعالى وبمشيئته، ولا يوجد فاعل مستقلّ بالذات في أفعاله غيره تعالى. قال رسول الله ﷺ في دعائه: «يا لا إله إلا أنت، ليس خالقاً ورازقاً سواك يا الله، وأسألك باسمك الظاهر في كلّ شيء، بالقدرة والكبرياء والبرهان والسلطان يا الله»^٣. وعنه ﷺ في دعاء الجوشن الكبير: «يا مَنْ لا يصرف السوء إلا هو، يا مَنْ لا يقلب القلوب إلا هو، يا مَنْ لا يدبّر الأمر إلا هو، يا مَنْ لا ينزل الغيث إلا هو، يا مَنْ لا ييسط الرزق إلا هو، يا مَنْ لا يحيي الموتى إلا هو»^٤.

١. الطبراني، المعجم الأوسط، ٢٢٢: ١.

٢. ابن طاووس، مهج الدعوات، ٧٤.

٣. الكفعمي، البلد الأمين، ٤١٥.

٤. م. ن.، ٤١٠.

ثالثاً: التوحيد في العبادة

وهو من أهمّ مراتب الدعوة النبويّة، حيث اعتاد العرب آنذاك على عبادة الأوثان، بحيث اتّخذت كلّ قبيلة لنفسها وثناً، ومُلئ البيت الحرام بالأوثان، لذا جاءت الدعوة مشدّدة على نفي الأوثان والتوجّه نحو الله الواحد الأحد بالدعاء والعبادة.

قال رسول الله ﷺ: «إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ بِبِقِيعٍ وَاحِدٍ يَنْفِذُهُمُ الْبَصَرُ وَيَسْمَعُهُمُ الدَّاعِي، قَالَ: أَنَا خَيْرُ شَرِيكَ، كُلُّ عَمَلٍ كَانَ عُمَلِي فِي دَارِ الدُّنْيَا كَانَ لِي فِيهِ شَرِيكَ، فَأَنَا أَدْعُهُ الْيَوْمَ، وَلَا أَقْبِلُ الْيَوْمَ إِلَّا خَالِصًا، ثُمَّ قَرَأَ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (الصفات: ٤٠)، ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف: ١١٠)»^١. وعنه ﷺ أيضًا: «لم آتكم إلا بخير، أتيتكم أن تعبدوا الله وحده لا شريك له... وأن تدعوا اللات والعزى»^٢.

والدعوة إلى التوحيد هذه، قد كلفت النبي ﷺ الكثير، إذ إن قريشًا كانوا لا يهتمّون كثيرًا بالدعوة إلى الله تعالى أو أداء الطقوس، وإنّما الذي استنفروهم للوقوف أمام النبي ﷺ، تناوله لأهتهم ومنعه لعبادة الأصنام، حيث كانت مقدّسة عندهم من جهة، ومورد رزق للرؤساء من جهة ثانية، وقد أشار إلى هذا ابن هشام (ت. ٢١٤هـ) في سيرته وقال: «قال ابن اسحاق: فلمّا بادئ رسول الله بالإسلام، وصدع به كما أمره الله، لم يبعد منه قومه، ولم يردّوا عليه حتّى ذكر آهتهم وعابها، فلمّا فعل ذلك أعظموه وناكروه وأجمعوا خلافه وعداوته»^٣. وكان هذا الأمر من أهمّ ما شكوا منه عند أبي طالب ﷺ: «سبّ آهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا»^٤.

١. الطبراني، المعجم الكبير، ٧: ٢٩٠.

٢. أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ٣٨: ٢٠٦.

٣. ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٢٦٤.

٤. م. ن. ١: ٢٥٦.

رابعاً: الأسماء والصفات

مبحث الأسماء والصفات من المباحث المهمة في باب التوحيد، وقد تمّ تقسيم الصفات إلى صفات الذات وصفات الفعل، الصفات الثبوتية والصفات السلبية، كما وردت أقوال كثيرة في عدد الأسماء والصفات، غير أنّ ما يهمنّا هنا التعرّف على ما ورد على لسان رسول الله ﷺ من أسماء وصفات.

وبخصوص عدد أسماء الله تعالى روي عن رسول الله ﷺ أنّه قال:

إنّ لله تبارك وتعالى تسعة وتسعين اسماً، مئة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة، وهي: الله، الإله، الواحد، الأحد، الصمد، الأوّل، الآخر، السميع، البصير، القدير، القاهر، العليّ، الأعلى، الباقي، البديع، البارئ، الأكرم، الظاهر، الباطن، الحيّ، الحكيم، العليم، الحليم، الحفيظ، الحقّ، الحسيب، الحميد، الخفيّ، الربّ، الرحمن، الرحيم، الذاري، الرزاق، الرقيب، الرؤوف، الرائي، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، السيّد، السبّوح، الشهيد، الصادق، الصانع، الطاهر، العدل، العفو، الغفور، الغنيّ، الغياث، الفاطر، الفرد، الفتّاح، الفالق، القديم، الملك، القدّوس، القويّ، القريب، القيّوم، القابض، الباسط، قاضي الحاجات، المجيد، المولى، المتّان، المحيط، المبين، المقيت، المصوّر، الكريم، الكبير، الكافي، كاشف الضّرّ، الوتر، النور، الوهاب، الناصر، الواسع، الودود، الهادي، الوفيّ، الوكيل، الوارث، البرّ، الباعث، التّوّاب، الجليل، الجواد، الخبير، الخالق، خير الناصرين، الديّان، الشكور، العظيم، اللطيف، الشافي^١.

هذه الأسماء والصفات وردت بكثرة على لسان رسول الله ﷺ بين الحين والآخر وبمناسبات مختلفة، وأكثر ما وردت في دعاء «الجوشن الكبير» ودعاء «الأسماء الحسنى»

المنسويين إلى رسول الله ﷺ. ومما يظهر من بعض الروايات أنّ الصفات توقيفية عند رسول الله ﷺ ولا يمكن وصف الله تعالى بأيّ صفة هكذا. قال رسول الله ﷺ: «أنّ الخالق لا يوصف إلّا بما وصّف به نفسه، وكيف يوصف الخالق الذي تعجز الحواس أن تدركه، والأوهام أن تناله، والخطوات أن تحده، والأبصار الإحاطة به، جلّ عما يصفه الواصفون، نأى في قربه، وقرب في نأيه، كيف الكيفية فلا يقال له كيف، وأين الأين فلا يقال له أين، وهو منقطع الكيفية فيه والأينوية، فهو الأحد الصمد كما وصف نفسه، والواصفون لا يبلغون نعته، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»^١.

كما أنّ هذه الأسماء والصفات كانت مورد سؤال من قبل المسلمين وغير المسلمين، وتدلل بعض الروايات أنّ مباحث الذات والصفات كانت من المباحث الساخنة بين المسلمين وغيرهم آنذاك، فقد ورد عنه ﷺ: «لا يزال الناس يسألون عن كلّ شيء حتّى يقولوا: هذا الله كان قبل كل شيء، فماذا كان قبل الله؟ فإن قالوا لكم ذلك، فقولوا: هو الأول قبل كلّ شيء فليس بعده شيء، وهو الظاهر فوق كلّ شيء، وهو الباطن دون كلّ شيء، وهو بكلّ شيء عليم»^٢.

كما أنّ يهودياً جاء إلى رسول الله ﷺ وقال له: «أخبرني عن قولك «أنّه واحد لا شبيه له»، أليس الله واحد والإنسان واحد. فوحدانيّته أشبهت وحدانيّة الإنسان؟ فقال: الله واحد واحديّ المعنى، والإنسان واحد ثنويّ المعنى، جسم وعرض، بدن وروح، وإنّما التشبيه في المعاني لا غير»^٣. وقد سأله طلحة بن عبيد الله، قال: «سألت رسول الله عن تفسير سبحان الله؟ قال: هو تنزيه الله عن كلّ سوء»^٤.

١. الخزاز، كفاية الأثر، ١٢.

٢. أبو جهم الباهلي، جزء أبي الجهم، ٤٦-٥٠؛ السيوطي، الجامع الكبير، ١٢: ٣٢.

٣. الخزاز، كفاية الأثر، ١٢-١٣.

٤. البزار، البحر الزخار، ٣: ١٦٤؛ الحاكم النيسابوري، المستدرک، ١: ٦٨٠.

كما أنه ﷺ كان يوصي أصحابه بالتمسك بالأسماء والصفات الإلهية والإكثار من ذكرها لرفع البلايا والنوايا، فقد روي أن النبي ﷺ شكى إليه رجل الوحشة، فقال: «أكثر أن تقول هذا، فقلهن فأذهب الله عنه الوحشة، وهو: سبحان ربّي الملك القدّوس، ربّ الملائكة والروح، خالق السماوات والأرض، ذي العزة والجبروت»^١.
ثم إن رسول الله ﷺ كان يتمسك بالأسماء والصفات الإلهية في ساحات الحرب ويدعو بها، فقد ورد من دعائه يوم الأحزاب قوله ﷺ:

اللهم أنت الله قبل كلّ شيء، وأنت الله بعد كلّ شيء، وأنت الله تبقى ويفنى كلّ شيء، إلهي أنت الحليم الذي لا يجهل، وأنت الجواد الذي لا يبخل، وأنت العدل الذي لا يظلم، وأنت الحكيم الذي لا يجور، وأنت المنيع الذي لا يرام، وأنت العزيز الذي لا يستذلّ، وأنت الرفيع الذي لا يُرى، وأنت الدائم الذي لا يفنى، وأنت الذي أحطت بكلّ شيء علماً، وأحصيت كلّ شيء عدداً، أنت البديع قبل كلّ شيء، والباقي بعد كلّ شيء، خالق ما يُرى وخالق ما لا يُرى، عالم كلّ شيء بغير تعليم، أنت الذي تعطي الغلبة من شئت، تهلك ملوكاً وتملك آخرين، بيدك الخير وأنت على كلّ شيء قدير، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين...^٢.

ومن دعائه ﷺ أيضاً يوم حنين: «ربّ كنت وتكون حياً لا تموت، تنام العيون، وتنكدر النجوم، وأنت حيّ قيّوم لا تأخذك سنة ولا نوم»^٣.
وكذلك كان يستعين رسول الله ﷺ بالأسماء والصفات لدفع الشياطين والبلايا، فقد روي عن فاطمة الزهراء ؑ أنّها قالت: «قال لي رسول الله ﷺ: يا فاطمة، ألا

١. الطبرسي، مكارم الأخلاق، ٣٥٠-٣٥١.

٢. ابن طاووس، مهج الدعوات، ٧٠.

٣. م. ن. ٧١.

أَعْلَمَكَ دَعَاءَ لَا يَدْعُو بِهِ أَحَدٌ إِلَّا اسْتُجِيبَ لَهُ، وَلَا يَحْيِيكَ فِي صَاحِبِهِ سَمٌّ وَلَا سِحْرٌ وَلَا يَعْزُضُ لَهُ الشَّيْطَانُ بِسُوءٍ؟... قُلْتُ: أَجَلٌ يَا أَبَه، لِهَذَا وَاللَّهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا. قَالَ: تَقُولِينَ: يَا اللَّهُ يَا أَعَزَّ مَذْكُورٍ، وَأَقْدَمَهُ قَدَمًا فِي الْعِزَّةِ وَالْجَبْرُوتِ، يَا اللَّهُ يَا رَحِيمَ كُلِّ مُسْتَرْحَمٍ، وَمَفْزَعَ كُلِّ مُلْهَوَفٍ، يَا اللَّهُ يَا رَاحِمَ كُلِّ حَزِينٍ يَشْكُو بَنَّهُ وَحَزَنَهُ إِلَيْهِ، يَا اللَّهُ يَا خَيْرَ مَنْ طَلَبَ الْمَعْرُوفَ مِنْهُ وَأَسْرَعَهُ إِعْطَاءً...»^١.

فَأَنْتِ تَرَى أَنَّ لِلْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ حُضُورًا قَوِيًّا عَلَى مَسْتَوَى الْفَرْدِ وَالْمَجْتَمَعِ، بِحَيْثُ تَشْمَلُ جَمِيعَ أَبْعَادِ الْحَيَاةِ، فِي الْحَرْبِ وَالسَّلَامِ، فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ، فِي الْيَقِظَةِ وَالنَّوْمِ، فِي الْأَفْرَاحِ وَالْأَتْرَاحِ، وَهَكَذَا يَتِمُّ تَعْزِيزُ الْحُضُورِ الْإِلَهِيِّ فِي الضَّمِيرِ وَالْمَجْتَمَعِ، وَهَذَا جِهْدٌ عَقْدِيٌّ مُمَيَّزٌ.

المبحث الثاني: العدل

يُعَدُّ مَبْحَثُ الْعَدْلِ مِنَ الْمُبَاحَثِ الشَّائِكَةِ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ، وَبِسَبَبِهِ ظَهَرَتْ مَدَارِسُ كَلَامِيَّةٌ عَدَّةٌ، وَقَدْ دَأَبَ الْمُتَكَلِّمُونَ بِتَنَاوُلِ مَجْمُوعَةِ قَضَايَا كَلَامِيَّةٍ ذِيلُ هَذَا الْعُنْوَانِ، مِنْ قَبِيلِ: الْقَضَاءُ وَالْقَدَرُ، الْحَسَنُ وَالْقَبْحُ، الْجَبَرُ وَالْإِخْتِيَارُ، اللَّطْفُ وَغَيْرُهَا مِنَ الْمُبَاحَثِ. وَرَغْمَ هَذَا الْخِلَافِ الْحَادِّ، فَالْكُلُّ مُتَّفَقُونَ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَادِلٌ، وَإِنَّمَا الْخِلَافُ فِي طَرِيقِ الْوَصُولِ إِلَى هَذِهِ النَتِيجَةِ، فَالْعَدْلِيَّةُ يَثْبُتُونَ الْعَدْلَ الْإِلَهِيَّ بِالْعَقْلِ قَبْلَ الشَّرْعِ، غَيْرَ أَنَّ الْأَشَاعِرَةَ وَأَهْلَ الْحَدِيثِ يَثْبُتُونَهُ بِالنَّقْلِ. وَمَا يَغِيبُ عَنْ مَدْرَسَةِ أَهْلِ النَّقْلِ هُوَ اللَّوَاظِمُ السَّلْبِيُّ الَّتِي تَتَرْتَّبُ عَلَى آرَائِهِمْ، مِنْ قَبِيلِ مَسْأَلَةِ الْجَبَرِ الَّتِي لَمْ يَتِمَكَّنُوا مِنَ التَّخَلُّصِ مِنْهَا، وَسَيَأْتِي الْحَدِيثُ عَنِ الْجَبَرِ وَالْحَرِيَّةِ فِي مِظَانِهِ.

ثُمَّ إِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ يَحْدِّثُنَا عَنْ وَجُودِ الْقَوْلِ بِالْجَبَرِ وَمَسْأَلَةِ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ الْإِلَهِيِّ

١. الطبري الآملي الصغير، دلائل الإمامة، ٧٣.

عند مشركي العرب، قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٢٨). وفي آية أخرى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ (الأنعام: ١٤٨). ولذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (النحل: ٣٥).

فهذه الآيات تشير إلى أن مسألة الجبر كانت متجددة في الجاهلية وعند المشركين، بل إن آية سورة النحل تشير إلى أبعد من ذلك: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ حيث ترجع الجبر إلى العهود القديمة، وأن من أهم أعمال الأنبياء إنما هو محاربة هذه الفكرة الظالمة ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾. وهنا يأتي الدور النبوي في تبين مسائل العدل، لتأخذ طريقها لاحقاً ضمن هذا الباب في علم الكلام.

أولاً: العدل

لقد وُصف الله تعالى بالعدل والعدالة على لسان رسول الله ﷺ مراراً وتكراراً في الخطب والدعاء والأسئلة والأجوبة وغيرها، فمن دعائه ﷺ المعروف بدعاء الجوشن الكبير: «يا عظيمًا لا يوصف، يا عدلاً لا يحيف»^١، وفي خطبته ﷺ يوم غدير خم: «أشهد بأن الله... العدل الذي لا يجور»^٢.

وعلى غرار إثبات العدالة لله يأتي نفي الظلم عنه أيضاً، فعن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما

١. الكفعمي، البلد الأمين، ٤١١.

٢. الطبرسي، الإحتجاج، ١: ٥٨.

رُوي عن الله تعالى أنّه قال: «عبادي أنّي حرّمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرّمًا فلا تظالموا»^١. وفي حديث آخر عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنّه قد دخل جُنْدَب بن جنادة اليهودي من خيبر على رسول الله ﷺ فقال: «يا محمّد أخبرني عمّا ليس لله وعمّا ليس عند الله... فقال رسول الله: أمّا ما ليس لله فليس الله الشريك، وأمّا ما ليس عند الله فليس عند الله ظلم للعباد...»^٢.

وورّد عنه ﷺ أيضًا في وصف العدل: «بالعدل قامت السموات والأرض»^٣. وقد وردت أدعية كثيرة عن رسول الله ﷺ تصف الله تعالى بالعدل: «أعدل العالدين»، «يا مَنْ العدل أمره»، «سبحان مَنْ متعطف ما أعدلُه وسبحانه من عادل ما أنقنه»، «حُكمه عدل»، «عَدْلُ الْقَضَاء»^٤.

ثانيًا: القضاء والقدر

مسائل القضاء والقدر تُعدّ من أهمّ مباحث العدل، وأدّت إلى ظهور مدارس فكريّة عدّة، وقد تنوّعت الروايات النبويّة حول هذه المسألة، وللوقوف التامّ عليها كان لزامًا علينا تصنيفها ضمن باقات؛ كي يصحّ فهمها ولا يقع الإنسان في تصوّر وجود تعارض بينها.

الطائفة الأولى: الروايات الناهية عن الخوض في مسائل القضاء والقدر.

قال رسول الله ﷺ: «القدر سرّ الله، فلا تتكلّفوا علمه»^٥. وفي لفظ آخر: «مَنْ تكلّم

١. معمر بن راشد، جامع، ١١: ١٨٢؛ مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، ٤: ١٩٩٤.

٢. الخزاز، كفاية الأثر، ٥٧.

٣. ابن أبي جمهور الأحسائي، عوالي اللئالي، ٤: ١٠٣.

٤. راجع: ريشهري، موسوعة العقائد الإسلامية، ٦: ٣١-٣٥.

٥. الطبراني، المعجم الكبير، ١٠: ٢٦٠.

في شيء من القدر، سُئل عنه يوم القيامة، ومن لم يتكلم فيه لم يُسأل عنه^١. وأيضًا: «عزيمة مني على أمّتي ألا يتكلموا في القدر»^٢. كما أنّ الإصرار عليه يزيد ضلالًا، ففي تشبيه جميل ورد عنه ﷺ: «مثل الناظر في القدر كالناظر في عين الشمس، كلّما اشتدّ نظره فيها ذهب بصره»^٣. ومن أسباب النهي هذا أنّه يؤول إلى مذاهب منحرفة، فقد ورد عنه ﷺ قوله: «اتّقوا القدر، فإنّه شعبة من النصرانية»^٤.

وقد وردت روايات النهي عن الخوض في مسائل القدر عن الأئمة^٥، ووجه الجمع بينها وبين ما ورد عنهم^٦ في تبين مسائل القضاء والقدر والإجابة على الأسئلة الواردة، ما ذكره الشيخ المفيد (ت. ٤١٣هـ) تعليقًا على الشيخ الصدوق (ت. ٣٨١هـ) عندما استشهد بالأخبار، فقال الشيخ المفيد:

فأمّا الأخبار التي رواها في النهي عن الكلام في القضاء والقدر، فهي تحتل وجهين: أحدهما أن يكون النهي خاصًا بقوم كان كلامهم في ذلك يفسدهم ويضللهم عن الدّين ولا يصلحهم إلّا الإمساك عنه وترك الخوض فيه، ولم يكن النهي منه عامًّا لعامة المكلفين... والوجه الآخر أن يكون النهي عن الكلام فيهما، النهي عن الكلام فيما خلق الله تعالى وعن علله وأسبابه وعمّا أمر به وتعبّد، وعن القول في علل ذلك إذ كان طلب علل الخلق والأمر محظورًا، لأنّ الله تعالى سترها عن أكثر خلقه^٧.

١. ابن ماجه، سنن ابن ماجه، ١: ٦٢.

٢. المتقي الهندي، كنز العمال، ١: ١١٩.

٣. أبو الشجاع الديلمي، الفردوس، ٤: ١٤٦.

٤. ابن أبي عاصم، السنّة، ١: ١٤٦.

٥. المفيد، تصحيح إعتقادات الإمامية، ٥٧.

الطائفة الثانية: ما يدلّ على أنّ الأمور كلّها مقدّرة.

قال رسول الله ﷺ: «الأمور كلّها خيرها وشرّها من الله»^١. وعنه ﷺ: «قدّر الله المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة»^٢. وعنه ﷺ: «خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ فكتب آجالهم وأعمالهم وأرزاقهم»^٣. وعنه ﷺ أيضًا: «أنّ الله افترض عليكم فرائض فلا تضيّعوها، وحدّد لكم حدودًا فلا تعتدوها، ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تكلفوها، رحمةً من ربّكم فاقبلوها، الأمور كلّها بيد الله، من عند الله مصدرها وإليه مرجعها، ليس للعباد فيها تفويض ولا مشيئة»^٤. ومعنى هذه الروايات -بما يخرجها عن الجبريّة- إنّ إرادة الله تعالى سارية وجارية في المنظومة الكونيّة من البداية إلى النهاية أجمع، وهذا لا ينافي نظام العِلَل والأسباب والمسبّبات التي هي أيضًا خاضعة لإرادة الله تعالى وقدرته.

كما أنّ هناك طائفة أخرى من الروايات يُمكن تقسيمها ضمن هذه الطائفة، تدلّ على لزوم الإيثار بالقدر، من قبيل قوله ﷺ: «لا يؤمن عبد حتّى يؤمن بالقدر خيرهِ وشرِّهِ، حتّى يعلم أنّ ما أصابه به لم يكن ليخطئه، وإنّ ما أخطأه لم يكن ليصيبه»^٥، أو قوله ﷺ: «الإيمان بالقدر، نظام التوحيد»^٦. وفي لفظ آخر وقد سئل ﷺ عن الإيمان، فقال: «أن تؤمن بالله... والقدر وخيره وشرِّهِ»^٧.

١. الطبراني، المعجم الأوسط، ٤: ٤٥-٤٦.

٢. الصدوق، التوحيد، ٣٦٨.

٣. المتقي الهندي، كنز العمال، ١: ١٠٧.

٤. الطبراني، المعجم الأوسط، ٨: ٣٨١.

٥. الترمذي، الجامع الكبير، ٤: ١٩.

٦. أبو الشجاع الديلمي، الفردوس، ١: ١١٤.

٧. الترمذي، الجامع الكبير، ٤: ٣٠٢.

وهناك تشديد على مَنْ لم يؤمن بالقدر، فقد ورد عنه ﷺ أنه قال: «مَنْ كَذَّبَ بِالْقَدَرِ، فَقَدْ كَفَرَ بِهَا جُثَّةً بِهِ»^١، أو قوله ﷺ: «قال ربَّ العزة جلَّ جلاله: مَنْ آمَنَ بي ولم يؤمن بالقدر خيره وشره، فَلْيَلْتَمِسْ رَبًّا غَيْرِي»^٢. وفي لفظ آخر: «إِنَّ أَمَّتِي لَا تَزَالُ مُسْتَمَكِنَةً مِنْ دِينِهَا مَا لَمْ يَكْذِبُوا بِالْقَدَرِ، فَإِذَا كَذَّبُوا بِالْقَدَرِ فَعِنْدَ ذَلِكَ هَلَكَ هَلَاكُهُمْ»^٣.

الطائفة الثالثة: إن الله تعالى عادل في قضائه وكل ما يفعله فهو لمصلحة العبد. إن رسول الله ﷺ كان يعلم أصحابه شيئاً فشيئاً بأن الله تعالى أعلم بمصالح عباده، وهو عادل في قضائه وقدره، وكان يكرّر ذلك في الدعوات والخطب وبعد الصلاة وفي كلّ فرصة تسنح، فمما ورد عنه ﷺ من الدعاء: «هو العزيز الغفور... حسن القضاء»^٤. وفي دعاء آخر: «عدل القضاء»^٥، أو قوله ﷺ: «في كلّ قضاء الله عزّ وجلّ خيرة للمؤمن»^٦.

ومما ورد عنه ﷺ بخصوص حسن القضاء في السراء والضراء قوله: «عجباً للمؤمن لا يقضي الله عليه قضاء إلاّ كان خيراً له، سرّه أو ساءه، إن ابتلاه كان كفّارة لذنبه، وإن أعطاه وأكرمه كان قد حباه»^٧. وهناك حادثة أخرى يرويها ابن مسعود إذ يقول: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ تبسّم، فقلت له: مالك يا رسول الله؟ قال: عجبْتُ من المؤمن وجَزَعه من السُّقْم، ولو يعلم ما له في السقم من الثواب، لأحبّ أن لا يزال

١. المتقي الهندي، كنز العمال، ١٠٦: ١ و ١٣٩.

٢. ابن بطّة، الإبانة الكبرى، ٤: ٥٩.

٣. الطبراني، مسند الشاميين، ١: ٣٩٩.

٤. ابن طاووس، الدرر الوقية، ٨٨.

٥. الكليني، الكافي، ٢: ٥٨١.

٦. الصدوق، التوحيد، ٣٧١.

٧. ابن شعبة، تحف العقول، ٤٨.

سقيًّا حتَّى يلتقى ربّه»^١. وفي لفظ قريب منه عن الإمام السجّاد عليه السلام عن رسول الله ﷺ: «... عجبتُ للمرء المسلم أنّه ليس من قضاء يقضيه الله عزّ وجلّ إلّا كان خيرًا له في عاقبة أمره»^٢.

الطائفة الرابعة: روايات «جفّ القلم».

هناك طائفة من الروايات تعرف بروايات «جفّ القلم» حيث تدلّ على أنّ القضاء الإلهي لا يتغيّر، وكلّ ميسّر لما خلق.

فعن ابن عباس عن النبي ﷺ أنّه قال: «إذا سألتَ فسأل الله، وإذا استعنتَ فاستعن بالله، فقد جفّ القلم بما هو كان إلى يوم القيامة، فلو جهد الخلاق أن ينفكوك بشيء لم يكتبه الله لك، لم يقدروا على ذلك، ولو جهد الخلاق أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك، لم يقدروا على ذلك»^٣. عن سراقه بن مالك قال: قلت لرسول الله ﷺ: «أنعمَل على ما قد جفّ به القلم، وجرت به المقادير، أو لأمر مستقبل؟ قال: يا سراقه، إعمل لما جفّ به القلم وجرت به المقادير، فإنّ كلّ ميسّر»^٤. وعن عمران بن حصين قال: «قيل يا رسول الله أعلم أهل الجنّة من أهل النّار؟ قال: فقال: نعم، قال: قيل: ففيم يعمل العاملون؟ فقال: كلّ ميسّر لما خلق له»^٥.

وعن عبد الله بن عمر أنّ رجلاً سأل رسول الله ﷺ: «يا رسول الله فيما نعمل؟ أفى شيء قد خلا ومضى، أو في شيء يُستأنف الآن؟ قال: في شيء قد خلا ومضى، قال

١. الصدوق، التوحيد، ٤٠٠-٤٠١.

٢. م. ن. ٤٠١؛ وانظر: الطبراني، المعجم الكبير، ٨: ٤٠.

٣. الطبراني، المعجم الكبير، ١١: ٢٢٣.

٤. م. ن. ١٢٨: ٧.

٥. الطيالسي، مسند أبي داود الطيالسي، ٢: ١٧٩؛ مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، ٤: ٢٠٤١.

الرجل أو بعض القوم: ففيم العمل؟ قال: إنّ أهل الجنة يُيسّرون لعمل أهل الجنة، وإنّ أهل النار يُيسّرون لعمل أهل النار»^١.

وعنه ﷺ: «إذا أراد الله تعالى إنفاذ قضائه وقدره، سلب ذوي العقول عقولهم حتّى ينفذ فيهم قضاؤه وقدره، فإذا مضى أمره ردّ إليهم عقولهم ووقعت الندامة»^٢. وعنه ﷺ: «لن ينفع حذرٌ من قدر»^٣.

والسؤال الذي يطرح هنا عن كيفية فهم هذه الروايات بما لا تؤول إلى الجبر المنفي عقلاً وشرعاً. والتفسير المعقول لها أنّها على فرض صحّة سندها وصدورها الواقعي عن رسول الله ﷺ، وجمعاً بينها وبين ما سيأتي من تغيير القضاء والقدر، إنّها تشير إلى سعة علم الله تعالى وأنّ الأمور جميعها تحت قدرته وسيطرته، فهي على نقيض الآراء التي وردت لاحقاً من أنّ الله تعالى خلق الخلق وفوّض الأمر إليهم، بل النظرية الصحيحة على عكس ذلك أي أنّ الجميع فقراء إلى الله وغير مستقلّين في إيجاد أيّ عمل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (الفاطر: ١٥).

ويؤيّد هذا التفسير، ما ورد في الرواية الأولى عن ابن عباس أنّ النبي ﷺ قال له: «إذا سألتَ فسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله» ليقطع عن الناس الأمل بالآخرين ويوجّههم إلى خالق الجميع، إذ غير الله تعالى فقير إليه وغير مستقلّ في عمله، فبدل أن يوجّه الإنسان طلباته إلى الناس ويتوقّع منهم مساعدته، عليه أن يتوجّه أولاً إلى مسبّب الأسباب.

وبغير هذا الوجه، فنحن نتوقّف عند الروايات الصريحة الدالة على الجبر، إذ إنّها

١. أبو داود، سنن أبي داود، ٤: ٢٢٤.

٢. أبو الشجاع الديلمي، الفردوس، ١: ٢٥٠.

٣. أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ٣٦: ٣٧٠.

تخالف أولاً القرآن الكريم، وثانياً سائر ما ورد عن رسول الله ﷺ والأئمة ﷺ في نفى الجبر، ومدخلية بعض الأمور لرفع القضاء المحتوم.

الطائفة الخامسة: ما يدلّ على تغيير القضاء والقدر.

روي عن رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (الرعد: ٣٩): «يمحو من الأجل ما يشاء، ويزيد فيه ما يشاء»^١. وفي لفظ آخر: «يمحو من الرزق ويزيد فيه، ويمحو من الأجل ويزيد فيه»^٢.

وعنه ﷺ في أن أعمال البرّ تغير القضاء والقدر: «الصدقة واصطناع المعروف وصلة الرحم وبرّ الوالدين، يُحوّل الشقاء سعادة، ويزيد من العمر، ويقي مصارع السوء»^٣. وعنه ﷺ: «لا يردّ القدر إلّا الدعاء»^٤، وفي لفظ آخر: «لا يردّ القضاء إلّا الدعاء»^٥، وفي لفظ آخر أيضاً: «الدعاء جُنْدٌ من أجناد الله تعالى مُجَنَّد، يردّ القضاء بعد أن يُبرم»^٦. كما أن الذنوب والآثام تغير القضاء والقدر أيضاً، فعن رسول الله ﷺ: «يقول الله عزّ وجلّ... ما من أهل قرية، ولا أهل بيت، ولا رجل بادية كانوا على ما أحببت من طاعتي، ثمّ تحوّلوا عنها إلى ما كرهت من معصيتي، إلّا تحوّلت لهم عمّا يحبّون من رحمتي إلى ما يكرهون من غضبي»^٧.

١. أبو الشجاع الديلمي، الفردوس، ٥: ٢٦١.

٢. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣: ٤٣١.

٣. أبو الشجاع الديلمي، الفردوس، ٥: ٢٦٢.

٤. ابن ماجه، سنن ابن ماجه، ١: ٦٨ و ٥: ١٥٢.

٥. الطبرسي، مكارم الأخلاق، ٢٦٨ و ٣٨٨ و ٣٨٩.

٦. السيوطي، الجامع الكبير، ٣: ٧٠٢.

٧. م. ن.، ١٨: ٣٢٥.

الطائفة السادسة: روايات تنفي الجبر.

قال رسول الله ﷺ: «ما عَرَفَ الله من شَبَّهه بخلقه، ولا وصفه بالعدل من نَسَبَ إليه ذنوب عباده»^١، وقال ﷺ: «خمس لا تُطفأ نيرانهم ولا تموت أبدانهم: ... وَرَجُلٌ أَذْنَبَ وَحَمَلَ ذَنْبَهُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^٢.

وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُطَاعُ جَبْرًا، وَلَا يُعْصَى مَغْلُوبًا، وَلَمْ يَهْمَلِ الْعِبَادَ مِنَ الْمَمْلَكَةِ، لَكِنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى مَا أَقْدَرَهُمْ عَلَيْهِ، وَالْمَالِكُ لِمَا مَلَكَهُمْ إِيَّاهُ، فَإِنَّ الْعِبَادَ إِنْ اتَّصَرُّوا بِطَاعَةِ اللَّهِ، لَمْ يَكُنْ مِنْهَا مَانِعٌ وَلَا عَنْهَا صَادٌّ، وَإِنْ عَمَلُوا بِمَعْصِيَةِ فِشَاءٍ أَنْ يَحُولَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا، فَعَلُوا. وَلَيْسَ مَنْ إِنْ شَاءَ أَنْ يُحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ شَيْءٍ وَلَمْ يَفْعَلْهُ، فَأَتَاهُ الَّذِي فَعَلَهُ، كَانَ هُوَ الَّذِي أَدْخَلَهُ فِيهِ»^٣.

وعنه ﷺ: «مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ فَقَدْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ بغيرِ مَشِيئَةِ اللَّهِ، فَقَدْ أَخْرَجَ اللَّهَ مِنْ سُلْطَانِهِ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمَعَاصِيَ بغيرِ قُوَّةِ اللَّهِ، فَقَدْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ»^٤.

الطائفة السابعة: ذم القدرية.

وردت روايات كثيرة في مصادر أهل السنة تُنسب إلى رسول الله ﷺ تَذِمُّ الْقَدْرِيَّةَ وَالْمَرْجِيَّةَ، وَأَنَّ الشَّفَاعَةَ لَا تَنَالُهَا، وَأَنَّ الْقَدْرِيَّةَ مَجْهُولُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَنَّ الْقَدْرِيَّةَ لَعْنَتْ عَلَى لِسَانِ سَبْعِينَ نَبِيًّا^٥، وَغَيْرَهَا مِنَ الرِّوَايَاتِ. وَنَحْنُ إِذْ نَتَوَقَّفُ فِي هَذِهِ الرِّوَايَاتِ،

١. الصدوق، التوحيد، ٤٧.

٢. الكراجكي، كنز الفوائد، ٤٧: ٢.

٣. ابن شعبة، تحف العقول، ٣٧.

٤. الكليني، الكافي، ١٥٨: ١.

٥. راجع: ريشهري، موسوعة العقائد الإسلامية، ١٩٨: ٦.

نكل علمها إلى الله تعالى، ونستقرب أتمها من صنع فترة متأخرة، أي حينما احتدم الجدل الكلامي في نهاية القرن الأول وبدايات القرن الثاني.

الطائفة الثامنة: روايات السعادة والشقاوة.

وردت مجموعة روايات نبوية مفادها أنّ السعيد سعيد في بطن أمّه، الشقي شقيّ في بطن أمّه. وهذه الطائفة من الروايات إذا كان معناها الإشارة إلى العلم الإلهي بسعادة البشر أو شقائهم فهي مقبولة، إذ قد ثبت في موضعه أنّ العلم الإلهي ليس علة تامّة لصدور الفعل من الإنسان، أمّا إذا أُريد منها ظاهر معناها المؤدّي إلى الجبر، فنحن نتوقّف فيها لمخالفتها القرآن والعقل وسائر الروايات الواردة.

ثالثاً: الشرور

من المسائل المهمّة التي تبحث في باب العدل، وتُعَدّ كنقض لنظرية العدل عند الملحدين ومنكري الذات الإلهية، مسألة الشرور، وهذه المسألة وإن لم تُبحث بشكل تفصيلي في العهد النبوي، لبيان معنى الخير والشر، وفلسفته وكيفية معالجة الشبهات المثارة، غير أنّ الروايات تعترف بوجوده كحقيقة واقعية، وقد وردت الروايات في لزوم الإيمان بالقدر خيره وشره، كما أنّ القرآن الكريم يؤيّد ذلك، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٥)، حيث جعلت الآية الكريمة الشر حقيقة واقعية كالخير، وأنّ الخير والشر كلاهما امتحان للعبد وفتنة وابتلاء.

إنّ الروايات النبوية تجعل الشرّ الفردي أو الجمعي أو الكوني، ابتلاءً وامتحاناً، ولهذا الابتلاء أسباب وعوامل أدّت إليه، كما أنّ لرفعه أيضاً أسباب وعوامل. ورَد عن رسول الله ﷺ: «إنّ البلاء للظالم أدب، وللمؤمن امتحان، وللأنبياء درجة، وللأولياء

كرامة»^١، «ما اختلج عرق، ولا عثرت قدم إلّا بها قدّمت أيديكم، وما يعفو الله عزّ وجلّ عنه أكثر»^٢، «المؤمن يُكفّر ذنوبه بسبب الإيذاء والمصائب»^٣، «إذا لم يأمرُوا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر، ولم يتبعوا الأخيار من أهل بيتي، سلّط الله عليهم شرارهم، فيدعو خيارهم فلا يُستجاب لهم»^٤، «إنّ الله عزّ وجلّ إذا غضب على أمة لم يُنزل بها عذاب خسف ولا مسخ، غلت أسعارها، ويُحبس عنها أمطارها، ويلى عليها أشرارها»^٥، «إنّ صنائع المعروف تقيّ مصارع السوء»^٦، «إنّ طاعة الله نجاح من كلّ خير يُبتغى، ونجاة من كلّ شر يُتقى»^٧.

فهذه الروايات النبويّة الكريمة كلّها تفسّر الشرّ بالبلاء والامتحان، وتذكر أنّ من أسبابه المعاصي والآثام، أو أنّها لتكفير السيئات، أو أنّها بسبب ترك الهدى وسلوك سبيل الغيّ والردى، كما أنّ الطاعة والخيرات والحسنات تُذهب بالشّرور.

رابعاً: الأسماء والأحكام

مبحث الأسماء والأحكام يتعلّق بثلاثة علوم: اللغة، الفقه، وعلم الكلام، وقد طرحه المتكلّمون في مباحث العدل، ذيل الوعد والوعيد، ومباحث مرتكبي الكبائر، وتطرح فروع من قبيل: الإيمان والكفر، الثواب والعقاب، الطاعة والمعصية (الذنب)، الفسق، النفاق، البغي، التوبة والعفو، العذاب، وغيرها من الفروع.

١. المجلسي، بحار الأنوار، ٦٤: ٢٣٥.

٢. الطوسي، الأمالي، ٥٧٠.

٣. الشعيري، جامع الأخبار، ١٢٩.

٤. الكليني، الكافي، ٢: ٣٧٤.

٥. السيوطي، الجامع الكبير، ٢: ١٣٩.

٦. الطبراني، المعجم الأوسط، ١: ٢٨٩.

٧. الكليني، الكافي، ٨: ٨٢.

والهدف هو ماذا تعني هذه الأسماء في اللغة ثم الشرع، وما هو حكمها الديني أو الكلامي؟

هذه المباحث لم تكن في العهد النبوي كما هي الحال عند المتكلمين، غير أنه توجد روايات نبوية تشير إلى بعض هذه الأسماء مع تحديد معناها، مع لزوم الحذر في تعاطي هذه الروايات؛ لأنّ كلّ فرقة كانت تريد إثبات مبدئها بالاعتداد على ما ورد في النصّ المقدّس لتكتسب الشرعية.

وإليك بعض هذه الروايات:

الإسلام

قال ﷺ: «رأس هذا الأمر الإسلام ومن أسلم سلم»^١، «ما من مولود يُولَد إلّا على فطرة الإسلام...»^٢، «... إن الرجل يكون في فئة الإسلام فيأكل مال أخيه، ويسفك دمه، ويعصي ربّه، ويكفر بخالقه، وتجب له النار»^٣، «إنّ الفحش والتفاحش ليسا من الإسلام في شيء، وأنّ أحقّ الناس إسلاماً أحاسنهم أخلاقاً»^٤.

وجاء رجل إلى النبيّ ﷺ فسأله عن الإسلام، فقال: «تشهد أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمّداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحجّ البيت، وتحب للنّاس ما تحبّ لنفسك، وتكره للنّاس ما تكره لنفسك»^٥. وفي لفظ آخر: «بُني الإسلام على خمس: شهادة أنّ لا إله إلّا الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحجّ

١. الطبراني، المعجم الكبير، ٢٠: ٥٥.

٢. ابن حبان، صحيح ابن حبان، ١: ٣٤١.

٣. السيوطي، الجامع الكبير، ٢٣: ١٥٣.

٤. الطبراني، المعجم الكبير، ٢: ٢٥٦.

٥. م. ن. ٢: ٣١٨.

البيت، وصوم رمضان^١. وقال ﷺ في الخوارج: «يخرج من ها هنا -وأوماً بيده- قوم يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم^٢، يمرقون^٣ من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية^٤».

الإيمان

قال رسول الله ﷺ: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وتؤمن بالجنة والنار والميزان، وتؤمن بالبعث بعد الموت، وتؤمن بالقدر خيره وشره^٥»، «الإيمان بالله إقرار باللسان، وتصديق بالقلب، وعمل بالأركان^٦»، «الإيمان سبعون باباً، أرفعه لا إله إلا الله، وأذناه إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان^٧»، «الإيمان سربال^٨ يُسربله الله من يشاء، فإذا زنى العبد نزع منه سربال الإيمان فإن تاب ردّ عليه^٩»، «خمس من الإيمان، من لم يكن فيه شيء منهنّ فلا إيمان له: التسليم لأمر الله، والرضا بقضاء الله، والتفويض إلى الله، والتوكل على الله، والصبر عند الصدمة الأولى...^{١٠}»، «إنّ الإيمان^{١١} ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله تعالى أن يُجدّد الإيمان في

١. البخاري، صحيح البخاري، ١: ١١.

٢. جمع «الترقوة»، وهي مقدّم الخلق في أعلى الصدر حثماً يترقى فيه النفس.

٣. أي: يخرجون.

٤. النسائي، فضائل القرآن، ١٣٨.

٥. ابن حبان، صحيح ابن حبان، ١: ٣٩٧.

٦. السيوطي، الجامع الكبير، ٣: ٥٧٣.

٧. ابن بطة، الإبانة الكبرى، ٢: ٦٤٨.

٨. نوع من الثياب.

٩. المروزي، تعظيم قدر الصلاة، ١: ٤٩٦.

١٠. البزار، البحر الزخار، ١٢: ١٥.

١١. أي: يندرس ويصبح رقيقاً.

قلوبكم»^١، «ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن هو ما وُقِرَ في القلب، وصدّقه العمل»^٢، «الإيمان والعمل قرينان، لا يصلح كلّ واحد منهما إلّا مع صاحبه»^٣، «يخرج من النّار مَنْ كان في قلبه مثقال ذرّة من الإيمان»^٤، «قتال المؤمن كفر، وأكل لحمه^٥ من معصية الله»^٦.

وما نستخلصه من هذه الروايات حول الإسلام والإيمان، أنّ الإسلام هو التّفوّء بالشهادتين لحقن الدم والدخول في الدّين الذي أتى به النبي ﷺ وهو عمل جوارحي، سواء التزم بالطقوس الدينيّة أم لم يلتزم. أمّا الإيمان فهو عمل جوارحي، ويقتضي التصديق القلبي والالتزام العملي بالطقوس الدينيّة، وهو وجود مشكّك وذو مراتب كما ورد في الروايات الشريفة.

المعاصي

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يعص الله يعذّبه الله»^٧، «يُعذّب المذنبون في النّار على قدر نقصان إيمانهم»^٨، «مَنْ يعص الله ورسوله فقد، غوي حتّى يفيء إلى أمر الله»^٩، «كلّ ذنب عسى الله أن يغفره إلّا من مات مشركاً، أو قتل مؤمناً متعمداً»^{١٠}، «لا والله، لا ينال شفاعتي

١. الطبراني، المعجم الكبير، ١٣: ٣٦.

٢. أي: ثبت.

٣. المقتي الهندي، كنز العمال، ١: ٢٥.

٤. م. ن.، ١: ٣٦.

٥. الصنعاني، المصنف، ١: ٤٥٧؛ الترمذي، الجامع الكبير، ٤: ٢٩٥.

٦. كناية عن الغيبة والاستغابة.

٧. المقتي الهندي، كنز العمال، ٢: ٩٩.

٨. م. ن.، ٢: ٩٩.

٩. أبو الشجاع الديلمي، الفردوس، ٥: ٥٣٨.

١٠. الشافعي، مسند الإمام الشافعي، ٢: ٢٦.

١١. البزار، البحر الزخار، ٧: ١٦٣.

من شرب المسكر، ولا يردّ عليّ الحوض لا والله»^١، «مَنْ شرب الخمر غير مكره خرج من الإيمان»^٢، «إذا زنى العبد خرج منه الإيمان، فكان على رأسه كالظلّة، فإذا أُلْعِقَ^٣ رجع إليه»^٤.

التوبة

قال ﷺ: «ما أعطي أحد التوبة فمُنِعَ التَّقَبُّلُ، لأنَّ الله تعالى يقول: وهو الذي يقبل التوبة عن عباده»^٥، وعنه ﷺ: «لو أخطأ أحدكم حتّى تملأ خطيئته ما بين السماء والأرض، ثمّ تاب، لتاب الله عليه»^٦، «إنَّ الله يقبل توبة العبد ما لم يُعْرِغِرْ بنفسه»^٧، «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»^٨، «ما من كبيرة بكبيرة مع الاستغفار»^٩.

المبحث الثالث: النبوة

يبحث المتكلّمون في باب النبوة عن أمرين: الأوّل النبوة العامّة وإثبات ضرورتها، والثاني النبوة الخاصّة وإثبات نبوة رسول الله ﷺ وما يتعلّق بها من مباحث فرعيّة. وهذان الأمران نجدهما في كلام رسول الله ﷺ أيضاً، فضلاً عن الآيات القرآنيّة الدالّة على أنّ نبوّته امتداد لسائر النبوات. فرسول الله ﷺ من جهة كان يثبت نبوّته ورسالته، ومن جهة

١. الكليني، الكافي، ٦: ٤٠٠.

٢. السيوطي، الجامع الكبير، ٩: ٢٥١.

٣. أي: غادر الذنب وتركه.

٤. السيوطي، الجامع الكبير، ١: ٣٩٩.

٥. م. ن.، ٧: ٤٨٢.

٦. م. ن.، ٧: ٦٢.

٧. ابن الجوزي، جامع المسانيد، ٧: ٤٨٩. «يُعْرِغِرُ»: أي ينزع نزع الموت.

٨. ابن ماجه، سنن ابن ماجه، ٥: ٣٢٠.

٩. المقتي الهندي، كنز العمال، ٤: ٢١٧.

ثانية يدلّل - من خلال القرآن وسائر كلماته - أنّه مصدق لما بين يديه من الكتب، وأنّ رسالته استمرار لباقي الرسالات وخاتمة لها.

إنّ المعركة والجدل العقديّين آنذاك كانا محتدمين، فرسول الله ﷺ كان قد دخل في مواجهة مع مشركي قريش وعبدّة الأوثان من جهة، ومع أصحاب الديانات الأخرى من جهة ثانية، وكان لزاماً عليه أن ينافح ويدافع عن التوحيد الخالص ويدعو إليه، كما كان ينبغي إثبات رسالته ونبوّته الإلهيّة بأمر من الله تعالى، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٨).

كما أنّ رسالته ﷺ أكمل الرسالات وأعلّوها: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ...﴾ (المائدة: ٤٨). وإنّها في امتداد الرسالات: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٨٤). وفي لفظ آخر قريب منها: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ (النساء: ١٦٣).

فهذه الآيات وغيرها التي نزلت تباعاً، كانت خير معين للنبي ﷺ في خوض سجال عقدي مع خصومه، وهي بدورها تنبئ عن شدّة الأزمة والصدام الفكري آنذاك، وفي جولة سريعة فيها ورد عن رسول الله ﷺ بخصوص مبحث النبوة، يمكننا تصنيفها ضمن النقاط التالية:

١. البعثة والدعوة إلى الله

إنّ رسول الله ﷺ بعدما أمر بإعلان دعوته، بدأ تلبية لذلك بنشر الدعوة علناً ودعوة الناس عامّة في كل موقف وعند كل حادثة مهمّة، يروى أنّه قام على الحجر فقال: «يا معشر قريش، يا معشر العرب، أدعوكم إلى شهادة أنّ لا إله إلا الله، وأنّي رسول الله، وأمركم بخلع الأنداد والأصنام...»^١.

وروى الطبري (ت. ٣١٠هـ) أنّه لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٤) قام رسول الله ﷺ بالأبطح، ثمّ قال: «يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف، يا بني قصي، قال: ثمّ فخذ قريشاً قبيلة قبيلة حتّى مرّ على آخرهم: إنّي أدعوكم إلى الله وأنذركم عذابه»^٢. وهذه الحادثة -بعد نزول آية الإنذار- تكرّرت مرّات عدّة، ولم يكتف رسول الله ﷺ بالإنذار لمرة واحدة، فهنا قلها بالأبطح، وفي رواية عاد الكلام وهو على الصفا فاعترضه أبو لهب ونزلت في حقّه ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (المسد: ١)^٣.

وفي مرة أخرى دعاهم إلى داره وعمل لهم وليمة، والقصة معروفة يرويها ابن عبّاس عن أمير المؤمنين عليه السلام إلى أن يقول: «ثمّ تكلم رسول الله ﷺ فقال: يا بني عبد المطلب، أنّي والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل ممّا قد جئتكم به، أنّي قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، قد أمرني الله تعالى أدعوكم إليه، فأياكم يؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيّي وخليفتي فيكم؟ قال: فأحجم القوم عنها جميعاً وقلت وأنّي لأحدثهم سنّاً وأرمصهم عيناً، وأعظمهم بطناً، وأحمشهم ساقاً: أنا يا نبي

١. القمي، تفسير القمي، ١: ٣٧٩.

٢. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢: ٣٢٢.

٣. م. ن. ٢: ٣١٩.

الله أكون وزيرك عليه، فأخذ برقبتي ثم قال: إنّ هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا، قال: فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع^١.

وبعد آية إنذار العشيرة الأقربين، والإفصاح عن الدعوة، تغيّر مسار العمل وأسلم خلق عظيم، كما يحدثنا اليعقوبي ويقول: «وأسلم خلق عظيم، وظهر أمرهم، وكثرت عدّتهم، وعاندوا ذوي أرحامهم من المشركين»^٢. كما أنّ بعد حادثة حصار الشعب وأكل الأرضة لصحيفة قريش في حصار بني هاشم، حدث نفس الأمر: «وأسلم يومئذ خلق من الناس عظيم، وخرج بنو هاشم من الشعب وبنو المطلب، فلم يرجعوا إليه»^٣.

ولم يقتصر رسول الله ﷺ في الدعوة على أهل مكّة، بل كان يدعو قبائل العرب أيضًا عندما يجتمعون في الموسم، يقول الطبري: «وكان رسول الله ﷺ يعرض نفسه في الموسم إذا كانت على قبائل العرب، يدعوهم إلى الله وإلى نصرته، ويخبرهم أنّه نبي مرسل، ويسألهم أن يصدّقوه ويمنعوه حتّى يبيّن عن الله ما بعثه به»^٤. ويضيف قائلاً: «فكان رسول الله ﷺ على ذلك من أمره كلّما اجتمع له النّاس بالموسم، أتاهم يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام، ويعرض عليهم نفسه، وما جاء به من الله من الهدى والرحمة، لا يسمح بقادم يقدم من العرب له اسم وشرف إلّا تصدّى له فدعاه إلى الله وعرض عليه ما عنده»^٥. والدعوة هذه لم تقتصر على الفترة المكيّة فحسب، بل استمرّت طول حياته ﷺ،

١. م. ن. ٢: ٣٢١.

٢. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢: ٢٨.

٣. م. ن. ٢: ٣٢.

٤. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢: ٣٤٨.

٥. م. ن. ٢: ٣٥١.

فحصلت مراسلة الملوك في العالم^١، وفي البحار عن الكازروني في حوادث السنة السادسة قال: «وفيها بعث رسول الله ﷺ ستة نفر، فخرجوا مصطحبين في ذي الحجة، حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس، ودحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر، وعبد الله بن حذافة إلى كسرى، وعمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي، وشجاع بن وهب إلى الحارث بن أبي شمر الغساني وسنيط بن عمر والعامري إلى هوزة بن علي الحنفي^٢. فكان ﷺ يدعوهم إلى الإيذان بالله تعالى الواحد الأحد، وإلى قبول رسالته ونبوته، وكذلك الأمر كان بالنسبة إلى الوفود التي بدأت تترى على المدينة سيما في أخريات حياته ﷺ^٣.

٢. الوحي وجبرائيل عليه السلام

يشرح رسول الله ﷺ لأصحابه كيفية تلقّيه الوحي الإلهي، وطرق الوحي، وما يحدثه الوحي فيه ﷺ كل ذلك تثبيتاً لقلوبهم، ورفع مستواهم المعرفي، وإجابة لأسئلتهم، فمما روي عنه بهذا الصدد قوله ﷺ: «إِنَّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَنْ يَسْمَعُ لِلصَّوْتِ فَيَكُونُ بِذَلِكَ نَبِيًّا، وَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ يَرَى فِي الْمَنَامِ فَيَكُونُ بِذَلِكَ نَبِيًّا نَذِيرًا، وَإِنَّ جِبْرَائِيلَ يَأْتِينِي فَيَكَلِّمُنِي كَمَا يَأْتِي أَحَدَكُمْ صَاحِبَهُ فَيَكَلِّمُهُ^٤. وفي لفظ آخر يصف ﷺ شدة الوحي عليه: «أحيانًا يأتيني في مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ، فيفصم عني وقد وعيتُ ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا فيكلمني فأعي ما يقول»^٥.

١. للمزيد من المعلومات، راجع: المجلسي، بحار الأنوار، ٢٠: ٤٠٣؛ مرتضى العامل، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ١٦: ٢٣٧؛ أحمد ميانجي، مكاتيب الرسول.

٢. المجلسي، بحار الأنوار، ٢٠: ٣٨٢-٣٨٣.

٣. للإطلاع عن الوفود التي وفدت على المدينة، راجع: مرتضى العامل، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، المجلد ٢٨.

٤. السيوطي، الجامع الكبير، ٢: ٦٤٦.

٥. م. ن. ١٩: ٧٨٣.

وعنه عليه السلام: «أتاني جبرائيل في خضرٍ تعلّق به الدر»^١، وأيضًا: «رأيتُ جبرائيلَ منهبطًا قد ملأ ما بين الخافقين، عليه ثياب سندس معلق فيها اللؤلؤ والياقوت»^٢. وعنه أيضًا: «ألا تؤمنوني وأنا أمين في السماء، يأتيني خبر السماء صباحًا ومساءً»^٣.

٣. الاصطفاء الإلهي

إن النبوة -كما أشرنا سابقًا- اصطفاء إلهي، وهذا الأمر قد أكّده رسول الله ﷺ للناس مرارًا وتكرارًا من خلال الآيات القرآنية النازلة، وهذه الآيات تارة تذكر اصطفاء نبيٍّ خاص كقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٤). وتارة تذكر أنبياء عدّة كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (البقرة: ١٣٠). وتارة أخرى تذكر الأنبياء عليهم السلام وذرائعهم الأوصياء كقوله تعالى: ﴿وَذُكِّرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذُكِّرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ (ص: ٤٥-٤٧).

وعدا الآيات القرآنية، فهناك روايات نبوية، يشير فيها النبي ﷺ إلى مسألة الاصطفاء، كما في قوله: «... لم يزل الله ينقلني من الأصلاّب الحسنة إلى الأرحام الطاهرة، صفيّ مهديّ، لا تتشعب شعبتان إلّا كنتُ في خيرهما»^٤. وفي رواية أخرى: «إن الله أدرك بي في الأجل المرجوّ، واختارني اختياريًا، فنحن الآخرون، ونحن

١. المتقي الهندي، كنز العمال، ٦: ١٣٩.

٢. أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ٤١: ٣٧٨.

٣. البخاري، صحيح البخاري، ٥: ١٦٤.

٤. المتقي الهندي، كنز العمال، ١٢: ٤٢٧.

السابقون يوم القيامة، وأني قائل قولاً غير فخر، إبراهيم خليل الله، وموسى صفى الله، وأنا حبيب الله ومعى لواء الحمد يوم القيامة^١. وفي لفظ آخر: «إن الله اصطفى من ولد آدم إبراهيم واتخذ خليلاً، واصطفى من ولد إبراهيم اسماعيل، ثم اصطفى من ولد اسماعيل نزاراً، ثم اصطفى من ولد نزار مضر، ثم اصطفى من مضر كنانة، ثم اصطفى من بني كنانة قريشاً، ثم اصطفى من قريش بني هاشم، ثم اصطفى من بني هاشم بني عبد المطلب، ثم اصطفاني من عبد المطلب»^٢.

٤. ادعاء النبوة

وردت روايات نبوية فيها تصريح منه ﷺ بالنبوة، من قبيل قوله: «أنا النبي الأمي الصادق الزكي، كل الويل لمن كذبني وتولى عني وقاتلني، الخير لمن آواني ونصرني وآمن بي وصدق قولي وجاهد معي»^٣. ومن كلامه ﷺ لأصحاب بيعة العقبة، قبل الهجرة إلى المدينة: «أما الذي أسأل لربي أن تؤمنوا به ولا تشركوا به شيئاً، وأما الذي أسأل لنفسي فأني أسألكم أن تطيعوني أهدكم سبيل الرشاد...»^٤.

٥. الخاتمة

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ (الأحزاب: ٤٠). تبعاً لهذه الآية الكريمة، فقد كان رسول الله ﷺ يصرح في أماكن مختلفة ومشاهد متعددة بأنه خاتم النبيين، ولا نبوة بعده، فهو من جهة يريد أن يبين للجميع كون رسالته السماوية كونية وعامة، ومن جهة أخرى

١. السيوطي، الجامع الكبير، ٢: ١٣٢.

٢. الطبري، ذخائر العقبى، ١: ١٠.

٣. السيوطي، الجامع الكبير، ٣: ١٩٢.

٤. الهيثمي، مجمع الزوائد، ٦: ٤٧.

يردّ على اليهود والنصارى المنكرين لنبوّته والمتظرين لمجيء نبيّ منهم، فالخاتميّة والإصرار عليها وتبيينها في مواطن مختلفة ومتكرّرة، تُعدّ محوراً رئيسياً في الرسالة النبويّة.

وقد وردت روايات كثيرة تدل على الخاتميّة، من قبيل قوله ﷺ: «إنّ الرسالة والنبوّة قد انقطعت، فلا رسول الله بعدي ولا نبي»^١، «أنا أحمد ومحمّد والحاشر والمقفّي والخاتم»^٢. وفي كلامه ﷺ مع فاطمة الزهراء ؑ قال لها: «يا فاطمة، ونحن أهل بيت قد أعطانا الله سبع خصال لم يعط أحداً قبلنا، ولا يعطي أحد بعدنا، أنا خاتم النبيّين...»^٣. وفي كلام آخر لعمره العباس: «يا عمّ، أقيم بمكانك الذي أنت به، فإنّ الله يختم بك الهجرة كما ختم بي النبوّة»^٤. وفي مكان آخر استخدم ﷺ التمثيل لإثبات الفكرة، وقال: «إنّ مثلي ومثّل الأنبياء من قبلي، كمثّل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلّا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلاً وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيّين»^٥.

والإجهار بالخاتميّة لا يتعلّق بالفترة المكيّة فقط، بل كما قلنا كان ساريّاً وجاريّاً في جميع الدعوة، ومن الشواهد على الإشارة إلى الخاتميّة في نهايات الدعوة الحديث المعروف بحديث المنزلة، لما خلّف رسول الله ﷺ عليّاً ؑ في المدينة في غزوة تبوك، وقال له: «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبيّ بعدي»^٦.

١. أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ٢١: ٣٢٦؛ الترمذي، الجامع الكبير، ٤: ١٠٣.

٢. الطبراني، المعجم الأوسط، ٢: ٣٧٨.

٣. المجلسي، بحار الأنوار، ٣٦: ٣٠٧.

٤. الطبراني، المعجم الكبير، ٦: ١٥٤.

٥. البخاري، صحيح البخاري، ٤: ١٨٦.

٦. مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، ٤: ١٨٧٠.

٦. النبي ﷺ وأهل الكتاب

إنَّ الجدل العقدي المحتدم آنذاك كان في مواجهة طائفتين: ١. المشركون، ٢. أهل الكتاب. وقد أمر الله تعالى نبيه أن يدخل معهم في نقاش عقدي في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥)، وفي آية أخرى تشمل المسلمين أيضًا: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

وامتثالاً للأمر الإلهي دخل رسول الله ﷺ، وتبعه بعض المسلمين أيضًا، في سجال عقدي مع أهل الكتاب، كان يتمحور حول التوحيد والنبوة في الأغلب، وفي المقابل لم ينفك أهل الكتاب أيضًا من إلقاء الشبهات لتشيط عزيمة المؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ (البقرة: ١٠٩).

ومن شبهاتهم التي يذكرها القرآن: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ١١١)، وأيضًا: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَه قَانِتُونَ﴾ (البقرة: ١١٦).

مضافاً إلى أنهم كانوا يستهزؤون بالدين، فأمرهم الله تعالى بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (المائدة: ٥٧). كما تكشف الآيات الكريمة عن خططاتهم الأثمة تجاه الرسول ﷺ: ﴿وَأَنْ أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (المائدة: ٤٩).

وقد خلد التاريخ حادثة مهمة سميت لاحقاً بآية المباهلة وما تبعها من حديث المباهلة، في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (آل عمران: ٦١)، حيث أخرج رسول الله ﷺ علياً وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم في قصة معروفة^١.

وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ لمعشر من اليهود: «يا معشر اليهود، أروني اثني عشر رجلاً منكم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، يحط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي غضب عليهم، فلم يجبه أحد منهم، فقال: أبيتكم، فوالله لأنا الحاشر، وأنا العاقب، وأنا المقفي آمنتكم أو كذبتكم»^٢.

وفي خبر آخر عن ابن عباس قال: «لما أسلم عبد الله بن سلام وثعلبة بن سعية وأسد بن عبيد ومن أسلم من يهود، فأمنوا وصدقوا ورجعوا في الإسلام، قالت أحبار يهود أهل الكفر: ما آمن بمحمد وما تبعه إلا شرارنا، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم»^٣.

المبحث الرابع: الإمامة

لم تكن مسألة الإمامة وخلافة النبي ﷺ، أقل أهمية من مسائل التوحيد والنبوة، لذا كانت شغل النبي ﷺ الشاغل من بدايات مبعثه وإلى أخريات حياته الطاهرة. والنظرة النبوية للخلافة، لم تكن نظرة مادية وسلطوية، بل هي امتداد النبوة وشرحها وبسطها وتأويلها، وهي تفرض نفسها ويزداد أهميتها بعد أن أعلن النبي ﷺ كون رسالته خاتمة

١. للمزيد من المعلومات، راجع: المجلسي، بحار الأنوار، ٢١: ١٦٨.

٢. الطبراني، المعجم الكبير، ١٨: ٤٦.

٣. م. ن. ٢: ٨٧.

النبوّات ولا نبيّ بعده، ممّا يعني أنّ هذا الدين هو الدين العالمي إلى قيام الساعة، وأنّه بحاجة إلى من يفسّره التفسير الصحيح المتّصل بالغيب.

وممّا يدلّل على كون الإمامة والخلافة أمرًا إلهيًّا، ما قاله ﷺ لربي عامر في بدايات الدعوة، حيث لما عرض نفسه عليهم قال رجل منهم يُقال له ببحرة بن فراس: «والله لو أنّي أخذتُ هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، ثمّ قال له: أرايت إن نحن تابعنك على أمرك، ثمّ أظهرك الله على من خالفك، أ يكون لنا الأمر من بعدك؟»، قال ﷺ: «الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء»^١. وفي رواية عن عبادة بن الصامت يشرح فيها بيعة العقبة قال: «دعانا النبيّ ﷺ، فبايعنا، فقال فيما أخذ علينا أن بايعنا: على السمع والطاعة... وأن لا ننازع الأمر أهله»^٢.

فهذا الشرط، أي عدم منازعة الأمر أهله، ينبئ عن سبق حديث بهذا الخصوص بين النبيّ ﷺ وبين أصحاب العقبة، ولم تشر إليه الروايات، وتمت البيعة على غرارهِ. وهذه الروايات تدلّ على أهميّة مسألة الخلافة عند رسول الله ﷺ منذ بواكير الدعوة، وعلمه بأنّها أمر إلهي ليس للبشر فيها نصيب.

وممّا يؤيّد ذلك أيضًا آية الإنذار، وقد مرّت في المبحث السابق، حيث لما دعا رسول الله ﷺ قومه وعشيرته، قال فيما قال: «... فأَيُّكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيّي وخليفتي فيكم؟ قال: فأحجم القوم عنها جميعًا وقلت: ... أنا يا نبيّ أكون وزيرك عليه، فأخذ برقبتي ثمّ قال: إنّ هذا أخي ووصيّي وخليفتي منكم، فاسمعوا له وأطيعوه...»^٣.

وكانت سياسة رسول الله ﷺ في إعلان إمامة أمير المؤمنين ﷺ مختلفة تتراوح بين

١. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢: ٣٥٠.

٢. البخاري، صحيح البخاري، ٩: ٤٧.

٣. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢: ٣٢١.

التصريح والتلميح، بين القول والفعل، وقد أثبتت كتب التاريخ والسيرة والحديث روايات نبوية كثيرة في فضائل علي عليه السلام، الفضائل التي لها مدخلية تامة في مسألة الإمامة من قبيل: المعرفة والعلم، والشجاعة والقرب من الله تعالى. وما تقديمه لقيادة الحروب والسرايا إلا إرهاصات لهذا الأمر.

ويمكننا تقسيم ما روي عنه عليه السلام حول مبحث الإمامة ضمن طوائف عدة:

الطائفة الأولى: معرفة الإمام

أكد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على لزوم معرفة الإمام، وقد ورد عنه عليه السلام: «من مات ولم يعرف إمام زمانه، مات ميتة جاهلية»^١، وفي لفظ آخر: «مَنْ مات وليس له إمام، فميتته ميتة جاهلية»^٢.

الطائفة الثانية: عدد الأئمة

لقد أشار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى عدد الأئمة عليهم السلام الذين يلون أمر الأمة، فقال: «لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة. أو يكون عليكم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش»^٣، وفي لفظ آخر: «إِنَّ عِدَّةَ الخلفاء بعدي، عِدَّةَ نِقاءِ موسى»^٤، «إِنَّ هذا الأمر لن ينقضي حتى يملك اثنا عشر خليفة، كلهم من قريش»^٥.

وعنه عليه السلام: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ثم أخي علي بن أبي طالب أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فإذا استشهد علي فالحسن بن علي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ثم ابني

١. الكليني، الكافي، ١: ٣٧٧.

٢. م. ن. ١: ٣٧٦.

٣. مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، ٣: ١٤٥٣.

٤. السيوطي، الجامع الكبير، ٢: ٥٥٥.

٥. الصدوق، الخصال، ٢: ٤٧٠.

الحسين من بعده أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فإذا استشهد الحسين فابنه عليّ بن الحسين أولى بالمؤمنين من أنفسهم وستدركه يا عليّ...»^١.

الطائفة الثالثة: خلافة أمير المؤمنين عليه السلام

وهي كثيرة فبعضها تدلّ على إمامته لقربه من الرسول ﷺ ولأفضليّته وأعلميّته وأشجعيّته، ومنها ما تنصّ عليه بالولاية والخلافة، من قبيل قوله ﷺ: «أتاني جبرائيل فقال: يا محمد، ربّك يقرّوك السلام ويقول لك: إنّ عليّ بن أبي طالب وصيّك وخليفتك على أهلك وأمتك...»^٢، «ألا أدلّكم على ما إن استدلتتم به لم تهلكوا ولم تضلّوا؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: إنّ إمامكم ووليّكم علي بن أبي طالب...»^٣. ومنها حديث المنزلة مخاطباً لعلي بن أبي طالب عليه السلام: «أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى، إلّا أنّه لا نبيّ بعدي»^٤.

وعنه عليه السلام: «إمامكم من بعدي عليّ بن أبي طالب، وهو أنصح النّاس لأُمّتي»^٥، «أنا أولى بكلّ مؤمن من نفسه، وعليّ أولى به من بعدي»^٦، وعنه عليه السلام لعليّ عليه السلام: «إنّ الله تبارك وتعالى وعدني فيك وعداً لن يخلفه، جعلني نبياً وجعلك وصيّاً»^٧.
وعنه عليه السلام: «لكلّ نبيّ وصيّ أوصى إليه بأمر الله تعالى ذكره، وإنّ وصيّ علي بن

١. الكليني، الكافي، ١: ٥٢٩.

٢. المفيد، الأمالي، ١٦٨.

٣. الصدوق، الأمالي، ٤٧٧.

٤. الطوسي، الأمالي، ٣٠٧.

٥. الصدوق، الخصال، ٢: ٤٦٥.

٦. الكليني، الكافي، ١: ٤٠٦.

٧. الصدوق، الخصال، ٢: ٥٧٥.

أبي طالب لسيدهم وأفضلهم وأكرمهم على الله»^١، «إن الله فضّلني بالنبوة وفضّل عليّاً بالإمامة»^٢.

وكذلك حديث الغدير المتواتر: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا عَلِيٌّ مَوْلَاهُ». ومئات الأحاديث الأخرى الدالة على إمامته ﷺ فضلاً عن الروايات الدالة على فضائله ومناقبه، فهي تدلّ أيضاً على إمامته إذ الإمام لا بدّ أن يكون أعلم الناس وأشجع الناس وأزهد الناس وأفقه الناس، وكلّها مجتمعة في عليّ ﷺ.

فإذا كان مدار الإمامة هو النصّ، فهذه مئات الروايات التنصيصية على إمامة عليّ ﷺ، وإن كانت بالقرب من النبي ﷺ أو بكثرة الفضائل والعلم والزهد والشجاعة، فعليّ ﷺ هو السبّاق بلا منازع، والخلاصة أنّ أي شرط يُشترط للإمامة عند أهل السنة، فعليّ ﷺ هو المتصدّر الأوّل لها ولا يسبقه إليها أحد.

الطائفة الرابعة: الروايات المهدوية

قال رسول الله ﷺ: «المهديّ رجل من ولدي، وجهه كالكوكب الدريّ»^٣، «المهديّ منّا أهل البيت... يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً...»^٤، «لا تذهب الدنيا ولا تنقضي الأيّام، حتّى يملك رجل من أهل بيتي، يواطئ اسمه اسمي»^٥. وعنه ﷺ في كلامه لفاطمة الزهراء ﷺ: «يا فاطمة... منّا سبطا هذه الأمة، وهما ابنك الحسن والحسين، ومنّا مهديّ هذه الأمة»^٦. وعنه ﷺ في كلامه للإمام الحسين ﷺ: «أنت

١. الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ٤: ١٨٠.

٢. الطبري الآملي، بشارة المصطفى، ١٤٧.

٣. المتقي الهندي، كنز العمال، ١٤: ٢٦٤.

٤. الحاكم النيسابوري، المستدرک، ٤: ٦٠٠.

٥. المتقي الهندي، كنز العمال، ١٤: ٢٦٣.

٦. المجلسي، بحار الأنوار، ٣٦: ٣٧٠.

سيدّ ابن سيّد، أنت إمام ابن إمام، أنت حجّة ابن حجّة أبو حُجَجٍ تسعة من صلبك، تأسعُهم قائمُهم^١.

والروايات المهدويّة متواترة عند السنّة والشيعة، مع قطع النّظر عن الخلاف فيما بينهما حول حياته ﷺ من عدمها، وما يهْمُنَا هنا هو أنّ أهل السنّة رغم اعترافهم بإمامة الإمام المهدي ﷺ في آخر الزمان، وأنّ الرسول ﷺ رُشّحه للخلافة، كيف يقبلون إهمال الرسول ﷺ للإمامة والخلافة لما بعده مباشرة وهو الذي اهْتَمَّ -باعترافهم- بالإمامة في نهاية العالم!!؟

المبحث الخامس: المعاد

إنّ الموت من الحقائق الواقعيّة التي يتعايشها الإنسان منذ خلقته الأولى على الأرض، ومن الطبيعي أن تُثار في خلده أسئلة لمصيره فيما بعد الموت، هل الموت عدم أو توجد حياة ونشأة أخرى بعد الموت؟ هذه الأسئلة وغيرها هي التي شكّلت مباحث المعاد في علم الكلام. وقد ركّز القرآن كثيراً على مسألة المعاد، إذ إنّها ترتبط بالتوحيد والإلهيات ارتباطاً وثيقاً، فطالما أنّ الكون مخلوق من قبل الله تعالى، فللحياة غاية وحكمة، وسيصل إليها الإنسان فيما بعد الموت: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون: ١١٥).

إنّ آيات المعاد والحياة الآخرويّة، ومباحث الجنّة والنار والصراط، أثارت جدلاً واسعاً في الوسط الإسلامي، أتبعه أسئلة كثيرة ومتكرّرة عن الموعد والكيّفيّة وغيرها من الأسئلة، حتّى إنّ القرآن الكريم يشير إلى هذا الجدل المحتدم بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ

ثَقُلْتُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ (الأعراف: ١٨٧).

وبما أنّ مشاهد ما بعد الموت متعدّدة ابتداء من لحظة الموت والقبر وانتهاءً إلى الحساب والقرار في الجنّة أو النّار، فقد تكرّرت أيضًا الروايات النبويّة بتعدّد المشاهد، وكثير منها ليندرج في باب الوعظيّات والزهد، غير إنّنا يمكننا الإشارة إلى بعض الروايات المتعلّقة بالمباحث الكلاميّة.

١. التأكيد على وجود عالم آخر ولزوم الاستعداد له

أمام تيّار واسع كان يرى بعدم وجود عالم آخر، ويقتصر نظره على الدنيا ويقول: ﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (الأنعام: ٢٩). كان رسول الله ﷺ يؤكّد على وجود عالم آخر، ينبغي الاعتراف به والاستعداد له؛ فقد قال ﷺ: «اعملوا لما بعد الموت، فكنّكم بالدنيا لم تكن وبالأخرة لم تزل»^١، وعنه ﷺ: «إنّ العبد إذا كانت الآخرة همّة وسدّمة^٢، جمّع الله له ضيعته وجعل غناه في قلبه، فلا يصبح إلّا غنيًّا ولا يمسي إلّا غنيًّا»^٣، «إنّ أمامكم عقبة كؤودًا لا يجوزها المثقلون»^٤، «فإنّكم اليوم في دار عمل ولا حساب، وأنتم غدًا في دار حساب ولا عمل»^٥، «اهربوا من النّار واطلبوا الجنّة جُهدكم، فإنّ الجنّة لا ينالها طالبها، وأنّ النّار لا ينالها هاربها، وأنّ الآخرة مخوفة بالمكانة، وأنّ الدنيا مخوفة بالشهوات واللذات»^٦.

١. المجلسي، بحار الأنوار، ٧٤: ١٨٧.

٢. السّدَم: همٌّ في ندَم.

٣. السيوطي، الجامع الكبير، ٢: ٣٦٤.

٤. أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء، ١: ٢٢٦.

٥. الصدوق، الخصال، ١: ٥١.

٦. المتقي الهندي، كنز العمال، ١٥: ٨٣٢.

٢. القبر

هناك روايات تشير إلى القبر وعذابه أو نعيمه، ودور الأعمال في القبر، وهي بدورها ردّ غير مباشر على منكري الحياة بعد الموت. قال رسول الله ﷺ لقيس بن عاصم: «إنّه لا بدّ لك -يا قيس- من قرين يُدفن معك وهو حيّ، وتُدفن معه وأنت ميّت، فإن كان كريماً أكرمك وإن كان لئيماً أسلمك، ثمّ لا يحشر إلّا معك ولا تبعث إلّا معه، ولا تُسأل إلّا عنه، فلا تجعله إلّا صالحاً، فإنّه إن صلح أنست به وإن فسد لا تستوحش إلّا منه، وهو فعلك...»^١.

وعنه ﷺ: «القبر حفرة من جهنّم، أو روضة من رياض الجنّة»^٢، «المسلم إذا سُئل في القبر يشهد: أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمداً رسول الله، فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ (إبراهيم: ٢٧)»^٣. وقال ﷺ لما وقف على قتلى بدر: «يا أهل القليب، هل وجدتم ما وعد ربكم حقّاً؟ قالوا: يا رسول الله وهل يسمعون؟ قال: يسمعون كما تسمعون، ولكن لا يجيبون»^٤.

٣. البعث والحساب

قال رسول الله ﷺ: «إذا بعث الله الخلائق يوم القيامة، نادى منادٍ من تحت العرش ثلاثة أصوات: يا معشر الموحّدين إنّ الله قد عفا عنكم، فليعفُ بعضكم عن بعض»^٥، «ليبعثن الله تعالى أقواماً يوم القيامة في وجوههم النور، على منابر اللؤلؤ يغبطهم النَّاسُ، ليسوا بأنبياء ولا شهداء، هم المتحابّون في الله من قبائل شتى، يجتمعون على

١. الصدوق، الخصال، ١: ١١٤-١١٥.

٢. ابن أبي الدنيا، القبور، ١١٥-١١٦.

٣. البخاري، صحيح البخاري، ٦: ٨٠.

٤. الطبراني، المعجم الكبير، ٧: ١٦٥ و ١٠: ١٦٠.

٥. السيوطي، الجامع الكبير، ١: ٣١٨.

ذكر الله يذكرونه»^١، «والذي نفسي بيده، ليخرجنَّ من أمّتي من قبورهم في صورة القردة والخنزير بمداهنتهم في المعاصي، وكفّهم عن النهي وهم يستطيعون»^٢، «إنَّ النَّاسَ يحشرون يوم القيامة على ثلاثة أفواج: فوج راكبين طاعمين كاسين، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم وتحشرهم النَّار، وفوج يمشون ويسعون، يُلقِي الله الآفة على الظهر، فلا يُبْقِي ذات ظهر حتّى إنَّ الرجل لتكون له الحديقة المعجبة، يعطيها بذات القتب»^٣ لا يقدر عليها»^٤، «يُحْشَر النَّاسُ يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي، ليس فيها معلّم لأحد»^٥.

٤. الشفاعة

قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة كان لواء الحمد معي»^٦، وكنتُ إمام المرسلين وصاحب شفاعتهم»^٧، «أنا أوّل مَنْ يدخل الجنّة وأوّل مَنْ يشفع»^٨، «إني لأشفع فأشفع، حتّى إنّ مَنْ أشفع له يشفع فيشفع، حتّى إنّ إبليس يتناول طمعاً في الشفاعة»^٩، «أربعة أنا لهم شفيع يوم القيامة: المكرم لذريّتي من بعدي، والقاضي لهم حوائجهم، والساعي لهم في أمورهم عند اضطرارهم إليه، والمحبّ لهم

١. الهيثمي، مجمع الزوائد، ١٠: ٧٧.

٢. المتقي الهندي، كنز العمال، ٣: ٨٣.

٣. القتب: رَحَل البعير وحمله.

٤. النسائي، السنن الكبرى، ٢: ٤٨٧.

٥. ابن أبي شيبة، مسند ابن أبي شيبة، ١: ٨٦.

٦. يريد انفراده بالحمد يوم القيامة وشهرته به على رؤوس الخلائق (ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ١: ٤٣٧).

٧. الهيثمي، مجمع الزوائد، ٨: ٢٨٤.

٨. السيوطي، الجامع الكبير، ٣: ٢١٠.

٩. الهيثمي، مجمع الزوائد، ١٠: ٢٨٤.

بقلبه ولسانه^١، «أما شفاعتي ففي أصحاب الكبائر، ما خلا أهل الشرك والظلم»^٢، «شفاعتي لأمتي، مَنْ أَحَبَّ أهل بيتي»^٣. وقال ﷺ لعليّ ﷺ: «بشّر شيعتك أنّي شفيع لهم يوم القيامة، وقت لا تنفع إلا شفاعتي»^٤.

٥. الخلود

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْمَرْدُ إِلَى اللَّهِ، إِلَى جَنَّةٍ أَوْ نَارٍ، خُلُودٌ بِلَا مَوْتٍ وَإِقَامَةٌ بِلَا ظَعْنٍ»^٥. وعنه ﷺ: «مَنْ كُتِبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ، لَمْ يُخْرَجْ مِنْهَا أَبَدًا»^٦، وفي لفظ آخر: «يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ثم يقوم مؤذن بينهم فيقول: يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار لا موت، كلّ خالدٍ فيما هو فيه»^٧.

* * *

هذا تمام الكلام في الدور النبويّ العقدي، وهو الدور التأسيسي الأول، ولم نكن بصدد إحصاء جميع ما ورد عنه ﷺ، بل اكتفينا في كل موضوع على بعض الروايات، لنبين المعالم العامّة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين
والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وآله الميامين

١. الصدوق، عيون أخبار الرضا، ١: ٢٥٤.

٢. الصدوق، الخصال، ٣٥٥.

٣. المتقي الهندي، كنز العمال، ١٤: ٣٩٩.

٤. المجلسي، بحار الأنوار، ٦٥: ٩٨.

٥. الطبراني، المعجم الكبير، ٢٠: ١٧٥.

٦. السيوطي، الجامع الكبير، ١٠: ٨٢.

٧. أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ١٠: ٢٨٦.

صحابه رسول الله ﷺ وعدالتهم

محمد رضا الخاقاني

المقدمة

شكّل صحابة رسول الله ﷺ، بصفاتهم الجليل الأول من المسلمين، اللبنة الأولى للمجتمع الإسلامي الناشئ، واضطلعوا بدور محوري في تاريخ صدر الإسلام. ومن هذا المنطلق، يكتسب التعرف عليهم من خلال الأخبار التاريخية أهمية قصوى لفهم وقائع العصر النبوي فهماً أشمل. ومن جانب آخر، يذهب جمهور أهل السنة، عبر طرحهم لـ «نظرية عدالة الصحابة»، إلى القول بعدالة جميع الصحابة وصدق لهجتهم وفلاحهم؛ في حين يرى علماء الشيعة أنّه لا يُمكن الحكم -على وجه الإطلاق- بأنّ كلّ مَنْ عدّ في زمرة الصحابة كان عادلاً، وصادقاً، ومن أهل الفلاح.

تسعى هذه الدراسة إلى تمحيص هذه الفكرة عبر استعراض مكانة الصحابة في الفكر السنّي، ونظرية عدالة الصحابة وأدلتها، وذلك بمناقشة هذا الفكر بالاستناد إلى

القرائن القرآنية والروائية والتاريخية. وفي هذا السياق، سيقدم أولاً عرض شامل لمكانة الصحابة لدى أهل السنة، ومن ثمّ وبالنظر إلى تعريفهم لعدالة الصحابة والسير التاريخي لتطور هذه النظرية، سيتمّ فحص ونقد تلك الأدلة القرآنية والروائية التي ساقها أهل السنة لإثبات نظرية عدالة الصحابة.

وعلاوة على ذلك، وبلاستناد إلى الأخبار والمصادر التاريخية السنية، ستجري محاولة لرسم صورة عامّة لأحوال الصحابة إبان عهد رسول الله ﷺ؛ وهي صورة لا تنسجم تمام الانسجام مع المعتقد القائل بصدق وعدالة وفلاح الصحابة أجمعين. وفي الختام، وبعد بيان التبعات المترتبة على الاعتقاد بعدالة كافة الصحابة، سنشير إلى الرؤية الشيعية حيال مسألة عدالة الصحابة.

وما نوّكد عليه في هذا المقام، هو أنّ هذه الدراسة ترمي إلى نقد الاعتقاد القائل بعدالة «جميع» الصحابة ومساءلة صفة «العموم» فيه، وهي لا تنكر البتّة وجود جمّ غفير من العدول والصادقين بين صحابة رسول الله ﷺ الكثر؛ أولئك الذين شكّلوا واسطة موثوقة في نقل السنة النبوية إلى الأجيال اللاحقة.

الصحابة في منظور أهل السنّة

تعريف الصحابة

ثمة خلاف بين الأصوليين والمحدثين من أهل السنّة في تحديد مفهوم «الصحابي»؛ إذ يذهب جلّ المحدثين وبعض الأصوليين إلى أنّ اسم الصحابي يُطلق على كلّ مَنْ أدرك محضر رسول الله ﷺ ولو لساعة واحدة. في المقابل، يرى فريق آخر من الأصوليين أنّ مجرد اللقاء بالنبي ﷺ لا يكفي لثبوت الصحبة، بل يشترطون لذلك ملازمته ﷺ لمُدّة سنة أو سنتين، أو المشاركة معه في غزوة أو غزوتين^١.

ولعلّ أقدم تعريف لمصطلح الصحابي نجده عند محمد بن عمر الواقدي(ت. ٢٠٧هـ)، الذي عدّ صحابياً كلّ مَنْ أدرك النبي ﷺ ورآه ولو للحظة، شريطة أن يكون قد آمن به وبلغ سنّ الحُلُم^٢. وقد قدم أحمد بن حنبل(ت. ٢٤١هـ) تعريفاً يقارب تعريف الواقدي، مع فارق أنّه لم يتطرّق لشرط البلوغ^٣. كما ذهب البخاري(ت. ٢٥٦هـ) إلى أنّ كلّ مسلم صاحب النبي ﷺ أو رآه، فهو معدود في أصحابه^٤. وسار ابن الأثير(ت. ٦٣٠هـ) والعسقلاني(ت. ٨٥٢هـ) على نهج ابن حنبل والبخاري، فاعتبروا كلّ مَنْ لقي رسول الله ﷺ ولو للحظة واحدة، صحابياً^٥.

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ المعنى العُرْفِي واللغوي لمصطلح «الصحبة» قد ألقى بظلاله -على الأرجح- في تحديد مصداق الصحابي؛ فالذين اشترطوا ملازمة النبي ﷺ لمُدّة

١. الأحمدي، «الإصابة في عدالة الصحابة»، ١٤٢-١٤٦.

٢. ابن سعد، الطبقات الكبرى (الطبعة الرابعة)، ٨١٨-٨١٩.

٣. أحمد بن حنبل، أصول السنّة، ٣٩-٤٠.

٤. البخاري، صحيح البخاري، ٥: ٢.

٥. ابن الأثير، أسد الغابة، ١: ١٩؛ العسقلاني، الإصابة، ١: ١٥٨.

تقارب الستين استندوا إلى المعنى العرفي للصحة، بينما استند الفريق الآخر الذي لم يشترط ذلك، إلى المعنى اللغوي المجرد للمصاحبة^١.

مكانة الصحابة

يحظى الصحابة بمكانة سامية ومتميزة في الفكر السنّي. ومن أسباب هذه المكانة، أنهم كانوا الواسطة في نقل تعاليم نبي الإسلام ﷺ إلى الأجيال اللاحقة^٢. بعد انقضاء أقل من قرن على وفاة النبي ﷺ، وتحديدًا في أواخر القرن الأول الهجري، اكتسبت شخصيات الصحابة أنفسهم مكانة خاصة - إلى جانب دورهم في رواية السنة النبوية - وغدت أقوالهم وآراؤهم محط اهتمام. ويمكن تلمّس ذلك في ما نُقل عن ابن شهاب الزهري (ت. ١٢٤هـ) بخصوص جمع أقوال الصحابة وتدوينها. فوفقًا لهذه الرواية، ينقل صالح بن كيسان (ت. بعد ١٣٠هـ) أنه اجتمع مع الزهري وكتبوا السنن الواردة عن رسول الله ﷺ. ثم اقترح ابن شهاب تدوين أقوال الصحابة أيضًا، إلا أن صالحًا امتنع عن ذلك معللًا بأن أقوالهم ليست جزءًا من السنة؛ لكن ابن شهاب قام بتدوينها، وكان صنيعه هذا سببًا في إقبال الناس عليه^٣. وتكشف هذه الرواية في الوقت نفسه أن أقوال الصحابة لم تكن تُعدّ في تلك الحقبة جزءًا من السنة.

١. حسن بگي، «عدالت صحابه؛ زمينه ها، پيامدها و نتايج»، ١٠٦؛ وانظر: الأحمدي، «الإصابة في عدالة الصحابة»، ١٤٤-١٤٥.

٢. الجويني، البرهان في أصول الفقه، ١: ٢٤٢.

See also Jabali, *The Companions of the Prophet*, 67-68.

٣. «أخبرني صالح بن كيسان، قال: اجتمع أنا والزهري ونحن نطلب العلم فقلنا نكتب السنن. قال: وكتبنا ما جاء عن النبي ﷺ. قال: ثم قال نكتب ما جاء عن الصحابة فإنه سنة. قال: قلت إنه ليس بسنة فلا نكتبه. قال: فكتب ولم أكتب، فأنجح وصُيغت» (ابن سعد، *الطبقات الكبرى*، ٢: ٢٩٦؛ الفسوي، المعرفة والتاريخ، ١: ٦٤١).

ينقسم أصحاب النبي ﷺ إلى فئات عدّة بناءً على أدوارهم التاريخية. وتعود جذور هذا التصنيف إلى عهد خلافة عمر بن الخطاب (حكم ١٣-٢٣هـ)؛ إذ قسّم الصحابة إلى مَنْ شهد بدرًا وَمَنْ لم يشهدها، ووَزّع العطاء من بيت المال على هذا الأساس، مفضّلًا البدرين على غيرهم^١. وفي العصور اللاحقة، صُنّف الصحابة في اثنتي عشرة طبقة مختلفة^٢، منها: العشرة المبشّرون بالجنة، وأهل بدر، وأهل بيعة الرضوان، والمهاجرون، والأنصار^٣.

كتب التراجم وفضائل الصحابة

أفضت العناية الفائقة بمكانة الصحابة إلى انعكاس مآثرهم في المدونات الحديثية لدى أهل السنّة. ويُمكن القول بأنّ كتاب الجامع لمعمر بن راشد (ت. ١٥٣هـ)، يمثّل أوّل مدوّنة حديثيّة خصّصت حيّزًا لذكر مناقب صحابة رسول الله ﷺ^٤. وتلا ذلك تخصيص أبواب لبيان فضائل الصحابة في أمّهات المصادر الحديثية السنية^٥.

وفي منتصف القرن الثالث الهجري، ظهرت مصنّفات مفردة تحت عنوان «فضائل الصحابة»، نذكر منها: فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل، وفضائل الصحابة للنسائي (ت. ٣٠٣هـ)؛ حيث اقتصرت هذه المصنّفات على سرد مناقبهم فحسب. وثمة رافد آخر للتأليف حول صحابة رسول الله ﷺ يُمكن تلمّسه في كتب «الطبقات»؛ حيث

١. أبو يوسف، الخراج، ٥٣-٥٤.

٢. الحاكم النيسابوري، معرفة علوم الحديث، ٢٣-٢٤؛ الخطيب، السنة قبل التدوين، ٣٩٢.

3. Muranyi, "Ṣaḥāba," *EP* 8: 827.

٤. تضمّن هذا الكتاب قسمًا بعنوان «باب أصحاب النبي» (معمر بن راشد، جامع معمر بن راشد، ١١: ٢٢١-٢٤٢).

٥. على سبيل المثال، انظر: ابن أبي شيبة، المصنف، ٦: ٣٠٣-٤١٧؛ البخاري، صحيح البخاري، ٥: ٢-٣٠؛ مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، ٤: ١٨٥٤-١٩٧٣.

صُنِّفَ أصحاب النبي ﷺ في هذه الكتب وفقاً للحقب التاريخية المختلفة ومراتبهم العلمية، مع استعراض سير حياتهم. ويُعدّ كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد (ت. ٢٣٠هـ) أول مصدر متاح تناول سير أصحاب النبي ﷺ، وإن لم يكن الموضوع الرئيسي للكتاب مقتصرًا على حياة الصحابة فحسب.

وفي أعقاب تلك الحقبة، غدا تدوين سير الصحابة محورًا للعديد من المؤلفات التي اختصّت بحياة صحابة رسول الله ﷺ. ويُعتبر كتاب معجم الصحابة لابن قانع البغدادي (ت. ٣٥١هـ) أقدم أثر متوفّر في هذا الباب، إذ قدّم تراجم لأحوال ١٢٢٥ صحابيًا. أمّا أهمّ المصنّفات وأوسعها في هذا المجال فهي: معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني (ت. ٤٣٠هـ)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (ت. ٤٦٣هـ)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (ت. ٦٣٠هـ)، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني (ت. ٨٥٢هـ). وقد أحصت هذه المصنّفات وترجمت لـ ١٤٠٢، و٤٢٢٥، و٧٧٠٣، و١٢٠٠٠ صحابي على التوالي.

عدالة الصحابة من منظور أهل السنّة

يرى أهل السنّة أنّ لا أحدًا من الصحابة يتعمّد الكذب على رسول الله ﷺ قطّ^١، وعليه فإنّ كلّ مَنْ عُدَّ في زمرة صحابة الرسول الأكرم ﷺ، فهو في غنى عن البحث في عدالته^٢. فإذا نُقل حديث عن النبي ﷺ بواسطة أحد الصحابة، فإنّ هذه الرواية تُعدّ معتبرة وحجّة، حتّى وإن جُهل اسم ذلك الصحابي^٣. ووفقًا لما قرّره العلائي (ت. ٧٦١هـ) والعسقلاني (ت. ٨٥٢هـ)، فإنّ هذا الأمر يمثّل مُعتقَد جمهور أهل السنّة في حقّ الصحابة^٤.

١. الرازي، الجرح والتعديل، ١٤: ٢؛ العسقلاني، فتح الباري، ١٨١: ٢.

٢. الأبياري، التحقيق والبيان، ٧٠٩: ٢.

٣. الذهبي، الرواة الثقات، ٢٤؛ الهيثمي، تحفة المحتاج، ١٧١: ٩.

٤. العلائي، تحقيق منيف الرتبة، ٦٠؛ العسقلاني، الإصابة، ٢٥: ١.

بيد أن علماء الشيعة -كما سيأتي لاحقاً- خالفوا الرأي السائد لدى أهل السنة القائل بعدالة جميع الصحابة، ويرون لزوم التمهيص في عدالة الصحابة، شأنهم شأن غيرهم، ولا يُحكم باعتبار مروياتهم إلا بعد ثبوت عدالتهم. وجدير بالذكر أن ثلّة من علماء أهل السنة شاطروا علماء الشيعة الرأي -إلى حدّ ما- في عدم الموافقة على تعميم العدالة على كافّة الصحابة. فعلى سبيل المثال، يذهب المازري (ت. ٥٣٦هـ)، وهو من علماء المالكية، إلى أنّه لا يسوغ الحكم بعدالة كلّ من رأى رسول الله ﷺ للحظة، بل تنحصر العدالة في الصحابة الذين لازموا النبي ﷺ ملازمة تامّة. كما رأى يحيى بن أبي بكر العامري (ت. ٨٩٣هـ)، المؤرّخ والمحدث الشافعي، أنّ بعض صحابة رسول الله ﷺ قد سقطت عدالتهم نظراً لما صدر عنهم من أفعال. وقد تبني ابن العماد (ت. ١٠٨٩هـ) من علماء الحنابلة، هذا الاعتقاد أيضاً^١. ويذهب ابن القطّان البغدادي (ت. ٣٥٩هـ)، أحد فقهاء الشافعية، إلى وجوب البحث في عدالة الصحابة، شأنها في ذلك شأن البحث في عدالة أيّ شخص آخر^٢.

التطور التاريخي لنظرية عدالة الصحابة

استناداً إلى الشواهد التاريخية، لم يكن صحابة رسول الله ﷺ أنفسهم يعتقدون بالعدالة المطلقة لسائر الصحابة؛ إذ تشير الوقائع إلى أنّ بعضهم كان يرمي البعض الآخر بالفسق تارة، أو بمعاداة الله تارة أخرى، بل وصل الأمر إلى اللعن فيما بينهم. فعلى سبيل المثال، اتّهم عمر بن الخطاب المغيرة بن شعبة -وهو معدود من

١. المازري، *إيضاح المحصول*، ٤٨٢؛ العامري، *غربال الزمان*، ٥٦-٥٧؛ ابن العماد، *شذرات الذهب*، ١: ٢٧٩.

٢. الزركشي، *البحر المحيط في أصول الفقه*، ٦: ١٨٧.

الصحابة- بالفسق^١. كما وصف عمرُ خالدَ بن الوليد -وهو صحابي أيضاً- بـ «عدو الله» حينما عاد إلى أبي بكر بعد فراغه من قتل مالك بن نويرة^٢. وورد في بعض الروايات أنَّ علي بن أبي طالب ﷺ لَعَنَ نفرًا من الصحابة، أمثال بُسر بن أرطاة، وعمر بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان^٣. وحينما ذُكر أبو موسى الأشعري -المعدود من الصحابة- بوصفه رجلاً مؤمناً، استشاط حُذيفة بن اليمان -وهو صحابي أيضاً- غضباً وقال: «أما أنتم فتقولون ذلك، وأما أنا فأشهد أنه عدوُّ الله ولرسوله وحربٌ لهما في حياة الدنيا»^٤. وفي سياق وقائع كتابة وثيقة التحكيم في حرب صفين، اعتبر علي بن أبي طالب ﷺ في قول له أنَّ معاوية وأنصاره قد خرجوا من ربة الإسلام^٥. وهذا في حين أنَّ معسكر معاوية كان يضمُّ جمعاً من الصحابة^٦. وفي حديث يتعلّق بطلب ميراث رسول الله ﷺ إِبَّانَ خلافة عمر، والذي طالب به العباس -عمّ النبي ﷺ- وأمير المؤمنين ﷺ، صرّح عمر بوضوح عن رأيها فيه وفي أبي بكر، قائلاً: «فرأيتماه كاذباً آثماً غادرًا خائناً... ورأيتاني كاذباً آثماً غادرًا خائناً»^٧.

ما هذه إلا نزر يسير من الأخبار الواصلة إلينا حول نظرة الصحابة لبعضهم

١. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢: ١٥٥.

٢. ابن الأثير، أسد الغابة، ٤: ٢٧٧.

٣. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢: ١٨ و ٢٦٠.

٤. م. ن. ٣١٤-٣١٥.

٥. «فقال علي: ما أفر لمعاوية ولا لأصحابه أنهم مؤمنون ولا مسلمون» (م. ن. ٢: ٢٣٤).

٦. أحصى الذهبي (ت. ٧٤٨هـ) عشرة من الصحابة ممَّن كانوا في جيش معاوية (الذهبي، تاريخ الإسلام، ٣: ٥٤٧).

٧. مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، ٣: ١٣٧٨؛ البيهقي، السنن الكبرى، ٦: ٢٩٨؛ الصالحى الشامى، سبل الهدى، ١٢: ٣٧١.

البعض، وهي تكشف عن تلقّيهم لمفهوم «عدالة الصحابة»^١. وبتمحيص هذه الوقائع، يتّضح أنّ بعض الصحابة لم يكونوا يرون عدالة البعض الآخر فحسب، بل كانوا يرونهم مستحقّين للنار.

وعند العودة إلى المصادر الأولية في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، لا نكاد نعثر على نظرية «عدالة الصحابة» بالصيغة التي اعتقد بها أهل السنّة في العصور اللاحقة؛ إذ انصبّت معظم الآراء حول الصحابة واحترامهم على مسألة «عدم جواز سبّهم». فعلى سبيل المثال، عدّ مالك بن أنس (ت. ١٧٩هـ) من يسبّ الصحابة خارجاً عن الدين^٢، كما وصف أبو زرعة الرازي (ت. ٢٦٤هـ) سابّ الصحابة بالزنديق^٣. ولا نلمح في مؤلّفات تلك الحقبة طرْحاً لعدالة الصحابة في قالب «نظرية» متكاملة، كما لا نجد في مصادر تلك الفترة سعيّاً لإثباتها. أمّا الأحاديث التي استند إليها في العصور اللاحقة لإثبات هذه النظرية، فقد كانت تُروى في أبواب مثل «ما ذُكر في الكفّ عن أصحاب النبي»^٤، و«الفضائل»^٥، أو في مصنفات مفردة تحت عنوان «فضائل الصحابة».

يُعدّ ابن حبان (ت. ٣٥٤هـ)^٦ والجصاص (ت. ٣٧٠هـ)^٧ من أوائل من تناولوا

١. راجع: حسن بگي، «عدالت صحابه؛ زمينه ها، پيامدها و نتايج»، ١١٢-١١٥.

٢. القاضي عياض، ترتيب المدارك، ٤٦: ٢.

٣. ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ٣٨: ٣٢.

٤. ابن أبي شيبة، المصنف، ٤٠٤: ٦.

٥. معمر بن راشد، جامع معمر بن راشد، ١١: ٥٩-٦٥ «باب في فضائل الأنصار» و«فضائل قريش والأنصار وثقيف»؛ ابن أبي شيبة، المصنف، ٦: ٣٠٣-٤١٧ «كتاب الفضائل»؛ البخاري، صحيح البخاري، ٥: ٢-٧١ «كتاب أصحاب النبي» و«كتاب مناقب الأنصار»؛ مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، ٤: ١٨٥٤-١٩٧٣ «كتاب فضائل الصحابة»؛ ابن ماجه، سنن ابن ماجه، ١: ٧٠-١١٦ «باب في فضائل أصحاب رسول الله».

٦. ابن حبان، صحيح ابن حبان، ١: ١٦٢.

٧. الجصاص، أحكام القرآن، ١: ١١١.

مسألة عدالة الصحابة في آثارهم^١. ومن بعدهما، جرت محاولات لإقامة الأدلة على عدالة الصحابة بالاستناد إلى بعض الآيات القرآنية وطائفة من الأحاديث النبوية^٢.

أدلة أهل السنة على عدالة الصحابة

من الحجج التي ساقها أهل السنة للذود عن حياض عدالة الصحابة، القول بأن الصحابة هم الوسطة في نقل السنة النبوية؛ وبناءً على زعمهم، فإن القدح في عدالتهم وعدم توثيقهم يفضي إلى زعزعة الثقة بهذه الوسطة، وهو ما يؤول بالنتيجة إلى ضياع السنة^٣.

ولئن بدا هذا الهاجس وجيهاً للوهلة الأولى، إلا أن هذا المحذور لا يقع -أولاً- إلا إذا نفينا العدالة عن «كافة» الصحابة؛ أما لو اقتصر الأمر على القول بعدم عدالة «نفر» منهم، فلن تكون السنة بأسرها عرضة للتشكيك. وثانياً، لو عدنا الوسطة في نقل السنة دليلاً موجباً للعدالة، للزمنا الحكم بعدالة كل من روى حديثاً عن رسول الله ﷺ -سواء كان صحابياً أو تابعياً أو راوياً للحديث- وصولاً إلى يومنا هذا؛ وهو أمر لم يذهب إليه أحد.

وقد استدلل أهل السنة لإثبات معتقدهم في عدالة جميع الصحابة بأدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية. وفي هذا الصدد، يقول عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري، المشهور بـ«ابن الصلاح» (ت. ٦٤٣هـ): «لصحابة بأسرهم خصيصة، وهي أنه لا

١. للمزيد من المعلومات، راجع:

Osman, "Adālat al-Ṣaḥāba: The Construction of a Religious Doctrine."

٢. على سبيل المثال، انظر: أبو نعيم الأصبهاني، معرفة الصحابة، ١: ٣٢-٤٧؛ الخطيب البغدادي، الكفاية، ٤٦-٤٩؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، ١: ١٨-١؛ العسقلاني، الإصابة، ١: ١٦٢-١٦٦.

٣. الخطيب البغدادي، الكفاية في علم الرواية، ٤٩.

يُسأل عن عدالة أحد منهم، بل ذلك أمرٌ مفروغٌ منه، لكونهم على الإطلاق معدّلين بنصوص الكتاب والسنة وإجماع مَنْ يعتدّ به في الإجماع»^١.

الأدلة القرآنية

استُدلّ في مصادر أهل السنة ببعض الآيات القرآنية لإثبات عدالة جميع الصحابة، وسنستعرض فيما يلي أهمها:

١. ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالَّذِينَ تَبَعُواهُمْ يَخْصَوْنَ اللَّهَ تَعَالَى اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ١٠٠).

تعدّ هذه الآية من أهم الآيات التي يُستند إليها في إثبات عدالة كافة الصحابة^٢. وبيان ذلك أنّ الله تعالى قد أبدى في هذه الآية رضاه عن المهاجرين والأنصار الأوائل، وعن سائر الصحابة الذين آمنوا من بعدهم، ووعدهم بالجنة. وبناءً على ذلك، فإنّ الصحابة جميعاً قد حازوا رضا الله، وسيكون مألهم الجنة^٣.

لكنّ هذا الاستدلال مخدوش من عدّة وجوه:
أولاً: من الواضح أن تعبير ﴿السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ لا يشمل جميع الصحابة؛ إذ ورد في بعض الروايات تفسير هذا التعبير بعليّ عليه السلام ونفر من قريش ممن شهدوا وقعة بدر^٤.

١. ابن الصلاح، مقدمة ابن الصلاح، ٢٩٦.

٢. انظر: السمعاني، قواعد الأدلة، ١: ٣٦٣؛ السمرقندي، ميزان الأصول، ٤٨٥؛ ابن قدامة المقدسي، روضة الناظر، ١: ٣٤٥؛ العلائي، تحقيق منيف الرتبة، ٦٣؛ السخاوي، فتح المغيث، ٤: ٩٤.

٣. العلائي، تحقيق منيف الرتبة، ٦٣.

٤. للاطلاع على الأقوال في هذا الشأن، انظر: الطبري، جامع البيان، ١١: ٦؛ الزمخشري، الكشاف، ٢: ٣٠٤.

٥. مقاتل، تفسير مقاتل، ٢: ١٩٢؛ الحسكاني، شواهد التنزيل، ١: ٣٣٤.

ثانيًا: إنَّ المراد من عبارة ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ ليس بينًا على وجه القطع. وقد ذكر البعض احتمالين في ذلك: الأول، أنَّ مصداق هذا التعبير هو طبقة «التابعين»، أي الذين أدركوا صحابة النبي ﷺ فحسب. والثاني، أنَّ المقصود بهذه العبارة عامّة الناس منذ زمن رسول الله ﷺ إلى يوم القيامة^١. ومن المعلوم أنَّه لم يدع أحدٌ العدالة للتابعين ولا لعمامة الناس إلى يوم القيامة. وعليه، فلا يُمكن إثبات عدالة جميع الصحابة وفقًا لأيٍّ من هذين الاحتمالين. وحتى لو افترضنا جدلاً أنَّ تعبير ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ لا يشمل غير الصحابة، فإنَّه لا يُمكن القبول بالقول بعدالة كافّة الصحابة استنادًا إلى هذه الآية؛ ذلك أنَّ رضا الله هنا قد شُرِّط بـ«الاتباع بإحسان»، وما لم يُحرز تحقق هذا الشرط لا يُمكن الحكم برضا الله عنهم.

ثالثًا: بقرينة الآية التالية، كان ثمة منافقون من أهل المدينة ومن الأعراب ممن لم يكن رسول الله ﷺ يعرفهم^٢. وكون رسول الله ﷺ لا يعرف هؤلاء الأفراد، يُبطل الاحتمال القائل بأنَّ المقصود من «أهل المدينة» في سياق النفاق، هم الذين تخلفوا عن مرافقة النبي ﷺ في غزوة تبوك أو الذين حاولوا اغتياله في طريق العودة^٣؛ إذ إنَّ أفراد هاتين الفئتين كانوا معروفين لدى رسول الله ﷺ، وهذه الآية من الآيات التي نزلت بعد تلك الوقائع^٤. وبناءً على ذلك، تُظهر هذه الآية أنَّه كان بين «صحابة رسول الله ﷺ» في السنوات الأخيرة من حياته، نفرٌ لم يتطرَّق النفاق إلى قلوبهم فحسب، بل مردوا عليه واعتادوه. وهذه الآية تضع نظرية عدالة الصحابة أمام تحدٍّ جذري يهدد أساسها.

١. ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم، ٦: ١٨٦٨-١٨٦٩.

٢. ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ خُحْنٌ تَعْلَمُهُمْ...﴾ (التوبة: ١٠١).

٣. العلائي، تحقيق منيف/الرتبة، ٦٣.

٤. نزلت هذه الآية في سنة ١٠ هـ (انظر: الواقدي، كتاب المغازي، ٣: ١٠٢٢-١٠٢٥).

٢. ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣).

فسر البعض لفظة «وسطاً» في هذه الآية بمعنى «العدل»^١، واستناداً إلى هذا المعنى، استدلّ بالآية على عدالة الصحابة أجمعين. وبيان ذلك: بما أنّ وصف «الوسط» جاء نعتاً للأمة، فيقتضي ذلك أن يكونوا خير الأمم وأعدلها. وتشمل العدالة، وفقاً لهذا الافتراض، أفعالهم وأقوالهم ونياتهم^٢.

كما عدّ البعض هذه الآية مدحاً لطبقة الصحابة؛ فيما أثّم وُصفوا في لسان القرآن بأثمهم ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، فإنّه يجب قبول أقوالهم كافة^٣. ويرى هؤلاء أنّ المخاطبين في هذه الآية هم الصحابة؛ إذ نزلت في زمانهم، وبما أنّ الصحابة وحدهم هم من وُصفوا بصفات الكمال هذه، فإنّ الآية تختصّ بهم وتدلّ على عدالتهم^٤.

لكن الاستدلال بهذه الآية محلّ نظر ومناقشة من عدة وجوه:

أولاً: لا دليل على تخصيص الخطاب في الآية بالصحابة دون غيرهم. فقد ذهب الطبري (ت. ٣١٠هـ) إلى أنّ الخطاب في الآية موجه لجميع المؤمنين بالنبي ﷺ وبرسالته، وليس لفئة محدّدة عاصرتة^٥. كما رأى فخر الدين الرازي (ت. ٦٠٦هـ) أنّ الآية تخاطب الأمة الإسلامية جمعاء، وربط دالّتها بمسألة الإجماع^٦.

وبما أنّ المخاطب هو عامّة أمة النبي ﷺ، فإنّ جعلهم شهداء لا يصلح دليلاً على

١. مجاهد، تفسير مجاهد، ٢١٥؛ مقاتل، تفسير مقاتل، ١: ٥٠٠.

٢. السفاريني، لوامع الأنوار، ٢: ٣٨٤.

٣. الجصاص، أحكام القرآن، ١: ١١١.

٤. الشاطبي، الموافقات، ٤: ٤٤٨-٤٤٩.

٥. الطبري، جامع البيان، ٢: ٥.

٦. الفخر الرازي، التفسير الكبير، ٤: ٨٦.

عدالتهم؛ إذ من البديهي عدم عدالة جميع أفراد الأمة الإسلامية، وهو أمر لا يعتقده أحد. وعليه، يجب حمل الشهادة المشار إليها في الآية على الشهادة اللفظية أو الحضور، أي الشهادة على الأعمال والسلوك؛ كما أشير في بعض الآيات^١ إلى شهادة الجوارح والأعضاء يوم الحساب^٢.

ثانيًا: فسر الطبري «الوسط» في هذه الآية بمعنى «المعتدل»، موضحًا أن وجه وصف الأمة الإسلامية بالاعتدال هو أن المسلمين -خلافًا للنصارى واليهود- ليسوا أهل غلو ولا تقصير^٣. وكذلك ذهب الزمخشري (ت. ٥٣٨هـ) إلى أن «الوسط» يعني وسط الشيء، دون أن يشير إلى المعنى الاصطلاحي للعدالة^٤.

٣. ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح: ١٨).

تعدّ هذه الآية، التي نزلت في شأن صلح الحديبية والمشاركين في بيعة الشجرة، من الآيات التي استدلت بها لإثبات نظرية عدالة الصحابة^٥. وقد قرّر وجه الاستدلال بهذه الآية بأن الله تعالى قد أعرب عن رضاه عن المشاركين في هذه البيعة، وبما أن المولى

١. النور: ٢٤؛ يس: ٣٦.

٢. فُسرت «الأمة الوسط» و«الشهداء على الناس» في الروايات الشيعية بالأئمة (على سبيل المثال، انظر: الصفار، بصائر الدرجات، ١: ٨٣؛ الكليني، الكافي، ١: ١٩١).

٣. الطبري، جامع البيان، ٢: ٥. لا يلاحظ في توضيحات الطبري ذيل هذه الآية أي أثر لاعتقاده بنظرية عدالة الصحابة بالصيغة التي طُرحت لاحقًا، كما لا يوجد فيه الاستدلال بهذه الآية على عدالة الصحابة.

٤. الزمخشري، الكشاف، ١: ١٩٨.

٥. ابن حزم، الرسالة الباهرة، ٩؛ الجويني، البرهان في أصول الفقه، ١: ٢٣٩؛ السمعاني، قواطع الأدلة، ١: ٣٦٣؛ الغزالي، المستصفى، ١٣٠؛ الفخر الرازي، المحصول، ٤: ٣٠٧؛ ابن قدامة المقدسي، روضة الناظر، ١: ٣٤٦؛ العلائي، تحقيق منيف الرتبة، ٦٥؛ السخاوي، فتح المغيث، ٤: ٩٤.

سبحانه لا يرضى عن الفاسقين، فإنّ هذا الرضا يستلزم القول بعدالة الصحابة^١. كما عدّ البعض عبارة ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ دليلاً على بصيرة الصحابة وإخلاص نيّاتهم^٢. وذهب فريق آخر إلى أنّ مَنْ رضي الله عنه، لا بدّ أن يموت مسلماً؛ لأنّ الله رضي عنه لعلمه بأنّه سيموت على الإسلام^٣.

والواقع أنّ الاستدلال بهذه الآية يواجه إشكالات من عدّة وجوه:
أولاً: تفيد الأخبار التاريخية بأنّ عدد المسلمين الذين خرجوا من المدينة قاصدين الحديبية تراوح بين ٧٠٠ و ١٤٠٠ شخص^٤، وهذا العدد لا يشمل -قطعاً- جميع الصحابة. وكما أشرنا آنفاً، فقد أحصى المؤلّفون عدد الصحابة بما يناهز ١٢٠٠٠ صحابي؛ وهو رقم لا يتناسب البتّة مع عدد الحاضرين في صلح الحديبية ليشملهم جميعاً.

ثانياً: ورد في الآية ٢٩ من السورة ذاتها بيان لبعض صفات صحابة رسول الله ﷺ، حيث حُتِمت بالإشارة إلى أنّ الله وَعَدَ بالمغفرة والأجر العظيم للذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم فحسب^٥. وتوضح هذه الآية بجلاء أنّ الجنة لا تُنال إلا بالعمل الصالح، وهذا الشرط ينسحب على الصحابة أيضاً.

ثالثاً: إنّ البراء بن عازب (ت. ٧٢هـ) -وهو ممّن حضر هذه البيعة بنفسه- لم يستنبط نظرية عدالة الصحابة من هذه الآية، بل إنّّه حينما مدحه أحدهم لرؤيته رسول

١. الطوفي الصرصري، شرح مختصر الروضة، ٢: ١٨١.

٢. الجصاص، أحكام القرآن، ٥: ٢٧٣.

٣. الهيثمي، الصواعق المحرقة، ٢: ٦٠٥.

٤. ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٣٠٩.

٥. ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح: ٢٩).

الله ﷺ وحضوره بيعة الشجرة، قال له: «إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثْنَا بَعْدَهُ»^١. وقد وردت أخبار تاريخية مشابهة لهذا القول عن أبي سعيد الخدري (ت. ٧٤هـ) أيضًا^٢. ويدل ذلك على أنَّ الصحابة الذين حضروا هذه البيعة أنفسهم لم يكونوا يرون في هذه الآية دليلًا على عدالة الصحابة.

كذلك استُدلَّ في مصادر أهل السنة بآيات أخر في سياق إثبات نظرية عدالة الصحابة^٣. بيد أنَّ هذه الآيات لا يُمكن أن تفيد العموم أو تدلَّ على عدالة جميع الصحابة، وذلك بالنظر إلى التوبيخات القرآنية الموجهة إليهم، وما سُجلَّ على بعض صحابة رسول الله ﷺ من نكثٍ للعهود، فضلًا عن الإشارات المتكررة لتيّار النفاق الذي كان يسري في مجتمع ذلك العصر، دون التصريح بأسماء المنافقين. كما تكشف هذه الآيات أنَّ مجتمع تلك الحقبة لم يكن ذلك المجتمع المثالي الخالي من العيوب والنقائص، كما صُوِّرَ لاحقًا في المصادر.

ففي بعض الآيات، وَرَدَ ذَمٌّ لسوء سلوك نفر من الصحابة وعدم رسوخ إيمانهم. ومن خلال بعض آيات سورة الأنفال التي نزلت في شأن غزوة بدر في السنة الثانية للهجرة، يُمكن قياس سلوك الصحابة ومدى اعتقادهم برسول الله ﷺ. فقد جاء في مطلع هذه السورة قوله تعالى: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (الأنفال: ٦). وتُظهر هذه الآية أنَّ صحابة رسول الله ﷺ ظلُّوا يجادلون النبي ﷺ حتَّى بعد أن تبَيَّنَ لهم الحق.

١. انظر: البخاري، صحيح البخاري، ١٢٥: ٥.

٢. ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ٣٩١: ٢٠؛ العسقلاني، الإصابة، ٦٧: ٣.

٣. من جملة هذه الآيات يمكن الإشارة إلى: آل عمران: ١١٠؛ الأنفال: ٧٤؛ التوبة: ١١٧؛ النمل: ٥٩؛

الحديد: ١٠؛ الحشر: ٨.

٤. الواقدي، كتاب المغازي، ١: ١٣١-١٣٨؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٦٦٦-٦٧٧.

وفي أحداث غزوة أحد، خذل كثير من الصحابة النبي ﷺ وتركوه وحيداً، ولم يثبت معه إلا قلة قليلة؛ وقد وردت أسماء هؤلاء الثابتين في بعض المصادر^١. ويصف القرآن وقائع أحد بقوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ...﴾ (آل عمران: ١٥٣). وهنا بيان واضح بأن أصحاب النبي ﷺ كانوا يفرون مصعبين في الجبل دون أن يلتفتوا إلى أحد، في حين كان رسول الله ﷺ يناديهم في أخراهم.

وفي الآية التي تليها، يصف الله تعالى حال بعض الصحابة ممن شهدوا تلك الغزوة: ﴿... وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ... يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا...﴾ (آل عمران: ١٥٤). وتشير هذه الآية إلى أن قسماً من هؤلاء الصحابة -رغم فرارهم- قد شرعوا في لوم رسول الله ﷺ، ولم يكن يعينهم سوى نجاة أنفسهم.

ونزلت طائفة من آيات سورة الأحزاب في شأن غزوة الخندق في السنة الخامسة للهجرة^٢. ففي إحدى الآيات، صُوِّرَ حال المسلمين عند بدء حصار المشركين وحلفائهم للمدينة كالتالي: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ (الأحزاب: ١٠). تبين هذه الآية مدى الرعب الذي استبدَّ بغالبيَّة المسلمين من مواجهة المشركين، حتَّى ترعزع إيمانهم من شدة الخوف، وظنُّوا بالله وبرسوله ﷺ الظنون.

١. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢: ٥٢٢؛ الطبري، جامع البيان، ٤: ٩٥-٩٦؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، ٣: ١٠٧٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٤: ٢٨؛ السيوطي، الدر المنثور، ٢: ٨٨؛ الصالحى الشامى، سبل الهدى، ٤: ٢٠٦.

٢. انظر: الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٤٩٤-٤٩٥.

وفي الآية ٢٥ من سورة التوبة، جاء الحديث عن معركة حنين على النحو التالي:
 ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ
 عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْبِرِينَ﴾. وتنبئ هذه
 الآية بوضوح عن فرار المسلمين في معركة حنين.

كما نزلت طائفة من آيات سورة التوبة في شأن غزوة تبوك وتناقل صحابة
 رسول الله ﷺ عن الخروج من المدينة^١. فقد قرع الله تعالى في بعض الآيات أصحاب
 النبي ﷺ بسبب تباطؤهم في النفير نحو تبوك قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا
 قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْخُذْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ
 فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (التوبة: ٣٨). ثم توعدهم بشدة بأنه إن لم
 ينفروا للحرب، فسيعذبهم عذاباً أليماً ويستبدل بهم قومًا غيرهم. وفي الآية ٤٠، وعبر
 بيان بعض صور التأيد الإلهي لرسول الله ﷺ، ذكرهم الله بأن نبيه ﷺ في غنى عن أمثال
 هؤلاء: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾.

وفي السياق ذاته، أشارت بعض الآيات إلى الأعداء^٢ التي تدرع بها الصحابة لعدم
 الخروج مع النبي ﷺ: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبْعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ
 عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ
 يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (التوبة: ٤٢)، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ إِذْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ
 سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (التوبة: ٤٩). وتكشف هذه الآيات أن نفراً من
 الصحابة كانوا يحلفون بالله كذباً في محضر رسول الله ﷺ، تهرباً من المشاركة في غزوة
 تبوك.

١. انظر: م. ن. ٣: ١٠٢٢-١٠٢٥.

٢. تمت الإشارة إلى هذه الأعداء في بعض المصادر. على سبيل المثال، انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ٢:

لا تقتصر السلوكيات الناشئة عن عدم استقرار الإيمان لدى الصحابة على الآيات آنفة الذكر وحسب؛ إذ تشير نصوص قرآنية أخرى إلى أن نفرًا من أصحاب النبي ﷺ أثروا الحياة الدنيا على المشاركة في الجهاد، وتعرضوا للتوبيخ بسبب عصيانهم لرسول الله ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (النساء: ٧٧). ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ﴾ (محمد: ٢٠).

وتُظهر آيات أخرى أن فريقًا من الصحابة كانوا يرتضون التحاكم إلى غير الرسول الأكرم ﷺ لفرض نزاعاتهم، وقد قرعهم القرآن على ذلك بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (النساء: ٦٠).

كما لمز بعض الصحابة النبي ﷺ في قسمة الصدقات، ناظرين فحسب إلى مصالحهم الشخصية والمادية: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ (التوبة: ٥٨).

ولم يراع بعض الصحابة آداب الحضور بين يدي النبي ﷺ، فحذَّره الله تعالى من مغبة ذلك بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (الحجرات: ٢).

ما سلف ذكره لم يكن سوى نزرٍ يسيرٍ من الآيات القرآنية التي تضمنت لومًا لصحابة رسول الله ﷺ. وبأخذ هذه الآيات بعين الاعتبار، يغدو الحكم بالعدالة المطلقة لجميع الصحابة أمرًا غير مقبول.

الأدلة الروائية

لم يقتصر استدلال أهل السنة في مصادرهم لإثبات نظرية عدالة الصحابة على الآيات القرآنية فحسب، بل استندوا أيضًا إلى طائفة من الروايات. ويمكن تصنيف هذه الروايات على النحو التالي:

أ) الروايات التي تصف الصحابة بأنهم خير الناس: ومن جملة هذه الروايات: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي»^١، و«خَيْرُكُمْ قَرْنِي»^٢، و«خَيْرُ أُمَّتِي الْقَرْنُ الَّذِي بُعِثْتُ فِيهِمْ»^٣، و«سَأَلَ رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ: أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: الْقَرْنُ الَّذِي أَنَا فِيهِ...»^٤، و«إِنَّكُمْ تُوَفُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^٥، و«كُنَّا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ أَلْفًا وَأَرْبَعَ مِائَةٍ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ: أَنْتُمْ الْيَوْمَ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ»^٦. ووجه

١. ابن أبي شيبة، المصنف، ٦: ٤٠٤-٤٠٥؛ أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ٦: ٧٦ و ٣٠: ٢٩٢ و ٣٣: ٥٣؛ البخاري، صحيح البخاري، ٣: ١٧١ و ٥: ٣ و ٨: ٩١.

٢. ابن الجعد، مسند ابن الجعد، ١٩٦؛ ابن أبي شيبة، المصنف، ٦: ٤٠٤؛ البخاري، صحيح البخاري، ٨: ٩١ و ١٤١.

٣. معمر بن راشد، جامع معمر بن راشد، ١١: ٨٧؛ الطيالسي، مسند أبي داود الطيالسي، ١: ٢٩٣؛ البخاري، صحيح البخاري، ٥: ٢.

٤. ابن أبي شيبة، المصنف، ٦: ٤٠٤؛ أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ٤٢: ١٣٢؛ مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، ٤: ١٩٦٥.

٥. ابن المبارك، مسند الإمام عبد الله بن المبارك، ٦٥؛ أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ٣٣: ٢١٩ و ٢٢٨؛ الكشي، المنتخب من مسند عبد بن حميد، ١٥٥.

٦. سعيد بن منصور، سنن سعيد بن منصور، ٢: ٣٦٦؛ ابن أبي شيبة، المصنف، ٧: ٣٨٥؛ أحمد بن حنبل،

الاستدلال بهذه الروايات هو أن المراد بـ«القرن» هم صحابة رسول الله ﷺ، وحيث إن لفظ «الخير» قد ورد مطلقاً، فإنه يشمل العدالة أيضاً^١.

ب) الروايات التي توصي بالإحسان إلى الصحابة وتحرم سبهم: ويمكن الإشارة في هذا الصدد إلى حديثين: «خَطَبَ عُمَرُ النَّاسَ بِالْجَابِيَةِ، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَامَ فِي مِثْلِ مَقَامِي هَذَا فَقَالَ: أَحْسِنُوا إِلَى أَصْحَابِي...»^٢، و«لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ»^٣. ووجه الاستدلال هنا هو أن الأحاديث تارة توصي بالإحسان إلى الصحابة، وتارة أخرى تنهى عن سبهم. وبما أن القول بعدالة الصحابة هو ضرب من الإحسان إليهم، وجواز سبهم مؤثر على عدم عدالتهم؛ فإن عدالتهم تثبت بمقتضى التوصية بالإحسان إليهم والنهي عن سبهم الذي يساق نفي العدالة^٤.

ج) الروايات التي تعدّ الصحابة أماناً للأمة: «النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ؛ فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءُ مَا تُوعَدُ. وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي؛ فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ. وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي؛ فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ»^٥. استخدمت لفظة

مسند أحمد، ٢٢: ٢١٥؛ انظر أيضاً: البخاري، صحيح البخاري، ٥: ١٢٣.

١. العلائي، تحقيق منيف الرتبة، ٧٢؛ النووي، المنهاج، ١٦: ٨٤؛ السخاوي، فتح المغيث، ٤: ٩٦.

٢. أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ١: ٣١٠؛ النسائي، السنن الكبرى، ٨: ٢٨٤.

٣. الطيالسي، مسند أبي داود الطيالسي، ٣: ٦٣٧؛ ابن أبي شيبة، المصنف، ٦: ٤٠٤؛ أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ١٧: ١٣٧؛ البخاري، صحيح البخاري، ٥: ٨.

٤. العلائي، تحقيق منيف الرتبة، ٦٦.

٥. أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ٣٢: ٣٣٥-٣٣٦؛ الكشي، المنتخب من مسند عبد بن حميد، ١٩٠؛ مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، ٤: ١٩٦١؛ انظر أيضاً: ابن أبي شيبة، المصنف، ٦: ٤٠٤.

«أَمَنَةٌ» كمصدر بمعنى الأمن^١؛ وقد فُسِّرَت عبارة «أصحابي أمانة لأمتي» بأنه ما دام الصحابة بين ظهري الناس، فإن الدين قائم والحق ظاهر^٢. ومن جهة أخرى، لا يُوصَف مَنْ ليس عادلاً بصفة «الأَمَنَةِ»^٣؛ وعليه، فإن أصحاب النبي ﷺ كلهم عدول.

(د) الروايات الدالة على تبليغ الشاهد للغائب: في حجة الوداع، وبين جمع غفير من المسلمين، قال النبي ﷺ بعد خطبته: «... يُبَلِّغُ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَإِنَّهُ رُبَّ مُبَلِّغٍ يُبَلِّغُهُ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ...»^٤. وقد استدلل البعض بهذا الحديث على عدالة الصحابة؛ فيما أن الصحابة أصبحوا واسطة لنقل الحديث إلى الغائبين، فهم جميعاً عدول؛ إذ لو كان بينهم مَنْ ليس عادلاً لوجب استثناؤه^٥.

على الرغم من أن سلسلة أسانيد جُلِّ هذه الروايات تشتمل على رواة ضعاف ومجاهيل، مما يقدح في اعتبارها وصحتها، إلا أن ما يضع هذه الروايات -أو فهم أهل السنة لها- أمام تحدٍّ أخطر، هو تعارض مضامينها مع آيات القرآن الكريم. إذ سبقت الإشارة إلى أنه، وبناءً على آيات قرآنية عديدة نزلت في مواطن ومناسبات شتى، لا يمكن الركون إلى الاعتقاد بعدالة ونزاهة جميع الصحابة.

وفضلاً عن تعارض مضمون الأحاديث آفة الذكر مع بعض الآيات القرآنية، فقد ورد في المصادر الحديثية لأهل السنة أنفسهم حديث هام عن رسول الله ﷺ يتنافى

١. ابن منظور، لسان العرب، ١٣: ٢١.

٢. القرطبي، المفهم، ٦: ٤٨٥.

٣. الطوفي الصرصري، شرح مختصر الروضة، ٢: ١٨٣.

٤. أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ٣٤: ٢٣-٢٤ و ٢٩٩؛ الدارمي، سنن الدارمي، ٢: ١٢٢٠؛ البخاري،

صحيح البخاري، ٢: ١٧٦؛ مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، ٣: ١٣٠٥.

٥. ابن حبان، صحيح ابن حبان، ١: ١٦٢.

٦. راجع: فهيمي تبار وآذرى فرد، «تأملی در اسناد احادیث ناظر به عدالت صحابه».

مع القول بعدالة الصحابة أجمعين. حيث جاء في هذا الحديث أن النبي ﷺ يقول: «يُذَادُ رَهْطٌ مِنْ أَصْحَابِي عَنْ الْخَوْضِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أَصْحَابِي أَصْحَابِي، فَيَأْتِي النِّدَاءُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، إِنَّهُمْ ارْتَدَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمُ الْقَهْقَرَى مَذْفَرَقَتَهُمْ».

وقد نُقِلَ هذا الحديث بألفاظ شتى عن طريق كلٍّ من: أبي هريرة^١، وابن عباس^٢، وابن مسعود^٣، وحذيفة بن اليمان^٤، وأبي بكرة (نفيح بن الحارث)^٥، وأبي سعيد الخدري^٦، وأنس بن مالك^٧، وسهل بن سعد الساعدي^٨، وأم سلمة^٩، وعمر بن الخطاب^{١٠}، وأسماء بنت أبي بكر^{١١}. وبالنظر إلى تعدد طرقه، يُعدّ هذا الحديث معارضاً لنظرية عدالة جميع الصحابة وللأدلة الحديثية التي سيقّت لإثباتها.

١. نموذجاً لذلك، راجع: معمر بن راشد، جامع معمر بن راشد، ١١: ٤٠٦؛ البخاري، صحيح البخاري، ١٢٠: ٨؛ مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، ١: ٢١٧.
٢. نموذجاً لذلك، راجع: الطيالسي، مسند أبي داود الطيالسي، ٤: ٣٦٢؛ البخاري، صحيح البخاري، ٦: ٥٥ و ٩٧ و ٨: ١٠٩؛ مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، ٤: ٢١٩٤.
٣. نموذجاً لذلك، راجع: ابن أبي شيبة، مسند ابن أبي شيبة، ١: ١٦٣؛ البخاري، صحيح البخاري، ٨: ١١٩ و ٩: ٤٦؛ مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، ٤: ١٧٩٦؛ ابن ماجه، سنن ابن ماجه، ٤: ٢٤٥.
٤. نعيم بن حماد، الفتن، ٨٧؛ ابن أبي شيبة، المصنف، ٧: ٤٥٥؛ أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ٣٨: ٣٢٦ و ٣٦٣ و ٤٠٣.
٥. ابن أبي شيبة، المصنف، ٦: ٣٠٧؛ أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ٣٤: ١٣٣ و ١٤٣.
٦. البخاري، صحيح البخاري، ٨: ١٢٠.
٧. أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ١٩: ٥٤ و ٢١: ٤٠٦؛ الكشي، المنتخب من مسند عبد بن حميد، ٣٦٥؛ البخاري، صحيح البخاري، ٨: ١٢٠؛ مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، ٤: ١٨٠٠.
٨. أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ٣٧: ٥١٤.
٩. مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، ٤: ١٧٩٥.
١٠. يعقوب بن شيبة، مسند عمر بن الخطاب، ٨٤.
١١. م. ن. ٩٣.

وفي طائفة أخرى من الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ، نجد أنه لم يعطِ ضماناً بالفلاح لأيٍّ من الصحابة. وعلى سبيل المثال، حينما شهد النبي ﷺ بإيمان شهداء أحد، سأله بعض الصحابة: «ألَسنا إخوانهم؟ أَسلمنا كما أَسلموا، وجاهدنا كما جاهدوا؟»، فأجاب رسول الله ﷺ: «بلى، ولكن لا أدري ما تحدثون بعدي!»^١.

ومن جانب آخر، وفيما يتعلّق بكون الصحابة واسطة في نقل الحديث ودلالة ذلك على عدالتهم، يمكن القول إنّه ورد في بعض الأحاديث المنقولة عن النبي ﷺ في حجة الوداع، تحذيره للصحابة من الكذب عليه^٢. وهذا الأمر يدلّ على عدم صحّة الاستدلال بالأحاديث الدالّة على واسطة الصحابة في النقل، لإثبات عصمتهم من الخطأ في الرواية.

وثمة ملاحظة أخرى تتعلّق بالأحاديث المؤيِّدة لنظرية عدالة الصحابة، وهي دلالتها. فحتّى لو افترضنا اعتبار هذه الأحاديث، لا يُمكن استنباط عدالة جميع الصحابة منها؛ بل إنّ ما يُستفاد من المعنى الظاهر والصريح لألفاظ الروايات المذكورة، هو لزوم احترام الصحابة والكفّ عن سبّهم. وهو معنى لا يرادف بلا ريب عدالة كافّة الصحابة، ولا يستلزم القبول المطلق لجميع مروياتهم وأعمالهم دون تمحيص.

الصحابة في العهد النبوي

تسعى بعض الأحاديث والروايات التاريخية إلى تصوير حياة الصحابة على أنّها حقبة منزّهة عن أيّ سوء سلوك أو ضعف في العقيدة أو زلل. وقد تمسّك فريق بهذه المرويات

١. مالك، الموطأ، ٢: ٤٦١؛ انظر أيضاً: ابن المبارك، الزهد والرفائق، ١٧١؛ الواقدي، كتاب المغازي، ١:

٣١٠؛ الصنعاني، المصنف، ٣: ٥٤٠ و ٥٧٥

٢. ابن أبي شيبة، المصنف، ٦: ٣٠٦ و ٧: ٤٥٥؛ أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ٢٥: ٢٢١ و ٣٨: ٤٨٢؛

النسائي، سنن النسائي، ٥: ٣٥١.

لإثبات نظرية عدالة الصحابة^١. ومن ذلك إشارتهم إلى ادّعاء بعض الصحابة خلوّ تلك الفترة من الكذب بينهم^٢.

سبقت الإشارة، عند استعراض الأدلّة القرآنية، إلى عدد من الآيات المتضمّنة لوم الصحابة وتقريعهم. وفي هذا القسم، سيتمّ التطرّق إلى بعض الأخبار الواردة حول ارتكاب الكذب والأعمال المشينة من قبل بعض الصحابة إبان حياة النبي ﷺ. ومع وجود تقارير مماثلة حول سلوكيّات بعض الصحابة في عهد الخلفاء، إلّا أنّنا سنغصّ الطرف عنها في هذا المقام.

أرسل رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق لجباية صدقاتهم، فلما رأهم قد خرجوا لاستقباله، عاد أدراجه إلى النبي ﷺ وادّعى كذباً أنّهم امتنعوا عن دفع الصدقة وهمّوا بقتله. وحينها نزلت الآية السادسة من سورة الحجرات واصفة إياه بـ«الفاسق»^٣. وفي موطن آخر، رمى بعض صحابة رسول الله ﷺ زوجته عائشة بتهمة باطلة والإفك عليها^٤. وبعد أن انقشعت غشاوة هذه التهمة، أقام رسول الله ﷺ عليهم حدّ القذف^٥.

وفي أحداث الحديبية، تتجلى بوضوح مظاهر عدم الامتثال لأمر رسول الله ﷺ. فمع حلول موعد كتابة الصلح، اعترض عمر بن الخطاب على النبي ﷺ^٦، وقد اعترف عمر

١. انظر: الأحدي، «الإصابة في عدالة الصحابة»، ١٥٣.

٢. «الناس لم يكونوا يكذبون يومئذ؛ والله ما كنّا نكذب وما ندري ما الكذب» (على سبيل المثال، انظر: الفسوي، المعرفة والتاريخ، ٢: ٦٣٤؛ البزار، البحر الزخار، ١٣: ٤٨٢؛ الرامهرمزي، المحدث الفاضل، ٢٣٥؛ الحاكم النيسابوري، المستدرک، ١: ٢١٦؛ ابن عدي، الكامل في ضعفاء الرجال، ١: ٢٦٣).

٣. ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٢٩٦.

٤. م. ن. ٢: ٢٩٨.

٥. ابن الأثير، أسد الغابة، ١: ٤٨٣.

٦. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢: ٦٣٤؛ انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ٤: ١٧٥-١٧٦؛ المقرئ، إمتاع الأسماع، ١: ٢٩١-٢٩٢.

لاحقاً بأنّه ساوره الشكّ آنذاك في نبوة رسول الله ﷺ^١. وبعد الفراغ من كتابة الصلح، أمر النبي ﷺ أصحابه بنحر الهدي وحلق رؤوسهم. فامتثل فريق منهم لأمر رسول الله ﷺ وحلقوا رؤوسهم، في حين اكتفى فريق آخر بتقصير شعرهم. فاستغفر النبي ﷺ للمحلّقين، وحين سُئل عن وجه تخصيصهم بالاستغفار، أجاب: «لأنّهم لم يشكّوا»^٢.

وكما أُشير في مبحث الآيات، لم يكن جميع الصحابة على درجة واحدة من الإيمان برسول الله ﷺ؛ فقد أخبر النبي ﷺ بوجود منافقين خفيت هويّتهم على الجميع، دون أن يفصح عن أسمائهم^٣. وقد خاطب الله تعالى رسوله ﷺ قائلاً: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى الْيَفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ (التوبة: ١٠١). تصرّح هذه الآية بوجود منافقين بين ظهري الصحابة لم يكن رسول الله ﷺ نفسه يعرفهم. وقد أشار بعض المفسرين إلى براعة هؤلاء المنافقين في كتمان عقائدهم الفاسدة لدرجة حالت دون معرفة النبي ﷺ بنفاقهم^٤.

تُظهر هذه الأخبار التاريخية، إلى جانب ما سبقت الإشارة إليه في مبحث الآيات، بجلاء أنّ واقع الصحابة إبّان العهد النبوي لم يكن تلك الصورة المثالية المنزهة عن العيوب والنواقص التي يصوّرها المدافعون عن عدالة الصحابة.

١. «والله ما شككتُ منذُ أسلمتُ إلّا يومئذٍ. قال: فأَتَيْتُ النَّبِيَّ، فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟» (الصنعاني، المصنّف، ٥: ٣٣٠؛ البيهقي، دلائل النبوة، ٤: ١٠٦؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ٥٧: ٢٢٩؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ٢: ٣٧١؛ الصالحى الشامى، سبل الهدى، ٥: ٥٣).

٢. ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٣١٩؛ انظر أيضاً: الواقدي، كتاب المغازي، ٢: ٦١٣؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢: ٥٥.

٣. «قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: فِي أَصْحَابِي اثْنَا عَشَرَ مُنَافِقًا» (مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، ٤: ٢١٤٣).

٤. مقاتل، تفسير مقاتل، ٢: ١٩٣١٩٣؛ الفخر الرازي، التفسير الكبير، ١٦: ١٣١.

آثار نظرية عدالة الصحابة

كان من جملة الآثار والتداعيات التي تمخّضت عن نظرية عدالة الصحابة، حذف وإخفاء أسماء بعضهم في أحداث العهد النبوي؛ وهي ظاهرة يُمكن رصدّها في المصادر التاريخية والحديثية لأهل السنّة. فقد اتّخذ بعض المؤرّخين مسألة عدالة الصحابة، والتسرّ على ما يقدر فيها، نبراساً لعملهم في نقل الأخبار التاريخية. إذ صرّح ابن هشام (ت. ٢١٤هـ) في مقدّمة كتابه بأنّه حذف من السيرة ما «يُشنع الحديث به» أو ممّا «يسوء بعض الناس ذكره»^١.

فعلى سبيل المثال، في قصة بناء المسجد النبوي، أنشد علي بن أبي طالب ﷺ:
لا يستوي من يعمّر المساجدا
يدأب فيه قائماً وقاعدا
ومن يرى عن الغبار حائدا

وكان عمار بن ياسر يردّد هذه الأبيات باستمرار. ويتابع ابن هشام موضّحاً أنّ أحد أصحاب النبي ﷺ ظنّ أنّه المقصود بهذا الشعر وأنّ عمّاراً يعرّض به، فشمته وأراد أن يضربه بعضا كانت معه. فاستاء رسول الله ﷺ من ذلك وقال: «ما لهم وعمّار؟ يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار... فإذا سمعتم من هذا الرجل شيئاً، فلا تلتفتوا إليه وتجنّبوه». وقد أشار ابن هشام إلى أنّ ابن إسحاق قد سمّى ذلك الصحابي، إلا أنّه -أي ابن هشام- أمسك عن ذكر اسمه^٢. وبالرجوع إلى مصادر أخرى، يتبيّن أنّ الصحابي المشار إليه في رواية ابن هشام، هو عثمان بن عفّان^٣.

وثمة مؤرّخون آخرون، وإن لم يصرّحوا بمسألة عدالة الصحابة، إلّا أنّهم اتّخذوا

١. ابن هشام، السيرة النبوية، ٤: ١.

٢. م. ن. ١، ٤٩٧.

٣. ابن عبد البر، العقد الفريد، ٥: ٩٠؛ الصالحى الشامى، سبل الهدى، ٣: ٣٣٦؛ الدياربكري، تاريخ الخميس، ١: ٤٥٤.

هذه النظرية معيارًا عمليًا لتقييم ونقل الأخبار التاريخية. ومن نماذج ذلك، مسلك الطبري في نقل قصة أبي ذر؛ فقد نُفي أبو ذر إلى الشام بسبب انتقاده لعثمان حول عطايه لبعض أقاربه كمروان بن الحكم. وفي منفاه، شرع في نقد معاوية والاعتراض عليه، معلناً أنَّ ما يجري من الأحداث لا يتفق مع القرآن ولا ينسجم مع السنّة النبوية. فكتب معاوية إلى عثمان يخبره بالأمر، محذراً من أنَّ بقاءه في الشام سيفسدها عليه. فكتب إليه عثمان أن احمِلْه على قتب^١ وأرسله إلى المدينة، ففعل معاوية ذلك^٢. وقد اكتفى الطبري في تاريخه -لكراهته ذكر تفاصيل هذه الأحداث- بإيراد رواية لا تخدش عدالة معاوية، مصرّحاً: «كرهتُ ذكر أكثرها»^٣. وهذا في حين أنَّ البلاذري (ت. ٢٧٩هـ) تناول هذه الوقائع بشيء من التفصيل، مصوراً ممارسة معاوية السياسة الخبيثة وأفعاله^٤.

وفي موضع آخر، كرّر الطبري النهج ذاته فيما يخصّ الرسائل المتبادلة بين معاوية ومحمد بن أبي بكر. وكانت ذريعتة في ذلك أنَّ هذه الرسائل تضمّت أموراً «لا يَحْتَمِلُ سماعها العامة»^٥. أمّا البلاذري، فقد أورد نصّ هذه الرسائل كاملاً، بما احتوته من إشارة إلى خيانات معاوية وأعماله المخالفة للكتاب والسنّة، وكذا ردّ معاوية الذي نسب فيه بعض الأمور إلى أبي بكر^٦.

وفي مثالٍ آخر، أحجم ابن عبد البرّ عن إيراد كلامٍ لحذيفة وجّهه لأبي موسى

١. أي: مركب وعور.

٢. للاطلاع على تفاصيل هذه القصة، راجع: البلاذري، أنساب الأشراف، ٥: ٥٤١-٥٤٣.

٣. انظر: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٤: ٢٨٣.

٤. راجع: البلاذري، أنساب الأشراف، ٥: ٥٤١-٥٤٣.

٥. انظر: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٤: ٥٥٧.

٦. راجع: البلاذري، أنساب الأشراف، ٢: ٢٩٣-٢٩٧.

الأشعري، معللاً ذلك: «فقد رُوي فيه لحذيفة كلام كرهتُ ذكره»^١. وهذا في حين أن ابن أبي الحديد(ت. ٦٥٦هـ) قد نقل هذه الحادثة بالتفصيل، وأورد قول حذيفة المصرّح بفسق أبي موسى الأشعري^٢.

لم يكن إخفاء الأسماء حكراً على المؤلفين فحسب، بل امتدّت يد التعديل والتهذيب من قبل رواة الكتب ونُساخها إلى بعض الأسماء أيضاً. فقد أشار مارسدن جونز(ت. ١٩٩٢م)^٣ في مقدّمة كتاب المغازي للواقدي، إلى أن بعض المخطوطات لهذا الكتاب قد طُمست أسماء الفارّين من معركة أحد، واستبدلتها بلفظة «فلان». ويأتي هذا الطمس رغم أن مصادر أخرى، مثل أنساب الأشراف^٤ وشرح نهج البلاغة^٥، قد أوردت أسماءهم نقلاً عن الكتاب ذاته. ويستنتج جونز من ذلك أن هذه الأسماء كانت مثبتة في النسخة الأصلية للكتاب، إلّا أن النّساخ عمدوا إلى حذفها والاستعاضة عنها بلفظة فلان^٦. ويمكن العثور على مثل هذا التعقيم في مصادر حديثة وتاريخية أخرى.

سبقت الإشارة إلى أن عمر بن الخطاب قد ساوره الشكّ في نبوة رسول الله ﷺ في سياق اعتراضه على صلح الحديبية، وأكد على ذلك قائلاً: «والله ما شككتُ منذ أسلمتُ

١. انظر: ابن عبد البر، الاستيعاب، ٣: ٩٨٠.

٢. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٣: ٣١٤-٣١٥.

3. Marsden Jones.

٤. البلاذري، أنساب الأشراف، ١: ٣٢٦. أورد البلاذري أسماء عدد من الفارين في وقعة أحد، وهم: عثمان بن عفان، والحارث بن حاطب، وثعلبة بن حاطب، وسواد بن غزيرة، وسعد بن عثمان، وعتبة بن عثمان، وخارجة بن عامر، وأوس بن قيطي.

٥. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٥: ٢٤. أضاف ابن أبي الحديد، نقلاً عن الواقدي، اسم عمر إلى قائمة الفارين يوم أحد التي ذكرها البلاذري.

٦. الواقدي، كتاب المغازي، المقدمة: ١٨.

إلا يومئذ». وقد وردت هذه العبارة في المصنّف لعبد الرزاق الصنعاني (ت. ٢١١هـ)؛ بيد أنّ في صحيح البخاري لمحمد بن إسماعيل البخاري (ت. ٢٥٦هـ) قد ورد الحديث نفسه وبالإسناد نفسه^٢ مع حذف قول عمر الدالّ على شكّه في نبوّ رسول الله ﷺ^٣. وما هذه الحالات إلّا غيُض من فيض التبعات المترتبة على الالتزام بنظرية عدالة الصحابة، والتي يُمكن رصدها في المصادر التاريخية والحديثية. ولو أمعن الباحث في تتبّع المصادر ومقارنتها ببعضها البعض، لوجد أضعاف ما تمت الإشارة إليه. وهكذا يتّضح كيف أفضت نظرية عدالة الصحابة إلى حذف وتحريف شطرين من السيرة النبوية وتاريخ الإسلام.

موقف الشيعة من عدالة الصحابة

أبطل الشيخ المفيد (ت. ٤١٣هـ) في كتابه الإيفصاح في الإمامة فكرة عدالة جميع الصحابة، مستدلاً بشواهد روائية وتاريخية وقرآنية^٤. كما صرّح زين الدين بن علي، المعروف بالشهيد الثاني (ت. ٩٦٥هـ)، بوجوب الفحص عن عدالة الصحابة شأنهم شأن غيرهم^٥.

١. الصنعاني، المصنّف، ٣٣٠-٣٤٢.

٢. ورد هذا الحديث في مصنّف عبد الرزاق بالسند التالي: «عن معمر، قال: أخبرني الزهري: قال: أخبرني عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم، صدّق كلّ واحد منهما صاحبه قالاً:...». وفي صحيح البخاري نقل هذا الحديث بنفس السند عن «عبد الله بن محمد» وبمتن متطابق، ولكن مع حذف عبارة «فقال عمر بن الخطاب: والله ما شككت منذ أسلمت إلّا يومئذ».

٣. البخاري، صحيح البخاري، ٣: ١٩٣١٩٧. ويحتمل أن يكون حذف هذه العبارة (والله ما شككت منذ أسلمت إلّا يومئذ) من صنيع النساخ؛ ذلك أنّ الصالحى الشامي (ت. ٩٤٢هـ) قد أورد هذه العبارة في كتابه نقلاً عن صحيح البخاري (الصالحى الشامي، سبل الهدى، ٥: ٥٣).

٤. المفيد، الإيفصاح في الإمامة، ٤١-٦٣.

٥. الشهيد الثاني، الرعاية في علم الدراية، ٣٤٣.

وقد وافقه الرأي الشيخ حسين بن عبد الصمد العاملي (ت. ٩٨٤هـ)^١، ولم يقبل المولى محمد المازندراني (ت. ١٠٨١هـ) نظرية عدالة جميع الصحابة ساقاً بعض الاستدلالات^٢. وكذلك عدّ الملا مهدي النراقي (ت. ١٢٠٩هـ) القول بعدالة كافة الصحابة أمراً غير صحيح^٣. وقد تبني علماء الشيعة المعاصرون الرأي ذاته بشأن عدالة الصحابة^٤. فبوجه عام، فإن رؤية علماء الشيعة للصحابة تماثل رؤيتهم لسائر رواة الحديث؛ إذ يتوقفون في قبول مروياتهم قبل التمهيص والوثوق بعدالتهم وصدقهم. قد ورد في بعض المصادر الروائية الشيعية حديث عن أئمة الشيعة عليهم السلام مطلع «ارتدّ الناس بعد النبي»^٥. ومضمون هذه الرواية أنّ الناس قد ارتدّوا بعد وفاة رسول الله ﷺ إلّا نفر قليل. اتخذت هذه الرواية ذريعة لبعض الاعتراضات على الشيعة، واستُتج منها أنّ الشيعة يقولون بكفر أغلب صحابة النبي ﷺ^٦. بيد أنّ النظر في آراء علماء الشيعة تجاه الصحابة، يكشف عن عدم صحّة هذا الفهم للأحاديث آنفة الذكر. ويتّضح بطلان هذا الاستنتاج عند مراجعة الأحاديث ذات المضمون المماثل في مصادر أهل السنّة، وكذلك عند تحليل المعنى المراد من لفظة «ارتدّ» في الأحاديث الشيعية.

١. الحارثي العاملي، وصول الأختيار، ١١٧-١١٩.

٢. المازندراني، شرح أصول الكافي، ١٢: ٣٩٣-٣٩٦.

٣. النراقي، تجريد الأصول، ٦٦.

٤. على سبيل المثال، انظر: المامقاني، تنقيح المقال، ٢: ٣٢١؛ العسكري، معالم المدرستين، ١: ١٤٠-١٤١.

٥. على سبيل المثال، انظر: المفيد، الاختصاص، ٦ و ١٠؛ الكشي، رجال الكشي، ٨ و ١١؛ وانظر أيضاً:

الكليني، الكافي، ٢: ٢٤٤.

٦. على سبيل المثال، انظر: الرمضاني، «نقض شبهات معاصرة حول عدالة الصحابي أبي هريرة رضي الله

عنه»؛ جمال أبو زايد، «نقض البناء المنهجي لموقف الشيعة من عدالة الصحابة: دراسة نقدية»؛ عبد السلام،

«موقف الفرق الإسلامية من الصحابة رضوان الله عليهم».

وكما سبقت الإشارة، فقد ورد في العديد من المصادر الحديثية لأهل السنة حديث يحمل المضمون ذاته. إذ صرح في هذا الحديث بأنه يُخاطَب النبي ﷺ يوم القيامة بالقول: «إنهم لم يزلوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم». وعلاوة على هذا الحديث، فقد وردت أخبار وأحاديث جمّة في المصادر التاريخية والحديثية السنيّة بعبارات من قبيل: «ارتدّ الناس»^١، و«ارتدّت العرب»^٢، و«كفرت العرب»^٣. وفي هذه الأحاديث والأخبار، نُسب الكفر والردة إلى صحابة رسول الله ﷺ بشكل أكثر صراحة ممّا ورد في المصادر الشيعية. تقول عائشة: «لما توفّي رسول الله، ارتدّت العرب، واشراّبت اليهودية والنصرانية، ونجم النفاق»^٤. وقال قتادة بن دعامة، وهو من التابعين: «لما مات رسول الله، ارتدّت العرب إلّا ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد المدينة، ومسجد البحرين»^٥. كما نُقل عن الزبير بن العوام بشأن حروب الردّة، قوله بأنّ العرب قد كفرت^٦. وفضلاً عن ذلك، فإنّ اعتبار مانعي الزكاة مرتدين -وفيهم صحابي مثل مالك بن نويرة- هو أكبر دليل على إمكانية ارتداد الصحابي من منظور أهل السنة^٧.

-
١. على سبيل المثال، انظر: ابن شبة، تاريخ المدينة، ٢: ٥٢٤؛ البزار، البحر الزخار، ٣: ١٣٨.
 ٢. على سبيل المثال، انظر: معمر بن راشد، جامع معمر بن راشد، ١١: ٥٢؛ ابن أبي شيبة، المصنف، ٧: ٤٣٤؛ أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة، ١: ٩٨ و ٢: ٨٢٨؛ الدارمي، سنن الدارمي، ١: ٢٢٥.
 ٣. على سبيل المثال، انظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٤: ٥٠؛ خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ١٠٣؛ البلاذري، فتوح البلدان، ٩٥.
 ٤. أي: طلعت.
 ٥. أي: ظهّر.
 ٦. ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٦٦٥.
 ٧. معمر بن راشد، جامع معمر بن راشد، ١١: ٥٢.
 ٨. خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ١٠٣.
 ٩. وتجدر الإشارة إلى أن المثال الأخير قد أُشير إليه من منظور جمهور أهل السنة حصراً.

وبغض الطرف عن الخوض في اعتبار أسانيد الروايات الشيعية المذكورة^١، سنعكف على تبيان المعنى المراد من لفظة «ارتد» الواردة فيها. تُشتق كلمة «ارتد» من الجذر «رد»، وقد ورد معناها في المعاجم اللغوية بـ«رَجَعَ الشيء»^٢. وقد أضاف الجوهري (ت. ٣٩٣هـ) إلى هذا المعنى، معنى «عدم القبول والامتناع»^٣. وبالنظر إلى التقارب بين المعنيين المذكورين، يُمكن القول بأن معنى «الرد» يرجع في حقيقته إلى «إرجاع الشيء». وقد استُخدمت هذه المفردة في آيات قرآنية شتى؛ فجاءت تارة بمعنى «رجوع الإنسان عن دينه»^٤، وتارة أخرى بمعنى «الرجوع عن أشياء أُخر»^٥. فعلى سبيل المثال جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا...﴾ (يوسف: ٩٦)، حيث استُخدمت لفظة «ارتد» هنا بحق النبي يعقوب عليه السلام بمعنى عاد بصيرًا. وجاء في آية أخرى: ﴿... فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ (الكهف: ٦٤)، وهنا نُسب «الارتداد» إلى النبي موسى عليه السلام ورفيقه بمعنى رجوعهما من الطريق الذي سلكاه.

وعند مراجعة المصادر الحديثية، نجد استعمالات مماثلة. فعلى الرغم من إطلاق مصطلح «المُرتد» على الخارج من الدين^٦، إلا أنه يُمكن العثور في النصوص الحديثية

١. للاطلاع على الوضع السندي لهذا الحديث، راجع: نادري، «بررسی تحلیلی حدیث ارتد الناس بعد النبی (ص) الاثلاثة»، ٩٧-١٠٧.

٢. الفراهيدي، كتاب العين، ٨: ٧؛ الجوهري، الصحاح، ٢: ٤٧٣؛ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ٢: ٣٨٦.

٣. الجوهري، الصحاح، ٢: ٤٧٣.

٤. البقرة: ٢١٧؛ المائدة: ٢١ و ٥٤؛ محمد: ٢٥.

٥. يوسف: ٩٦؛ إبراهيم: ٤٣؛ الكهف: ٦٤؛ النمل: ٤٠.

٦. على سبيل المثال، انظر: الصنعاني، المصنف، ٦: ٨٢؛ الحميري، قرب الإسناد، ١٣٥.

على تعابير مثل «يَرْتَدُّ إِلَيْهِ» بمعنى «يعود»^١. وفي المصادر الحديثية - كما هو الحال في القرآن - يُمكن حمل المعنى الحقيقي للجذر «رَدَّ» على «الرجوع»، واعتبار معنى «الرجوع عن الدين» معنى مجازياً. وبدراسة الاستعمالات المختلفة لمفردة «الارتداد» في الكتاب والسنة، يُمكن القول بأن لفظة «ارتدَّ» تحمل معاني متعدّدة، ولا تعني بالضرورة الارتداد المصطلح والرجوع عن الدين المستلزم للكفر.

وقد قدّم علماء الشيعة - مع أخذ هذه النقطة بعين الاعتبار - عدّة تفسيرات للفظ «ارتدَّ» في الأحاديث المذكورة: ١. أن المقصود من هذا التعبير هو المبالغة؛ نظراً لقلة عدد الذين ثبتوا على الطريق القويم بعد رسول الله ﷺ^٢؛ ٢. أنّها بمعنى الرجوع عن العهد^٣؛ ٣. أنّها بمعنى التمرد والعصيان^٤.

وقد علّق آية الله السبحاني، وهو من علماء الشيعة المعاصرين، على الروايات آنفة الذكر قائلاً:

ومع ذلك كلّه فإنّ هذه الروايات لا يحتجّ بها أبداً لجهات عديدة نشير إلى بعض منها:

١. كيف يُمكن أن يقال إنّه ارتدّ الناس بعد رسول الله ﷺ ولم يبق إلا ثلاثة تمسّكوا بولاية عليّ عليه السلام ولم يعدلوا عنها، مع أنّ ابن قتيبة والطبري روي أنّ جماعة من بني هاشم وغيرهم تحصّنوا في بيت علي عليه السلام معترضين على ما آل إليه أمر السقيفة، ولم

١. على سبيل المثال، انظر: معمر بن راشد، جامع معمر بن راشد، ١١: ٣١٢؛ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ٣: ٤٧٤.

٢. الحارثي العاملي، وصول الأخبار، ٢٤٤.

٣. الحسيني الميلاني، استخراج المرام، ٣: ٤٠٧-٤١٠.

٤. مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة الإمام علي عليه السلام، ١٠: ٥٩.

يتركوا بيت الإمام ﷺ إلا بعد التهديد والوعيد وإضرار النار أمام البيت^١. وهذا يدل على أنه كان هناك جماعة مخلصون بقوا أوفياء لما تعهدوا به في حياة النبي ﷺ... [كما ورد في بعض الأخبار] وتخلّف عن بيعة أبي بكر قوم من المهاجرين والأنصار ومالوا مع عليّ بن أبي طالب ﷺ^٢... كلّ ذلك يشهد على أنه كان هناك أمة بقوا على ما كانوا عليه، في عصر الرسول الأعظم ﷺ، ولم يغتروا بانثيال الأثرية إلى غير من كان الحق يدور مداره. وكيف يُمكن ادّعاء الردّة لعامة الصحابة إلا القليل؟^٣ كيف يمكن أن يقال: ارتدّ الناس إلا ثلاثة مع أنّ [الشيخ] الصدوق ذكر عدّة من المنكرين للخلافة في أوائل الأمر وقد بلغ عددهم اثنا عشر رجلاً من المهاجرين والأنصار وهم: خالد بن سعيد بن العاص، والمقداد بن الأسود، وأبي ابن كعب، وعمار بن ياسر، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، وعبد الله بن مسعود، وبريدة الأسلمي، وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، وسهل بن حنيف، وأبو أيوب الأنصاري، وأبو هيثم بن التيهان وغيرهم. ثمّ ذكر اعتراضاتهم على مسألة الخلافة واحداً بعد واحد^٤. ٣. إنّ وجود الاضطراب والاختلاف في عدد من استثناهم الإمام ﷺ يورث الشكّ في صحّتها، ففي بعضها «إلا ثلاثة» وفي البعض الآخر «إلا سبعة» وفي ثالث «إلا ستة». فإنّ التعارض، وإن كان يُمكن رفعه بالحمل على اختلافهم في درجات الإيمان، غير أنّه على كلّ تقدير يوهن الرواية. ٤. كيف يُمكن إنكار إيمان أعلام من الصحابة مع اتّفاق كلمة الشيعة والسنة على علوّ شأنهم، أمثال: بلال الحبشي، وحجر بن عدي، وأويس القرني، ومالك بن نويرة المقتول ظلماً على يد خالد بن الوليد، والعبّاس بن عبد المطلب وابنه حبر الأُمّة وعشرات من أمثالهم... وأقصى ما

١. ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ٢٨: ١ و ٣٠؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٣: ٢٠٢.

٢. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢: ١٢٤.

٣. الصدوق، الخصال، ٢: ٤٦١-٤٦٥.

يُمكن أن يقال في حقّ هذه الروايات، هو أنّه ليس المراد من الارتداد الكفر والضلال والرجوع إلى الجاهلية، وإنّما المراد عدم الوفاء بالعهد الذي أخذ منهم في غير واحد من المواقف، وأهمّها غدير خم.

وتأسيساً على ما تقدّم، يُمكن استخلاص أنّ المراد من «الارتداد» في الأحاديث آنفة الذكر، هو عدم الوفاء بالعهد والتمرد على بعض الأوامر الإلهية، والمصداق الأبرز لأهمّ تلك العهود والأوامر الإلهية هو قضية بيعة الإمام علي عليه السلام في منطقة غدير خم في الثامن عشر من ذي الحجة سنة ١٠هـ.

النتائج

في ضوء ما تقدّم من بحث وتمحيص لنظرية عدالة الصحابة، يُمكن الخلوص إلى جملة من النتائج:

١. يُظهر التباين الكبير في إحصاء عدد الصحابة، والذي تراوح ما بين ١٢٠٠ إلى ١٢٠٠٠ صحابي، غياب معيار دقيق وواقعي لدى جمهور أهل السنة في تحديد هذا المفهوم.

٢. إنّ الأدلّة القرآنية والروائية التي سبقت لإثبات عدالة «كافة» الصحابة، لا تقصر في دلالتها على إثبات المدعى فحسب، بل تتعارض صراحة مع نصوص قرآنية وطائفة من الأحاديث النبوية والشواهد التاريخية.

٣. أثبت القرآن الكريم وجود منافقين في أوساط الصحابة، خفيت حقيقتهم حتّى على رسول الله ﷺ. وتعدّ هذه الحقيقة دليلاً دامغاً على ضرورة التمحيص في أحوال الصحابة، ونقضاً لأساس نظرية عدالتهم.

٤. كشف الاستعراض الوجيز للتطوّر التاريخي لنظرية عدالة الصحابة، أنّ هذه النظرية لم تبلور في القرون الثلاثة الأولى للهجرة؛ إذ لم يخصّ الصحابة أنفسهم

ومعاصروهم، كافة الصحابة بمنزلة استثنائية من هذه الجهة، ولم يعتقدوا بعدالة جميع أفرادهم.

٥. أفضى الالتزام بنظرية عدالة جميع الصحابة إلى ممارسة نوع من التعقيم والحذف في نقل السيرة النبوية وتاريخ الإسلام؛ مما وضع عراقيل جمة أمام تكوين صورة ناصعة وواضحة لتاريخ صدر الإسلام.

٦. استنادًا إلى الوقائع التاريخية وسلوك الصحابة في العهد النبوي وما تلاه، وبالنظر إلى الرؤية الشيعية تجاههم، يتجلى أن موقف علماء الشيعة القاضي بضرورة البحث في حال كل صحابي والتحقيق من عدالته شأنه شأن سائر الرجال، هو موقف يتسم بالواقعية، ويستند إلى الحقائق والتعاليم القرآنية والحديثية والتاريخية الرصينة.

إطالة على تاريخ المسجد النبوي الشريف

محمد رضا الخاقاني

المقدمة

يتبوأ المسجد النبوي، بوصفه مسجد رسول الله ﷺ، مكانةً ساميةً في تاريخ الإسلام، إذ يحظى بأهمية استثنائية من المنظور الاجتماعي والسياسي والعبادي. لم يكن هذا الصرح مجرد محلّ عبادة، بل كان مركزاً يُدير منه النبي الأكرم ﷺ شؤون الدولة الإسلامية، ومحلاً لعقد اللقاءات واستقبال الوفود. كما يضمّ هذا المكان المقدس الجسد الطاهر للنبي ﷺ، وكان شاهداً حياً على أحداث تاريخية مفصلية عبر العصور. يتناول هذا القسم بحثاً موجزاً حول كيفية بناء المسجد، مستعرضاً أجزاءه ومعالمه المختلفة، فضلاً عن رصد مراحل تطوره العمراني وتوسعته عبر الحقب التاريخية المتعاقبة، بدءاً من وفاة الرسول ﷺ وصولاً إلى العصر الحاضر.

بناء المسجد وخصائصه العمرانية

عقب الهجرة ومغادرة مكة المكرمة، مكث النبي ﷺ فترةً وجيزةً في منطقة قُباء، بانتظار قدوم علي بن أبي طالب عليه السلام. فبعد أن أدّى علي عليه السلام الأمانات التي أودعها الناس عند رسول الله ﷺ إلى أهلها، شدّ الرحال شطر «يثرب» ليلتحق بالنبي ﷺ في قُباء. وإبان تلك الفترة، أسّس رسول الله ﷺ «مسجد قُباء» في ديار بني عمرو بن مالك^١، وبعد إقامة دامت بضعة أيامٍ في تلك المنطقة، يَمّم وجهه شطر المدينة المنورة.

وما إن حلّ بالمدينة، حتّى تقاطرت الوفود ترجو استضافة النبي ﷺ، فكان القوم يتنافسون في أخذ زمام ناقته لتوجيهها نحو منازلهم، إلّا أنّ رسول الله ﷺ حسم الأمر بقوله: «خَلُّوا سَبِيلَهَا، فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ». وطافت الناقة في أزقة المدينة حتّى بركت بجوار دار أبي أيوب الأنصاري، فعدا بيته مستقراً ومقاماً لنبيّ الله ﷺ^٢.

شرع النبي ﷺ فور استقراره وتحديد محلّ إقامته، في بناء المسجد. كانت الأرض المخصّصة لذلك ملكاً ليتيمين هما سهل وسُهيل، وكانا في كفالة أسعد بن زرارة. وقبل وصول النبي ﷺ إلى المدينة، كان أسعد يؤمّ المسلمين للصلاة في هذه الأرض التي كانت عبارة عن حظيرة محاطة بجدران قصيرة^٣. فاشترى رسول الله ﷺ

١. بنو عمرو بن مالك وبنو عوف بن مالك: قبيلتان كانتا تقطنان في منطقة قُباء بالمدينة المنورة، وتتسبان إلى الأوس، وهما من أصول يمنية (ابن حزم، *جمهرة أنساب العرب*، ٤٧٠).

٢. ابن هشام، *السيرة النبوية*، ١: ٤٩٢-٤٩٦؛ ابن سعد، *الطبقات الكبرى*، ١: ١٨٠-١٨٣؛ اليعقوبي، *تاريخ اليعقوبي*، ٢: ٤١-٤٢؛ الطبري، *تاريخ الأمم والملوك*، ٢: ٣٨١-٣٨٣؛ المسعودي، *مروج الذهب*، ٢: ٢٧٩-٢٨٠.

٣. السمهودي، *وفاء الوفا*، ١: ٣٢٦.

الأرض من اليتيمين وباشر تشييد المسجد^١. ولكي يحث النبي ﷺ المسلمين ويرغبهم في المشاركة في البناء، كان يشارك بنفسه في العمل^٢.

كانت الأرض قبل ذلك تضم عددًا من النخيل، وخرائب قديمة، وقبورًا لبعض المشركين؛ فأمر النبي ﷺ بتسويتها، وضرب اللبن^٣ لرفع جدران المسجد^٤. ثمة أقوال متعددة حول أبعاد أرض المسجد النبوي^٥، لكن وبوجه عام، يُمكن تقدير مساحته ما بين ١٠٦٠ إلى ٢٤٧٥ مترًا مربعًا. قد استُخدم الحجر واللبن في البناء؛ فبعد إرساء أساس حجري بارتفاع ٥، ١ متر^٦، شُيّد سورٌ حول المسجد، ثم زيد في ارتفاعه قليلًا بعد فترة وجيزة^٧.

استُعملت جذوع النخل كأعمدة للسقف الذي بلغ ارتفاعه ٥، ٣ متر^٨. أمّا السقف المكوّن من جريد النخل وسعفه، فقد طُلي بالطين في موسم الأمطار لمنع تسرب الماء إلى

١. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١: ١٨٤؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ١: ٢٦٦؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ٣٠: ٣٠؛ المقرئ، إمتاع الأسع، ١: ٦٧؛ السهوي، وفاء الوفا، ١: ٣٢٦-٣٣١ و٣٣٦.

٢. ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٤٩٦.

٣. ما يُصنع من الطين ويُبى به.

٤. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١: ١٨٤؛ الأنصاري، تعمیر وتوسعه مسجد شريف نبوي، ٤٧.

٥. انظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١: ١٨٤-١٨٥؛ الحموي، معجم البلدان، ٥: ٨٦؛ ابن النجار، الدرر الثمينة، ٦٩؛ السهوي، وفاء الوفا، ١: ٣٤٠؛ الصالح الشامي، سبل الهدى، ٣: ٣٣٨؛ الأنصاري، تعمیر وتوسعه مسجد شريف نبوي، ٤٨-٤٩.

٦. أي ما يعادل ثلاثة أذرع.

٧. السهوي، وفاء الوفا، ١: ٣٣٥؛ الصالح الشامي، سبل الهدى، ٣: ٣٣٨؛ الكتاني، نظام الحكومة النبوية، ٢: ٥٣؛ الأنصاري، تعمیر وتوسعه مسجد شريف نبوي، ٤٩-٥٠.

٨. أي ما يعادل سبعة أذرع. ابن الفقيه، البلدان، ٨١؛ الحموي، معجم البلدان، ٥: ٨٦؛ ابن النجار، الدرر الثمينة، ٦٩-٧٠؛ السهوي، وفاء الوفا، ١: ٣٢٧-٣٢٨ و٣٣٦؛ الأنصاري، تعمیر وتوسعه المسجد النبوي الشريف، ٥٠-٥١.

الداخل. لم يكن المسجد مسقفًا بالكامل، بل كانت تلي مدخله الرئيسي ساحة مكشوفة^١.
جُعل للمسجد ثلاثة أبواب: باب في مؤخرة المسجد من جهة الجنوب، وباب في الغرب سُمِّي «باب عاتكة»^٢ وعُرف لاحقًا بـ«باب الرحمة»^٣، والباب الثالث في الجهة الشرقية سُمِّي «باب عثمان»^٤ ويُعرف حاليًا باسم «باب جبرائيل»^٥.

ظل بناء المسجد على هذه الهيئة حتى تحولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة في الخامس عشر من شعبان في السنة الثانية للهجرة. فجاء تحويل القبلة عقب نزول قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ١٤٤). وكان النبي ﷺ حين نزول الآية يصلي الظهر مع أصحابه في مسجد عُرف لاحقًا بـ«مسجد القبليتين»، فتوجه ﷺ نحو الكعبة وتبعه الصحابة في ذلك^٦.

قد استتبع تغيير القبلة إجراء تعديلات في عمارة المسجد؛ إذ أُغلق الباب الكائن في الجدار الجنوبي، وفتح بدلاً منه باب في الجدار الشمالي للمسجد. كما شُيّدت ثلاثة أروقة

١. السهمودي، وفاء الوفا، ١: ٣٣٥؛ الصالح الشامي، سبل الهدى، ٣: ٣٣٨.

٢. نسبة إلى عاتكة بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية، حيث كان الباب يقع قبالة دارها. وكان يُعرف أيضًا بـ«باب السوق» (السهمودي، وفاء الوفا، ٢: ٦٩٧).

٣. وعن سبب تسميته بـ«باب الرحمة»، ورد أنّ رجلاً دخل من هذا الباب وطلب من النبي ﷺ أن يدعو لنزول المطر، فاستجاب النبي ﷺ لطلبه، وهطل المطر على المدينة لمدة سبعة أيام؛ فسُمِّي الباب بذلك (م. ن.، ٢: ٦٩٧-٦٩٨).

٤. اشتهر بـ«باب عثمان» لوقوعه قبالة دار عثمان بن عفان (م. ن.، ٢: ٦٨٩).

٥. ذُكرت عدّة وجوه لتسميته بـ«باب جبرائيل»، منها وجود «مقام جبرائيل» بالقرب منه، وأنّ جبرائيل دخل من هذا الموضع على رسول الله ﷺ لإبلاغه أمر الله بقتال بني قريظة (م. ن.، ٢: ٦٩٠-٦٩١).

٦. ابن هشام، السيرة النبوية، ١: ٦٠٦؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١: ١٨٦-١٨٨؛ السهمودي، وفاء الوفا، ١: ٢٧٥-٢٧٦ و٣٥٩-٣٦١.

في الجهة الجنوبية، وُحْصَصَ مكان مسقّف في الجنوب أيضًا لإيواء الفقراء ومَن لا مأوى لهم، وعُرف أهلُه بـ«أهل الصُفّة». لم يكن للمسجد في عهد النبي ﷺ مئذنة أو محراب^١.
بنى رسول الله ﷺ حجراتٍ لزوجاته حول المسجد، وتشير المصادر التاريخية إلى أن هذه الحجرات شُيّدت بمحاذاة الضلعين الشمالي والشرقي للمسجد، وكانت مسقوفةً غالبًا بجريد النخل - باستثناء حجرة أم سلمة التي كانت مبنية من اللَّبن - وقد سُدلت على أبوابها أكسية من وَبر الإبل^٢. اتَّخذت هذه الحجرات شكلًا مربعًا، وتراوح طول ضلع الواحدة منها ما بين ٤ إلى ٥، ٤ أمتار^٣.

ومن ضمن تلك الدور، كان بيت السيِّدة فاطمة رضي الله عنها، الذي كان يجاور بيت رسول الله ﷺ وملاصقًا له، وفيه نافذة تطلّ على بيت النبي ﷺ. فكان ﷺ يطّلع على حال ابنته من خلالها عند خروجه من منزله، وقد دأب النبي ﷺ لعدّة أشهر أن يقف عند باب هذا البيت كلّ صباح منادياً: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب: ٣٣)^٤.

وهذا البيت^٥، الذي انحصر موقعه لاحقًا ما بين المرقد الشريف لرسول الله ﷺ و«أسطوانة التهجد»^٦، قد هُدم وأُلحق بالمسجد مع سائر حجرات نساء النبي ﷺ إبان حُكم الوليد بن عبد الملك (٥٠-٩٦هـ)^٧.

١. السمهودي، وفاء الوفا، ٢: ٤٥٣-٤٥٤.

٢. ابن النجار، الدرّة الثمينة، ٧٣-٧٥؛ السمهودي، وفاء الوفا، ٢: ٤٥٨-٤٦٥.

٣. أي ما يعادل ٨ إلى ٩ أذرع. الأنصاري، تعمير وتوسعه مسجد شريف نبوي، ٦٠.

٤. ابن أبي شيبة، مسند ابن أبي شيبة، ٢: ٢٣٣؛ ابن أبي شيبة، المصنف، ٦: ٣٨٨؛ أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة، ٢: ٧٦١؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ٢: ١٠٤؛ الترمذي، الجامع الكبير، ٥: ٢٠٥.

٥. انظر: صورة رقم ١ في نهاية المقال.

٦. ابن النجار، الدرّة الثمينة، ٧٥-٧٦؛ السمهودي، وفاء الوفا، ٢: ٤٦٦-٤٧٠.

٧. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١: ٣٨٧ و ٨: ١٣٣؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢: ٢٨٤؛ الطبري، تاريخ

معالم الحرم النبوي الشريف

محراب المسجد

لم يكن في المسجد محرابٌ مجوّفٌ إبان عهد رسول الله ﷺ، بيد أنّه عقب رحيله ﷺ وإثر التوسّعات العمرانية المتلاحقة، شُيّدت محاريب في المواضع التي كان ﷺ يؤمّ الصلاة فيها. ويُعدّ المحراب الذي أُقيم بأمر عمر بن عبد العزيز (حكم ٩٩-١٠١هـ)، أوّل محراب يُبنى في المسجد^١.

كان رسول الله ﷺ يتوجّه في صلاته شطر بيت المقدس قبل نزول آية تحويل القبلة، وكان موضع صلاته آنذاك في الجهة الشمالية من المسجد^٢. وعقب تحويل القبلة، أمّ النبي ﷺ الصلاة لبضعة أيام بجوار «أسطوانة عائشة»، ثمّ انتقل بعدها ليصلّي عند «الأسطوانة المخلّقة»^٣. ويقع المحراب الحالي في الموضع ذاته، حيث شُيّد عام ٨٨٨هـ بأمر من السلطان المملوكي قايتباي (حكم ٨٧٢-٨٩٠هـ)^٤.

وثمة محراب آخر يُعرف بـ«محراب التهجد»، وهو الموضع الذي كان يجبي فيه رسول الله ﷺ صلاة الليل. يقع هذا المحراب شمال «الحجرة النبوية»^٥ وخلف «بيت السيّدة الزهراء (عليها السلام)»، وكانت «الصُفّة» تقع بجواره. وقد شُيّد هذا المحراب في عهد السلطان قايتباي، وهو مغطّى حالياً بألواح خشبية^٦.

الأُمم والملوك، ٦: ٤٣٥.

١. السمهودي، وفاء الوفا، ٢: ٥٢٥.

٢. الشنقيطي، الدر الثمين، ٢٢.

٣. م. ن، ٣٨. سيأتي لاحقاً البحث عن أسطوانات المسجد النبوي الشريف ووجوه تسميتها.

٤. عبد الغني، تاريخ المسجد النبوي الشريف، ١٠٥.

٥. يُطلق على مدفن النبي ﷺ اسم «الحجرة النبوية».

٦. عبد الغني، تاريخ المسجد النبوي الشريف، ١٠٧-١٠٩.

المنبر والروضة الشريفة

كان رسول الله ﷺ في بادئ الأمر يخطب مستنداً إلى جذع نخلة، وبعد حين، عرضت عليه امرأة من الأنصار أن تأمر غلاماً لها يعمل نجاراً، بصنع منبر له إن أذن ﷺ بذلك. فقبل النبي ﷺ العرض، وصنع الغلام له منبراً. كما رُوي أن النبي ﷺ كان يشعر بالُم في ساقه الشريفة عند وقوفه للخطبة، ممّا دعا إلى اقتراح صنع المنبر.

صُنع المنبر من خشب الأثل وتألّف من ثلاث درجات، وكان ذلك في السنة الثامنة للهجرة. بلغ طول المنبر قرابة ١,١ متر^١، بينما كان عرض مسنده وطوله حوالي ٥,٠ متر^٢. وظلّ المنبر على هيئته تلك حتّى عهد معاوية بن أبي سفيان (٤١-٦٠هـ)، الذي أمر بزيادة ستّ درجات عليه، ليصبح مجموع درجاته تسعاً، وكُسي بالثياب. وقد بقي منبر المسجد قائماً حتّى عام ٦٥٤هـ، حينما اندلع الحريق الأوّل في المسجد النبوي. وعقب تلك الحادثة، استُبدل المنبر بمنابر جديدة متعاقبة، حتّى استقر الأمر على المنبر الأخير الذي صُنع وأُهدي للمسجد بأمر السلطان العثماني، مراد الثالث، عام ٩٩٨هـ^٣.

وتعدّ «الروضة الشريفة» من أقدس المواضع في المسجد النبوي، وهي في الواقع جزء من المسجد، يقع فيما بين بيت النبي ﷺ ومنبره. وقد استمدّ اسمها من الحديث

١. ذراعان وثلاث أصابع.

٢. ذراع واحد.

٣. للاطلاع التفصيلي حول تاريخ منبر المسجد النبوي، انظر: ابن سعد، *الطبقات الكبرى*، ١: ١٩٢-١٩٦؛ ابن أبي شيبة، *المصنف*، ٦: ٣١٩؛ أحمد بن حنبل، *مسند أحمد*، ٢٢: ١١٧؛ البخاري، *صحيح البخاري*، ١: ٩٧ و ٣: ٦١؛ البلاذري، *أنساب الأشراف*، ١: ٤٧٧ و ٥: ١٥؛ ابن النجار، *الدرة الثمينة*، ٧٩-٨٢؛ ابن كثير، *البداية والنهاية*، ٤: ٢٣٦؛ السمهودي، *وفاء الوفا*، ٢: ٣٩١-٤١٣؛ الشنقيطي، *الدر الثمين*، ٣٥-٣٧؛ عبد الغني، *تاريخ المسجد النبوي الشريف*، ١١٩-١٢١؛ حافظ، *فصول من تاريخ المدينة المنورة*، ٧٢-٧٤.

النبوي الشريف: «ما بين بيتي^١ ومنبري روضة من رياض الجنة»^٢. تبلغ المساحة الحالية للروضة ٣٣٠ مترًا مربعًا، بأبعاد ٢٢ في ١٥ مترًا. وتجدر الإشارة إلى أن الحيز المعروف اليوم بالروضة، يفوق المساحة التي حددها رسول الله ﷺ؛ إذ أُضيفت حجرات أزواج النبي ﷺ إلى نطاق الروضة في عهد عمر بن عبد العزيز (ت. ١٠١هـ). وقد وردت روايات جمّة لدى الفريقين في فضل الصلاة في هذا الموضع المبارك^٣.

أبواب المسجد

سبقت الإشارة، في معرض الحديث عن بناء المسجد، إلى أبواب المسجد النبوي الثلاثة: «باب الرحمة»، و«باب جبرائيل»، والباب الذي استُحدث عقب تحويل القبلة. وقد أُضيفت أبواب أخرى إلى المسجد بعد رحيل النبي ﷺ، وسيرد ذكرها تفصيلًا عند استعراض مراحل توسعة المسجد عبر العصور المختلفة.

أساطين المسجد

أشير آنفًا إلى أن سقف المسجد كان محمولًا على أعمدة من جذوع النخل، وقد اكتسبت ثمانية من هذه الأساطين تسميات خاصة اقترنت بمناسبات تاريخية شتى^٤.

١. وفي بعض الروايات «قبري».

٢. مالك، الموطأ، ١: ١٩٧؛ الصنعاني، المصنف، ٣: ١٨٢؛ ابن أبي شيبة، المصنف، ٥: ٣٠٥؛ البخاري، صحيح البخاري، ٢: ٦١؛ مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، ٢: ١٠١٠-١٠١١؛ الكليني، الكافي، ٤: ٥٥٣-٥٥٦.

٣. لمزيد من الاطلاع، انظر: ابن النجار، الدرّة الثمينة، ٨٢-٨٣؛ السمهودي، وفاء الوفا، ٢: ٤٢٦-٤٣٤؛ الشنقيطي، الدر الثمين، ٢٤-٢٧؛ عبد الغني، تاريخ المسجد النبوي الشريف، ١١٤-١١٧؛ الأنصاري، تعمير وتوسعة مسجد شريف نبوي، ٧٣-٧٤؛ حافظ، فصول من تاريخ المدينة المنورة، ٧٥-٧٨.

٤. انظر: صورة رقم ٣ في نهاية المقال.

الأسطوانة المخلّقة: تُعرف أيضًا بأسماء «المُطَيَّبة»، و«المُعْطَرَّة»، و«عَلَم المصلّي». قد اشتهرت باسم «علم المصلّي» لكونها علامة دالة على مصلّي رسول الله ﷺ. كما أُطلق عليها اسم «المُخلّقة» لأنّها كانت الوحيدة التي تُطَيَّب بالخلّوق، نوع من الطيب. وتقع هذه الأسطوانة بمحاذاة المحراب النبوي^١.

أسطوانة عائشة: هي الأسطوانة الثالثة من جهة المنبر النبوي، والثالثة من جهة القبر الشريف، والثالثة من جهة القبلة. سُمّيت باسم عائشة -زوجة النبي ﷺ- لأنّها روت حديثًا في فضل الصلاة عندها^٢. وسُمّيت أيضًا بـ«أسطوانة القرعة»؛ إذ ورد في رواية عائشة عن فضل الصلاة بجوارها عن رسول الله ﷺ: «إنّ في المسجد لبقعة قبّل هذه الأسطوانة. لو يعلم الناس، ما صلّوا فيها إلّا أن يطير لهم [فيها] قرعة»^٣. كما عُرفت بـ«أسطوانة المهاجرين»؛ لأنّها كانت مجلسًا للمهاجرين^٤.

أسطوانة التوبة: هي الرابعة من جهة المنبر، والثانية من جهة القبر، والثالثة من جهة القبلة، وتُعرف أيضًا بـ«أسطوانة أبي لبابة». يعود سبب تسميتها بهذين الاسمين إلى قصّة الصحابي أبي لبابة حين أشار إلى بني قريظة بأنّ حكمهم القتل، فندم على فعله وربط نفسه بهذه الأسطوانة، وظلّ كذلك حتّى قبل الله توبته^٥.

١. السمهودي، وفاء الوفا، ٢: ٤٣٩-٤٤٠؛ الشنقيطي، الدر الثمين، ٥٣-٥٤؛ الأنصاري، تعمير وتوسعه مسجد شريف نبوي، ٧٦-٧٧؛ عبد الغني، تاريخ المسجد النبوي الشريف، ١٢٣-١٢٥؛ حافظ، فصول من تاريخ المدينة المنورة، ٦٩.

٢. السمهودي، وفاء الوفا، ٢: ٤٤٠-٤٤١.

٣. الهيثمي، مجمع الزوائد، ٤: ٩؛ الطبراني، المعجم الأوسط، ١: ٢٦٤؛ السمهودي، وفاء الوفا، ٢: ٤٤٠-٤٤١.

٤. انظر: ابن النجار، الدر الثمين، ٩١-٩٢؛ السمهودي، وفاء الوفا، ٢: ٤٤٠-٤٤٢؛ الشنقيطي، الدر الثمين، ٤٤-٤٦؛ عبد الغني، تاريخ المسجد النبوي الشريف، ١٢٥-١٢٧؛ الأنصاري، تعمير وتوسعه مسجد شريف نبوي، ٧٧؛ حافظ، فصول من تاريخ المدينة المنورة، ٦٩.

٥. ابن هشام، السيرة النبوية، ٢: ٢٣٦-٢٣٧؛ ابن النجار، الدر الثمين، ٨٩-٩١؛ السمهودي، وفاء الوفا،

أستوانة السرير: تقع شرقي أستوانة التوبة، وتتصل بشباك الضريح النبوي الشريف. كان هذا الموضع معتكفاً لرسول الله ﷺ، حيث كان يُوضع له سرير من جريد النخل ليستريح عليه^١.

أستوانة المحرس: تقع خلف أستوانة السرير من جهة الشمال، قبالة باب بيت النبي ﷺ المفتوح على المسجد. وتُعرف بـ«أستوانة الحرس» أو «أستوانة علي بن أبي طالب (عليه السلام)». وسُميت بذلك لأنّ عليّاً (عليه السلام) كان يقف عندها قبالة باب النبي ﷺ لحراسته ليلاً^٢.

أستوانة الوفود: تقع شمالي أستوانة المحرس، وكان النبي ﷺ يستقبل عندها الوفود القادمة إلى المدينة للقاءه أو لإعلان إسلامهم. كما سُمي هذا الموضع بـ«مجلس القلادة»؛ إذ كان النبي ﷺ يجلس فيه وحوله كبار الصحابة^٣، فكان (عليه السلام) كجوهرة العقد وهم كالقلادة والحلقة المحيطة به.

أستوانة مربعة القبر: تقع داخل الحجرة الشريفة ومقصورة القبر الشريف، في الجهة

٢: ٤٤٢-٤٤٧؛ الشنقيطي، الدر الثمين، ٥٠-٥٣؛ عبد الغني، تاريخ المسجد النبوي الشريف، ١٢٧-١٢٩؛ الأنصاري، تعمیر وتوسعه مسجد شريف نبوي، ٧٨-٧٩؛ حافظ، فصول من تاريخ المدينة المنورة، ٧٠.

١. السهمودي، وفاء الوفا، ٢: ٤٤٧-٤٤٨؛ الشنقيطي، الدر الثمين، ٥٤-٥٥؛ عبد الغني، تاريخ المسجد النبوي الشريف، ١٣٠؛ الأنصاري، تعمیر وتوسعه مسجد شريف نبوي، ٧٩-٨٠؛ حافظ، فصول من تاريخ المدينة المنورة، ٧٠.

٢. السهمودي، وفاء الوفا، ٢: ٤٤٨-٤٤٩؛ الشنقيطي، الدر الثمين، ٥٥-٥٦؛ عبد الغني، تاريخ المسجد النبوي الشريف، ١٣٠-١٣١؛ الأنصاري، تعمیر وتوسعه مسجد شريف نبوي، ٨٠؛ حافظ، فصول من تاريخ المدينة المنورة، ٧٠.

٣. ابن النجار، الدر الثمين، ٩٢؛ السهمودي، وفاء الوفا، ٢: ٤٤٩-٤٥٠؛ الشنقيطي، الدر الثمين، ٤٦-٥٠؛ عبد الغني، تاريخ المسجد النبوي الشريف، ١٣١-١٣٢؛ الأنصاري، تعمیر وتوسعه مسجد شريف نبوي، ٨٠؛ حافظ، فصول من تاريخ المدينة المنورة، ٧٠.

الغربية المقابلة لأسطوانة الوفود، وتُعرف أيضًا بـ«مقام جبرائيل». وتشير المصادر التاريخية إلى أنّ هذه الأسطوانة -التي أنشئت في عصور لاحقة- تقع في موضع باب بيت السيِّدة فاطمة عليها السلام^١.

أسطوانة التَّهَجُّد: تقع خلف بيت السيِّدة فاطمة عليها السلام من جهة الشمال، وفي الموضع ذاته يوجد «محراب التهجد» المشار إليه سابقًا. كان هذا المكان مخصَّصًا لعبادة الرسول ﷺ وقيامه في الليل^٢.

توسعة المسجد النبوي عبر التاريخ

جرت التوسعة الأولى للمسجد النبوي على يد رسول الله ﷺ عقب غزوة خيبر في السنة السابعة للهجرة، وذلك استجابةً لزيادة أعداد المسلمين والمصلّين. وقد شملت هذه التوسعة أرضًا بعرض ٢٠ مترًا وطول ١٥ مترًا، لتصل مساحة المسجد بعدها إلى ٢٥٠٠ متر مربع^٣.

خلافة عمر بن الخطاب

شهد المسجد التوسعة الثانية في عهد عمر بن الخطاب عام ١٧ هـ. ولإتمام ذلك، ابتاع عمر الدور المحيطة بالمسجد، ومنها دار العباس بن عبد المطلب -عم النبي ﷺ- الذي تبرَّع بها لتضمَّ إلى المسجد. وفي هذه المرحلة، شُيِّد أساس المسجد من الحجارة بارتفاع

١. للاطلاع التفصيلي حول هذه الأسطوانة، انظر: السمهودي، وفاء الوفا، ٢: ٤٥٠؛ عبد الغني، تاريخ المسجد النبوي الشريف، ١٣٣؛ الأنصاري، تعمیر و توسعه مسجد شريف نبوي، ٨٠-٨١؛ حافظ، فصول من تاريخ المدينة المنورة، ٧٠-٧١.

٢. السمهودي، وفاء الوفا، ٢: ٤٥٠-٤٥٣؛ الأنصاري، تعمیر و توسعه مسجد شريف نبوي، ٨١-٨٢؛ حافظ، فصول من تاريخ المدينة المنورة، ٧١.

٣. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١: ١٨٤-١٨٥؛ السمهودي، وفاء الوفا، ١: ٣٤٠.

قارب المترين. وزيدت مساحة المسجد بمقدار ٥ أمتار من جهة القبلة، و ١٥ مترًا من الجهة الشمالية، و ١٠ أمتار من الجهة الغربية^١. كما رُفِعَ سقف المسجد من ٣,٥ متر ليبلغ ٥,٥ أمتار. وارتفع عدد أبواب المسجد من ثلاثة إلى ستة، وهي: «باب السلام» في الجدار الغربي، و«باب النساء» في الجدار الشرقي، وباب آخر في الجدار الشمالي. كذلك، أُنشئت رَحْبَةٌ^٢ في الجهة الشرقية، وفُرِشت أرضيتها بحصى جيء به من وادي العقيق^٣.

خلافة عثمان بن عفان

تمت التوسعة الثالثة إبان خلافة عثمان^٤. وقد انطلقت أعمالها عام ٢٩هـ، واختتمت في غرة محرم سنة ٣٠هـ. شهدت هذه التوسعة زيادة بمقدار ٥ أمتار في الجهات الشمالية والجنوبية والغربية، وقد أُعيد بناء المسجد بالكامل باستخدام الجُصّ والحجارة المنحوتة، ونُصبت أعمدة حجرية، وزُخرف السقف بخشب الساج^٥.

١. انظر: صورة رقم ٤ في نهاية المقال.

٢. صحن.

٣. ابن النجار، الدرّة الثمينّة، ٩٣-٩٦؛ السمهودي، وفاء الوفا، ٢: ٤٨١-٥٠٠؛ الشنقيطي، الدر الثمين، ٨٤-٨٩؛ عبد الغني، تاريخ المسجد النبوي الشريف، ٤٣-٤٤؛ الأنصاري، تعمير و توسعه مسجد شريف نبوي، ٩٤-١٠٣؛ حافظ، فصول من تاريخ المدينة المنورة، ٨١؛ بدر، التاريخ الشامل للمدينة المنورة، ١: ٢٧٤-٢٧٦.

٤. انظر: صورة رقم ٤ في نهاية المقال.

٥. ابن النجار، الدرّة الثمينّة، ٩٦-٩٨؛ السمهودي، وفاء الوفا، ٢: ٥٠٠-٥١٠؛ الشنقيطي، الدر الثمين، ٨٩-٩٢؛ عبد الغني، تاريخ المسجد النبوي الشريف، ٤٥-٤٦؛ الأنصاري، تعمير و توسعه مسجد شريف نبوي، ١٠٣-١٠٩؛ حافظ، فصول من تاريخ المدينة المنورة، ٨١؛ بدر، التاريخ الشامل للمدينة المنورة، ١: ٢٩٣-٢٩٥.

العهد الأموي

لم يشهد المسجد أيّ توسعة تُذكر حتّى عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ)، ففي ولاية عمر بن عبد العزيز (ت. ١٠١هـ) على المدينة، صدر الأمر بتوسعة المسجد. ولتحقيق ذلك، تمّ شراء الدور المحيطة -بما فيها حجرات أزواج النبي ﷺ- من الورثة لضمّها إلى المسجد. بدأت هذه التوسعة عام ٨٨هـ وانتهت عام ٩١هـ، وبضمّ حجرات نساء النبي ﷺ^١، زيدت مساحة المسجد ١٥ مترًا من الشرق، و ١٠ أمتار من الغرب، و ٢٠ مترًا من الشمال. شُيّد البناء الجديد وأعمدته من الحجارة، ودُعِمت الأعمدة بالحديد والرصاص. وفي هذه الحقبة، بُني أوّل محراب في المسجد النبوي. وزُيّنت الجدران الداخلية بالرخام والذهب والفسيفساء، كما طُلِيت تيجان الأعمدة وأُطِرَت الأبواب بالذهب. وأصبح للمسجد ٢٠ مدخلًا: ٨ في الشرق، و ٨ في الغرب، و ٤ في الشمال. ولأوّل مرّة، شُيِّدت أربع مآذن في زوايا المسجد بارتفاع قارب ٣٠ مترًا وقاعدة ٤×٤ متر، إلّا أنّ إحداها سقطت في عهد سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩هـ)^٢.

العهد العباسي

في عهد الخليفة المهدي العباسي (١٥٨-١٦٩هـ)، وتحديدًا في موسم حجّ عام ١٦٠هـ، صدر الأمر بتوسعة المسجد. قد ركّزت هذه التوسعة على الضلع الشمالي بإضافة ٣٠

١. انظر: صورة رقم ٤ في نهاية المقال.

٢. ابن النجار، الدرّة الثمينة، ٩٨-١٠٣؛ السمهودي، وفاء الوفا، ٢: ٥١٣-٥٣٠؛ الشنقيطي، الدر الثمين، ٩٢-٩٧؛ عبد الغني، تاريخ المسجد النبوي الشريف، ٤٧-٤٨؛ الأنصاري، تعمير و توسعة مسجد شريف نبوي، ١١١-١٢٢؛ حافظ، فصول من تاريخ المدينة المنورة، ٨٣؛ بدر، التاريخ الشامل للمدينة المنورة، ١: ٣٩٥-٤٠٠.

متراً، واستمرّ العمل فيها من عام ١٦١هـ حتى ١٦٥هـ^١. وظلّ البناء على حاله حتّى عام ٦٥٤هـ، مع إجراء بعض الترميمات خلال العصر العباسي^٢.
في الليلة الأولى من رمضان سنة ٦٥٤هـ، شبّ حريق هائل في المسجد النبوي أدّى إلى انهيار السقف بالكامل، ولم تفلح محاولات إخماد النيران التي أتت على محتويات المسجد كافّة. وفي عام ٦٥٥هـ، أمر المستعصم العباسي (٦٤٠-٦٥٦هـ) بإعادة إعمار المسجد، إلّا أنّ سقوط بغداد وما تلاه من انقراض الخلافة العباسية حالاً دون تنفيذ الأمر. فبقي المسجد على حاله من الخراب، واقتصر الأمر على قيام أهل المدينة بوضع سقف فوق القبر الشريف والأعمدة التي نجت من الحريق^٣.

العهد المملوكي

عقب سقوط بغداد ومقتل آخر خلفاء بني العباس، آلت إدارة شؤون المدينة المنورة والمسجد النبوي إلى سلاطين المماليك في مصر. وقد أصدر المنصور نور الدين علي (حكم ٦٥٥-٦٥٧هـ) أمراً بإعادة إعمار المسجد، إلّا أنّه عُزل في عام ٦٥٧هـ، وخلفه المظفر سيف الدين قطز، الذي قُتل بعد عام واحد. ولم تكتمل أعمال الإعمار

١. انظر: صورة رقم ٤ في نهاية المقال.

٢. ابن النجار، *الدرة الثمينة*، ١٠٣-١٠٥؛ السهودي، *وفاء الوفا*، ٢: ٥٣٥-٥٤٠؛ الشنقيطي، *الدر الثمين*، ٩٨-١٠٠؛ عبد الغني، *تاريخ المسجد النبوي الشريف*، ٤٩؛ الأنصاري، *تعمير وتوسعه مسجد شريف نبوي*، ١٢٣-١٣٠؛ حافظ، *فصول من تاريخ المدينة المنورة*، ٨٣-٨٤؛ بدر، *التاريخ الشامل للمدينة المنورة*، ٢: ٦٥-٦٧.

٣. الذهبي، *تاريخ الإسلام*، ٤٨: ٢٤؛ ابن كثير، *البداية والنهاية*، ١٣: ١٩٣؛ السهودي، *وفاء الوفا*، ٢: ٥٩٨-٦٠١؛ ابن العماد، *شذرات الذهب*، ٧: ٤٥٥؛ الشنقيطي، *الدر الثمين*، ١٠٠؛ عبد الغني، *تاريخ المسجد النبوي الشريف*، ٥٠-٥١؛ الأنصاري، *تعمير وتوسعه مسجد شريف نبوي*، ١٣٠-١٣١؛ بدر، *التاريخ الشامل للمدينة المنورة*، ٢: ٢٣٣-٢٣٧.

إلا في عهد الظاهر بيبرس (حكم ٦٥٨-٦٧٥هـ). لم تختلف مساحة المسجد بعد إعادة بنائه عمّا كانت عليه في التوسعة العباسية.

وفي عام ٦٧٨هـ، أمر السلطان المملوكي المنصور قلاوون الصالحي بتشييد قبة خشبية مكسوة بالرخام فوق القبر الشريف. كما شهد عاما ٧٠٥هـ و ٧٠٦هـ أعمال ترميم وإعادة بناء لسقفي صحن المسجد من الجهتين الغربية والشرقية. وفي عام ٨٣١هـ، رُمّت هذه الأسقف مجدداً، وأضيف سقف جديد في الجهة الشمالية للصحن بأمر من السلطان الأشرف سيف الدين برسباي (حكم ٨٢٥-٨٤١هـ).

وفي عام ٨٨١هـ، أصدر السلطان الأشرف قايتباي (حكم ٨٧٢-٨٩٠هـ) أوامره بإجراء ترميمات شاملة في أرجاء المسجد. ولكن في عام ٨٨٦هـ، ضربت صاعقة إحدى المآذن الشرقية، ما أدى إلى نشوب حريق هائل أتى على الأبواب وسقف المسجد وخزانة الكتب. إثر هذه الحادثة، أمر السلطان قايتباي بإعادة بناء المسجد وتجديده. وشملت هذه العمارة توسعة الجهة الشرقية بمقدار ٢, ١ متر، ورفع السقف إلى ارتفاع ١١ متراً.

كما أمر قايتباي ببناء قبة خضراء اللون فوق المرقد النبوي الشريف، وهي التي عُرفت لاحقاً بـ«القبة الخضراء». وجرى تجديد جدار الحجرة النبوية الشريفة بالحجارة، وصُنِع المنبر و«دكة المؤذنين» من الرخام. وقد أنجزت أعمال التوسعة والترميم هذه في عام ٨٨٨هـ^١.

١. السمهودي، وفاء الوفا، ٢: ٦٠١-٦١٧؛ الشنقيطي، الدر الثمين، ١٠١-١٠٢؛ عبد الغني، تاريخ المسجد النبوي الشريف، ٥١-٥٤؛ الأنصاري، تعمیر وتوسعة مسجد شريف نبوي، ١٣٥-١٤٧؛ حافظ، فصول من تاريخ المدينة المنورة، ٨٤-٨٧؛ بدر، التاريخ الشامل للمدينة المنورة، ٢: ٢٣٥-٢٣٧ و ٣١٠-٣١٧.

العهد العثماني

بعد زوال الدولة المملوكية وسيطرة العثمانيين في عام ٩٢٢هـ، انتقلت ولاية المدينة المنورة ورعاية المسجد النبوي إلى السلطان العثماني. وفي عام ٩٤٦هـ، أمر السلطان سليمان القانوني (حكم ٩٢٦-٩٧٢هـ) باستبدال الأهلّة المملوكية التي كانت تعلو القبّة والمآذن بأهلّة مطلية بالذهب. كما أُجريت ترميمات متفرقة في المسجد بأمره ما بين عامي ٩٤٧هـ و٩٧٤هـ.

وفي عهد السلطان عبد المجيد الأول، نُقِّد أضخم مشروع لتوسعة المسجد النبوي حتّى ذلك الحين. انطلقت أعمال التوسعة عام ١٢٦٥هـ واستمرّت لثلاثة عشر عامًا^١. تميّزت هذه التوسعة بتشييد ١٧٠ قبة صغيرة على سقف المسجد، زُيّنت بآيات قرآنية وأبيات من الشعر العربي. كما زُخرف الفضاء الداخلي للمسجد بالآيات القرآنية وأسماء الرسول ﷺ وكُسيّت بالذهب. وأمر السلطان عبد المجيد بإنشاء أماكن لتعليم القرآن الكريم داخل المسجد. وقد أسفرت هذه التوسعة عن زيادة في الجهة الشرقية بمقدار ٦, ٢ متر، وإجمالاً زادت مساحة المسجد بمقدار ١٢٩٣ مترًا مربعًا^٢.

العهد السعودي

مرّت عمارة وتوسعة المسجد النبوي الشريف في عهد الدولة السعودية بثلاث مراحل رئيسية:

المرحلة الأولى: انطلقت هذه المرحلة عام ١٣٧٢هـ واكتملت عام ١٣٧٥هـ، بأمر

١. انظر: صورة رقم ٥ في نهاية المقال.

٢. الشنقيطي، الدر الثمين، ١٠٢-١٠٤؛ عبد الغني، تاريخ المسجد النبوي الشريف، ٥٤-٦٥؛ الأنصاري، تعمير وتوسعه مسجد شريف نبوي، ١٤٧-١٧٣؛ حافظ، فصول من تاريخ المدينة المنورة، ٨٧-٨٩؛ بدر، التاريخ الشامل للمدينة المنورة، ٢: ٤٧١ و٤٨٣-٤٨٧.

من الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن. وقد أسفرت هذه التوسعة عن زيادة المساحة الإجمالية للمسجد لتصل إلى ١٦,٣٢٦ مترًا مربعًا، بطاقة استيعابية تبلغ ٢٨,٠٠٠ مصلاً. تمثلت التوسعة في تشييد بناء مستطيل الشكل بأبعاد ١٢٨ في ٩١ مترًا، يرتكز سقفه على ٢٣٢ عمودًا. وشملت المداخل ثلاثة أبواب في الجهة الغربية وثلاثة في الجهة الشمالية. أمّا المآذن، فقد كان عددها خمس مآذن قبل المشروع، فتمّ هدم ثلاث منها وتشييد مئذنتين جديدتين بارتفاع ٧٢ مترًا في الزاويتين الشمالية الشرقية والشمالية الغربية، ليستقرّ العدد على أربع مآذن في زوايا المسجد الأربع. وفي عهد الملك فيصل بن عبد العزيز، ونظرًا لازدياد أعداد الزوّار والمصلّين، هُيئت مساحة في الجهة الغربية للمسجد نُصبت عليها ٨٠ مظلة، مغطّية مساحة تقدر بـ ٣٥,٠٠٠ متر مربع. نُفذ هذا المشروع عام ١٩٧٣ م، ثمّ أزيل لاحقًا لدججه في التوسعة التالية^١.

المرحلة الثانية: بدأت هذه المرحلة عام ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٥ م بأمر من خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز، واكتملت عام ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٤ م. شملت التوسعة إضافة مساحة قدرها ٨٢,٠٠٠ متر مربع من الجهات الشرقية والغربية والشمالية، تتسع لـ ١٥٠,٠٠٠ مصلاً، لتصبح مساحة المسجد في الطابق الأرضي، ٩٨,٣٢٦ مترًا مربعًا بسعة إجمالية ١٧٨,٠٠٠ مصلاً. ومع احتساب مساحة سطح المسجد المهيأ للصلاة والبالغة ٥٨,٢٥٠ مترًا مربعًا وبسعة ٩٠,٠٠٠ مصلاً، تصل المساحة الإجمالية للمبنى إلى ١٥٦,٥٧٦ مترًا مربعًا، بطاقة استيعابية قدرها ٢٦٨,٠٠٠ مصلاً. كما أضيفت ساحات خارجية محيطة بالحرم بمساحة ٢٣٥,٠٠٠ متر مربع، ممّا رفع الطاقة الاستيعابية الكلية للمسجد ومرافقه إلى ٦٩٨,٠٠٠ مصلاً^٢.

١. انظر: صورة رقم ٧ في نهاية المقال.

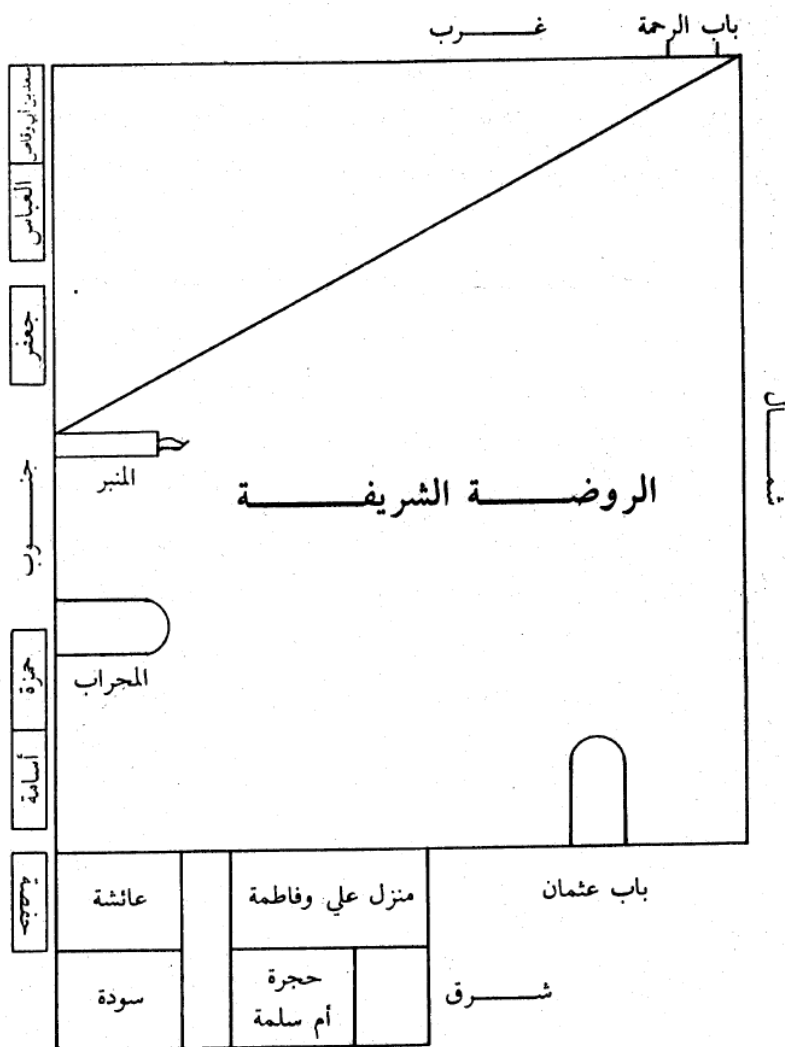
٢. انظر: صورة رقم ٨ في نهاية المقال.

وفي هذا المشروع، أصبحت خمسة من المداخل القديمة، من أصل ١١، ضمن الفضاء الداخلي للمسجد، ومع استحداث مداخل جديدة، ارتفع إجمالي عدد أبواب المسجد النبوي إلى ٤١ باباً^١.

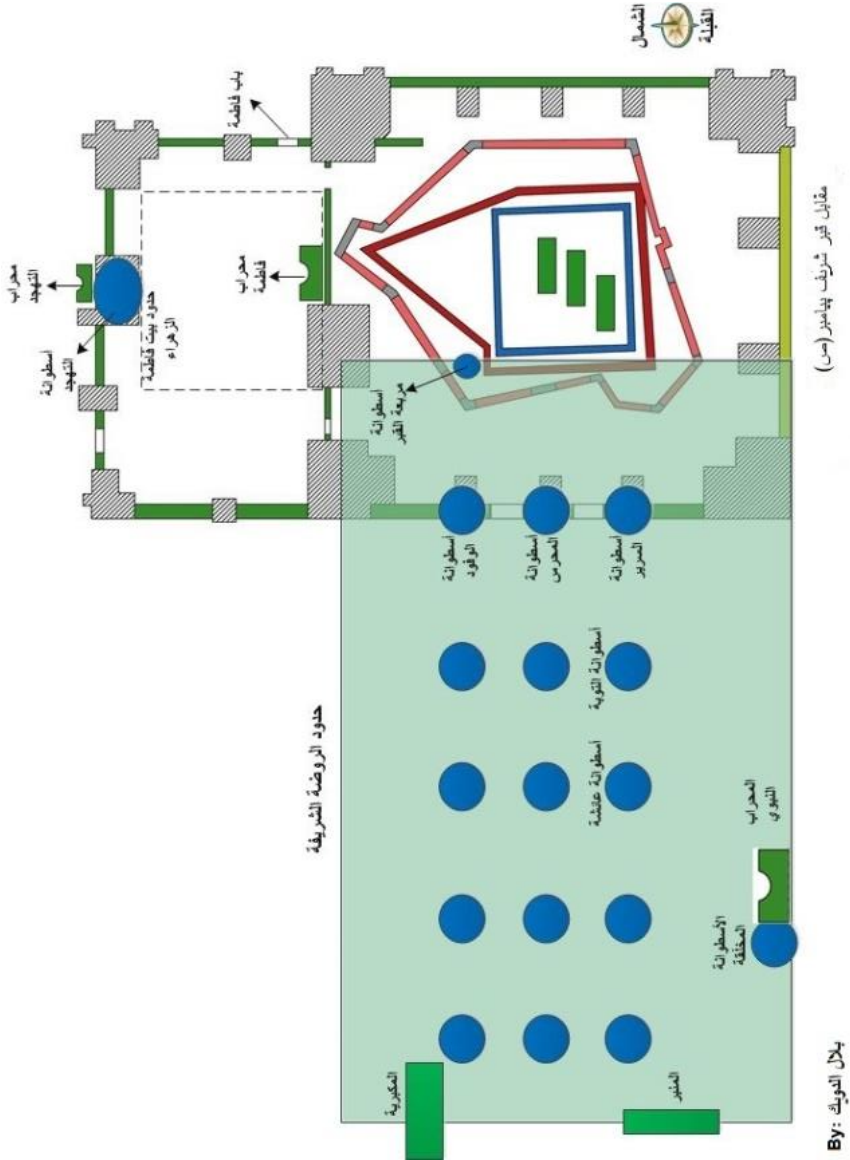
المرحلة الثالثة: انطلقت هذه المرحلة عام ٢٠١٢م بأمر من الملك عبد الله بن عبد العزيز، ولا تزال قيد التنفيذ. ووفقاً لتقارير الرئاسة العامة لشؤون المسجد النبوي، خُطِّط لهذه التوسعة أن تتم على ثلاث مراحل؛ تهدف المرحلة الأولى منها لرفع الطاقة الاستيعابية لصحن المسجد إلى ٨٠٠,٠٠٠ مصلٍّ، بينما خُصِّصت المرحلتان الثانية والثالثة لتوسعة الساحات الشرقية والغربية لتستوعب ٨٠٠,٠٠٠ مصلٍّ إضافي^٢.

١. الشنقيطي، الدر الثمين، ١٠٥-١٠٩؛ عبد الغني، تاريخ المسجد النبوي الشريف، ٦٥-١٠٢؛ الأنصاري، تعمير وتوسعة مسجد شريف نبوي، ١٧٧-٢١٤؛ حافظ، فصول من تاريخ المدينة المنورة، ٩٠-١١١؛ بدر، التاريخ الشامل للمدينة المنورة، ٣: ٢٢٨-٢٣٦ و ٢٦٨-٢٨٩.

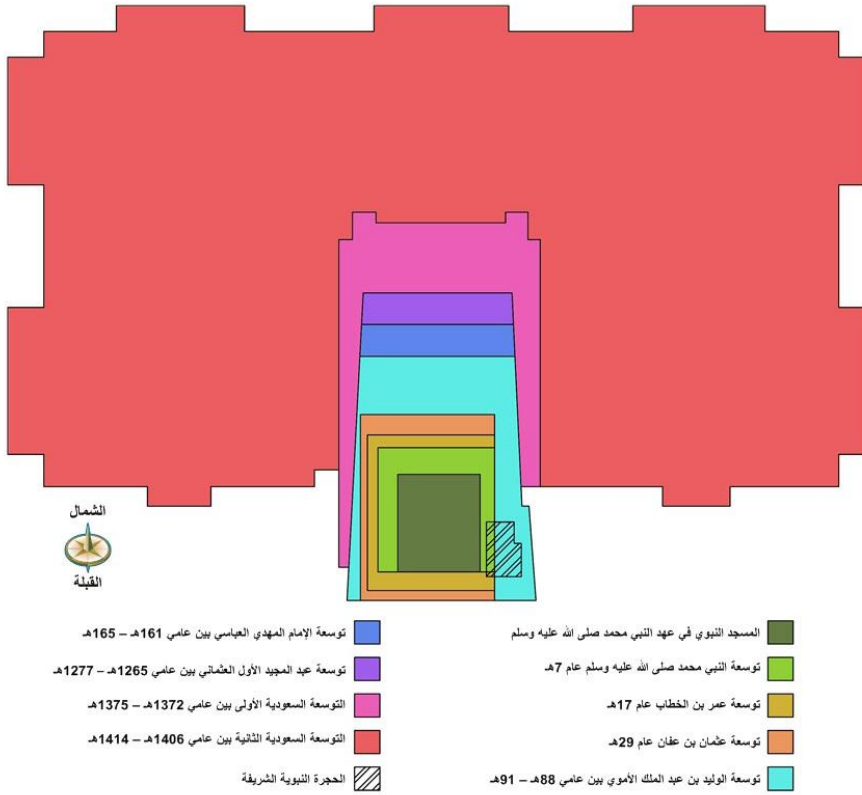
٢. وكالة الرئاسة العامة لشؤون المسجد النبوي، «عمارة المسجد النبوي».



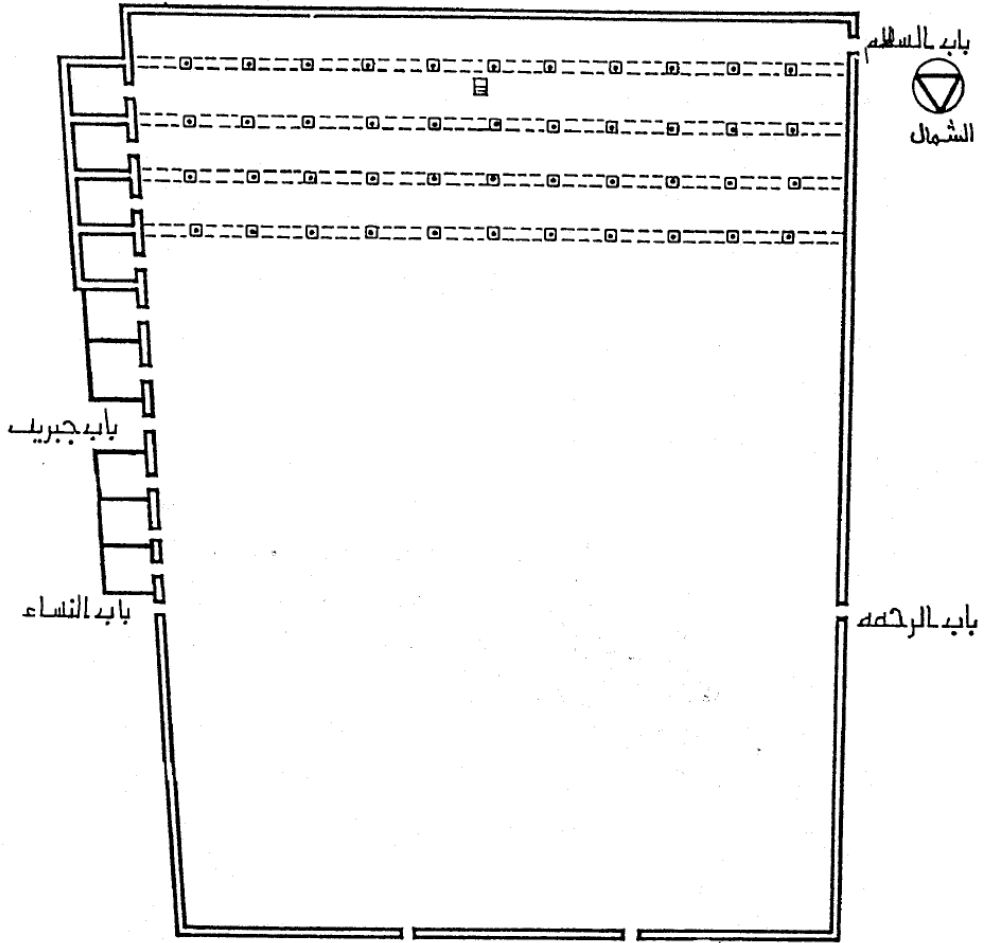
صورة ١: المخطط العام للمسجد النبوي الشريف



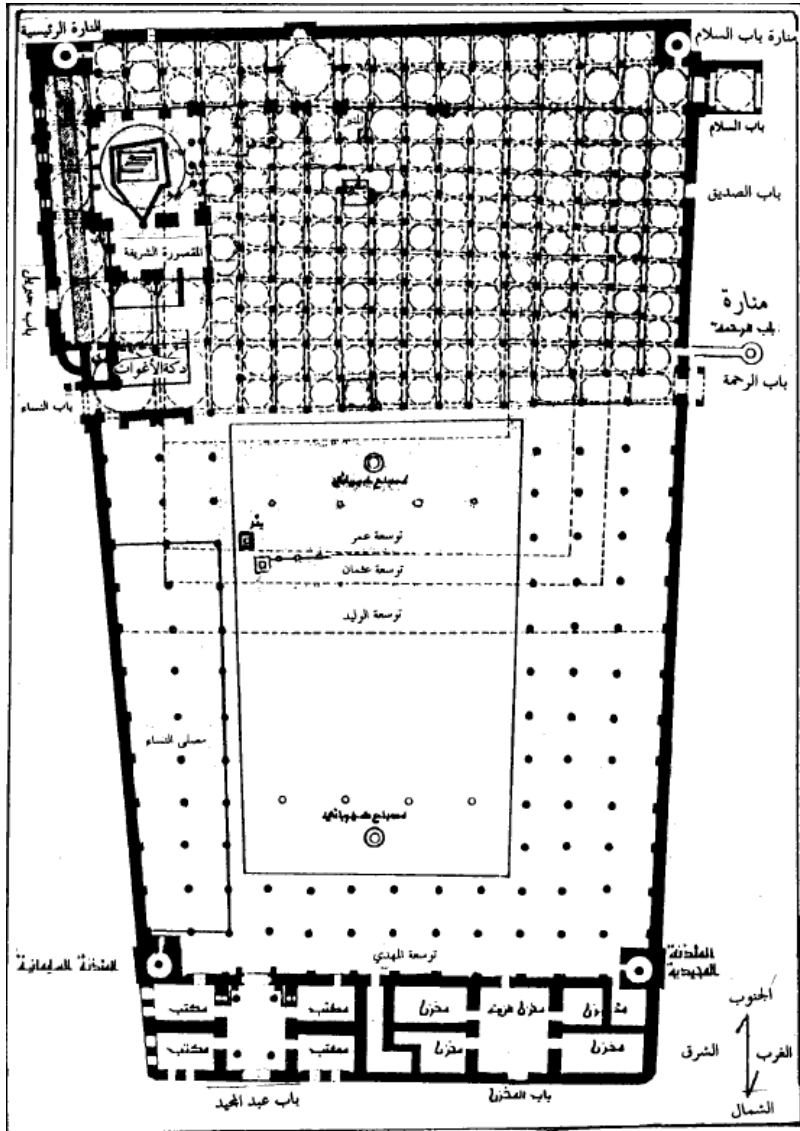
صورة ٢: نخطط أساطين المسجد



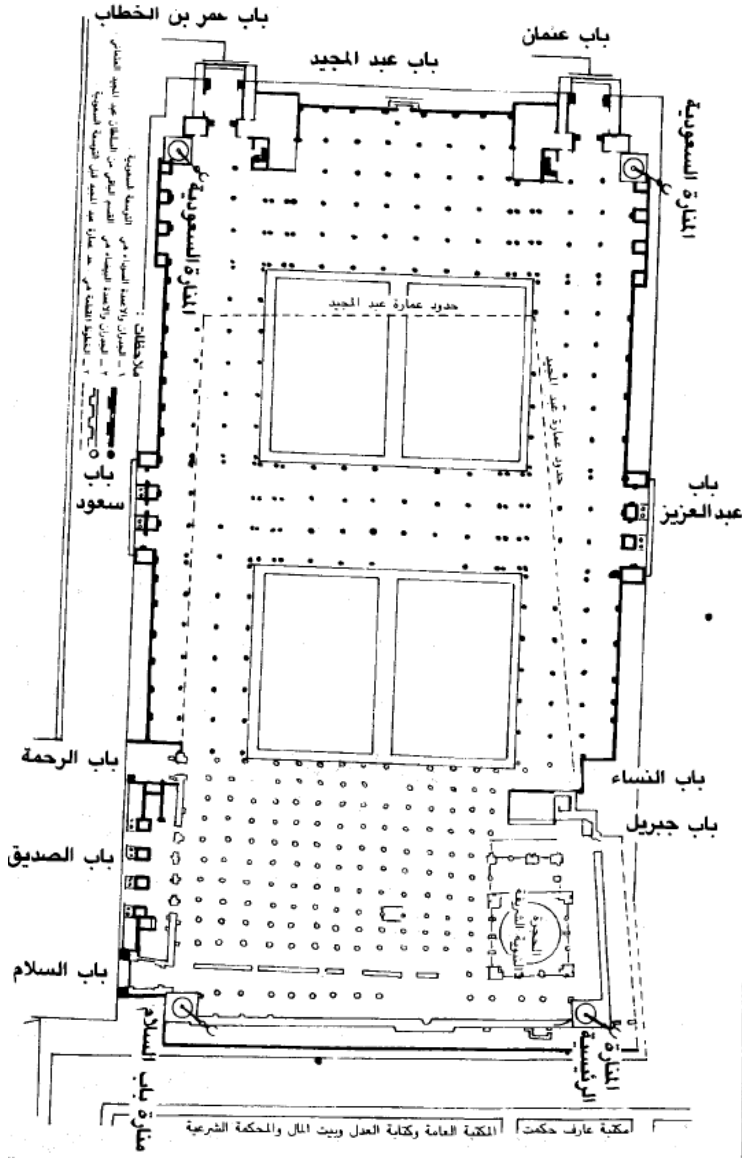
صورة ٣: توسعات المسجد النبوي الشريف عبر العصور



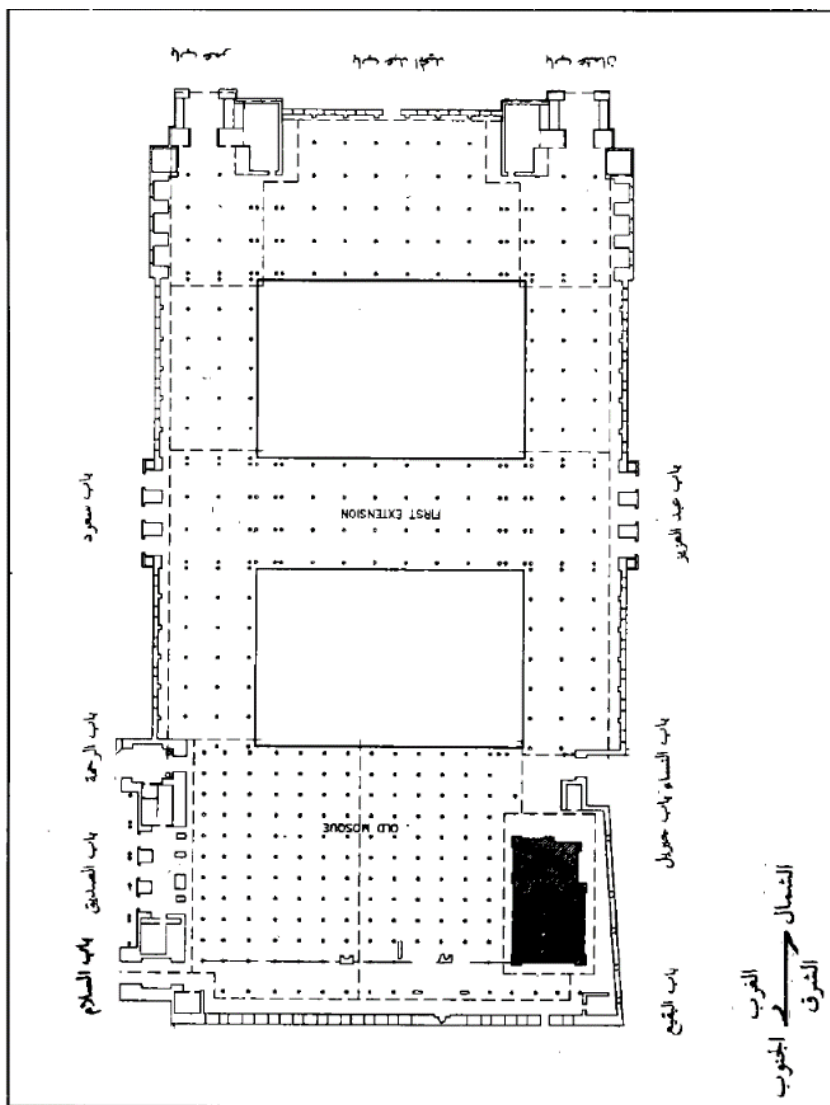
صورة ٤: مخطط أبواب المسجد النبوي الشريف



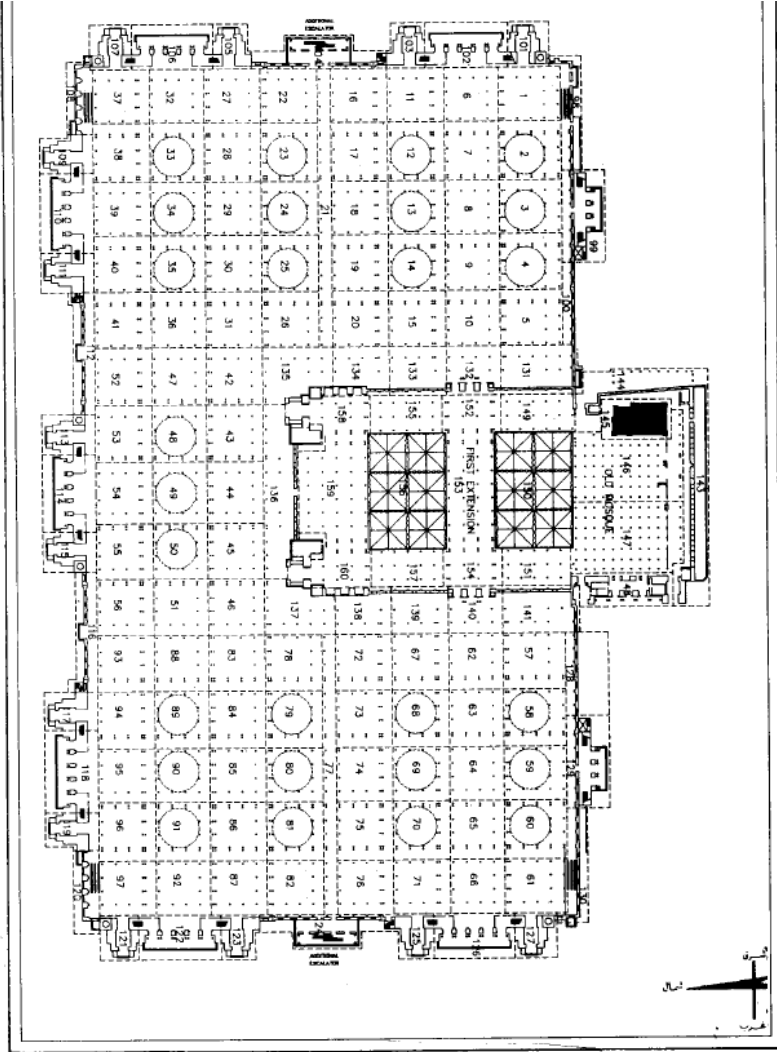
صورة ٥: توسعة المسجد النبوي في العصر العباسي



صورة ٦: توسعة المسجد النبوي في عهد السلطان عبد المجيد الأول



صورة ٧: توسعة المسجد النبوي في المرحلة الأولى من العهد السعودي



صورة ٨: توسعة المسجد النبوي في المرحلة الثانية من العهد السعودي

القسم الثالث: مختارات من الأحاديث النبوية

العقل

١. «إِنَّ حَسَبَ الرَّجُلِ دِينَهُ، وَمُرُوءَتَهُ خُلُقُهُ، وَأَصْلَهُ عَقْلُهُ»^٢.
٢. «التَّوَدُّدُ إِلَى النَّاسِ نِصْفُ الْعَقْلِ»^٣.
٣. «فِي وَصِيَّةِ النَّبِيِّ ﷺ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عليه السلام)، قَالَ: لَا مَالَ أَعُوذُ مِنَ الْعَقْلِ وَلَا وَحْدَةَ أَوْحُشُ مِنَ الْعُجْبِ»^٤.
٤. «لَمْ يُعْبِدِ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ شَيْءَ أَفْضَلَ مِنَ الْعَقْلِ، وَلَا يَكُونُ الْمُؤْمِنُ عَاقِلًا حَتَّى يَجْتَمِعَ فِيهِ عَشْرُ خِصَالٍ: الْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ. يَسْتَكْثِرُ قَلِيلَ الْخَيْرِ مِنْ غَيْرِهِ، وَيَسْتَقِلُّ كَثِيرَ الْخَيْرِ مِنْ نَفْسِهِ، وَلَا يَسْأَمُ مِنْ طَلَبِ الْعِلْمِ طَوْلَ عُمْرِهِ، وَلَا يَتَبَرَّمُ بِطُلَّابِ الْحَوَائِجِ قِبَلَهُ، الذَّلُّ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْعِزِّ وَالْفَقْرُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْغِنَى، نَصِيئُهُ مِنَ الدُّنْيَا الْقُوْتُ. وَالْعَاشِرَةُ وَمَا الْعَاشِرَةُ، لَا يَرَى أَحَدًا إِلَّا قَالَ: هُوَ خَيْرٌ مِنِّي وَأَتَقَى. إِنَّمَا

١. أي: شرف الرجل.

٢. الكليني، الكافي، ٨: ١٨١.

٣. م. ن. ٢: ٦٤٣.

٤. البرقي، المحاسن، ١: ١٧.

النَّاسُ رَجُلَانِ: فَرَجُلٌ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ وَأَتَقَى، وَآخَرُ هُوَ شَرٌّ مِنْهُ وَأَذْنَى. فَإِذَا رَأَى مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ وَأَتَقَى، تَوَاضَعَ لَهُ لِيَلْحَقَ بِهِ، وَإِذَا لَقِيَ الَّذِي هُوَ شَرٌّ مِنْهُ وَأَذْنَى، قَالَ: عَسَى خَيْرٌ هَذَا بَاطِنٌ وَشَرُّهُ ظَاهِرٌ، وَعَسَى أَنْ يُحْتَمَ لَهُ بِخَيْرٍ. فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ، فَقَدْ عَلَا مَجْدُهُ وَسَادَ أَهْلُ زَمَانِهِ»^١.

٥. «مَا قَسَمَ اللَّهُ لِلْعِبَادِ شَيْئًا أَفْضَلَ مِنَ الْعَقْلِ، فَتَوْمُ الْعَاقِلِ أَفْضَلُ مِنْ سَهْرِ الْجَاهِلِ، وَإِفْطَارُ الْعَاقِلِ أَفْضَلُ مِنْ صَوْمِ الْجَاهِلِ، وَإِقَامَةُ الْعَاقِلِ أَفْضَلُ مِنْ شُخُوصِ الْجَاهِلِ. وَلَا بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا وَلَا نَبِيًّا حَتَّى يَسْتَكْمِلَ الْعَقْلَ، وَيَكُونَ عَقْلُهُ أَفْضَلَ مِنْ عُقُولِ جَمِيعِ أُمَّتِهِ. وَمَا يُضْمِرُ النَّبِيُّ ﷺ فِي نَفْسِهِ أَفْضَلُ مِنْ اجْتِهَادِ جَمِيعِ الْمُجْتَهِدِينَ، وَمَا أَدَّى الْعَاقِلُ فَرَائِضَ اللَّهِ حَتَّى عَقَلَ مِنْهُ، وَلَا بَلَغَ جَمِيعَ الْعَابِدِينَ فِي فَضْلِ عِبَادَتِهِمْ مَا بَلَغَ الْعَاقِلُ، إِنَّ الْعُقَلَاءَ هُمْ أَوَّلُ الْأَلْبَابِ، الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أَوَّلُو الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر: ٩)»^٢.

٦. «إِذَا بَلَغَكُمْ عَنْ رَجُلٍ حُسْنُ حَالٍ، فَانْظُرُوا فِي حُسْنِ عَقْلِهِ، فَإِنَّمَا يُجَازَى بِعَقْلِهِ»^٣.
 ٧. «كَمْ مِنْ عَاقِلٍ عَقَلَ عَنِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ أَمْرَهُ وَهُوَ حَقِيرٌ عِنْدَ النَّاسِ ذَمِيمُ الْمَنْظَرِ؛ يَنْجُو غَدًا. وَكَمْ مِنْ ظَرِيفٍ اللِّسَانِ جَمِيلِ الْمَنْظَرِ عِنْدَ النَّاسِ؛ يَهْلِكُ غَدًا فِي الْقِيَامَةِ»^٤.
 ٨. «مُشَاوَرَةُ الْعَاقِلِ النَّاصِحِ رُشْدٌ وَيُمْنٌ وَتَوْفِيقٌ مِنَ اللَّهِ، فَإِذَا أَشَارَ عَلَيْكَ النَّاصِحُ الْعَاقِلُ، فَإِيَّاكَ وَالْخِلَافَ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ الْعَطَبَ»^٥.

١. الصدوق، الخصال، ٢: ٤٣٣.

٢. البرقي، المحاسن، ١: ١٩٣-١٩٤.

٣. الكليني، الكافي، ١: ١٢.

٤. الطوسي، الأُمالي، ٣٩٣.

٥. البرقي، المحاسن، ٢: ٦٠٢.

التفكير، العلم والحكمة

١. «تَفَكَّرْ سَاعَةً خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ»^١.
٢. «لَا عِبَادَةَ مِثْلُ التَّفَكُّرِ»^٢.
٣. «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، فَاطْلُبُوا الْعِلْمَ فِي مَطَانِهِ، وَاقْتَسِمُوهُ مِنْ أَهْلِهِ، فَإِنَّ تَعْلَمَهُ اللَّهُ حَسَنَةٌ، وَطَلَبُهُ عِبَادَةٌ، وَالْمُذَاكِرَةُ فِيهِ تَسْبِيحٌ، وَالْعَمَلُ بِهِ جِهَادٌ، وَتَعْلِيمُهُ مَنْ لَا يَعْلَمُهُ صَدَقَةٌ، وَبَذْلُهُ لِأَهْلِهِ قُرْبَةٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، لِأَنَّهُ مَعَالِمُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَمَنَارُ سُبُلِ الْجَنَّةِ، وَالْمُونِسُ فِي الْوَحْشَةِ، وَالصَّاحِبُ فِي الْعُرْبَةِ وَالْوَحْدَةِ، وَالْمُحَدِّثُ فِي الْخُلُوفَةِ، وَالِدَّلِيلُ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَالسَّلَاحُ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَالزَّيْنُ عِنْدَ الْأَخْلَاءِ. يَرْفَعُ اللَّهُ بِهِ أَقْوَامًا فَيَجْعَلُهُمْ فِي الْخَيْرِ قَادَةً تُقْتَبَسُ آثَارُهُمْ، وَيُهْتَدَى بِفَعَالِهِمْ، وَيُنْتَهَى إِلَى آرَائِهِمْ، تَرَعَّبُ الْمَلَائِكَةُ فِي خِلَّتِهِمْ، وَبِأَجْنَحَتِهَا تَمْسُهُمْ، وَفِي صَلَاتِهَا تَبَارَكَ عَلَيْهِمْ، يَسْتَغْفِرُ لَهُمْ كُلَّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ حَتَّى حِيتَانُ الْبَحْرِ وَهَوَامُّهُ، وَسِبَاعُ الْبَرِّ وَأَنْعَامُهُ. إِنَّ الْعِلْمَ حَيَاةُ الْقُلُوبِ مِنَ الْجَهْلِ، وَضِيَاءُ الْأَبْصَارِ مِنَ الظُّلْمَةِ، وَقُوَّةُ الْأَبْدَانِ مِنَ الضَّعْفِ، يَبْلُغُ بِالْعَبْدِ مَنَازِلَ الْأَخْيَارِ، وَمَجَالِسَ الْأَبْرَارِ، وَالدَّرَجَاتِ الْعُلَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، الذِّكْرُ فِيهِ يَعْدَلُ بِالصِّيَامِ، وَمَدَارِسُهُ بِالْقِيَامِ، بِهِ يُطَاعُ الرَّبُّ وَيُعْبَدُ، وَبِهِ تُوَصَّلُ الْأَرْحَامُ، وَيُعْرَفُ الْحَلَالُ مِنَ الْحَرَامِ، الْعِلْمُ إِمَامُ الْعَمَلِ وَالْعَمَلُ تَابِعُهُ، يُلْهِمُ بِهِ السُّعْدَاءُ وَيُجْرِمُهُ الْأَشْقِيَاءُ، فَطُوبَى لِمَنْ لَمْ يُجْرِمَهُ اللَّهُ مِنْهُ حَظَّهُ»^٣.
٤. «دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا جَمَاعَةٌ قَدْ أَطَافُوا بِرَجُلٍ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟

١. الكوفي الأهوازي، الزهد، ١٥.

٢. الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ٤: ٣٧٢.

٣. الطوسي، الأمالي، ٤٨٨.

فَقِيلَ: عَلَامَةٌ. فَقَالَ: وَمَا الْعَلَامَةُ؟ فَقَالُوا لَهُ: أَعْلَمَ النَّاسِ بِأَنْسَابِ الْعَرَبِ وَوَقَائِعِهَا وَأَيَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْأَشْعَارِ وَالْعَرَبِيَّةِ. قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ذَاكَ عِلْمٌ لَا يَضُرُّ مَنْ جَهَلَهُ وَلَا يَنْفَعُ مَنْ عِلِمَهُ. ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّمَا الْعِلْمُ ثَلَاثٌ، آيَةٌ مُحْكَمَةٌ أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ، وَمَا خَلَاهُنَّ فَهُوَ فَضْلٌ^١.

٥. «مَنْ خَرَجَ يَطْلُبُ أَبَاً مِنْ عِلْمٍ لِيُرِدَّ بِهِ بَاطِلًا إِلَى حَقٍّ أَوْ ضَلَالَةً إِلَى هُدًى، كَانَ عَمَلُهُ ذَلِكَ كَعِبَادَةِ مُتَعَبِّدٍ أَرْبَعِينَ عَامًا»^٢.

٦. «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا، سَلَكَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ. وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِهِ، وَإِنَّهُ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْخُوثُ فِي الْبَحْرِ. وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ النُّجُومِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ. وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ لَوُرَّتْهُ الْأَنْبِيَاءُ»^٣.

٧. «طَالِبُ الْعِلْمِ بَيْنَ الْجُهَالِ، كَالْحَيِّ بَيْنَ الْأَمْوَاتِ»^٤.

٨. «عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي وَصِيَّتِهِ لَهُ، قَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ، يَطْلُعُ قَوْمٌ مِنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِلَى قَوْمٍ مِنَ أَهْلِ النَّارِ فَيَقُولُونَ: مَا أَذْخَلَكُمُ النَّارَ؟ وَإِنَّمَا دَخَلْنَا الْجَنَّةَ بِفَضْلِ تَعْلِيمِكُمْ وَتَأْدِيبِكُمْ [لَنَا]. فَيَقُولُونَ: إِنَّا كُنَّا نَأْمُرُكُمْ بِالْخَيْرِ وَلَا نَفْعَلُهُ»^٥.

٩. «الْعُلَمَاءُ رَجُلَانِ: رَجُلٌ عَالِمٌ أَخَذَ بِعِلْمِهِ فَهَذَا نَاجٍ، وَعَالِمٌ تَارَكَ لِعِلْمِهِ فَهَذَا هَالِكٌ. وَإِنَّ أَهْلَ النَّارِ لَيَتَأَذُّونَ مِنْ رِيحِ الْعَالِمِ التَّارِكِ لِعِلْمِهِ. وَإِنَّ أَشَدَّ أَهْلِ النَّارِ نَدَامَةً وَحَسْرَةً رَجُلٌ دَعَا عَبْدًا إِلَى اللَّهِ فَاسْتَجَابَ لَهُ وَقَبِلَ مِنْهُ، فَأَطَاعَ اللَّهُ فَأَدْخَلَهُ اللَّهُ

١. الكليني، الكافي، ١: ٣٢.

٢. الطوسي، الأُمالي، ٦١٩.

٣. الصنفار، بصائر الدرجات، ١: ٣.

٤. الطوسي، الأُمالي، ٥٧٧.

٥. م. ن. ٥٢٧.

- الْجَنَّةَ، وَأَدْخَلَ الدَّاعِيَ النَّارَ بِتَرْكِهِ عِلْمَهُ وَاتِّبَاعِهِ الْهُوَى وَطُولِ الْأَمَلِ. أَمَّا اتِّبَاعُ الْهُوَى، فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَطُولُ الْأَمَلِ يُنْسِي الْآخِرَةَ^١.
١٠. «مَا أَعَزَّ اللَّهُ بِجَهْلٍ قَطُّ، وَلَا أَذَلَّ بِحِلْمٍ قَطُّ»^٢.
١١. «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْإِسْلَامَ فَجَعَلَ لَهُ عَرَصَةً، وَجَعَلَ لَهُ نُورًا، وَجَعَلَ لَهُ حِصْنًا، وَجَعَلَ لَهُ نَاصِرًا. فَأَمَّا عَرَصَتُهُ فَالْقُرْآنُ، وَأَمَّا نُورُهُ فَالْحِكْمَةُ، وَأَمَّا حِصْنُهُ فَالْمَعْرُوفُ، وَأَمَّا أَنْصَارُهُ فَأَنَا وَأَهْلُ بَيْتِي وَشِيعَتُنَا»^٣.
١٢. «كَلِمَتَانِ غَرِيبَتَانِ، فَاحْتَمِلُوهُمَا: كَلِمَةُ حِكْمَةٍ مِنْ سَفِيهِ، فَاقْبَلُوهَا، وَكَلِمَةُ سَفِيهِ مِنْ حَكِيمٍ، فَاغْفِرْوَهَا»^٤.
١٣. «إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ سَكَتُوا فَكَانَ سُكُوتُهُمْ ذِكْرًا، وَنَظَرُوا فَكَانَ نَظَرُهُمْ عِبْرَةً، وَنَطَقُوا فَكَانَ نُطْقُهُمْ حِكْمَةً»^٥.

الإيمان

١. «الْإِيمَانُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ»^٦.
٢. «الْإِيمَانُ فِي عَشْرَةِ: الْمَعْرِفَةِ، وَالطَّاعَةِ، وَالْعِلْمِ، وَالْعَمَلِ، وَالْوَرَعِ، وَالْإِجْتِهَادِ، وَالصَّبْرِ، وَالْيَقِينِ، وَالرِّضَا، وَالتَّسْلِيمِ. فَأَيُّهَا فَقَدْ صَاحِبُهُ، بَطَلَ نِظَامُهُ»^٧.
٣. «مَنْ أَوْثَقَ عُرَى الْإِيمَانِ: أَنْ تُحِبَّ لِلَّهِ وَتُبْعِضَ لِلَّهِ، وَتُعْطِيَ فِي اللَّهِ وَتَمْنَعَ فِي اللَّهِ»^٨.

١. الكليني، الكافي، ٤٤: ١.

٢. م. ن. ١١٢: ٢.

٣. م. ن. ٤٦: ٢.

٤. الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ٤٠٦: ٤.

٥. الكليني، الكافي، ٢٣٧: ٢.

٦. الصدوق، الخصال، ٥٣: ١.

٧. الكراچكي، كنز الفوائد، ١١: ٢.

٨. الكوفي الأهوازي، الزهد، ١٧.

٤. «وَدُ الْمُؤْمِنِ لِلْمُؤْمِنِ فِي اللَّهِ مِنْ أَعْظَمِ شُعَبِ الْإِيمَانِ. وَمَنْ أَحَبَّ فِي اللَّهِ وَأَبْغَضَ فِي اللَّهِ، وَأَعْطَى فِي اللَّهِ وَمَنَعَ فِي اللَّهِ، فَهُوَ مِنْ أَصْفِيَاءِ اللَّهِ»^١.

٥. «ثَلَاثُ خِصَالٍ مَنْ كُنَّ فِيهِ، اسْتَكْمَلَ خِصَالَ الْإِيمَانِ: إِذَا رَضِيَ لَمْ يُدْخِلْهُ رِضَاهُ فِي بَاطِلٍ، وَإِذَا غَضِبَ لَمْ يُخْرِجْهُ الْغَضَبُ مِنَ الْحَقِّ، وَإِذَا قَدَرَ لَمْ يَتَعَاطَ مَا لَيْسَ لَهُ»^٢.

٦. «[قال امير المؤمنين ﷺ]: فَأَخْبِرْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ بِصِفَةِ الْمُؤْمِنِ. فَكَسَّ ﷺ رَأْسَهُ ثُمَّ رَفَعَهُ فَقَالَ ﷺ: يَا عَلِيُّ، إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ هُمُ الْحَاضِرُونَ لِلصَّلَاةِ، وَالْمُسَارِعُونَ إِلَى الزَّكَاةِ، وَالْحَاجُّونَ لِبَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ، وَالصَّائِمُونَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، وَالْمُطْعَمُونَ الْمِسْكِينَ، وَالْمَاسِحُونَ رَأْسَ الْيَتِيمِ، الْمُطَهَّرُونَ أَطْمَارَهُمْ... الَّذِينَ إِنْ حَدَّثُوا لَمْ يَكْذِبُوا، وَإِذَا وَعَدُوا لَمْ يُخْلِفُوا، وَإِذَا اتُّمِنُوا لَمْ يَخُونُوا، وَإِنْ تَكَلَّمُوا صَدَقُوا، رُهْبَانٌ بِاللَّيْلِ اسْدُّ بِالنَّهَارِ، صَائِمُونَ بِالنَّهَارِ، قَائِمُونَ بِاللَّيْلِ، لَا يُؤْذُونَ جَارًا، وَلَا يَتَأَذَى بِهِمْ جَارٌ، الَّذِينَ مَشِيَهُمْ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنٌ...»^٣.

٧. «ثَلَاثٌ مِنْ حَقَائِقِ الْإِيمَانِ: الْإِنْفَاقُ مِنَ الْإِقْتَارِ، وَإِنْصَافُكَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ، وَبَذْلُ الْعِلْمِ لِلْمُتَعَلِّمِ»^٤.

٨. «لَا يَكُونُ الْعَبْدُ مُؤْمِنًا حَتَّى يُحَاسِبَ نَفْسَهُ أَشَدَّ مِنْ مُحَاسَبَةِ الشَّرِيكِ شَرِيكُهُ وَالسَّيِّدَ عَبْدَهُ»^٥.

١. البرقي، المحاسن، ١: ٢٦٣.

٢. الكليني، الكافي، ٢: ٢٣٩.

٣. الهون: السكينة والوقار. م. ن، ٢: ٢٣٢.

٤. أي: في حال ضيق المعيشة.

٥. الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ٤: ٣٦٠.

٦. ابن طاووس، محاسبة النفس، ١٤.

٩. «أنا وعليُّ أبوا هذه الأمة، مَنْ عَرَفَنَا فَقَدْ عَرَفَ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ، وَمَنْ أَنْكَرَنَا فَقَدْ أَنْكَرَ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ»^١.

١٠. «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ»^٢.

١١. «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ كَمَثَلِ مَلِكٍ مُقَرَّبٍ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ عِنْدَ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ مُؤْمِنٍ تَائِبٍ أَوْ مُؤْمِنَةٍ تَائِبَةٍ»^٣.

١٢. «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُعْرِفُ فِي السَّمَاءِ كَمَا يَعْرِفُ الرَّجُلُ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ، وَإِنَّهُ لَا كَرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنْ مَلِكٍ مُقَرَّبٍ»^٤.

١٣. «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا رَأَى أَهْلَ قَرْيَةٍ قَدْ أَسْرَفُوا فِي الْمَعَاصِي، وَفِيهَا ثَلَاثَةٌ نَفَرٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، نَادَاهُمْ جَلَّ جَلَالُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ: يَا أَهْلَ مَعْصِيَتِي، لَوْلَا مَنْ فِيكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَحَابِّينَ بِجَلَالِي، الْعَامِرِينَ بِصَلَاتِهِمْ أَرْضِي وَمَسَاجِدِي، وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ خَوْفًا مِنِّي، لَأَنْزَلْتُ بِكُمْ عَذَابِي ثُمَّ لَا أُبَالِي»^٥.

١٤. «لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّحَلِّيِّ وَلَا بِالتَّمَنِّيِّ، وَلَكِنَّ الْإِيمَانَ مَا خَلَصَ فِي الْقَلْبِ وَصَدَّقَهُ الْأَعْمَالُ»^٦.

١٥. «أَلَا وَإِنَّ أَدَى الْمُؤْمِنِ مِنْ أَعْظَمِ سَبَبِ سَلْبِ الْإِيمَانِ»^٧.

١. الصدوق، كمال الدين، ١: ٢٦١.

٢. ابن أبي جههر الأحسائي، عوالي اللئالي، ٤: ١٠٢.

٣. الصدوق، عيون أخبار الرضا، ٢: ٢٩.

٤. م. ن.، ٢: ٣٣.

٥. الصدوق، الأمل، ١٩٩.

٦. الصدوق، معاني الأخبار، ١٨٧.

٧. الكراجكي، كنز الفوائد، ١: ٣٥٢.

الدنيا، وطول الأمل، والقناعة

١. «الدُّنْيَا مَزْرَعَةٌ الْآخِرَةُ»^١.
٢. «الدُّنْيَا سَاعَةٌ، فَاجْعَلْهَا طَاعَةً»^٢.
٣. «أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ هَادِمِ اللَّذَاتِ»^٣.
٤. «فِي وَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي ذَرٍّ، قَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ، اغْنَمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سُقْمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ»^٤.
٥. «الْمُؤْمِنُ يَتَرَوَّدُ وَالْكَافِرُ يَتَمَتَّعُ. يَا ابْنَ آدَمَ، عِفَّ عَنْ مُحَارِمِ اللَّهِ تَكُنْ عَابِدًا، وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ غَنِيًّا، وَأَحْسِنْ جَوَارَ مَنْ جَاوَرَكَ تَكُنْ مُسْلِمًا، وَصَاحِبِ النَّاسِ بِمَا تُحِبُّ أَنْ يَصْحَبُوكَ تَكُنْ مُنْصَفًا. إِنَّهُ قَدْ كَانَ قَبْلَكُمْ قَوْمٌ جَمَعُوا كَثِيرًا، وَبَنَوْا مَشِيدًا وَأَمَلُوا بَعِيدًا، فَأَصْبَحَ جَمْعُهُمْ بُورًا وَمَسَاكِينُهُمْ قُبُورًا. يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مُرْتَهَنٌ بِعَمَلِكَ مُتَعَرِّضٌ عَلَى رَبِّكَ، فَجُدْ بِمَا فِي يَدَيْكَ وَطَأْ الْأَرْضَ بِقَدَمِكَ، فَإِنَّهَا عَنْ قَلِيلٍ مَسْكَنُكَ، لَمْ تَزَلْ فِي هَدْمِ عُمْرِكَ مُنْذُ سَقَطْتَ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ بَطْنِ أُمِّكَ»^٥.
٦. «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ لَكُمْ مَعَالِمَ فَاَنْتَهُوا إِلَى مَعَالِمِكُمْ، وَإِنَّ لَكُمْ نِهَآيَةً فَاَنْتَهُوا إِلَى نِهَآيَتِكُمْ. أَلَا إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَعْمَلُ بَيْنَ مَخَافَتَيْنِ: بَيْنَ أَجَلٍ قَدْ مَضَى لَا يَدْرِي مَا اللَّهُ صَانِعٌ فِيهِ، وَبَيْنَ أَجَلٍ قَدْ بَقِيَ لَا يَدْرِي مَا اللَّهُ قَاضٍ فِيهِ. فَلْيَأْخُذِ الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ وَمِنْ

١. ابن أبي جمهور الأحسائي، عوالي اللئالي، ١: ٢٦٧.

٢. م. ن.، ١: ٢٨٥.

٣. الصدوق، عيون أخبار الرضا ﷺ، ٢: ٧٠.

٤. الطوسي، الأمالي، ٥٢٦.

٥. الديلمي، إرشاد القلوب، ١: ١٨-١٩.

دُنْيَاهُ لِآخِرَتِهِ، وَفِي الشَّيْبَةِ قَبْلَ الْكِبَرِ وَفِي الْحَيَاةِ قَبْلَ الْمَمَاتِ. فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا بَعْدَ الدُّنْيَا مِنْ مُسْتَعْتَبٍ وَمَا بَعْدَهَا مِنْ دَارٍ، إِلَّا الْجَنَّةُ أَوْ النَّارُ^١.

٧. «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ فِي دَارِ هُدًى، وَأَنْتُمْ عَلَى ظَهَرٍ سَفَرٍ وَالسَّيْرُ بِكُمْ سَرِيعٌ، وَقَدْ رَأَيْتُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ يُبْلِيَانِ كُلَّ جَدِيدٍ وَيُقَرِّبَانِ كُلَّ بَعِيدٍ، وَيَأْتِيَانِ بِكُلِّ مَوْعُودٍ فَأَعِدُّوا الْجَهَّازَ لِبُعْدِ الْمَجَازِ... فَإِذَا التَّبَسَّتْ عَلَيْكُمْ الْفِتْنُ كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، فَعَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ وَمَا حِلٌّ مُصَدِّقٌ، وَمَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ، وَهُوَ الدَّلِيلُ يَدُلُّ عَلَى خَيْرِ سَبِيلٍ... وَلَهُ ظَهْرٌ وَبَطْنٌ، فَظَاهِرُهُ حُكْمٌ وَبَاطِنُهُ عِلْمٌ، ظَاهِرُهُ أَنْيَقُ وَبَاطِنُهُ عَمِيقٌ، لَهُ نُجُومٌ وَعَلَى نُجُومِهِ نُجُومٌ^٢، لَا تُحْصَى عَجَائِبُهُ وَلَا تُبْلَى غَرَائِبُهُ، فِيهِ مَصَابِيحُ الْهُدَى وَمَنَارُ الْحِكْمَةِ وَدَلِيلٌ عَلَى الْمَعْرِفَةِ لِمَنْ عَرَفَ الصِّفَةَ، فَلْيَجْلُ جَالٍ بَصَرُهُ وَلْيَبْلُغِ الصِّفَةَ نَظَرُهُ يَنْجُ مِنْ عَطَبٍ وَيَتَخَلَّصَ مِنْ نَسَبٍ. فَإِنَّ التَّفَكُّرَ حَيَاةُ قَلْبِ الْبَصِيرِ، كَمَا يَمْشِي الْمُسْتَتِيرُ فِي الظُّلُمَاتِ بِالنُّورِ^٣.

٨. «إِنَّ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا صَيْفٌ وَمَا فِي أَيْدِيهِمْ عَارِيَةٌ، وَإِنَّ الصَّيْفَ رَاحِلٌ وَإِنَّ الْعَارِيَّةَ مَرْدُودَةٌ. أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا عَرَضٌ حَاضِرٌ يَأْكُلُ مِنْهُ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، وَالْآخِرَةُ وَعْدٌ صَادِقٌ يَحْكُمُ فِيهِ مَلِكٌ عَادِلٌ قَاهِرٌ. فَرَحِمَ اللَّهُ مَنْ نَظَرَ لِنَفْسِهِ وَمَهَّدَ لِمَنْسِهِ وَحَبَلَهُ عَلَى عَاتِقِهِ مُلْقًى، قَبْلَ أَنْ يُنْفَذَ أَجَلُهُ وَيَنْقَطِعَ أَمْلُهُ وَلَا يَنْفَعَهُ النَّدَمُ^٤.

١. الكليني، الكافي، ٢: ٧٠.

٢. ذهب العلامة المجلسي (ت. ١١١٠هـ) إلى اعتبار أنَّ نجوم القرآن هي آياته؛ ذلك أنَّ الآيات - كالنجوم - هي وسيلة هداية الإنسان. كما أورد في معرض بيانه للنجوم التي على الآيات ثلاثة احتمالات: الأول، أن يكون المقصود بها «السُّنَّة»؛ لأنَّ السُّنَّةَ هي المَبِينَةُ للقرآن. الثاني، أن يُقصدَ بها «الأئمة»؛ لأنَّهم القائمون بالعمل بالقرآن. الثالث، أن يُرادَ بها «المعجزات»؛ إذ إنَّ المعجزات تهدي الإنسان إلى حقيقة الآيات القرآنية (المجلسي، مرآة العقول، ١٢: ٤٧٩).

٣. الكليني، الكافي، ٢: ٥٩٨-٥٩٩.

٤. الديلمي، إرشاد القلوب، ١: ٢٣-٢٤.

٩. «إِنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ أَوْحَىٰ إِلَى الدُّنْيَا: أَنْ أَتْعِبِي مَنْ خَدَمَكَ وَاخْدُمِي مَنْ رَفَضَكَ، وَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا تَخَلَّى بِسَيِّدِهِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ وَنَاجَاهُ، أَثَبَّتَ اللَّهُ النُّورَ فِي قَلْبِهِ. فَإِذَا قَالَ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ، نَادَاهُ الْجَلِيلُ جَلَّ جَلَالُهُ: لَبَّيْكَ عَبْدِي، سَلْنِي أُعْطِكَ، وَتَوَكَّلْ عَلَيَّ أَكْفِكَ. ثُمَّ يَقُولُ جَلَّ جَلَالُهُ لِمَلَائِكَتِهِ: يَا مَلَائِكَتِي، انظُرُوا إِلَى عَبْدِي فَقَدْ تَخَلَّى بِي فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، وَالْبَاطِلُونَ لَاهُونَ وَالْعَافِلُونَ نِيَامُ، اشْهَدُوا أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ.

ثُمَّ قَالَ ﷺ: عَلَيْكُمْ بِالْوَرَعِ وَالِاجْتِهَادِ وَالْعِبَادَةِ، وَازْهَدُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا الزَّاهِدَةَ فِيكُمْ، فَإِنَّهَا غَرَارَةٌ دَارُ فَنَاءٍ وَزَوَالٍ. كَمْ مِنْ مُغْتَرٍّ فِيهَا قَدْ أَهْلَكَتُهُ، وَكَمْ مِنْ وَائِقٍ بِهَا قَدْ خَانَتْهُ، وَكَمْ مِنْ مُعْتَمِدٍ عَلَيْهَا قَدْ خَدَعَتْهُ وَأَسْلَمَتْهُ. وَعَلِّمُوا أَنَّ أَمَامَكُمْ طَرِيقًا مَهُولًا وَسَفَرًا بَعِيدًا، وَمَكْرُكُم عَلَى الصِّرَاطِ وَلَا بُدَّ لِلْمُسَافِرِ مِنْ زَادٍ، فَمَنْ لَمْ يَتَزَوَّدْ وَسَافَرَ، عَطَبَ وَهَلَكَ، وَخَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى.

ثُمَّ اذْكُرُوا وَتُؤْفِكُمْ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، فَإِنَّهُ الْحَكَمُ الْعَدْلُ، وَاسْتَعِدُّوا لِجَوَابِهِ إِذَا سَأَلَكُمْ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ سَائِلِكُمْ عَمَّا عَمِلْتُمْ بِالثَّقَلَيْنِ مِنْ بَعْدِي: كِتَابِ اللَّهِ وَعِزَّتِي، فَانظُرُوا أَنْ لَا تَقُولُوا: أَمَّا الْكِتَابُ، فَعَيَّرْنَا وَحَرَّفْنَا، وَأَمَّا الْعِزَّةُ، فَفَارَقْنَا وَقَتَلْنَا، فَعِنْدَ ذَلِكَ لَا يَكُونُ جَزَاؤُكُمْ إِلَّا النَّارُ. فَمَنْ أَرَادَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَلْيَتَوَلَّ وَلِيِّي وَلْيَتَّبِعْ وَصِيِّي وَخَلِيفَتِي مِنْ بَعْدِي عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، فَإِنَّهُ صَاحِبُ حَوْضِي يَذُودُ عَنْهُ أَعْدَاءَهُ، وَيَسْقِي أَوْلِيَائَهُ. فَمَنْ لَمْ يُسَقَ مِنْهُ لَمْ يَزَلْ عَطْشَانٌ وَلَمْ يَزَلْ أَبَدًا، وَمَنْ سَقِيَ مِنْهُ شَرْبَةً لَمْ يَشْقَ وَلَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا. وَإِنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ لَصَاحِبُ لَوَائِي فِي الْآخِرَةِ، كَمَا كَانَ صَاحِبَ لَوَائِي فِي الدُّنْيَا. وَإِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، لِأَنَّهُ يَتَقَدَّمُنِي وَبِيَدِهِ لَوَائِي، تَحْتَهُ آدَمُ وَمَنْ دُونَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ^١.

١٠. «مَنِ اشْتَقَّ إِلَى الْجَنَّةِ سَارَعَ إِلَى الْخَيْرَاتِ، وَمَنْ خَافَ النَّارَ تَرَكَ الشَّهَوَاتِ، وَمَنْ تَرَقَّبَ الْمَوْتَ أَعْرَضَ عَنِ اللَّذَاتِ، وَمَنْ زَهَدَ فِي الدُّنْيَا هَانَتْ عَلَيْهِ الْمُصِيبَاتِ»^١.
١١. «مَنْهُمَا لَا يَشْبَعَانِ: طَالِبُ دُنْيَا وَطَالِبُ عِلْمٍ؛ فَمَنْ اقْتَصَرَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُ سَلِمَ، وَمَنْ تَنَاوَلَهَا مِنْ غَيْرِ حِلِّهَا هَلَكَ، إِلَّا أَنْ يَتَوَبَّ أَوْ يُرَاجِعَ. وَمَنْ أَخَذَ الْعِلْمَ مِنْ أَهْلِهِ وَعَمَلَ بِعِلْمِهِ نَجَا، وَمَنْ أَرَادَ بِهِ الدُّنْيَا فَهِيَ حَظُّهُ»^٢.
١٢. «حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ، وَمِفْتَاحُ كُلِّ سَيِّئَةٍ، وَسَبَبُ إِحْبَاطِ كُلِّ حَسَنَةٍ»^٣.
١٣. «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْهُوَى وَطُولُ الْأَمَلِ. أَمَّا الْهُوَى، فَإِنَّهُ يَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ، فَيُنْسِي الْآخِرَةَ»^٤.
١٤. «إِنَّ صَلَاحَ أَوَّلِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالزُّهْدِ وَالْيَقِينِ، وَهَلَكَ آخِرُهَا بِالشُّحِّ وَالْأَمَلِ»^٥.
١٥. «مَا قَلَّ وَكَفَى، خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَلْهَى»^٦.
١٦. «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَبَّةِ الْوَدَاعِ: أَلَا إِنَّ الرُّوحَ الْأَمِينَ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّهُ لَا تَمُوتُ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمَلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ اسْتِبْطَاءُ شَيْءٍ مِنَ الرِّزْقِ أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ. فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَسَمَ الْأَرْزَاقَ بَيْنَ خَلْقِهِ حَلَالًا وَلَمْ يُقَسِّمْهَا حَرَامًا، فَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَصَبَرَ أَتَاهُ اللَّهُ بِرِزْقِهِ مِنْ حِلِّهِ، وَمَنْ هَتَكَ حِجَابَ السِّرِّ وَعَجَلَ فَأَخَذَهُ مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ، قُصَّ بِهِ مِنْ رِزْقِهِ الْحَلَالِ وَحُوسِبَ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^٧.

١. الطبرسي، مكارم الأخلاق، ٤٤٧.

٢. الكليني، الكافي، ٤٦: ١.

٣. الديلمي، إرشاد القلوب، ٢١: ١.

٤. الصدوق، الخصال، ٥١.

٥. الصدوق، الأموال، ٢٢٧.

٦. الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ٣٧٦: ٤.

٧. الكليني، الكافي، ٨٠: ٥.

١٧. «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ أَغْنَى النَّاسِ، فَلْيَكُنْ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ أَوْثَقَ مِنْهُ بِمَا فِي يَدِ غَيْرِهِ»^١.
١٨. «أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: عَلَّمَنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ شَيْئًا. فَقَالَ ﷺ: عَلَيْكَ بِالْيَأْسِ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ، فَإِنَّهُ الْغِنَى الْحَاضِرُ. قَالَ: زِدْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ ﷺ: إِيَّاكَ وَالطَّمَعَ، فَإِنَّهُ الْفَقْرُ الْحَاضِرُ»^٢.
١٩. «مَا أَحَدٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ إِلَّا وَهُوَ يَتَمَنَّى يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ لَمْ يُعْطَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا قُوتًا»^٣.
٢٠. «إِذَا غَضِبَ اللَّهُ عَلَى أُمَّةٍ وَلَمْ يُنْزَلْ بِهَا الْعَذَابُ، غَلَّتْ أَسْعَارُهَا، وَقَصُرَتْ أَعْمَارُهَا، وَلَمْ تَرِيحْ تُجَارُهَا، وَلَمْ تَزْكُ ثِمَارُهَا، وَلَمْ تَغْزُرْ أَنْهَارُهَا، وَحُبِسَ عَنْهَا أَمْطَارُهَا، وَسُلِطَ عَلَيْهَا شِرَارُهَا»^٤.

كسب المعيشة وطلب الرزق الحلال

١. «الْعِبَادَةُ سَبْعُونَ جُزْءًا، أَفْضَلُهَا طَلَبُ الْحَلَالِ»^٥.
٢. «مَنْ بَاتَ كَالًا مِنْ طَلَبِ الْحَلَالِ، بَاتَ مَغْفُورًا لَهُ»^٦.
٣. «خَلَّتَانِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فِيهِمَا مَفْتُونٌ: الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ»^٧.
٤. «مَنْ اقْتَصَدَ فِي مَعِيشَتِهِ رَزَقَهُ اللَّهُ، وَمَنْ بَدَّرَ حَرَمَهُ اللَّهُ»^٨.

١. م. ن.، ٢: ١٣٩.

٢. الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ٤: ٤١٠.

٣. م. ن.، ٤: ٣٦٣.

٤. الكليني، الكافي، ٥: ٣١٧.

٥. م. ن.، ٥: ٧٨.

٦. الصدوق، الأموال، ٢٨٩.

٧. الكليني، الكافي، ٨: ١٥٢.

٨. م. ن.، ٤: ٥٤.

٥. «مَلْعُونٌ مَلْعُونٌ مَنْ أَلْقَى كَلَّهُ عَلَى النَّاسِ. مَلْعُونٌ مَلْعُونٌ مَنْ ضَيَّعَ مَنْ يَعُولُ»^١.
٦. «إِذَا التَّاجِرَانِ صَدَقَا بَوْرَكَ لَهْمَا، فَإِذَا كَذَبَا وَخَانَا لَمْ يُبَارَكَ لَهْمَا»^٢.
٧. «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ طَابَ مَكْسَبُهُ: إِذَا اشْتَرَى لَمْ يَعْصِ، وَإِذَا بَاعَ لَمْ يَحْمَدْ وَلَا يُدْلَسْ، وَفِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ لَا يَخْلِفُ»^٣.
٨. «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُحِبُّ الْعَبْدَ يَكُونُ سَهْلَ الْبَيْعِ، سَهْلَ الشِّرَاءِ، سَهْلَ الْقَضَاءِ، سَهْلَ الْإِقْتِضَاءِ»^٤.
٩. «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَدْخُلَ الرَّجُلُ فِي سَوْمٍ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ»^٥.
١٠. «شَرُّ الْمَاكِلِ، أَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ظُلْمًا»^٦.

حُسن الخلق ومداواة الناس

١. «حُسْنُ الْخُلُقِ نِصْفُ الدِّينِ»^٧.
٢. «إِنَّ الرِّفْقَ لَمْ يُوضَعْ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا نُزْعَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ»^٨.
٣. «مَا يُوضَعُ فِي مِيزَانِ امْرِئٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَفْضَلُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ»^٩.

١. م. ن.، ٤: ١٢.

٢. م. ن.، ٥: ١٧٤.

٣. م. ن.، ٥: ١٥٣.

٤. الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ٣: ١٩٦.

٥. السَّوْمُ: الْبَيْعُ وَالشِّرَاءُ.

٦. الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ٤: ٥٠.

٧. م. ن.، ٤: ٣٧٧.

٨. الصدوق، الخصال، ٣٠.

٩. الكليني، الكافي، ٢: ١١٩.

١٠. م. ن.، ٢: ٩٩.

٤. «عَلَيْكُمْ بِحُسْنِ الْخُلُقِ، فَإِنَّ حُسْنَ الْخُلُقِ فِي الْجَنَّةِ لَا مَحَالَةَ. وَإِيَّاكُمْ وَسُوءَ الْخُلُقِ، فَإِنَّ سُوءَ الْخُلُقِ فِي النَّارِ لَا مَحَالَةَ»^١.

٥. «أَكْثَرَ مَا تَلَجُّ بِهِ أُمَّتِي الْجَنَّةَ: تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ»^٢.

٦. «قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّ خِيَارَكُمْ أُولُو النَّهْيِ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أُولُو النَّهْيِ؟ قَالَ: هُمْ أُولُو الْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ وَالْأَحْلَامِ الرَّزِينَةِ وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَالْبَرَّةُ بِالْأُمَّهَاتِ وَالْأَبَاءِ وَالْمُتَعَاهِدُونَ لِلْجِيرَانِ وَالْيَتَامَى، وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ وَيُقْسُونَ السَّلَامَ فِي الْعَالَمِ، وَيُصَلُّونَ وَالنَّاسُ نِيَامٌ غَافِلُونَ»^٣.

٧. «مِنَ الْمُرُوءَةِ فِي السَّفَرِ: ... فَبَذْلُ الزَّادِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْمَزَاحُ فِي غَيْرِ الْمَعَاصِي»^٤.

٨. «ثَلَاثٌ مَنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ لَمْ يَقُمْ لَهُ عَمَلٌ: وَرَعٌ يَحْجُزُهُ عَنِ مَعَاصِي اللَّهِ، وَخُلُقٌ يَذَارِي بِهِ النَّاسَ، وَحِلْمٌ يَرُدُّ بِهِ جَهْلَ الْجَاهِلِ»^٥.

٩. «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَكَانَ مِنْ قَرْنِهِ إِلَى قَدَمِهِ ذُنُوبًا، بَدَّهَا اللَّهُ حَسَنَاتٍ: الصَّدْقُ وَالْحَيَاءُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ وَالشُّكْرُ»^٦.

١٠. «مَا اصْطَحَبَ اثْنَانِ إِلَّا كَانَ أَعْظَمُهُمَا أَجْرًا وَأَحَبُّهُمَا إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، أَرْفَقَهُمَا بِصَاحِبِهِ»^٧.

١. الصدوق، عيون أخبار الرضا ﷺ، ٢: ٣١.

٢. الكليني، الكافي، ٢: ١٠٠.

٣. م. ن. ٢: ٢٤٠.

٤. الصدوق، عيون أخبار الرضا ﷺ، ٢: ٢٧.

٥. البرقي، المحاسن، ٦.

٦. الكليني، الكافي، ٢: ١٠٧.

٧. م. ن. ٢: ٦٦٩.

١١. «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَمَرَنِي رَبِّي بِمُدَارَاةِ النَّاسِ، كَمَا أَمَرَنِي بِإِدَاءِ الْفَرَائِضِ»^١.
١٢. «مُدَارَاةُ النَّاسِ نِصْفُ الْإِيمَانِ، وَالرَّفْقُ بِهِمْ نِصْفُ الْعَيْشِ»^٢.
١٣. «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ غَدًا؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: اهْتِنِ الْقَرِيبُ اللَّيِّنُ السَّهْلُ»^٣.
١٤. «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فِي خُطْبَةٍ: أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ خَلَائِقِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؟ الْعَفْوُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ، وَتَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَالْإِحْسَانُ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ، وَإِعْطَاءُ مَنْ حَرَمَكَ»^٤.
١٥. «حُسْنُ الْبَشْرِ يَذْهَبُ بِالسَّخِيمَةِ»^٥.
١٦. «إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ رَحِيمٌ، يُحِبُّ كُلَّ رَحِيمٍ»^٦.
١٧. «الْخُلُقُ السَّيِّئُ يُفْسِدُ الْعَمَلَ، كَمَا يُفْسِدُ الْخُلُقُ الْعَسَلَ»^٧.
١٨. «أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْصِنِي. فَكَانَ فِيهَا أَوْصَاءُهُ أَنْ قَالَ: أَلْقَ أَحَاكَ بِوَجْهِ مُبْسِطٍ»^٨.
١٩. «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، إِنَّكُمْ لَنْ تَسْعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ، فَالْقَوْهُمْ بِطَلَاقَةِ الْوَجْهِ وَحُسْنِ الْبَشْرِ»^٩.

١. م. ن. ٢، ١١٥.

٢. م. ن. ٢، ١١٧.

٣. الصدوق، ثواب الأعمال، ١٧٢.

٤. الكليني، الكافي، ٢: ١٠٧.

٥. السَّخِيمَةُ: الضَّعِيفَةُ. م. ن. ٢: ١٠٣-١٠٤.

٦. الطوسي، الأمالي، ٥١٦.

٧. الصدوق، عيون أخبار الرضا ﷺ، ٢: ٣٧.

٨. الكليني، الكافي، ٢: ١٠٣.

٩. م. ن. ٢، ١٠٣.

٢٠. «وَمَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَىٰ إِنْفَاقِهِ وَحَلَمَ عَنْهُ، أَعْطَاهُ اللَّهُ أَجْرَ شَهِيدٍ»^١.
٢١. «أَنَا زَعِيمٌ بَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ وَبَيْتٍ فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ وَبَيْتٍ فِي رِیَاضِ الْجَنَّةِ، لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا»^٢.
٢٢. «مَنْ كَفَّ غَضَبَهُ كَفَّ اللَّهُ عَنْهُ عَذَابَهُ، وَمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ بَلَغَهُ اللَّهُ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ»^٣.
٢٣. «ارْحَمُوا عَزِيزًا ذَلَّ، وَغَنِيًّا افْتَقَرَ، وَعَالِمًا ضَاعَ فِي زَمَانٍ جُهَالٍ»^٤.
٢٤. «تَهَادَوْا تَحَابُّوا، تَهَادَوْا فَإِنَّهَا تَذْهَبُ بِالضَّغَائِنِ»^٥.
٢٥. «شَرُّ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الَّذِينَ يُكْرَمُونَ اتِّقَاءَ شَرِّهِمْ»^٦.
٢٦. «إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ السَّائِلَ الْمُلْحِفَ»^٧.
٢٧. «مَنْ أَصْبَحَ لَا يَهْتَمُّ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ، فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ»^٨.
٢٨. «مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ سَبْعَانَ وَجَارُهُ جَائِعٌ. قَالَ ﷺ: وَمَا مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ يَبِيتُ فِيهِمْ جَائِعٌ، يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^٩.

١. الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ٤: ١٥.

٢. الصدوق، التوحيد، ٤٦١.

٣. الصدوق، عيون أخبار الرضا ﷺ، ٢: ٧١.

٤. الحميري، قرب الإسناد، ٦٦.

٥. تبادل الهدايا.

٦. الكليني، الكافي، ٥: ١٤٤.

٧. م. ن.، ٢: ٣٢٧.

٨. المُلْحِف: المُلْحَج بالسؤال والطلب. م. ن.، ٢: ٣٢٥.

٩. م. ن.، ٢: ١٦٣.

١٠. م. ن.، ٢: ٦٦٨.

٢٩. «مَنْ سَمِعَ رَجُلًا يُنَادِي: يَا لِمُسْلِمِينَ، فَلَمْ يُجِبْهُ، فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ»^١.
٣٠. «أَوْحَى اللَّهُ إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ الْعَبْدَ مِنْ عِبَادِي لَيَأْتِينِي بِالْحَسَنَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأُحْكَمُهَا بِهَا فِي الْجَنَّةِ. قَالَ دَاوُدُ: يَا رَبِّ، وَمَا هَذَا الْعَبْدُ الَّذِي يَأْتِيكَ بِالْحَسَنَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَتُحْكَمُ بِهَا فِي الْجَنَّةِ؟ قَالَ: عَبْدٌ مُؤْمِنٌ سَعَى فِي حَاجَةِ أَخِيهِ الْمُؤْمِنِ أَحَبَّ قَضَاءَهَا، قُضِيَتْ لَهُ أَمْ لَمْ تُقْضَ»^٢.
٣١. «مَنْ أَكْرَمَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ بِكَلِمَةٍ يُلْطِفُهَا بِهَا وَفَرَجَ عَنْهُ كُرْبَتَهُ، لَمْ يَزَلْ فِي ظِلِّ اللَّهِ الْمُمْدُودِ عَلَيْهِ بِالرَّحْمَةِ مَا كَانَ فِي ذَلِكَ»^٣.
٣٢. «سَيِّدُ الْأَعْمَالِ: إِنْصَافُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ، وَمُوَاسَاةُ الْأَخِ فِي اللَّهِ، وَذِكْرُ اللَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ»^٤.
٣٣. «مَنْ أَرَادَ أَنْ يُظِلَّهُ اللَّهُ فِي ظِلِّ عَرْشِهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ، فَلْيَنْظُرْ مُعْسِرًا أَوْ لِيدَعًا لَهُ مِنْ حَقِّهِ»^٥.
٣٤. «أَيُّهَا مُسْلِمُ خَدَمَ قَوْمًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ مِثْلَ عَدَدِهِمْ خُدَامًا فِي الْجَنَّةِ»^٦.
٣٥. «ثَلَاثَةٌ لَا تُطِيقُهَا هَذِهِ الْأُمَّةُ: الْمُوَاسَاةُ لِلْأَخِ فِي مَالِهِ، وَإِنْصَافُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِهِ، وَذِكْرُ اللَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ. وَلَيْسَ هُوَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ فَقَطْ. وَلَكِنْ إِذَا وَرَدَ عَلَى مَا يَحْرُمُ، خَافَ اللَّهُ»^٧.

١. م. ن.، ٢: ١٦٤.

٢. الطوسي، الأُمالي، ٥١٥.

٣. الكليني، الكافي، ٢: ٢٠٦.

٤. م. ن.، ٢: ١٤٥.

٥. العياشي، التفسير، ١: ١٥٣.

٦. الكليني، الكافي، ٢: ٢٠٧.

٧. الصدوق، مصادقة الإخوان، ٣٦.

٣٦. «مَنْ أَقْرَضَ مُؤْمِنًا قَرْضًا يُنْظَرُ بِهِ مَيْسُورُهُ، كَانَ مَالُهُ فِي زَكَاةٍ وَكَانَ هُوَ فِي صَلَاةٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ حَتَّى يُؤَدِّيَهُ»^١.

٣٧. «صَدَقَهُ السِّرُّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»^٢.

٣٨. «مَنْ عَالَ يَتِيمًا حَتَّى يَسْتَغْنِيَ، أَوْجَبَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ لَهُ بِذَلِكَ الْجَنَّةَ، كَمَا أَوْجَبَ لِأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ النَّارَ»^٣.

٣٩. «مَنْ أَتَكَرَّ مِنْكُمْ قَسَاوَةً قَلْبِهِ، فَلْيَدْنُ يَتِيمًا فَيَلَاطِفْهُ وَلْيَمَسَحْ رَأْسَهُ، يَلِينُ قَلْبُهُ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَإِنَّ لِلْيَتِيمِ حَقًّا»^٤.

٤٠. «لَا حَسَبَ إِلَّا بِالتَّوَاضُّعِ، وَلَا كَرَمَ إِلَّا بِالتَّقْوَى، وَلَا عَمَلَ إِلَّا بِنِيَّةٍ»^٥.

٤١. «إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبُكُمْ مِنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَجْلِسًا، أَحْسَنُكُمْ خُلُقًا وَأَشَدُّكُمْ تَوَاضُّعًا. وَإِنْ أَبْعَدَكُمْ مِنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الثَّرَاوُنُ»^٦.

٤٢. «مَنْ مَشَى فِي الْأَرْضِ اخْتِيَالًا^٧، لَعَنَتْهُ الْأَرْضُ وَمَنْ تَحْتَهَا وَمَنْ فَوْقَهَا»^٨.

٤٣. «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيَفِ إِذَا وَعَدَ»^٩.

٤٤. «إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ سَكَتُوا فَكَانَ سُكُوتُهُمْ ذِكْرًا، وَنَظَرُوا فَكَانَ نَظَرُهُمْ عِبْرَةً، وَنَطَقُوا فَكَانَ نُطْقُهُمْ حِكْمَةً، وَمَشَوْا فَكَانَ مَشْيُهُمْ بَيْنَ النَّاسِ بَرَكَةً. لَوْ لَا الْأَجَالُ

١. الصدوق، ثواب الأعمال، ١٣٨.

٢. الكليني، الكافي، ٨: ٤.

٣. م. ن. ٥١: ٧.

٤. الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ١: ١٨٨.

٥. الطوسي، الأمالي، ٢: ٢٠٢.

٦. الحميري، قرب الإسناد، ٤٦.

٧. تبخترًا وعُجبًا بنفسه.

٨. الصدوق، ثواب الأعمال، ٢٧٥.

٩. الكليني، الكافي، ٢: ٣٦٤.

الَّتِي قَدْ كُتِبَتْ عَلَيْهِمْ، لَمْ تَقَرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ خَوْفًا مِنَ الْعِقَابِ وَشَوْقًا إِلَى الثَّوَابِ»^١.

٤٥. «قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْجُلَسَاءِ خَيْرٌ؟ قَالَ ﷺ: مَنْ ذَكَرَكُمْ اللَّهُ رُؤْيَاهُ، وَزَادَكُمْ فِي عِلْمِكُمْ مَنْطِقَهُ، وَذَكَرَكُمْ بِالْآخِرَةِ عَمَلُهُ»^٢.

٤٦. «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ دَعَا لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، إِلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِ مِثْلَ الَّذِي دَعَا لَهُمْ بِهِ»^٣.

٤٧. «مَنْ مَشَى فِي صُلْحٍ بَيْنَ اثْنَيْنِ، صَلَّى عَلَيْهِ مَلَائِكَةُ اللَّهِ حَتَّى يَرْجِعَ، وَأُعْطِيَ ثَوَابَ لَيْلَةِ الْقَدْرِ. وَمَنْ مَشَى فِي قِطْعَةٍ بَيْنَ اثْنَيْنِ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْوِزْرِ بِقَدْرِ مَا لِمَنْ أَصْلَحَ بَيْنَ اثْنَيْنِ مِنَ الْأَجْرِ، مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ حَتَّى يَدْخُلَ جَهَنَّمَ، فَيُضَاعَفَ لَهُ الْعَذَابُ»^٤.

٤٨. «إِذَا أَحَبَّ أَحَدُكُمْ صَاحِبَهُ أَوْ أَخَاهُ، فَلْيُعَلِّمَهُ»^٥.

٤٩. «بَجَلُوا الْمُشَايخَ، فَإِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ تَبَجِيلَ الْمُشَايخِ»^٦.

٥٠. «مَنْ تَرَى لِلنَّاسِ بِمَا يُحِبُّ اللَّهُ وَبَارَزَ اللَّهُ فِي السِّرِّ بِمَا يَكْرَهُ اللَّهُ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ لَهُ مَاقَتٌ»^٧.

٥١. «ثَلَاثٌ يُصَفِينَ وَدَّ الْمَرْءُ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ: يَلْقَاهُ بِالْبَشْرِ إِذَا لَقِيَهُ، وَيُوسِّعُ لَهُ فِي

١. م. ن.، ٢: ٢٣٧.

٢. الطوسي، الأُمالي، ١٥٧.

٣. الكليني، الكافي، ٢: ٥٠٧-٥٠٨.

٤. الصدوق، ثواب الأعمال، ٢٨٨.

٥. البرقي، المحاسن، ١: ٢٦٦.

٦. الطوسي، الأُمالي، ٣١١.

٧. الحميري، قرب الإسناد، ٩٢-٩٣.

- المُجْلِسِ إِذَا جَلَسَ إِلَيْهِ، وَيَدْعُوهُ بِأَحَبِّ الْأَسْمَاءِ إِلَيْهِ»^١.
٥٢. «حُسْنُ الْجَوَارِ يَعْمُرُ الدِّيَارَ وَيُنْسِي فِي الْأَعْمَارِ»^٢.
٥٣. «مَنْ آذَى جَارَهُ، حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ رِيحَ الْجَنَّةِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمَ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ. وَمَنْ صَيَّعَ حَقَّ جَارِهِ، فَلَيْسَ مِنَّا. وَمَا زَالَ جَبْرِئِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورُّهُ»^٣.
٥٤. «لَا يَحِلُّ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ الْمُؤْمِنَ فَوْقَ ثَلَاثَةٍ»^٤.
٥٥. «مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ حَبَّةٌ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ عَصَبِيَّةٍ، بَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ أَعْرَابِ الْجَاهِلِيَّةِ»^٥.
٥٦. «إِنَّ أَعْجَلَ الشَّرِّ عُقُوبَةً، الْبُغْيُ»^٦.
٥٧. «مَنْ كَانَ مُسْلِمًا فَلَا يَمْكُرُ وَلَا يَخْدَعُ، فَإِنِّي سَمِعْتُ جَبْرِئِيلَ يَقُولُ: إِنَّ الْمَكْرَ وَالْخَدِيعَةَ فِي النَّارِ»^٧.
٥٨. «قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ لِمُوسَى بْنِ عِمْرَانَ ﷺ: يَا ابْنَ عِمْرَانَ، لَا تَحْسُدَنَّ النَّاسَ عَلَى مَا آتَيْتَهُمْ مِنْ فَضْلِي، وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى ذَلِكَ وَلَا تَتَّبِعْهُ نَفْسَكَ، فَإِنَّ الْحَاسِدَ سَاخِطٌ لِنِعْمَتِي، صَادِقٌ لِقَسَمِي الَّذِي قَسَمْتُ بَيْنَ عِبَادِي. وَمَنْ يَكُ كَذَلِكَ، فَلَسْتُ مِنْهُ وَلَيْسَ مِنِّي»^٨.

١. الكليني، الكافي، ٢: ٦٤٣.

٢. يُنْسَى الْأَعْمَارُ: أَي يُمَدُّهَا. م. ن. ٢: ٦٧٧.

٣. الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ٤: ١١.

٤. م. ن. ٤: ٣٨٠.

٥. الكليني، الكافي، ٢: ٣٠٨.

٦. الصدوق، ثواب الأعمال، ٢٧٥.

٧. الصدوق، الأموال، ٢٧٠.

٨. الكليني، الكافي، ٢: ٣٠٧.

٥٩. «إِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ذَا الْوَجْهَيْنِ»^١.
٦٠. «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَلَا أُنبِئُكُمْ بِشِرَارِكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: الْمُسَاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ، الْمُفَرَّقُونَ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ، الْبَاغُونَ لِلْبُرَاءِ الْمَعَايِبَ»^٢.
٦١. «طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ خَوْفُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ عَنْ خَوْفِ النَّاسِ، طُوبَى لِمَنْ مَنَعَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ إِخْوَانِهِ»^٣.
٦٢. «مَنْ كَفَّ نَفْسَهُ عَنْ أَعْرَاضِ النَّاسِ، أَقَالَ اللَّهُ نَفْسَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ عَنِ النَّاسِ، كَفَّ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْهُ عَذَابَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^٤.
٦٣. «يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُسَلِّمْ بِقَلْبِهِ، لَا تَتَّبِعُوا عَثَرَاتِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّهُ مَنْ تَتَّبَعَ عَثَرَاتِ الْمُسْلِمِينَ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَثَرَتَهُ، وَمَنْ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَثَرَتَهُ يَفْضَحْهُ»^٥.
٦٤. «إِفْشَاءُ سِرِّ أَخِيكَ خِيَانَةٌ، فَاجْتَنِبْ ذَلِكَ»^٦.
٦٥. «لَيْسَ مِنَّا مَنْ يُحَقِّرُ الْأَمَانَةَ، يَعْنِي يَسْتَهْلِكُهَا إِذَا اسْتَوْدَعَهَا، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ خَانَ مُسْلِمًا فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ»^٧.
٦٦. «الْأَمَانَةُ تَجْلِبُ الْغِنَى، وَالْخِيَانَةُ تَجْلِبُ الْفَقْرَ»^٨.
٦٧. «لِلْمُؤْمِنِ عَلَى الْمُؤْمِنِ سَبْعَةُ حُقُوقٍ وَاجِبَةٍ مِنْ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: الْإِجْلَالُ لَهُ فِي غَيْبَتِهِ، وَالْوُدُّ لَهُ فِي صَدْرِهِ، وَالْمُوَاسَاةُ لَهُ فِي مَالِهِ، وَأَنْ يُحَرِّمَ غَيْبَتَهُ، وَأَنْ يَعُودَهُ فِي مَرَضِهِ،

١. الصدوق، الخصال، ١: ٣٨.

٢. الكليني، الكافي، ٢: ٣٦٩.

٣. م. ن.، ٨: ١٦٨.

٤. م. ن.، ٢: ٣٠٥.

٥. م. ن.، ٢: ٣٥٥.

٦. الطبرسي، مكارم الأخلاق، ٤٧٠.

٧. المفيد، الاختصاص، ٢٤٨.

٨. الحميري، قرب الإسناد، ١١٧.

وَأَنْ يُشَيِّعَ جَنَازَتَهُ، وَأَنْ لَا يَقُولَ فِيهِ بَعْدَ مَوْتِهِ إِلَّا خَيْرًا^١.

٦٨. «[مِنْ حَقُوقِ الْمُسْلِمِ عَلَى أَخِيهِ الْمُسْلِمِ]: ... يَسْتُرُ عَوْرَتَهُ، وَيُقِيلُ عَثْرَتَهُ، وَيَقْبَلُ مَعْدِرَتَهُ، وَيُرَدُّ غِيْبَتَهُ، وَيُدِيمُ نَصِيحَتَهُ، وَيَحْفَظُ خُلَّتَهُ... وَيَعُودُ مَرَضَتَهُ، وَيَشْهَدُ مِيتَتَهُ، وَيُجِيبُ دَعْوَتَهُ، وَيَقْبَلُ هَدِيَّتَهُ، وَيُكَافِي صِلَتَهُ، وَيَشْكُرُ نِعْمَتَهُ، وَيُحْسِنُ نُصْرَتَهُ، وَيَحْفَظُ حَلِيلَتَهُ، وَيَقْضِي حَاجَتَهُ، وَيَشْفَعُ مَسْأَلَتَهُ... وَيُرْشِدُ ضَالَّتَهُ، وَيُرَدُّ سَلَامَتَهُ، وَيُطِيبُ كَلَامَتَهُ، وَيُبْرِئُ إِنْعَامَتَهُ، وَيُصَدِّقُ أَقْسَامَتَهُ، وَيُوَالِي وَلِيَّتَهُ، وَيُعَادِي عَدُوَّه، وَيَنْصُرُهُ ظَالِمًا وَمَظْلُومًا؛ فَأَمَّا نُصْرَتُهُ ظَالِمًا فَيُرَدُّهُ عَنْ ظُلْمِهِ، وَأَمَّا نُصْرَتُهُ مَظْلُومًا فَيُعِينُهُ عَلَى أَخْذِ حَقِّهِ، وَلَا يُسْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَيُحِبُّ لَهُ مِنَ الْخَيْرِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ، وَيَكْرَهُ لَهُ مِنَ الشَّرِّ مَا يَكْرَهُ لِنَفْسِهِ»^٢.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

١. «مَنْ أَمَرَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ أَوْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ أَوْ أَشَارَ بِهِ، فَهُوَ شَرِيكٌ. وَمَنْ أَمَرَ بِسُوءٍ أَوْ دَلَّ عَلَيْهِ أَوْ أَشَارَ بِهِ، فَهُوَ شَرِيكٌ»^٣.
٢. «إِنَّ أَعْظَمَ النَّاسِ مَنَزَلَةً عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَمْشَاهُمْ فِي أَرْضِهِ بِالنَّصِيحَةِ لِخَلْقِهِ»^٤.
٣. «إِنَّ الْمَعْصِيَةَ إِذَا عَمِلَ بِهَا الْعَبْدُ سِرًّا لَمْ تَضُرَّ إِلَّا عَامِلَهَا، وَإِذَا عَمِلَ بِهَا عَلَانِيَةً وَلَمْ يُعَيَّرْ عَلَيْهِ، أَضُرَّتْ بِالْعَامَّةِ»^٥.

١. الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ٤: ٣٩٨.

٢. الكراجكي، كنز الفوائد، ١: ٣٠٦.

٣. الصدوق، الخصال، ١: ١٣٨.

٤. الكليني، الكافي، ٢: ٢٠٨.

٥. الحميري، قرب الإسناد، ٥٥.

السخاء والبخل

١. «السَّخَاءُ شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ أَصْلُهَا وَهِيَ مِطْلَةٌ عَلَى الدُّنْيَا، مَنْ تَعَلَّقَ بِغُضَنِ مِنْهَا اجْتَرَّهُ إِلَى الْجَنَّةِ»^١.
٢. «أَتَى رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُهُمْ إِيَّانَا؟ قَالَ: أَبْسَطُهُمْ كَفًّا»^٢.
٣. «لَا يَجْتَمِعُ الشُّحُّ وَالْإِيمَانُ فِي قَلْبٍ عَبْدٍ أَبَدًا»^٣.
٤. «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ وَثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْمُنْجِيَاتُ؟ قَالَ: خَوْفُ اللَّهِ فِي السِّرِّ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ. وَالْعَدْلُ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ، وَالْقَصْدُ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا الْمُهْلِكَاتُ؟ قَالَ: هَوَى مُتَّبِعٌ، وَشُحٌّ مُطَاعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ»^٤.
٥. «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا عَلِيُّ، لَا تُشَاوِرَنَّ جَبَانًا فَإِنَّهُ يُضَيِّقُ عَلَيْكَ الْمَخْرَجَ، وَلَا تُشَاوِرَنَّ بَخِيلًا فَإِنَّهُ يَقْصُرُ بِكَ عَنْ غَايَتِكَ، وَلَا تُشَاوِرَنَّ حَرِيصًا فَإِنَّهُ يُزَيِّنُ لَكَ شَرًّا. وَاعْلَمْ أَنَّ الْجُبْنَ وَالْبُخْلَ وَالْحِرْصَ، غَرِيزَةٌ يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ»^٥.

الأسرة والأولاد

١. «لَا تَقْطَعْ رَحِمَكَ وَإِنْ قَطَعَتْكَ»^٦.
٢. «إِنَّ الْجَنَّةَ لَيُوجَدُ رِيحُهَا مِنْ مَسِيرَةِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ وَلَا يَجِدُهَا عَاقٌ»^٧.

١. الصدوق، معاني الأخبار، ٢٥٦.

٢. الكليني، الكافي، ٤: ٤٠.

٣. الصدوق، الخصال، ٧٥.

٤. الكوفي الأهوازي، الزهد، ٦٨.

٥. الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ٤: ٤٠٩.

٦. الكليني، الكافي، ٢: ٣٤٧.

٧. الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ٣: ٤٤٤.

٣. «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي»^١.
٤. «أَحْسَنُ النَّاسِ إِيَّانَا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا وَالْأَطْفَهُمْ بِأَهْلِهِ، وَأَنَا الْأَطْفُكُم بِأَهْلِي»^٢.
٥. «قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا حَقُّ ابْنِي هَذَا؟ قَالَ: تَحَسَّنْ اسْمَهُ وَأَدَبَهُ، وَضَعُهُ مَوْضِعًا حَسَنًا»^٣.
٦. «أَكْرِمُوا أَوْلَادَكُمْ، وَأَحْسِنُوا أَدَبَهُمْ؛ يُغْفَرَ لَكُمْ»^٤.
٧. «مَنْ قَبَّلَ وَلَدَهُ كَتَبَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ لَهُ حَسَنَةً، وَمَنْ فَرَّحَهُ فَرَّحَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ عَلَّمَهُ الْقُرْآنَ، دُعِيَ بِالْأَبْوَيْنِ فَيَكْسِيَانِ حُلَّتَيْنِ يُضِيءُ مِنْ نَوْرِهِمَا وَجْهُ أَهْلِ الْجَنَّةِ»^٥.
٨. «أَحِبُّوا الصَّبِيَّانَ وَارْحَمُوهُم، وَإِذَا وَعَدْتُمُوهُمْ شَيْئًا فَفُوا لَهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَدْرُونَ إِلَّا أَنَّكُمْ تَرْزُقُونَهُمْ»^٦.
٩. «مَنْ يُمْنِ الْمَرْأَةَ أَنْ يَكُونَ بِكَرْهَا^٧ جَارِيَةً»^٨.
١٠. «مَنْ دَخَلَ السُّوقَ فَاشْتَرَى ثُحْفَةً فَحَمَلَهَا إِلَى عِيَالِهِ، كَانَ كَحَامِلٍ صَدَقَةٍ إِلَى قَوْمٍ مَحَاوِيجَ، وَلَيَبْدَأُ بِالْإِنَاثِ قَبْلَ الذُّكُورِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ فَرَّحَ انْتَى فَكَأَنَّمَا عَتَقَ رَقَبَةً مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَمَنْ أَقْرَبَ بَعِينَ ابْنٍ فَكَأَنَّمَا بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَمَنْ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ جَنَّاتِ النَّعِيمِ»^٩.

١. م. ن. ٣: ٥٥٥.

٢. الصدوق، عيون أخبار الرضا ﷺ، ٢: ٣٨.

٣. الكليني، الكافي، ٦: ٤٨.

٤. الطبرسي، مكارم الأخلاق، ٢٢٢.

٥. الكليني، الكافي، ٦: ٤٩.

٦. م. ن. ٦: ٤٩.

٧. أول مولود لها.

٨. المحدث النوري، مستدرک الوسائل، ١٤: ٣٠٤.

٩. الصدوق، ثواب الأعمال، ٢٠١.

العبادة

١. «أَعْظَمُ الْعِبَادَةِ أَجْرًا أَخْفَاهَا»^١.
٢. «إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرَفْقٍ، وَلَا تُكْرِهُوا عِبَادَةَ اللَّهِ إِلَى عِبَادِ اللَّهِ، فَتَكُونُوا كَالرَّاكِبِ الْمُنْبَتِ الَّذِي لَا سَفَرًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى»^٢.
٣. «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ عِزَّوَجُلٍ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ عِزَّوَجُلٍ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُتَعَلِّقٌ بِالْمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ، وَرَجُلَانِ كَانَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ عِزَّوَجُلٍ فَاجْتَمَعَا عَلَى ذَلِكَ وَتَفَرَّقَا، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ عِزَّوَجُلٍ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ عِزَّوَجُلٍ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ حَسَبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ عِزَّوَجُلٍ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِئْنُهُ مَا يَتَصَدَّقُ بِبَيْمِينِهِ»^٣.
٤. «أَلَا وَمَنْ ذَرَفَتْ عَيْنَاهُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، كَانَ لَهُ بِكُلِّ قِطْرَةٍ قَطَرَتْ مِنْ دُمُوعِهِ قَصْرٌ فِي الْجَنَّةِ، مُكَلَّلٌ بِالذُّرِّ وَالْجَوْهَرِ، فِيهِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أذنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ»^٤.
٥. «مِنْ عَلَامَاتِ الشَّقَاءِ: جُمُودُ الْعَيْنِ، وَقَسْوَةُ الْقَلْبِ، وَشِدَّةُ الْحِرْصِ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا، وَالْإِصْرَارُ عَلَى الذَّنْبِ»^٥.
٦. «مَنْ أُعْطِيَ لِسَانًا ذَاكِرًا، فَقَدْ أُعْطِيَ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^٦.

١. الحميري، قرب الإسناد، ١٣٥.

٢. الكليني، الكافي، ٨٦: ٢.

٣. الصدوق، الخصال، ٣٤٣: ٣.

٤. الصدوق، الأموال، ٤٣٢.

٥. الكليني، الكافي، ٢٩٠: ٢.

٦. م. ن. ٤٩٩: ٢.

٧. «قَالَ اللَّهُ: مَا مَحَبَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي شَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ لَيَتَحَبَّبُ إِلَيَّ بِالنَّافِلَةِ حَتَّى أُحِبَّهُ. فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَلِسَانَهُ الَّذِي يَنْطِقُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا. إِذَا دَعَانِي أَجَبْتُهُ، وَإِذَا سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ. وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ، كَتَرَدَّدْتُ فِي مَوْتِ مُؤْمِنٍ يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»^١.

٨. «مَنْ عَمِلَ بِمَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَهُوَ مِنْ أَعْبِدِ النَّاسِ»^٢.

٩. «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ، كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ»^٣.

١٠. «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ تَابَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِسَنَةٍ. قَبِلَ اللَّهُ تَوْبَتَهُ. ثُمَّ قَالَ ﷺ: إِنَّ السَّنَةَ لَكَثِيرٌ، مَنْ تَابَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِشَهْرٍ قَبِلَ اللَّهُ تَوْبَتَهُ. ثُمَّ قَالَ ﷺ: إِنَّ الشَّهْرَ لَكَثِيرٌ، ثُمَّ قَالَ ﷺ: مَنْ تَابَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِجُمُعَةٍ قَبِلَ اللَّهُ تَوْبَتَهُ. ثُمَّ قَالَ ﷺ: وَإِنَّ الْجُمُعَةَ لَكَثِيرٌ، مَنْ تَابَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِيَوْمٍ قَبِلَ اللَّهُ تَوْبَتَهُ. ثُمَّ قَالَ ﷺ: إِنَّ يَوْمًا لَكَثِيرٌ، مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ يُعَايِنَ قَبِلَ اللَّهُ تَوْبَتَهُ»^٤.

البلايا والمصائب

١. «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمَلِكِ الْمُوَكَّلِ بِالْمُؤْمِنِ: إِذَا مَرَضَ اكْتُبْ لَهُ مَا كُنْتَ تَكْتُبُ لَهُ فِي صِحَّتِهِ، فَإِنِّي أَنَا الَّذِي صَيَّرْتُهُ فِي حِبَالِي»^٥.

٢. «سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ خِيَارِ الْعِبَادِ، فَقَالَ: الَّذِينَ إِذَا أَحْسَنُوا اسْتَبَشَرُوا، وَإِذَا

١. البرقي، المحاسن، ١: ٢٩١.

٢. الكليني، الكافي، ٢: ٨٤.

٣. الصدوق، عيون أخبار الرضا ﷺ، ٢: ٧٤.

٤. الكليني، الكافي، ٢: ٤٤٠.

٥. م. ن.، ٣: ١١٣.

- أَسَاءُوا وَاسْتَغْفَرُوا، وَإِذَا أُعْطُوا شَكَرُوا، وَإِذَا ابْتُلُوا صَبَرُوا، وَإِذَا غَضِبُوا غَفَرُوا»^١.
٣. «مَنْ تَكَلَّ ثَلَاثَةً مِنْ صَلَهِ فَاحْتَسَبَهُمْ عَلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»^٢.
٤. «مَنْ عَزَى مُصَابَا، كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ»^٣.
٥. «ثَلَاثُ خِصَالٍ يُدْرِكُ بِهَا خَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ: الشُّكْرُ عِنْدَ النَّعْمَاءِ، وَالصَّبْرُ عِنْدَ الضَّرَاءِ، وَالِدُّعَاءُ عِنْدَ الْبَلَاءِ»^٤.
٦. «قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: إِذَا أَرَدْتُ أَنْ أَجْمَعَ لِلْمُسْلِمِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، جَعَلْتُ لَهُ قَلْبًا خَاشِعًا، وَلِسَانًا ذَاكِرًا، وَجَسَدًا عَلَى الْبَلَاءِ صَابِرًا، وَزَوْجَةً مُؤْمِنَةً تَسْرُهُ إِذَا نَظَرَ إِلَيْهَا، وَتَحْفَظُهُ إِذَا غَابَ عَنْهَا فِي نَفْسِهَا وَمَالِهَا»^٥.

حقوق الحيوان

١. «لِلدَّابَّةِ عَلَى صَاحِبِهَا خِصَالٌ: يَبْدَأُ بَعْلَفِهَا إِذَا نَزَلَ، وَيَعْرِضُ عَلَيْهَا الْمَاءَ إِذَا مَرَّ بِهِ، وَلَا يَضْرِبُ وَجْهَهَا فَإِنَّمَا تُسَبِّحُ بِحَمْدِ رَبِّهَا، وَلَا يَقْفُ عَلَى ظَهْرِهَا إِلَّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا يُحْمَلُهَا فَوْقَ طَاقَتِهَا، وَلَا يُكَلَّفُهَا مِنَ الْمَشْيِ إِلَّا مَا تُطِيقُ»^٦.
٢. «لَا تَتَوَرَّكُوا عَلَى الدَّوَابِّ وَلَا تَتَّخِذُوا ظُهُورَهَا مَجَالِسَ»^٧.
٣. «لَا تَضْرِبُوا وُجُوهَ الدَّوَابِّ، وَكُلُّ شَيْءٍ فِيهِ الرُّوحُ فَإِنَّهُ يُسَبِّحُ بِحَمْدِ اللَّهِ»^٨.

١. الصدوق، الأمالي، ١٠.

٢. الصدوق، الخصال، ١: ١٨٠.

٣. الكليني، الكافي، ٣: ٢٠٥.

٤. الديلمي، إرشاد القلوب، ١: ١٤٩.

٥. الكليني، الكافي، ٥: ٣٢٧.

٦. الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ٢: ٢٨٦.

٧. الكليني، الكافي، ٦: ٥٣٩.

٨. البرقي، المحاسن، ٢: ٦٣٣.

المصادر

القرآن الكريم

ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله. شرح نهج البلاغة. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. ١٠ ج. ايران - قم: مكتبة آية الله المرعشي النجفي، ١٤٠٤.

ابن أبي الدنيا، عبد الله بن محمد. القبور. تحقيق طارق محمد سكلوع العمود. مكتبة الغرباء الأثرية، ٢٠٠٠.

ابن أبي جمهور الأحسائي، محمد بن زين الدين. عوالي اللئالي العزيزية في الأحاديث الدينية. تحقيق مجتبى عراقي. ٤ ج. ايران - قم: دار سيد الشهداء للنشر، ١٤٠٥.

ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد. تفسير القرآن العظيم. تحقيق أسعد محمد طيب. ١٣ ج. السعودية - الرياض: مكتبة نزار مصطفى الباز، ١٤١٩.

ابن أبي خيثمة، أحمد. أخبار المكيين. تحقيق إسماعيل حسن حسين. السعودية - الرياض: دار الوطن، ١٩٩٧.

_____. التاريخ الكبير؛ المعروف بتاريخ ابن أبي خيثمة - السفر الثالث. تحقيق صلاح بن فنجي هلال. ٤ ج. مصر - القاهرة: مكتبة الفاروق الحديثة، ٢٠٠٦.

ابن أبي شيبة، عبد الله. *المصنف في الأحاديث والآثار*. تحقيق كمال يوسف الحوت. ٧ ج. السعودية - الرياض: مكتبة الرشيد، ١٤٠٩.

_____. *مسند ابن أبي شيبة*. تحقيق عادل بن يوسف الزازي وأحمد بن فريد المزيدي. ٢ ج. السعودية - الرياض: دار الوطن، ١٩٩٧.

ابن أبي عاصم، أحمد بن عمرو. *السنة*. تحقيق محمد ناصر الدين الألباني. ٢ ج. لبنان - بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٠.

ابن إسحاق، محمد. *كتاب السير والمغازي*. تحقيق سهيل زكار. لبنان - بيروت: دار الفكر، ١٣٩٨.
ابن الأثير، علي بن محمد. *أسد الغابة في معرفة الصحابة*. ٦ ج. لبنان - بيروت: دار الفكر، ١٤٠٩.
_____. *الكامل في التاريخ*. ١٣ ج. لبنان - بيروت: دار صادر، ١٣٨٥.

ابن الأثير، مبارك بن محمد. *النهاية في غريب الحديث والأثر*. تحقيق محمود بن محمد الطناحي. ٥ ج. إيران - قم: اسماعيليان، ١٣٦٧ ش.

ابن الجعد، علي. *مسند ابن الجعد*. تحقيق عامر أحمد حيدر. لبنان - بيروت: مؤسسة نادر، ١٤١٠.
ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي. *المنتظم في تاريخ الأمم والملوك*. تحقيق محمد عبدالقادر عطا ومصطفى عبدالقادر عطا. ١٩ ج. لبنان - بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٢.
_____. *جامع المسانيد*. تحقيق علي حسين البواب. ٨ ج. السعودية - الرياض: مكتبة الرشد، ٢٠٠٥.

ابن الصلاح، عثمان بن عبد الرحمن شهرزوري. *مقدمة ابن الصلاح*. تحقيق صلاح بن محمد بن عويضة. لبنان - بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٥.

ابن العماد، عبد الحي بن أحمد. *شذرات الذهب في أخبار من ذهب*. تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط. ١ سوريا - دمشق: دار ابن كثير، ١٤٠٦.

ابن الفقيه، أحمد بن محمد. *البلدان*. تحقيق يوسف الهادي. لبنان - بيروت: عالم الكتب، ١٤١٦.

ابن الكلبي، هشام بن محمد. *الأصنام*. تحقيق أحمد زكي باشا. مصر - القاهرة: دار الكتب المصرية، ٢٠٠٠.

ابن الكلبي، هشام بن محمد. *جمهرة النسب*. تحقيق حسن ناجي. د. م.: عالم الكتب، ١٤٠٧.
ابن المبارك، عبد الله. *الزهد والرفائق*. تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي. لبنان - بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت.

_____. *مسند الإمام عبد الله بن المبارك*. تحقيق صبحي البدري السامرائي. السعودية - الرياض: مكتبة المعارف، ١٤٠٧.

ابن المغازلي، علي بن محمد. *مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه*. تحقيق تركي الوداعي. اليمن - صنعاء: دار الآثار، ٢٠٠٣.

ابن النجار، محمد بن محمود. *أخبار مدينة الرسول المعروف بالدرة الثمينة*. تحقيق صالح محمد جمال. السعودية - مكة المكرمة: مكتبة الثقافة، ١٤٠١.

ابن النديم، محمد بن اسحاق. *الفهرست*. لبنان - بيروت: دار المعرفة، د. ت.
ابن بطة، عبيد الله بن محمد. *الإبانة الكبرى*. تحقيق رضا معطي، عثمان الأثيوبي، يوسف الوابل، الوليد بن سيف النصر وحمد التويجري. ٩ ج. السعودية - الرياض: دار الراية، ١٩٩٤.
ابن جلجل، سليمان بن حسان. *طبقات الأطباء والحكماء*. تحقيق فؤاد سيد. مصر - القاهرة: المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٥٥.

ابن حبان، محمد. *الثقات*. ٩ ج. الهند - حيدر آباد: مؤسسة الكتب الثقافية، ١٣٩٣.
_____. *صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان*. تحقيق شعيب الأرنؤوط. ١٨ ج. لبنان - بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٣.

ابن حبيب، محمد. *المحبر*. تحقيق ايلزه ليختن شتير. لبنان - بيروت: دار الآفاق الجديدة، د. ت.

_____ . المنمق في أخبار قریش. تحقيق خورشيد أحمد فاروق. لبنان - بيروت: عالم الكتب، ١٩٨٥.

ابن حزم، علي بن أحمد. الرسالة الباهرة. تحقيق محمد صغير حسن المعصومي. سوريا - دمشق: مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٨٩.

_____ . المحلى بالأثر. ١٢ ج. لبنان - بيروت: دار الفكر، د. ت.

_____ . جبهة أنساب العرب. لبنان - بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣.

ابن حمدون، محمد بن الحسن. التذكرة الحمدونية. ١٠ ج. لبنان - بيروت: دار صادر، ١٤١٧.
ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد. تاريخ ابن خلدون = ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر
ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر. تحقيق خليل شحادة. ٨ ج. لبنان - بيروت: دار الفكر، ١٤٠٨.

ابن سعد، محمد. الطبقات الكبرى (الطبقة الرابعة). تحقيق عبدالعزيز عبد الله السلومي. السعودية - الطائف: مكتبة الصديق، ١٤١٦.

_____ . الطبقات الكبرى. تحقيق محمد عبدالقادر عطا. ٩ ج. لبنان - بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٠.

ابن سيد الناس، محمد. عيون الأثر في فنون المغازي والشئائل والسير. تحقيق إبراهيم محمد رمضان. ٢ ج. لبنان - بيروت: دار القلم، ١٩٩٣.

ابن شبة، عمر. تاريخ المدينة. تحقيق فهد محمد شلتوت. ٤ ج. السعودية - جدة: د. ن.، ١٣٩٩.
ابن شعبة، حسن بن علي. تحف العقول عن آل الرسول. تحقيق علي اكبر غفاري. ايران - قم: جماعة
المدرسين في الحوزة العلمية بقم، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤٠٤.

ابن شهر آشوب، محمد بن علي. مناقب آل أبي طالب ﷺ. ٤ ج. ايران - قم: علامه، ١٣٧٩.

ابن طاووس، علي بن موسى. إقبال الأعمال. ٢ ج. ايران - طهران: دار الكتب الإسلامية، ١٤٠٩.

- _____. *الدروع الواقية*. لبنان - بيروت: مؤسسة آل البيت عليه السلام، ١٩٩٥.
- _____. *الطوائف في معرفة مذاهب الطوائف*. تحقيق علي عاشور. ٢ ج. ايران - قم: مطبعة الخيام، ١٤٠٠.
- _____. *اليقين باختصاص مولانا علي عليه السلام بإمرة المؤمنين*. تحقيق اسماعيل خويئي. ايران - قم: دار الكتاب، ١٤١٣.
- _____. *محاسبة النفس*. ايران - طهران: منشورات المكتبة المرتضوية، ١٣٧٦ ش.
- _____. *مهج الدعوات ومنهج العبادات*. تحقيق ابو طالب كرمانى ومحمد حسين محرر. ايران - قم: دار الذخائر، ١٤١١.
- ابن طيفور، أحمد بن ابى طاهر. *بلاغات النساء*. تحقيق أحمد الألفي. مصر - القاهرة: مطبعة مدرسة والده عباس الأول، ١٣٢٦.
- ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله. *الإستيعاب في معرفة الأصحاب*. تحقيق علي محمد البجاوي. ٤ ج. لبنان - بيروت: دار الجيل، ١٤١٢.
- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد. *العقد الفريد*. تحقيق عبد المجيد ترحيني ومفيد محمد قميحة. ٩ ج. لبنان - بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٧.
- ابن عدي، أبو أحمد. *الكامل في ضعفاء الرجال*. تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، وعبد الفتاح أبو سنة. ٩ ج. لبنان - بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧.
- ابن عساكر، علي بن الحسن. *تاريخ مدينة دمشق*. تحقيق علي شيري. ٨٠ ج. لبنان - بيروت: دار الفكر، ١٤١٥.
- ابن فارس، أحمد. *معجم مقاييس اللغة*. تحقيق عبدالسلام محمد هارون. ٦ ج. ايران - قم: مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٤.

ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم. *الإمامة والسياسة المعروف بتاريخ الخلفاء*. تحقيق علي شيري. ٢ ج. لبنان - بيروت: دار الأضواء، ١٤١٠.

_____. *المعارف*. تحقيق ثروت عكاشة. مصر - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢.

ابن قدامة المقدسي، عبد الله بن أحمد. *روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل*. ٢ ج. د. م.: مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٢.

ابن كثير، اسماعيل بن عمر. *البداية والنهاية*. ١٥ ج. لبنان - بيروت: دار الفكر، ١٤٠٧.

ابن ماجه، محمد بن يزيد. *سنن ابن ماجه*. تحقيق شعيب الأرناؤوط، عادل مرشد، محمد كامل قره بللي، وعبد اللطيف حرز الله. ٥ ج. د. م.: دار الرسالة العالمية، ١٤٣٠.

ابن منظور، محمد بن مكرم. *لسان العرب*. تحقيق جمال الدين ميردامادي. ١٥ ج. لبنان - بيروت: دار الفكر/ دار صادر، ١٤١٤.

_____. *مختصر تاريخ مدينة دمشق*. تحقيق روحية النحاس ورياض عبد الحميد مراد. ٢٩ ج. سوريا - دمشق: دار الفكر، ١٩٨٤.

ابن هشام، عبد الملك. *السيرة النبوية*. تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي. ٢ ج. لبنان - بيروت: دار المعرفة، د. ت.

أبو الجهم الباهلي، علاء بن موسى. *جزء أبي الجهم العلاء بن موسى الباهلي*. تحقيق عبد الرحيم بن محمد القشقري. السعودية - الرياض: مكتبة الرشيد، ١٩٩٩.

أبو الشجاع الديلمي، شيرويه بن شهر دار. *الفردوس بمأثور الخطاب*. تحقيق السعيد بن بسيوي زغلول. ٥ ج. لبنان - بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦.

أبو الشيخ الأصبهاني، عبد الله بن محمد. *العظمة*. تحقيق رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري. ٥ ج. السعودية - الرياض: دار العاصمة، ١٤٠٨.

- أبو الفرج الإصفهاني، علي بن حسين. *الأغاني*. تحقيق مكتب تحقيق دار إحياء التراث العربي. ٢٥ ج. لبنان - بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٥.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث. *سنن أبي داود*. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. ٤ ج. لبنان - بيروت: المكتبة العصرية، د. ت.
- أبو زايد، جمال. «نقض البناء المنهجي لموقف الشيعة من عدالة الصحابة: دراسة نقدية». في مؤتمر: *الصحابة والسنة النبوية*، الأردن - عمان، ٢٠١٢.
- أبو نعيم الأصبهاني، أحمد بن عبد الله. *حلية الأولياء وطبقات الأصفياء*. تحقيق كمال يوسف الحوت. ١ مصر - القاهرة: دار أم القرى، د. ت.
- _____. *معرفة الصحابة*. تحقيق محمد حسن إسماعيل الشافعي ومسعد عبد الحميد السعدني. ٥ ج. لبنان - بيروت: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، ١٤٢٢.
- أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم. *الخراج*. تحقيق طه عبد الرؤوف سعد وسعد حسن محمد. د. م.: المكتبة الأزهرية للتراث، د. ت.
- الأبيار، علي بن إسماعيل. *التحقيق والبيان في شرح البرهان في أصول الفقه*. تحقيق علي بن عبد الرحمن بسام الجزائري. ٤ ج. الكويت: دار الضياء، ٢٠١٣.
- أحمد بن حنبل. *أصول السنة*. السعودية - الخرج: دار المنار، ١٤١١.
- _____. *فضائل الصحابة*. تحقيق وصي الله محمد عباس. ٢ ج. لبنان - بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣.
- _____. *مسند أحمد*. تحقيق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد. ٤٥ ج. لبنان - بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢١.
- أحمد، مهدي رزق الله. *السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية*. دراسة تحليلية. السعودية - الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤١٢.

- احمدى ميانجى، علي. مكاتيب الرسول. ٣ ج. ايران - قم: دار الحديث، ١٤١٩.
- الأهدي، خالد بن محمد بن مبارك. «الإصابة في عدالة الصحابة رضي الله عنهم». مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور ٦، ش. ٥ (٢٠٢٠): ١٢٧ - ٢٥٢.
- الإربلي، علي بن عيسى. كشف الغمة في معرفة الأئمة. تحقيق علي بني هاشمي. ٢ ج. ايران - تبريز: بني هاشمي، ١٣٨١.
- الأزرقى، محمد بن عبد الله. أخبار مكنة وما جاء فيها من الآثار. تحقيق رشدي الصالح ملحق. ٢ ج. لبنان - بيروت: دار الأندلس، د. ت.
- إسماعيل بن عباد. المحيط في اللغة. تحقيق محمد حسين آل ياسين. ١ لبنان - بيروت: عالم الكتب، ١٤١٤.
- الدورى، عبدالعزيز. نشأة علم التاريخ عند العرب. لبنان - بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥.
- الدياربكري، حسين بن محمد. تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس. ٢ ج. لبنان - بيروت: دار صادر، د. ت.
- الآلوسي، محمود شكري. بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب. تصحيح محمود بهجة أثري. ٣ ج. لبنان - بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت.
- الأمدي، سيف الدين. أبكار الأفكار في أصول الدين، تحقيق أحمد محمد مهدي. ٥ ج. مصر - القاهرة: دار الكتب، ١٤٢٣.
- الأميني، عبدالحسين. الغدير في الكتاب والسنة والأدب. ١ ايران - قم: مركز الغدير للدراسات الإسلامية، ١٤١٦.
- الأنصاري، ناجي. تعمير وتوسعه مسجد شريف نبوى. ترجمة عبدالمجيد آيتي. د. م.: نشر مشعر، ١٣٧٨ ش.

- باراني، رضا. «حنيف». در دائرة المعارف قرآن كريم (نسخه آنلاين)، مركز فرهنگ و معارف قرآن، تاريخ المراجعة ٦ آبان ١٤٠٠ ش. <<https://quran.isca.ac.ir/fa/Cyclopedia/240/68340>>
- البحراني، هاشم بن سليمان. البرهان في تفسير القرآن. تحقيق قسم الدراسات الإسلامية مؤسسة البعثة. ٥ ج. ايران - قم: مؤسسة البعثة، ١٣٧٤ ش.
- البخاري، محمد بن إسماعيل. التاريخ الصغير. تحقيق محمود ابراهيم زايد. ٢ ج. لبنان - بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٦.
- _____. صحيح البخاري. تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر. ٩ ج. د. م.: دار طوق النجاة، ١٤٢٢.
- بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل للمدينة المنورة. ٣ ج. السعودية - المدينة المنورة، ١٤١٤.
- البرقي، أحمد بن محمد. المحاسن. تحقيق جلال الدين محدث. ٢ ج. ايران - قم: دار الكتب الإسلامية، ١٣٧١.
- _____. كتاب الرجال. تحقيق حسن مصطفىوي. ايران - طهران: انتشارات دانشگاه تهران/ جامعة طهران، ١٣٤٢ ش.
- بزار، أحمد بن عمرو. البحر الزخار. تحقيق محفوظ الرحمن زين الله، عادل بن سعد، وصبري عبد الخالق. ١٨ ج. السعودية - المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ٢٠٠٩.
- البكري، أحمد بن عبد الله. الأنوار في مولد النبي محمد. تحقيق أحمد روحاني. ايران - قم: الشريف الرضي، ١٤١١.
- البكري، عبد الله بن عبد العزيز. معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع. تحقيق مصطفى السقا. ٤ ج. لبنان - بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٣.
- البلاذري، أحمد بن يحيى. أنساب الأشراف. تحقيق سهيل زكار ورياض الزركلي. ١٣ ج. لبنان - بيروت: دار الفكر، ١٤١٧.

- فتوح البلدان. لبنان - بيروت: دار ومكتبة الهلال، ١٩٨٨.
- البیهقي، أحمد بن حسین. السنن الکبری. ١٠ ج. لبنان - بيروت: دار الفكر، د. ت.
- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة. تحقيق عبد المعطي قلعجي. ٧ ج. لبنان - بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٥.
- ترحيني، محمد أحمد. المؤرخون والتاريخ عند العرب. لبنان - بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت.
- الترمذي، محمد بن عيسى. الجامع الكبير = سنن الترمذي. تحقيق بشار عواد معروف. ٦ ج. لبنان - بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٨.
- جبران، نعمان محمود، وروضة سحيم حمد آل ثاني. دراسات في تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام. الأردن - أريد: مؤسسة حمادة للخدمات الجامعية، ١٩٩٨.
- الخصاص، أحمد بن علي. أحكام القرآن. تحقيق محمد صادق قمحاوي. ٥ ج. لبنان - بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٥.
- الجهشياري، محمد بن عبدوس. الوزراء والكتاب. تحقيق حسن الزين. لبنان - بيروت: دار الفكر الحديث، ١٩٨٨.
- الجوهري، إسماعيل بن حماد. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية. تحقيق أحمد عبدالغفور عطار. ٦ ج. لبنان - بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٧.
- الجويني، عبدالملك بن عبد الله. البرهان في أصول الفقه. تحقيق صلاح بن محمد بن عويضة. ٢ ج. لبنان - بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧.
- جيولوجية المملكة العربية السعودية. «النشاط البركاني التاريخي». تاريخ المراجعة: ٢٠ / ٣ / ٢٠٢١ م. < shorturl.at/dej13 >
- حاج منوچهری، فرامرز. «حنيف». در دائرة المعارف بزرگ اسلامی. ايران - تهران: مركز دائرة المعارف بزرگ اسلامی، ١٣٩٢ ش.

- الحارثي العاملي، حسين بن عبد الصمد. وصول الخيار إلى أصول الأخبار. تحقيق جعفر المجاهدي وعطاء الله الرسولي. العراق - كربلاء: مجمع الإمام الحسين العلمي، ٢٠١٥.
- حافظ، علي. فصول من تاريخ المدينة المنورة. بلا ملك، ١٤١٧.
- الحاكم نيسابوري، محمد بن عبد الله. المستدرک على الصحيحين. تحقيق مصطفى عبد القادر عطا. ٤ ج. لبنان - بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١١.
- الحاكم نيسابوري، محمد بن عبد الله. معرفة علوم الحديث. تحقيق السيد معظم حسين. لبنان - بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٧٧.
- الحر العاملي، محمد بن حسن. وسائل الشيعة. تحقيق مؤسسة آل البيت عليه السلام. ٣٠ ج. إيران - قم: مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، ١٤٠٩.
- الحربي، أبو اسحاق. كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة. تحقيق حمد الجاسر. السعودية - الرياض: منشورات دار اليمامة، ١٩٦٩.
- الحسكاني، عبيد الله بن عبد الله. شواهد التنزيل لقواعد التفضيل. تحقيق محمد باقر المحمودي. ٣ ج. إيران - طهران: وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، مؤسسة الطبع والنشر، ١٤١١.
- حسن بگي، علي. «عدالت صحابه؛ زمينه ها، پيامدها و نتايج». پژوهش های فلسفی کلامی ١٧ - ١٨، ش. ٥ (١٣٨٢ ش): ٣٠-١٠٥.
- الحسيني الميلاني، علي. استخراج المرام من استقصاء الأفحام. ٣ ج. إيران - قم: انتشارات الحقائق، ١٤٣٢.
- حسيني سمناني، بتول. «خصائص النبي». در دانشنامه جهان اسلام، زیر نظر غلامعلي حداد عادل، ١٥: ٥٤٤ - ٥٤٨. ایران - تهران: بنیاد دائرة المعارف اسلامی، ١٣٩٣ ش.
- الحكيم الترمذي، محمد بن علي. نوادر الأصول في أحاديث الرسول. تحقيق عبدالرحمن عميرة. ٤ ج. لبنان - بيروت: دار الجليل، د. ت.

الحلي، علي بن ابراهيم. *السيرة الحلبية؛ إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون*. ٣ ج. لبنان - بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٧.

الحموي، ياقوت بن عبد الله. *معجم البلدان*. ٧ ج. لبنان - بيروت: دار صادر، ١٩٩٥.
الحميري، عبد الله بن جعفر. *قرب الإسناد*. تحقيق مؤسسة آل البيت ﷺ. إيران - قم: مؤسسة آل البيت ﷺ، ١٤١٣.

خراساني، علي. «شرك». *در دائرة المعارف قرآن كريم (نسخه آنلاين)*، مركز فرهنگ و معارف قرآن، تاريخ المراجعة ١١ آبان ١٤٠٠ ش.

<<https://quran.isca.ac.ir/fa/Cyclopedia/240/78156>>

الحزاز، علي بن محمد. *كفاية الأثر في النص على الأئمة الاثني عشر*. تحقيق عبداللطيف حسيني كوهكمري. إيران - قم: بيدار، ١٤٠١.

خضري، سيد احمد رضا، واحمد فلاح زاده. «نظام حاكم بر بازارهای شبه جزيره در دو زمانه جاهلی وعصر نبوی». *مطالعات تاريخ اسلام* ١٩، ش. ٥ (١٣٩٢ ش): ٩-٤٨.

الخطيب البغدادي، أحمد بن علي. *الكفاية في علم الرواية*. تحقيق أبو عبد الله السورقي وإبراهيم حمدي المدني. السعودية - المدينة المنورة: المكتبة العلمية، د. ت.

_____. *تاريخ بغداد*. تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا. ٢٤ ج. لبنان - بيروت: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، ١٤١٧.

الخطيب، محمد عجاج. *السنة قبل التدوين*. مصر - القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٨٨.
خليفة بن خياط. *تاريخ خليفة بن خياط*. تحقيق أكرم ضياء العمري. دمشق، بيروت: دار القلم، مؤسسة الرسالة، ١٣٩٧.

الخوارزمي، موفق بن أحمد. *المناقب*. تحقيق مالك المحمودي. إيران - قم: جماعة المدرسين في الحوزة العلمية بقم، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤١١.

الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن. *سنن الدارمي*. تحقيق حسين سليم أسد الداراني. ٤ ج. السعودية: دار المغني للنشر والتوزيع، ١٤١٢.

الديلمي، حسن بن محمد. *إرشاد القلوب إلى الصواب*. ٢ ج. إيران - قم: الشريف الرضي، ١٤١٢.
الدينوري، أحمد بن داود. *الأخبار الطوال*. تحقيق عبد المنعم عامر وجمال الدين شيال. إيران - قم: الشريف الرضي، ١٣٦٨ ش.

الذهبي، محمد بن أحمد. *الرواة الثقات المتكلم فيهم بما لا يوجب ردهم*. تحقيق محمد إبراهيم الموصلي. لبنان - بيروت: دار البشائر الإسلامية، ١٩٩٢.

_____. *العبر في خبر من غبر*. تحقيق محمد زغلول. ٤ ج. لبنان - بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٥.

_____. *تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام*. تحقيق عمر عبد السلام التدمري. ٥٢ ج. لبنان - بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤١٣.

_____. *سير أعلام النبلاء*. تحقيق شعيب الأرنؤوط وحسين الأسد. ٢٣ ج. لبنان - بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٣.

الرازي، ابن أبي حاتم. *المجرح والتعديل*. ٩ ج. لبنان - بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٣٧١.
الرامهرمزي، الحسن بن عبد الرحمن. *المحدث الفاضل بين الراوي والواعي*. تحقيق محمد عجاج الخطيب. لبنان - بيروت: دار الفكر، ١٤٠٤.

راميار، محمود. *تاريخ قرآن*. إيران - تهران: مؤسسه انتشارات امير كبير، ١٣٨٤ ش.
الراوندي، سعيد بن هبة الله. *الخرائج والجرائح*. تحقيق مؤسسة الإمام المهدي. ٣ ج. إيران - قم: مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام، ١٤٠٩.

_____. *قصص الأنبياء*. تحقيق غلامرضا عرفانيان يزدي. إيران - مشهد: آستان قدس رضوى، ١٤٠٩.

رمضاني، محمد رمضان. «نقض شبهات معاصرة حول عدالة الصحابي أبي هريرة رضي الله عنه». في مؤتمر: الصحابة والسنة النبوية، الأردن - عمان، ٢٠١٢.

ريشهري، محمد. موسوعة العقائد الإسلامية. ٦ ج. ايران - قم: دار الحديث للطباعة والنشر، ١٤٢٩.

زارع شيرين كندی، محمد. «شرك». در دانشنامه جهان اسلام، زیر نظر غلامعلی حداد عادل، ٢٧: ١٤ - ٢٥. ايران - تهران: بنیاد دائرة المعارف اسلامی، ١٣٩٨ ش.

الزبير بن بكار. الأخبار الموفقيات. تحقيق سامي مكّي العاني. ايران - قم: منشورات الشريف الرضي، ١٣٧٤ ش.

الزبيري، مصعب بن عبد الله. كتاب نسب قريش. تحقيق ليفي بروفنسال. مصر - القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٩.

الزركشي، محمد بن عبد الله. البحر المحيط في أصول الفقه. ٨ ج. د. م.: دار الكتبي، ١٩٩٤.

الزركلي، خير الدين. الأعلام. ٨ ج. لبنان - بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٩.

زرگری نژاد، غلامحسين. تاريخ صدر اسلام (عصر نبوت). ايران - تهران: سازمان مطالعه و تدوين كتب علوم انسانی دانشگاه ها (سمت)، ١٣٨٤ ش.

زرياب خويی، عباس. بزم آورد؛ شصت مقاله درباره تاريخ، فرهنگ و فلسفه. ايران - تهران: انتشارات محمد علی علمی، ١٣٦٨ ش.

_____. سيره رسول الله، از آغاز تا هجرت. ايران - تهران: سروش، ١٣٨٨ ش.

الزحشري، محمود بن عمر. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. تحقيق مصطفى حسين أحمد. ٤ ج. لبنان - بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٧.

_____. ربيع الأبرار ونصوص الأخيار. ٥ ج. لبنان - بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤١٢.

- _____. مقامات الزمخشري. لبنان - بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٥.
- السبحاني، جعفر. الأضواء على عقائد الشيعة الإمامية. إيران - قم: مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، د. ت.
- _____. فروغ ابديت. ويرایش ٣. إيران - قم: بوستان کتاب، ١٣٨٥ ش.
- سبط ابن الجوزي، يوسف بن قزأوغلي. تذكرة الخواص. تحقيق محمد صادق بحر العلوم. إيران - طهران: مكتبة نينوى الحديثة، د. ت.
- السخاوي، محمد بن عبد الرحمن. فتح المغيث بشرح الفية الحديث للعراقي. تحقيق علي حسين علي. ٤ ج. مصر: مكتبة السنة، ٢٠٠٣.
- سعيد بن منصور. سنن سعيد بن منصور. تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي. ٢ ج. الهند: الدار السلفية، ١٤٠٣.
- السفاريني، محمد بن أحمد. لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدررة المضية في عقد الفرقه المرضية. ٢ ج. سوريا - دمشق: مؤسسة الخافقين ومكتبتها، ١٩٨٢.
- السمرقندي، محمد بن أحمد. ميزان الأصول في نتائج العقول. تحقيق محمد زكي عبد البر. قطر: مطابع الدوحة الحديثة، ١٩٨٤.
- السمعاني، منصور بن محمد. قواطع الأدلة في الأصول. تحقيق محمد حسن الشافعي. ٢ ج. لبنان - بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٩.
- السمهودي، علي بن أحمد. خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى. سوريا - دمشق: المكتبة العلمية، ١٣٩٢.
- _____. وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. ٤ ج. لبنان - بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٤.

السهيلي، عبدالرحمن بن عبد الله. *الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام*. تحقيق مجدي بن منصور الشوري. ٤ ج. لبنان - بيروت: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، د. ت.

السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر. *الجامع الكبير=جمع الجوامع*. تحقيق مختار إبراهيم الهائج، عبدالحמיד محمد ندا وحسن عيسى عبدالظاهر. ٢٥ ج. مصر - القاهرة: الأزهر الشريف، ٢٠٠٥.

_____ . *الدر المنثور في التفسير بالملأثور*. ٦ ج. ايران - قم: منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، ١٤٠٤.

_____ . *الزهر في علوم اللغة وأنواعها*. تحقيق فؤاد علي منصور. ٢ ج. لبنان - بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨.

الشاطبي، إبراهيم بن موسى. *الموافقات*. تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان. ٧ ج. د. م.: دار ابن عفان، ١٩٩٧.

الشافعي، محمد بن إدريس. *مسند الإمام الشافعي؛ ترتيب سنجر*. ٤ ج. الكويت: شركة غراس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤.

شراب، محمد محمد حسن. *المعالم الأثرية في السنة والسيرة*. سوريا - دمشق/ لبنان - بيروت: دار القلم - الدار الشامية، ١٤١١.

الشريف الرضي، محمد بن الحسين. *نهج البلاغة*. تحقيق صبحي الصالح. ايران - قم: هجرت، ١٤١٤.

الشريف المرتضى، علي بن الحسين. *أمالى المرتضى: غرر الفوائد ودرر القلائد*. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. ٢ ج. مصر - القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٨٨.

الشعيري، محمد بن محمد. *جامع الأخبار*. العراق - النجف: مطبعة الحيدرية، د. ت..

- الشنقيطي، غالي محمد الأمين. *الدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين*. لبنان - بيروت / السعودية - جدة: مؤسسة علوم القرآن/ دار القبلة للثقافة الإسلامية، ١٤١٣.
- الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم. *الملل والنحل*. تحقيق محمد بدران. ٢ ج. إيران - قم: الشريف الرضي، ١٣٦٤ ش.
- الشهيد الثاني، زين الدين بن علي. *الرعاية في علم الدراية*. تحقيق عبدالحسين بقال. إيران - قم: مكتبة آية الله المرعشي النجفي، ١٤٠٨.
- شهیدی، جعفر. *تاریخ تحلیلی اسلام تا پایان امویان*. ایران - تهران: مرکز نشر دانشگاهی، ١٣٨٥ ش.
- الشيبياني، محمد بن حسن. *الكسب*. تحقيق سهيل زكار. سوريا - دمشق: عبدالهادي حرصوني، ١٤٠٠.
- الصالحى الشامى، محمد بن يوسف. *سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد*. تحقيق عادل أحمد عبدالموجود وعلي محمد معوض. ١٢ ج. لبنان - بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٤.
- الصدوق، محمد بن علي. *الأمالى*. إيران - طهران: كتابچی، ١٣٧٦ ش.
- _____. *التوحيد*. تحقيق هاشم الحسيني. إيران - قم: جماعة المدرسين في الحوزة العلمية بقم، مؤسسة النشر الإسلامى، ١٣٩٨.
- _____. *الخصال*. تحقيق علي اكبر غفاري. ٢ ج. إيران - قم: جماعة المدرسين في الحوزة العلمية بقم، مؤسسة النشر الإسلامى، ١٣٦٢ ش.
- _____. *ثواب الأعمال وعقاب الأعمال*. إيران - قم: دار الشريف الرضي للنشر، ١٤٠٦.
- _____. *علل الشرائع*. ٢ ج. إيران - قم: مكتبة الداوري، ١٩٦٦.
- _____. *عيون أخبار الرضا عليه السلام*. تحقيق علي لاجوردى. ٢ ج. إيران - طهران: نشر جهان، ١٣٧٨.

_____ . كمال الدين وتمام النعمة . تحقيق علي اكبر غفاري . ٢ ج . ايران - طهران : دار الكتب الإسلامية ، ١٣٩٥ .

_____ . مصادقة الإخوان . تحقيق علي الخراساني الكاظمي . العراق - الكاظمية : مكتبة الإمام صاحب الزمان العامة ، ١٤٠٢ .

_____ . معاني الأخبار . تحقيق علي أكبر غفاري . ايران - قم : مؤسسة النشر الإسلامي - مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام ، ١٤٠٣ .

_____ . من لا يحضره الفقيه . تحقيق علي اكبر غفاري . ٤ ج . ايران - قم : جماعة المدرسين في الحوزة العلمية بقم ، مؤسسة النشر الإسلامي ، ١٤١٣ .

الصفار ، محمد بن حسن . بصائر الدرجات في فضائل آل محمد ﷺ . تحقيق محسن بن عباسعلي كوجه باغي . ايران - قم : مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي عليه السلام ، ١٤٠٤ .

الصنعاني ، عبدالرزاق . المصنف . تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي . ١ الهند : المجلس العلمي ، ١٤٠٣ .
_____ . تفسير عبدالرزاق . تحقيق محمود محمد عبده . ٣ ج . لبنان - بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٩ .

ضيف ، شوقي . العصر الجاهلي . مصر - القاهرة : دار المعارف ، د . ت .
الطباطبائي ، محمد حسين . الميزان في تفسير القرآن . ٢٠ ج . لبنان - بيروت : مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، ١٣٩٠ .

_____ . سنن النبي ﷺ . ايران - طهران : كتابفروشي اسلاميه ، ١٣٧٨ ش .
الطبراني ، سليمان بن أحمد . المعجم الأوسط . تحقيق قسم التحقيق بدار الحرمين . ٩ ج . د . م . دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٤١٥ .

_____ . المعجم الكبير . تحقيق حمدي بن عبدالمجيد السلفي . ٢٥ ج . مصر - القاهرة : مكتبة ابن تيمية ، ١٩٩٤ .

_____ . مسند الشاميين . تحقيق حمدي بن عبدالمجيد السلفي . ٤ ج . لبنان - بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٤ .

الطبرسي ، أحمد بن علي . الإحتجاج على أهل اللجاج . تحقيق محمد باقر الخرسان . ٢ ج . إيران - مشهد : نشر المرتضى ، ١٤٠٣ .

الطبرسي ، حسن بن فضل . مكارم الأخلاق . إيران - قم : الشريف الرضي ، ١٤١٢ .
الطبرسي ، فضل بن حسن . إعلام الوری بأعلام الهدى . إيران - طهران : دار الكتب الإسلامية ، ١٣٩٠ .

_____ . مجمع البيان في تفسير القرآن . تحقيق فضل الله يزدي طباطبائي . ١٠ ج . إيران - طهران : ناصر خسرو ، ١٣٧٢ ش .

الطبري الآملي الصغير ، محمد بن جرير . دلائل الإمامة . تحقيق قسم الدراسات الإسلامية مؤسسة البعثة . إيران - قم : بعثت ، ١٤١٣ .

الطبري الآملي الكبير ، محمد بن جرير . المسترشد في إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام . تحقيق أحمد المحمودي . إيران - قم : كوشانپور ، ١٤١٥ .

الطبري الآملي ، محمد بن علي . بشارة المصطفى لشيعته المرتضى . العراق - النجف : المطبعة الحيدرية ، ١٣٨٣ .

الطبري ، أحمد بن عبد الله . ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى . تحقيق أكرم البلوشي ومحمود الأرناؤوط . مصر - القاهرة : مكتبة القدسي ، ١٣٥٦ .

الطبري ، محمد بن جرير . تاريخ الأمم والملوك . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . ١ لبنان - بيروت : دار التراث ، ١٣٨٧ .

_____ . جامع البيان في تفسير القرآن . ٣٠ ج . لبنان - بيروت : دار المعرفة ، ١٤١٢ .

الطوسي ، محمد بن حسن . الأوالي . تحقيق مؤسسة البعثة . إيران - قم : دار الثقافة ، ١٤٠٤ .

_____ . تهذيب الأحكام . تحقيق حسن الخراسان . ١٠ ج . إيران - طهران : دار الكتب الإسلامية ، ١٤٠٧ .

_____ . مصباح المتعبد وسلاح المتعبد . ٢ ج . لبنان - بيروت : مؤسسة فقه الشيعة ، ١٤١١ .
الطوفي الصرصري ، سليمان بن عبد القوي . شرح مختصر الروضة . تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي . ٣ ج . لبنان - بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٧ .
الطيالسي ، أبو داود . مسند أبي داود الطيالسي . تحقيق محمد بن عبد المحسن التركي . ٤ ج . مصر : دار هجر ، ١٤١٩ .

العامري ، يحيى بن أبي بكر . غرر الزمان في وفيات الأعيان . تحقيق محمد ناجي زعبي العمر . سوريا - دمشق : دار الخيزر ، ١٤٠٥ .
عبد الباقي ، محمد فؤاد . المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . مصر - القاهرة : دار الكتب المصرية ، ١٣٦٤ .

عبد السلام ، كريمة . «موقف الفرق الإسلامية من الصحابة رضوان الله عليهم» . في مؤتمر : الصحابة والسنة النبوية ، الأردن - عمان ، ٢٠١٢ .

عبد الغني ، محمد الياس . تاريخ المسجد النبوي الشريف . السعودية - المدينة المنورة ، ١٤١٦ .
العسقلاني ، ابن حجر . الإصابة في تمييز الصحابة . تحقيق عادل أحمد عبد الموجود . ٨ ج . لبنان - بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٥ .

_____ . فتح الباري شرح صحيح البخاري . تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، محب الدين الخطيب ، وعبد العزيز بن باز . ١٣ ج . لبنان - بيروت : دار المعرفة ، ١٣٧٩ .

العسكري ، مرتضى . معالم المدرستين . ٣ ج . إيران - طهران : مؤسسة البعثة ، ١٤١٢ .
العلائي ، صلاح الدين . تحقيق منيف الرتبة لمن ثبت له شريف الصحبة . تحقيق عبد الرحيم محمد أحمد القشقرى . السعودية - الرياض : دار العاصمة ، ١٤١٠ .

- على، جواد. *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام*. ١٠ ج. د. م.: جامعة بغداد، ١٩٩٣.
- العياشي، محمد بن مسعود. *التفسير*. تحقيق هاشم رسولي. ٢ ج. إيران - طهران: مكتبة العلمية الإسلامية، ١٣٨٠.
- العيني، محمود بن أحمد. *نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار في شرح معاني الآثار*. ١٩ ج. قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠٠٨.
- الغزالي، محمد بن محمد. *المستصفى*. تحقيق محمد عبدالسلام عبدالشافي. لبنان - بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٣.
- الفخر الرازي، محمد بن عمر. *التفسير الكبير*. ٣٢ ج. لبنان - بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠.
- _____. *المحصول*. تحقيق طه جابر فياض العلواني. ٦ ج. لبنان - بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٧.
- الفراهيدي، خليل بن أحمد. *كتاب العين*. تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي. ٩ ج. إيران - قم: مؤسسة دار الهجرة، ١٤٠٩.
- الفسوي، يعقوب بن سفيان. *المعرفة والتاريخ*. تحقيق أكرم ضياء العمري. ٣ ج. لبنان - بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠١.
- فهيمى تبار، حميد رضا، ومهدى آذرى فرد. «تأملی در اسناد احاديث ناظر به عدالت صحابه». *تحقيقات علوم قرآن وحديث* ٢٣، ش. ١١ (١٣٩٣ش): ٧٢-١٤١.
- القاضي عياض بن موسى. *ترتيب المدارك وتقريب المسالك*. تحقيق ابن تاووت الطنجي، عبدالقادر الصحراوي، محمد بن شريفة، وسعيد أحمد أعراب. ٨ ج. المغرب - المحمدية: مطبعة الفضالة، ١٩٦٥.

القرطبي، أحمد بن عمر. *المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم*. تحقيق محيي الدين ديب مستو، أحمد محمد السيّد، ومحمود إبراهيم بزّال. ٧ ج. دمشق، بيروت: دار ابن كثير/ دار الكلم الطيب، ١٤١٧.

القرطبي، محمد بن أحمد. *الجامع لأحكام القرآن*. ٢٠ ج. إيران - طهران: ناصر خسرو، ١٣٦٤ ش. القسطلاني، أحمد بن محمد. *المواهب اللدنية بالمنح المحمدية*. ٣ ج. مصر - القاهرة: المكتبة التوفيقية، د. ت.

القمي، علي بن إبراهيم. *تفسير القمي*. تحقيق طيب الموسوي الجزائري. ٢ ج. إيران - قم: دار الكتاب، ١٤٠٤.

الكتاني، محمد عبدالحی. *نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية*. تحقيق عبد الله الخالدي. ٢ ج. لبنان - بيروت: دار الأرقم بن أبي الأرقم، د. ت. كحالة، عمر رضا. *معجم قبائل العرب القديمة والحديثة*. ٥ ج. لبنان - بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٤.

الكراجكي، محمد بن علي. *كنز الفوائد*. تحقيق عبد الله نعمة. ٢ ج. إيران - قم: دار الذخائر، ١٤١٠.

الكردي المكي، محمد طاهر. *التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم*. ٣ ج. لبنان - بيروت: دار خضر، ١٤٢٠.

الكشي، عبدالحميد بن حميد. *المنتخب من مسند عبد بن حميد*. تحقيق صبحي بدري السامرائي ومحمود محمد خليل الصعيدي. مصر - القاهرة: مكتبة السنة، ١٤٠٨.

الكشي، محمد بن عمر. *رجال الكشي* = *اختيار معرفة الرجال المعروف برجال الكشي*. تحقيق حسن المصطفوي. إيران - مشهد: مؤسسه نشر دانشگاه مشهد، ١٤٠٩.

الكفعمي، ابراهيم بن علي. *البلد الأمين والدرع الحصين*. لبنان - بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤١٨.

الكلاعي، سليمان بن موسى. *الإكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء*. تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي. ٤ ج. لبنان - بيروت: عالم الكتب، ١٤١٧.

الكليني، محمد بن يعقوب. *الكافي*. تحقيق علي أكبر الغفاري ومحمد الآخوندي. ٨ ج. إيران - طهران: دار الكتب الإسلامية، ١٤٠٧.

الكوافي الأهوازي، حسين بن سعيد. *الزهد*. تحقيق غلامرضا عرفانيان. إيران - قم: المطبعة العلمية، ١٤٠٢.

كريمي نيا، مرتضى. *سيره پژوهی در غرب*. ١ ج. تهران - إيران: مجمع جهانی تقریب مذاهب اسلامی، معاونت فرهنگی، ١٣٨٦ ش.

المازري، محمد بن علي. *إيضاح المحصول من برهان الأصول*. تحقيق عمار الطالبي. د. م.: دار الغرب الإسلامي، د. ت.

المازندراني، محمد صالح. *شرح أصول الكافي*. تحقيق علي أكبر غفاري. ١٢ ج. إيران - طهران: دار الكتب الإسلامية، ١٣٨٨.

مالك بن أنس. *موطأ الإمام مالك*. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. لبنان - بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٦.

المامقاني، عبد الله. *تنقيح المقال في علم الرجال*. تحقيق محي الدين المامقاني ومحمد رضا المامقاني. ٣٦ ج. إيران - قم: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، ١٤٣١.

المتقي الهندي، علي بن حسام الدين. *كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال*. تحقيق بكري حياي وصفوة السقا. ١٦ ج. لبنان - بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٩.

مجاهد بن جبر. تفسير مجاهد. تحقيق محمد عبدالسلام أبو النيل. مصر - القاهرة: دار الفكر الإسلامي الحديث، ١٩٨٩.

المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي. بحار الأنوار. تحقيق مجموعة محققين. ١١٠ ج. لبنان - بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٣.

_____. مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول. تحقيق هاشم رسولي محلاتي. ٢٦ ج. إيران - طهران: دار الكتب الإسلامية، ١٤٠٤.

المحدث النوري، حسين. مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل. ٢٨ ج. إيران - قم: مؤسسة آل البيت ﷺ لإحياء التراث، ١٤٠٨.

محمودپور، محمد. «حنيف». در دانشنامه جهان اسلام، زیر نظر غلامعلی حداد عادل، ٢٧: ١٤ - ٢٥. إيران - تهران: بنیاد دائرة المعارف اسلامی، ١٣٨٨ ش.

المرتضى العاملي، جعفر. الصحيح من سيرة الإمام علي ﷺ. ٢٠ ج. لبنان - بيروت: المركز الإسلامي للدراسات، ١٤٣٠.

_____. الصحيح من سيرة النبي الأعظم. ٣٥ ج. لبنان - بيروت: دار الحديث، ٢٠٠٧.

المروزي، محمد بن نصر. تعظيم قدر الصلاة. تحقيق عبدالرحمن بن عبد الجبار الفريواني. ٢ ج. السعودية - المدينة المنورة: مكتبة الدار، ١٤٠٦.

المزي، يوسف بن عبدالرحمن. تهذيب الكمال في أسماء الرجال. تحقيق بشار عواد معروف. ٣٥ ج. لبنان - بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٠.

المسعودي، علي بن حسين. إثبات الوصية للإمام علي بن أبي طالب. إيران - قم: انصاريان، ١٤٢٦.

_____. التنبيه والإشراف. تحقيق عبد الله اسماعيل الصاوي. مصر - القاهرة: دار الصاوي،

_____ . مروج الذهب ومعادن الجوهر. تحقيق أسعد داغر. ٤ ج. إيران - قم: دار الهجرة، ١٤٠٩.

مسلم بن الحجاج. صحيح مسلم. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. ٥ ج. لبنان - بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ت.

مصطفى، شاكر. التاريخ العربي والمؤرخون. ٣ ج. لبنان - بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٣.
معمّر بن راشد. جامع معمّر بن راشد؛ الملحق بمصنف عبد الرزاق. تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي.
٢ ج. باكستان: المجلس العلمي، ١٤٠٣.

المفيد، محمد بن محمد. الاختصاص. تحقيق علي أكبر غفاري ومحمود محرمي زرندي. إيران - قم:
المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، ١٤١٣.

_____ . الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد. تحقيق مؤسسة آل البيت عليه السلام. ٢ ج. إيران - قم: المؤتمر
العالمي لألفية الشيخ المفيد، ١٤١٣.

_____ . الإفصاح في الإمامة. إيران - قم: المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، ١٤١٣.

_____ . الأمالي. تحقيق علي أكبر غفاري وحسين استاد ولي. إيران - قم: المؤتمر العالمي لألفية
الشيخ المفيد، ١٤١٣.

_____ . الجمل والنصرة لسيد العترة في حرب البصرة. تحقيق علي مير شريف. إيران - قم: المؤتمر
العالمي لألفية الشيخ المفيد، ١٤١٣.

_____ . الفصول المختارة. تحقيق علي مير شريف. إيران - قم: المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد،
١٤١٣.

_____ . المنفعة. إيران - قم: المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، ١٤١٣.

_____ . تصحيح اعتقادات الإمامية. تحقيق حسين درگاهي. إيران - قم: المؤتمر العالمي لألفية
الشيخ المفيد، ١٤١٣.

مقاتل بن سليمان. تفسير مقاتل بن سليمان. تحقيق عبد الله محمد شحاتة. ٥ ج. لبنان - بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٣.

المقدسي، محمد بن أحمد. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. مصر - القاهرة: مكتبة المدبولي، ١٤١١. المقدسي، مطهر بن طاهر. البدء والتاريخ. ٦ ج. مصر - بورسعيد: مكتبة الثقافة الدينية، د. ت. المقرئ، أحمد بن علي. إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفلة والمتاع. تحقيق محمد عبد الحميد النميسي. ١٥ ج. لبنان - بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٠.

مهدي دامغاني، محمود. «دلائل النبوة». در دانشنامه جهان اسلام، زیر نظر غلامعلي حداد عادل، ١٨: ٣٧ - ٤٠. إيران - تهران: بنیاد دائرة المعارف اسلامی، ١٣٩٣ ش. نادري، محمد. «بررسی تحلیلی حدیث «ارتد الناس بعد النبی ﷺ وسلم الا ثلاثة»». حدیث حوزة ١٥ ش. ٧ (١٣٩٦ ش): ٩٥ - ١١٨.

النراقی، محمد مهدي. تجريد الأصول. ایران - قم: السيد المرتضى، ١٣٨٤ ش. النسائي، أحمد بن شعيب. السنن الكبرى. تحقيق حسين عبد المنعم شلبي وشعيب الأرناؤوط. ١٢ ج. لبنان - بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١.

_____. فضائل القرآن. تحقيق فاروق حمادة. لبنان - بيروت: دار الثقافة، ١٩٩٢. نعيم بن حماد. الفتن. تحقيق سمير أمين الزهيري. ٢ ج. مصر - القاهرة: مكتبة التوحيد، ١٤١٢. النووي، يحيى بن شرف. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج. ١٨ ج. لبنان - بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٢.

النووي، يحيى بن شرف. تهذيب الأسماء واللغات. تحقيق عادل مرشد وعامر غضبان. السورية - دمشق: دار الرسالة العالمية، ١٤٣٠.

النويري، أحمد بن عبد الوهاب. نهاية الأرب في فنون الأدب. ٣٣ ج. مصر - القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي / المؤسسة المصرية العامة، د. ت.

الهاللي، سليم بن قيس. كتاب سليم بن قيس الهاللي. تحقيق محمد انصاري زنجاني خوئيني. ٣ ج. ايران - قم: نشر الهادي، ١٤٠٥.

الهمداني، حسن بن أحمد. صفة جزيرة العرب. اليمن - صنعاء: مكتبة الإرشاد، ١٩٩٠.
الهيتمي، أحمد بن محمد. الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقه. تحقيق عبدالرحمن بن عبد الله التركي وكامل محمد الخراط. ٢ ج. لبنان - بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٧.
_____. تحفة المحتاج في شرح المنهاج. ١٠ ج. مصر: المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٨٣.
الهيتمي، علي بن أبي بكر. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. ١٠ ج. لبنان - بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨.

هيكل، محمد حسين. حياة محمد. مصر - القاهرة: دار المعارف، د. ت.
الواقدي، محمد بن عمر. كتاب المغازي. تحقيق مارسدن جونس. ٣ ج. لبنان - بيروت: مؤسسة الأعلمي، ١٤٠٩.
الوكيع، محمد بن خلف. أخبار القضاة. تحقيق سعيد محمد اللحام. لبنان - بيروت: عالم الكتب، ١٤٢٢.

وكالة الرئاسة العامة لشؤون المسجد النبوي. «عمارة المسجد النبوي».
تاريخ المراجعة: ٧/ ٣/ ٢٠٢١م. <https://wmn.gov.sa/public/?page=page_927618>
يعقوب بن شيبه. مسند عمر بن الخطاب. تحقيق كمال يوسف الحوت. لبنان - بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، ١٤٠٥.

اليقوبي، أحمد بن إسحاق. تاريخ اليعقوبي. ٢ ج. لبنان - بيروت: دار صادر، د. ت.
Ali, Kecia. *The Lives of Muhammad*. Cambridge, Massachusetts: Harvard University Press, 2014.
Arafat, W. N. "New Light on the Story of Banū Qurayẓa and the Jews of Medina." *Journal of the Royal Asiatic Society* 108, no. 2 (1976): 100-7.

- Atiya, A. S. "Kibt." In *Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed. 5:90-95. Leiden: E. J. BRILL, 1986.
- Beeston, Alfred Felix Landon. "Abraha." In *The Encyclop-aedia of Islam*, 2nd ed. 1:102-3. Leiden: E. J. BRILL, 1986.
- Beeston, Alfred Felix Landon, and Irfan Shahid. "Al-Ḥira." In *The Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed. 3:462-3. Leiden-London: E. J. BRILL-LUZA & CO., 1986.
- Braslavi (Braslavski), Joseph, and Leah Bornstein-Makovetsky. "KHAYBAR." In *Encyclopaedia Judaica*, 2nd ed. 12:106-8. United States of America: Thomson-Gale, 2007.
- Brice, William Charles, G. R. Smith, R. D. Burrowes, F. Mermier, and P. Behnstedt. "Al-Yaman." In *The Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed. 11:269-80. Leiden: Brill, 2002.
- Brockelmann, Carl. *History of the Arabic Written Tradition*. Translated by Joep Lameer. 3 vols. Leiden-Boston: Brill, 2017.
- Buhl, Frederick, Annemarie Schimmel, A. Noth, and Trude Ehlert. "Muḥammad." In *The Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed. 7:360-87. Leiden-New York: Brill, 1993.
- Chelhod, Joseph. "Ḳabīla." In *The Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed. 4:334-5. Leiden: E. J. BRILL, 1997.
- Cole, Juan. *Muhammad: Prophet of Peace Amid the Clash of Empires*. New York: Nation Books-eBook, 2018.
- Donner, Fred MacGraw. *Muhammad and the Believers: At the Origins of Islam*. Cambridge, Massachusetts: The Beknap Press of Harvard University Press, 2010.
- Fiey, Jean Maurice. "Naṣārā." In *The Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed. 7:970-3. Leiden-New York: E. J. BRILL, 1993.

- Griffith, Sidney. "Christians and Christianity." In *Encyclopaedia of the Qur'ān*. 1: 307-16. Leiden-Boston-Koln: Brill, 2001.
- Heck, Gene W. "Gold Mining in Arabia and the Rise of the Islamic State." *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 42, no. 3 (1999): 364-95.
- Horovitz, Josef. "The Earliest Biographies of The Prophet and Their Authors(I)." *Islamic Culture* 4, no. 1 (1927): 535-59.
- _____. "The Earliest Biographies of The Prophet and Their Authors (II)." *Islamic Culture* 5, no. 1 (1928): 23-50.
- Hoyland, Robert. "Writing the Biography of the Prophet Muhammad: Problems and Solutions." *History Compass* 5, no. 2 (2007): 581-602.
- Jabali, Fuad. *The Companions of the Prophet: A Study of Geographical Distribution and Political Alignments*. 1 vols. Leiden: Brill, 2003.
- Jeffery, Arthur. *The Foreign Vocabulary of the Qur'ān*. Edited by Gerhard Böwering and Jane Dammen McAuliffe. Texts and Studies on the Qur'ān 3. Leiden-Boston: Brill, 2007.
- Kritzeck, James, A. Jamme, Jean Starcky, A. J. Jamme, J. A. Devenny, and B. H. Zedler. "ARABIA." In *New Catholic Encyclopedia*, 2nd ed. 1:609-23. United States of America: Thomson-Gale, 2003.
- Lecker, Michael. "On the markets of Medina (Yathrib) in Pre-Islamic and early Islamic times (reprinted with corrigenda)." *Islamic Banking and Finance: Critical Concepts in Economics* 1 (2010): 96-185.
- _____. "Qaynuqā', Banū." In *Encyclopaedia Judaica*, 2nd ed. 16:760. United States of America: Thomson-Gale, 2007.

- _____. "The Levying of Taxes for the Sassanians in Pre-Islamic Medina." In *Jerusalem Studies in Arabic and Islam* 27 (2002): 109-25.
- _____. "Arab deities." In *The Encyclopaedia of Islam*, 3d ed. Leiden: Brill, 2021.
- Motzki, Harald. *Hadith*. 1 vols. Aldershot: Routledge, 2016.
- Muranyi, Miklos. "Ṣaḥāba." In *The Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed. 8:827-9. Leiden: E. J. BRILL, 1995.
- Osman, Amr. "‘Adālat al-Ṣaḥāba: The Construction of a Religious Doctrine." In *Arabica* 60, no. 3/4 (2013): 272-305.
- Raven, W. "Sīra." In *The Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed. 9:660-3. Leiden: Brill, 1997.
- Rentz, G. "Al-Ḥidjāz." In *The Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed. 3:362-4. Leiden-London: E. J. BRILL-LUZA & CO., 1986.
- _____. "Djazīrat al-‘Arab." In *The Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed. 1:533-56. Leiden: E. J. BRILL, 1986.
- Rosenthal, Franz. *A History of Muslim Historiography*. 2nd ed. 1 vols. Leiden: E. J. BRILL, 1968.
- Rubin, Uri. *The life of Muhammad*. Aldershot: Ashgate, 1998.
- _____. "Hanif." In *Encyclopaedia of the Qur’ān*. 2: 402-4. Leiden-Boston: Brill, 2002.
- Ruthven, Malise, and Azim Nanji. *Historical Atlas of the Islamic World*. United States of America: Thomson-Gale, 2004.
- Salahi, Adil. *Muhammad: His Character and Conduct*. Markfield, Leicestershire: The Islamic Foundation, 2013.

- Sezgin, Fuat. *Geschichte Des Arabischen Schrifttums*. 8 vols. Leiden: Brill, 1967.
- Sluglett, Peter, and Andrew Currie. *Atlas Of Islamic History*. London-New York: Routledge, 2014.
- Spector, Johanna. "Yemen." In *Encyclopaedia Judaica*, 2nd ed. 21:302-12. United States of America: Thomson-Gale, 2007.
- Stillman, Norman. "Yahūd." In *The Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed. 11:239-42. Leiden: Brill, 2002.
- Tobi, Yosef. "Hejaz." In *Encyclopaedia Judaica*, 2nd ed. 8:775. United States of America: Thomson-Gale, 2007.
- Vaglieri, Laura Veccia. "Khaybar." In *The Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed. 4:1137-43. Leiden: E. J. BRILL, 1997.
- Watt, William Montgomery. "Ḥanīf." In *The Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed. 3:165-6. Leiden-London: E. J. BRILL-LUZA & CO., 1986.
- _____, Arent Jan Wensinck, Clifford Edmund Bosworth, Richard Bayly Winder, and D.A. King. "Makka." In *The Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed. 6:144-87. Leiden: E. J. BRILL, 1991.
- Winder, Richard Bayly. "Al-Madina." In *The Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed. 5:994-1007. Leiden: Brill, 1986.

الفهرس التفصلي

كلمة المركز.....	٣
المقدمة.....	٥
التسلسل الزمني حياة النبي الأكرم ﷺ.....	١٥

القسم الأول: سيرة رسول الله ﷺ

الجزيرة العربية قبل الإسلام.....	٢١
الجغرافيا التاريخية للجزيرة العربية.....	٢١
جغرافية الحجاز.....	٢٦
مُدن الحجاز.....	٢٧
مكة.....	٢٧
يثرب.....	٣١
الطائف.....	٣٢
خير.....	٣٣
النظام الاجتماعي والثقافي في الحجاز.....	٣٤

٣٥	القبيلة وتقاليدها
٣٧	الثقافة والعلوم
٤٠	اقتصاد الحجاز
٤٢	الأديان في الحجاز
٤٢	الحنيفية
٤٦	عبادة الأصنام (الشرك)
٤٩	اليهودية
٥١	المسيحية
٥٤	المكانة الاجتماعية لأسرة النبي ﷺ في مكة
٥٧	من المولد إلى المبعث
٥٧	ولادة النبي ﷺ ونشأته
٥٩	واقعة أصحاب الفيل
٦٢	مرحلة الشباب
٦٢	الزواج من السيِّدة خديجة ﷺ
٦٤	حلف الفضول
٦٦	إعادة بناء الكعبة
٦٩	من المبعث إلى الهجرة
٦٩	المبعث النبوي
٧١	الدعوة الخاصة (إنذار العشيرة)
٧٣	الإسراء والمعراج
٧٥	ولادة السيِّدة فاطمة ﷺ
٧٥	الدعوة العامة للإسلام واضطهاد المسلمين في مكة
٧٧	الهجرة إلى الحبشة

٧٨	موقف المشركين وملاحقة المهاجرين
٨١	إسلام حمزة ؓ
٨٢	مقاطعة المسلمين في شعب أبي طالب
٨٤	نقض الصحيفة
٨٥	عام الحزن
٨٥	الرحلة إلى الطائف
٨٧	من الهجرة إلى فتح مكة
٨٧	مقدمات الهجرة إلى المدينة
٨٧	بيعة العقبة الأولى
٨٨	بيعة العقبة الثانية
٨٩	المؤاخاة الأولى
٨٩	هجرة المسلمين إلى المدينة
٩٠	دار الندوة
٩٠	ليلة المبيت وبداية الهجرة
٩١	قريش في طلب النبي ﷺ
٩٣	هجرة أمير المؤمنين ؓ
٩٣	مسجد قباء: أول مسجد في الإسلام
٩٤	بناء المسجد النبوي الشريف
٩٥	المؤاخاة الثانية
٩٦	تحويل القبلة إلى الكعبة
٩٧	بدر: أول الغزوات
٩٨	المجلس الاستشاري الحاسم

٩٩	موازين القوى والجغرافيا
١٠١	المواجهة بين الجيشين
١٠٢	نزول الملائكة في بدر
١٠٢	خسائر الطرفين وأضغان قريش
١٠٣	قسمة الغنائم
١٠٤	التعامل مع أسرى الحرب
١٠٤	زواج علي وفاطمة ﷺ
١٠٥	المواجهة مع يهود بني قينقاع
١٠٦	غزوة أُحُد
١٠٧	زحف قريش نحو أُحُد
١٠٨	وصول الخبر إلى المدينة
١٠٨	المشركون على مشارف المدينة
١٠٩	مشورة الأصحاب
١١٠	انخدال المنافقين
١١١	اندلاع المعركة
١١٥	غزوة حمراء الأسد
١١٦	غزوة بني النضير
١١٧	غزوة الأحزاب (الخندق)
١١٨	الشورى العسكري في المدينة
١١٩	التعبئة العامة وتنظيم الدفاعات
١٢١	المناورات العسكرية وتبادل الرشق
١٢٢	اقتحام الخندق

١٢٢.....	تحدي عمرو ووبروز علي ؑ
١٢٤.....	مواجهة الإسلام كله للشرك كله
١٢٦.....	دعاء النبي ؑ وابتهاله
١٢٦.....	نهاية المعركة
١٢٨.....	العودة إلى المدينة
١٢٩.....	بنو قريظة: المواجهة الثانية مع اليهود
١٣٢.....	صلح الحديبية
١٣٣.....	المنافقون في الحديبية
١٣٥.....	صلاة الخوف
١٣٦.....	في الحديبية
١٤١.....	وثيقة الصلح
١٤٣.....	صلح الحديبية: أعظم الفتح
١٤٤.....	ثمار الصلح ونتائجه
١٤٦.....	رسائل النبي ؑ إلى الملوك
١٤٧.....	رسالة النبي ؑ إلى كسرى
١٤٨.....	رسالة النبي ؑ إلى قيصر الروم
١٤٩.....	رسالة النبي ؑ إلى المقوقس عظيم القبط
١٥٠.....	فتح خيبر
١٥٣.....	إسلام الراعي الحبشي
١٥٤.....	فتح القموص
١٥٧.....	عودة المهاجرين من الحبشة
١٥٨.....	عمرة القضاء

١٦١	معركة مؤتة
١٦٥	من فتح مكة إلى الوفاة
١٦٥	فتح مكة
١٦٩.....	نحو مكة
١٧٦.....	الاستعراض العسكري ودخول مكة
١٧٨.....	طواف النصر
١٧٩.....	خطبة الفتح وإعلان العفو العام
١٨٠.....	البيعة العامة للنبي ﷺ
١٨١	غزوة حُنين
١٨٢.....	جواسيس مالك
١٨٢.....	بداية المعركة
١٨٤	غزوة الطائف
١٨٥.....	حصار الطائف
١٨٧.....	ترك حصار الطائف
١٨٩	واقعة سدّ الأبواب
١٩٠	واقعة المباهلة
١٩٢	غزوة تبوك
١٩٤	أصحاب العقبة ومؤامرة اغتيال النبي ﷺ
١٩٦	مسجد الضّرار
١٩٧	تبليغ سورة براءة
١٩٩	إبراهيم ابن النبي ﷺ
٢٠٠	إسلام القبائل اليمنية
٢٠٣	حجّة الوداع

٢٠٤.....	خطبة منى
٢٠٥	واقعة الغدير
٢٠٩.....	سورة المعارج
٢٠٩	جيش أسامة
٢١١	رزية يوم الخميس
٢١٢	وفاة النبي ﷺ
٢١٣.....	تجهيز النبي ﷺ ودفنه
٢١٦	اجتماع السقيفة
٢١٩.....	الإعتراضات على خلافة أبي بكر

القسم الثاني: المقالات

٢٢٥	١ . مصادر السيرة النبوية
٢٢٥	مقدمة في التدوين التاريخي الإسلامي
٢٢٨.....	مدرسة المدينة (من القرن الأول حتى أواخر القرن الثالث الهجري)
٢٣٠.....	مدرسة الشام (من منتصف القرن الأول إلى أوائل القرن الرابع الهجري)
٢٣٢.....	مدرسة العراق (من منتصف القرن الثاني حتى القرن السابع الهجري)
٢٣٤	المصادر الأولية للسيرة النبوية
٢٣٤.....	أولاً: القرآن الكريم
٢٣٥.....	ثانياً: الأحاديث
٢٤٠	المصادر التاريخية
٢٤٠.....	كتب السير والمغازي
٢٤٢.....	كتب التاريخ العام

٢٤٤.....	كتب التاريخ العالمي
٢٤٦.....	كتب الجغرافيا
٢٤٩.....	كتب الطبقات والتراجم والأنساب
٢٥٤.....	المصادر الأدبية
٢٥٧.....	٢. روايات في أوصاف النبي ﷺ وأحواله وسُنَّته
٢٥٧.....	شمائله ﷺ وجوامع أخلاقه
٢٦١.....	حُسن معاشرته ﷺ مع الناس
٢٦٥.....	آدابه ﷺ في الطيب والتجمل
٢٦٦.....	آدابه ﷺ في السفر
٢٦٧.....	صفة لباسه وخاتمه ﷺ
٢٦٧.....	آداب نومه ويقظته ﷺ
٢٦٨.....	سُنَّته ﷺ في الزواج وأولاد
٢٦٨.....	آدابه ﷺ في الأكل والشرب
٢٧٠.....	آدابه ﷺ في العبادات
٢٧٥.....	٣. أدوار علم الكلام عند الإمامية: الدور النبوي (١٣ ق هـ - ١١ هـ)
٢٧٩.....	المبحث الأول: الإلهيات ومباحث التوحيد
٢٧٩.....	١. معرفة الله تعالى وإثبات ذاته
٢٨٤.....	٢. التوحيد
٢٩١.....	المبحث الثاني: العدل
٢٩٢.....	أولاً: العدل
٢٩٣.....	ثانياً: القضاء والقدر
٣٠١.....	ثالثاً: الشرور
٣٠٢.....	رابعاً: الأسماء والأحكام

المبحث الثالث: النبوة.....	٣٠٦
١ . البعثة والدعوة إلى الله	٣٠٨
٢ . الوحي وجبرائيل ؑ	٣١٠
٣ . الاصطفاء الإلهي	٣١١
٤ . ادعاء النبوة	٣١٢
٥ . الخاتمة	٣١٢
٦ . النبي ﷺ وأهل الكتاب	٣١٤
المبحث الرابع: الإمامة	٣١٥
الطائفة الأولى: معرفة الإمام	٣١٧
الطائفة الثانية: عدد الأئمة	٣١٧
الطائفة الثالثة: خلافة أمير المؤمنين ؑ	٣١٨
الطائفة الرابعة: الروايات المهدوية	٣١٩
المبحث الخامس: المعاد	٣٢٠
١ . التأكيد على وجود عالم آخر ولزوم الاستعداد له	٣٢١
٢ . القبر	٣٢٢
٣ . البعث والحساب	٣٢٢
٤ . الشفاعة	٣٢٣
٥ . الخلود	٣٢٤
٤ . صحابة رسول الله ﷺ وعدالتهم	٣٢٥
الصحابة في منظور أهل السنة	٣٢٧
تعريف الصحابة	٣٢٧

٣٢٨.....	مكانة الصحابة
٣٢٩.....	كتب التراجم وفضائل الصحابة
٣٣٠.....	عدالة الصحابة من منظور أهل السنة
٣٣١.....	التطور التاريخي لنظرية عدالة الصحابة
٣٣٤.....	أدلة أهل السنة على عدالة الصحابة
٣٥١.....	آثار نظرية عدالة الصحابة
٣٥٤.....	موقف الشيعة من عدالة الصحابة
٣٦٣.....	٥. إطلالة على تاريخ المسجد النبوي الشريف
٣٦٤.....	بناء المسجد وخصائصه العمرانية
٣٦٨.....	معالم الحرم النبوي الشريف
٣٦٨.....	محراب المسجد
٣٦٩.....	المنبر والروضة الشريفة
٣٧٠.....	أبواب المسجد
٣٧٠.....	أساطين المسجد
٣٧٣.....	توسعة المسجد النبوي عبر التاريخ
٣٧٣.....	خلافة عمر بن الخطاب
٣٧٤.....	خلافة عثمان بن عفان
٣٧٥.....	العهد الأموي
٣٧٥.....	العهد العباسي
٣٧٦.....	العهد المملوكي
٣٧٨.....	العهد العثماني
٣٧٨.....	العهد السعودي

القسم الثالث: مختارات من الأحاديث النبوية

العقل	٣٩١
التفكر، العلم والحكمة	٣٩٣
الإيمان	٣٩٥
الدنيا، وطول الأمل، والقناعة	٣٩٨
كسب المعيشة وطلب الرزق الحلال	٤٠٢
حُسن الخلق ومداواة الناس	٤٠٣
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	٤١٢
السخاء والبخل	٤١٣
الأسرة والأولاد	٤١٣
العبادة	٤١٥
البلايا والمصائب	٤١٦
حقوق الحيوان	٤١٧
المصادر	٤١٩
الفهرس التفصلي	٤٥١

يُعدُّ هذا الكتاب طليعةً سلسلةٍ من المؤلفات التي يجري إعدادها بهدف تعزيز إمام الجيل الشاب والمثقف بتاريخ المعصومين عليهم السلام ومعارفهم. وقد سعينا في تدوين هذه السلسلة، قَدَر استطاعتنا، إلى تقديم سردٍ موجزٍ وشيقٍ، يتناسب مع عقلية المتلقي المعاصر ولغته، مستندين في ذلك إلى المصادر المعتبرة والمنهج العلمي. وقد خُصَّص هذا المجلد لِيُقَدِّم في ثلاثة أقسام: سيرة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، والمقالات، ومختارات من الأحاديث النبوية الواردة في المصادر الشيعية.
